نشوء الإنسان وتطوره



سليم الجابي

ماجستير في علم الأديان المقارن

نشوء الإنسان

خلقه وتطوره

سليم الجابي

الطبعة الأولى
٢٠٠٠

طبع من هذا الكتاب
٢٠٠٠ نسخة

العمليات التقنية والفنية
النبلاء للخدمات الإعلانية
٢٧٧٣٢٢٨

الطباعة
نضر لفنون الطباعة الحديثة
٢٣١٢٣٦٣

العنوان البريدي للمؤلف
ص.ب ٥٤٢٥
دمشق - سورية
٢٧٧٤١١٣

- تجدون كل المعلومات المتعلقة بسلسلة مؤلفات المفكر سليم الجابي على العنوان الالكتروني على شبكة الانترنت العالمية:

http://www.syrianobles.com/saleem.htm

- يتلقى المؤلف برحابة صدر كل الانتقادات والآراء والاستفسارات على البريد الالكتروني:

saleem@syrianobles.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

ألا إنَّ بقاءَ الأمَّةِ واستمراريَّة حياتها مرتبطٌ إلى حدٍّ كبيرٍ بموضوعٍ مُحافظةِ كُلِّ فردٍ من أفرادِ هذه الأمَّةِ على تُراثها الحضاريِّ، ليسَ بعقليَّةٍ تقليديَّةٍ، ولكن بعقليَّةٍ مُنفتحةٍ على العصرِ الّذي يعيشُ فيهِ هذا الإنسانُ وقائمةٍ على أُسلوبٍ عقلانيٍّ علميٍّ. سعياً وراءَ تصحيحِ ما ورثَهُ عن أجداده من تراث تفرضهُ الحقائقُ الثّابتةُ المُستجدَّةُ في عصره. وإنَّها لَحكمةٌ سليمةٌ دفعتني إلى البحثِ ولتصحيحِ ما توارثناهُ بما يتعلّقُ بنُشوءِ الإنسانِ وتطوُّرِهِ عبرَ الزّمان، وانتهيتُ من ذلكَ كُلِّهِ إلى تفريغِ تلكَ المعلوماتِ في هذا الكتابِ الّذي سمَّيتُهُ (نُشوءُ الإنسان وتطوُّره). وقد استقيتُ معلوماتَهُ ممّا أفادَنا بهِ

العلمُ الحديثُ من جهةٍ وممّا اتّضحَ لي من مُعطَياتِ كتابِ اللّهِ العزيزِ وهو هذا القُرآنُ العظيم.

فنحنُ تَوارَثنا من خلالِ ما وصَلنا من تفاسيرِ القرآنِ الكريمِ كتفسيرِ الفخرِ الرّازي وغَيرُه من التّفاسيرِ الّتي يرجعُ إليها المسلمونَ في عصرنا، ومن كُتُبِ التّاريخِ كالطّبري وغيرُه من كُتُبِ التّاريخِ الّتي هي بينَ أيدينا، أقولُ إنّنا توارثنا بما يتعلّقُ بموضوعِ نُشوءِ الإنسانِ على سطحِ كُرتنا الأرضيّة أنّهُمْ كانوا قد أجمعوا إلى حدٍّ كبيرٍ على فكرةِ أنَّ جميعَ البشرِ توالدوا من آدمَ الّذي كانَ قد خلقهُ ربُّهُ مُباشرةً ومنذُ ما بينَ ستّة إلى ثمانيةِ آلافِ عامٍ وعلى حسبِ ما زعموه . ولذلكَ نسمعُ من عامَّةِ النّاسِ إذا وردَ على لِسانِهم اسمُ آدم يقولونَ (أبونا آدم).وهذه المقولَةُ دفعَ إليها ما تضمَّنتهُ كُتُبُ التُّراثِ وعلى حسبِ ما ذكرتُهُ آنفاً.

وكانَ علينا أن نتساءلَ عن مدى صحَّةِ ما توارثناهُ من هذه المعلوماتِ وذلكَ بالرُّجوعِ إلى تدبُّرِ آياتِ كتابِ اللّهِ العزيزِ وعلى ضوءِ مُعطياتِ (حقائق) كشفَ عنها العلمِ

الحديثُ أيضاً وبأسلوب مَنهجيٍّ وأصوليّ. فهلْ صحَّ ما توارثناهُ ؟ وما مدى تَطابقهُ مع الحقيقةِ الّتي كشفَ عنها العلمُ الحديث ؟

فلقد أثبتَتِ الحفريّاتُ الّتي ابتدأت منذ منتصفِ القرنِ التّاسعِ عشرَ بحثاً عن آثارِ هذا الإنسان من بقايا جماجمِهِ وعظامه،والّتي قامَ بها المُنقّبونَ في مُختلفِ أقطار العالم أقولُ قد أثبتتْ تلك المُستحاثّاتُ بعد دراستها وبعدَ تقديرِ أعمارها على أنَّ تاريخَ وجودِ هذا الإنسانِ يعودُ إلى ملايينِ سنواتٍ مضت على وُجودهِ على سطحِ كرتنا الأرضيَّة. فوجودُ هذا الإنسان إذن قديمٌ وقديمٌ جدًّا. وليسَ بصحيحٍ ما أوردتُه تلك الكتب من أنَّ وُجودَ الإنسان يرجعُ إلى ثمانيةِ آلاف من السّنين مضت. ومن هنا بدأت المُشكلة. فتساءَلتُ عن السَّببِ الّذي أوقعَ أجدادنا فيما ورَّثونا إيّاهُ من فهمٍ ومعلومات؟

والّذي تبيَّنَ لي هو أنَّ المفسّرينَ القدماء رحمهمُ اللّه تعالى قد فسَّروا قصَّةَ آدمَ القُرآنيَّة بما وصلتهُم من رواياتٍ تسبَّبَ بانتشارها بينَ صفوفِ المسلمين ما كانَ يبثُّهُ اليهودُ من

أفكارِ مُعطياتِ سفرِ التّكوينِ وهو أوّلُ أسفارِ كتابِهم الّذي يقدّسونه والمسمّى بالعهدِ القديم. السِّفرُ الّذي صوّرَ فيهِ كاتبُهُ أنَّ اللّهَ تعالى خلقَ آدمَ وحوّاءَ قبلَ قُرابةِ عدّةِ ألوفٍ من السّنوات. فقد فسَّرَ المفسِّرونَ المسلمونَ الآياتِ الّتي تكلّمت عن آدم بمعطياتِ ما ذكرناه وظنّاً منهُم أنَّ القصّتين سواءً التّوراتيّةُ منهما والقُرآنيّةُ واحدةٌ في الكتابين المُقدَّسين. فتساءلتُ في حديثِ نفسي: هل صدقَ ظنُّ أولئك المفسّرين؟

فتبيَّنَ لي نتيجةً لتدبُّري الآياتِ القرآنيَّة الّتي أوردت قصَّةَ آدم أنّها تختلفُ في مُعطياتها وحقائقها اختلافاً جذريّاً عمّا أفادتْ به قصَّةُ آدم التّوراتيّة. فما هي أهمُّ وأبرزُ تلكَ الاختلافات؟؟

أوّلاً-تبيَّنَ أنّهُ على حينِ استعملَ كاتبُ سفرِ التكوين كلمتي: (جبلَ.. نحتَ..). فإنَّ الآياتِ القرآنيّة كانت تستعملُ في مُقابلِ الكلمتين المذكورتين كلمتي: (جعلَ .. خليفة..)، علماً بأنَّ الجعلَ هو التّصييرُ وأنَّ كلمةَ خليفة تستعملُ لِغيبةِ المُستخلَفِ عليه. فهذا ما أفادنا به صاحبُ معجم (محيط

المحيط). وعليه ففي حين تدل كلمتا (جبل ونحت) على بـدء صنع شيء ما. فإن كلمتي (جعل وخليفة) يستفاد منهما دلالتهما على وجود بشر سابق لعملية جعل خليفة. وعليه فإن آدم ما كان أول بشر عرفه كوكبنا الأرضي، بل كان أول نبي بعثه الله تعالى من بين البشر الذين عاصر وجوده وجودهم. وهذا ما دلت عليه أيضا الآية (٣٣) من سورة آل عمران التي قال تعالى فيها: ﴿**إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين.**﴾.

بل وإن الآية الحادية عشرة من سورة الأعراف صرحت بأن الخالق كان قد مرر هذا البشر قبل اصطفائه آدم من بينهم، مررهم بأدوار زمنية غير محددة لتطوير وإكمال ملكاتهم العقلية حيث قال تعالى فيها: ﴿**ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين**﴾ . كذلك قسم هذا القرآن الكريم تاريخ البشر إلى (المستقدمين) وهو بشر ما قبل التاريخ. وإلى (المستأخرين) وهم بشر ما بعد بعثة آدم. وهو

تقسيمٌ يتّفقُ وتقسيمَ التّاريخِ الحديثِ. كذلكَ نبّهتِ الآياتُ القرآنيّةُ إلى أنّ البشرَ (المستقدمين) كانوا يتّخذونَ الكهوفِ ملجأً لهمْ وذلكَ قبلَ بعثةِ آدمَ عليهِ السّلام وقد عبّرَ تعالى عن هذه الحقيقةِ وقال بحق إبليسَ (كانَ من الجنّ) أي ممّن يتخفّونَ في الكهف. وأنّ طبيعةَ الواحدِ منهمْ كانت أقرب إلى الغريزيّةِ وردودِ الأفعال لذلك شبّهها اللّهُ تعالى بقوله: (من نارِ السَّموم) وهو تشبيهٌ بليغ. وهذه المعلوماتُ جميعها تضمَّنتها الآياتُ من سورةِ الحجر. وهكذا اختلفت مُعطياتُ قصّةِ آدمَ القُرآنيّة عن مُعطياتِ قصّةِ آدمَ المرويّةِ في سفرِ التّكوينِ. وتجدُ أيُّها القارئُ تفصيلاتِ ذلكَ كُلّهِ في الفصلِ الثّاني من هذا الكتاب.

ثانياً–وقد تبيّنَ لي وجودُ اختلافِ جوهريٍّ ثانٍ فيما يتعلّقُ بأوصاف الذّات الإلهيّةِ الّتي يصفها بها كلا الكتابان القرآنُ وسفر التّكوين من التّوراة المُعاصرة، وقد وضّحتُ ذلكَ بنُصوصٍ مُستقاةٍ منهما أيضاً.

ثالثاً- كذلكَ تبيَّنَ لي وجودُ اختلاف جوهريٍّ ثالثٍ بما يتعلّقُ بموضوعِ خلقِ هذا الكونِ حسبما وَرَدَ في كُلٍّ منهما أيضاً. وأنَّ هذا القرآنَ يفيدُنا بمعلوماتٍ تتَّفقُ ومُعطياتِ العلومِ الحديثةِ. على حينِ أنَّ سفرَ التّكوين يفيدنا بمعلوماتٍ تتنافى ومُعطياتِ العلمِ الحديث.

رابعاً- كذلكَ تبيَّنَ لي أنَّ الّذي يُطالعُ قصَّةَ آدم في سفر التَّكوين يشعرُ وكأنَّهُ يُطالعُ أسطورةً مُسلّيةً. على حينِ أنَّ الّذي يتدبَّرُ مضمونَ قصَّةِ آدمَ الواردة في القرآنِ الكريمِ تتراءى لهُ من خلالِ صياغتها البلاغيَّةِ معالُم حقائقَ تاريخيَّةٍ ثابتة. وقد أتيتُ على شرحِ ذلكَ كُلِّهِ في محلِّهِ من هذا الكتاب.

خامساً- والّذي يدعو للاستغراب أنْ يلعنَ (الإله) الّذي تُصوِّرُه لنا قصَّةُ آدمَ الواردة في سفر التَّكوين، أن يلعنَ كرتنا الأرضيَّةَ ويُسمّيها (ملعونةً). على حين أنَّ (اللّه) الّذي أنزلَ هذا القُرآنَ الكريمَ يُصوِّرُ لنا كُرتنا الأرضيَّةَ على أنَّهُ تعالى قد جعلها (مُباركة). قد باركَ فيها أقواتَها. وإنَّهُ لفرقٌ جوهريٌّ خامسٌ واضحُ الأبعادِ أيضاً.

من هذا كُلّهِ تُدركُ يا قارئي العزيز مدى تأثّر كتبُ مفسِّريّ أمّتنا القدماء بمُعطيات سفرِ التّكوينِ المذكور والّذي اعترفتْ جمعيّاتُ الكتاب المُقدّسِ في مقدّمةِ (العهدِ القديم) وهو طباعةُ بيروت عام (١٩٨٩) ميلادي بأنّ جميعَ أسفارِ العهدِ القديمِ المذكور قد كتبها كُتّابٌ بشرٌ، وما هي بتنزيلٍ كالقرآنِ الكريم. وهو حقيقةٌ قد أتيتُ على ذكرها أيضاً في هذا الفصلِ الثّاني من هذا الكتاب.

أمّا الفصلُ الثّالثُ فقد أعطيتُ هذا القارئَ فيه فكرةً مُجملةً عن العلومِ الحديثةِ المُعاصرةِ الّتي نبّهنا هذا القرآنُ الكريمُ إلى ضرورة الأخذِ بما انكشفَ على عُلَمائها من حقائقَ لا تقبلُ الردَّ ولا التّأويل. ووضّحتُ هناكَ بالدّليلِ كيفَ أنَّ الحقائقَ العلميَّةَ تخدُمُ الفكرَ القُرآنيَّ.

فلمّا كانَ علمُ (المستحاثّات) هو العلمُ الّذي اختصَّ عُلماؤُه بموضوعِ الكشفِ عن تاريخِ نُشوءِ هذا الإنسان. وهم الّذينَ أشرفوا على عمليّاتِ الحفريّاتِ الّتي زوّدتْهُم ببقايا جماجمٍ وعظامٍ إنسانيّةٍ وغيرها من بقايا البشرِ القديم وهم

الّذينَ ثبتَ لهُم من خلالِ المعلوماتِ التّي أمدَّتْهم بهـــا تلــكَ المستحاثّاتِ بأنَّ وُجودَ البشرِ على سطحِ كوكبنا الأرضـــيِّ قديمٌ جدًّا ويعودُ إلى ملايينِ السنين. فقد خصَّصتُ الفصـــلَ الرّابعَ من هذا الكتابِ لِتوضيحِ هذه الحقيقةِ إلى جانبِ مـــا وضَّحتُهُ للقارئِ من معلوماتٍ تتَّصلُ بتاريخِ نُشـــوءِ العلـــم المذكورِ وبسلبيّاتهِ وبإيجابيّاتِه.

ولم أكتفِ بذلكَ، بل قُمتُ بعمليَّةِ إعادةِ النَّظرِ بمـــا تَوارثناهُ من تفاسيرِ الآياتِ المُتعلِّقةِ بتاريخِ نُشـــوءِ الإنســـانِ، فتدبَّرتُها من جديدٍ وبأصولِ تفسيرِها فتبيَّنَ لي أنَّ مُعطياتها تتّفقُ ومُعطياتِ العلمِ الحديثِ المُشارِ إليه. حتّى أنَّ الآيـــاتِ القرآنيَّة من سورةِ (الانفطار) أنبأتْ عـــن ظُـهورِ (علـــم المستحاثّاتِ) نفسه، وذلكَ من خلالِ قولهِ تعالى فيـــها: (وإذا القبورُ بُعثِرت.) هذه السّورةُ الّتي أنزلها ربُّنا عزَّ وجلَّ في مكّـةَ المكرَّمة يومَ لم يكن قد اكتملَ نزولُ جميعِ سورِ هذا الكتـــابِ العزيزِ. فهذه المعلومة تضمَّنها الفصلُ الخامسُ من هذا البـــابِ الأوَّلِ. وحيثُ نبَّهتُ ذهنَ القارئِ إلى تحيُّزِ وفقدانِ علمـــاء

المستحاثّات اتّزانهُم العلميّ أيضاً بسبب أنهم وقعوا جميعُهم تحتَ ضغطِ الطَّرحِ الّذي طرحتهُ نظريَّةُ (أصل الأنواع) المعروفة. لذلكَ لاحظناهُم جميعُهُم يُحاولونَ عندَ اتّخاذ القرارات، ربطَ موضوع (نشوء الإنسان) بتطوّرهِ عن كائنٍ حيٍّ وُجدَ من قبله. فلم يفترض أحدٌ من أولئكَ العلماءِ أنَّه لربَّما يكونُ هذا الإنسان قد خُلِقَ خلقاً مستقلاًّ عن باقي الكائنات الحيَّةِ من حوله وهذا هو الّذي دفعني هناكَ لتقديمِ دليلٍ قاطعٍ على استقلاليَّةِ خلقِ اللّهِ تعالى لهذا الإنسان. ومُستمدّاً ذاكَ الدّليل المذكور من الفرقِ الكبيرِ الكائنِ ما بين تركيبِ نُطفة الإنسان (الأمشاج) وما بينَ تركيب نُطفةِ الكائنات الحيَّةِ سواهُ الّتي لا تثمرُ إلّا كائناً غريزيّاً. على حين أنَّ قوى نُطفةِ (الأمشاج) تثمرُ كائناً عاقلاً ومفكّراً وحُرَّ الإرادة أيضاً. فالغريزيّ يستحيلُ أن تتطوَّرَ قوى نُطفتهِ إلى نُطفةِ قوىً أمشاج. وقد وضَّحتُ في هذا الفصلِ الخامسِ أيضا وُجودَ رابطةٍ جدليَّةٍ ما بين تلكَ النُّطفةِ الأمشاج وما بين الفلسفة الّتي أسَّسَ عليها الخالقُ جلَّ شأنُهُ حياتنا الدُّنيا الّتي

يعيشها هذا الإنسان. ولذلك تحديت بعد ذلك أن تسفر تجارب مختلف العلماء عما يثبت بطلان ما بينته وما وجهت الأنظار إليه هناك.

وقد قمت في الفصل السادس والأخير من هذا الباب الأول بمناقشة النظرية (الداروينية) على ضوء معطيات العلوم الحديثة وطرح نظرية (الانفجار العظيم) التي أثبتت أن هذا الكون المادي مخلوق منذ ما بين (١٢ وإلى٢٠) مليار عام من قبل.

فهذا ما ثبت مستقى من علم الغيب الماضي. كذلك أثبت العلم الحديث ما لم يكن معروفا ولا ثابتا لدى صاحب نظرية (أصل الأنواع) وهو أن عقل هذا الإنسان هو جوهر لطيف ويقع خارج عتبة المعلومات التي ينقلها دماغ الإنسان إليه. وهو خالد أيضا خلود النفس البشرية، ولا يفنى بفناء جسد هذا الإنسان. ومن ثم لخصت للقارئ هناك ما بينته له وما حصلت عليه من تلك البينات من استنتاجات. وبذلك أنهيت الباب الأول من هذا الكتاب.

وقد فتحتُ بعدَه باباً ثانياً فصّلتُ في الفصلِ الأوّلِ منهُ أدوارَ العصورِ الحجريَّةِ الّتي مرّتْ على هذا البشر. ولفتُّ فيهِ نظرَ القارئَ إلى تأييدِ دلالات الآياتِ القرآنيّةِ على صحّةِ تلكَ المعلومات ووضعتُ هذا القارئَ في مَنظورِ ما بلغهُ هذا البشرُ في آخرِ تلكَ الأدوار. ومن ثَمّ نقلتُ للقارئِ ما تبيّنَ لعلماءِ المستحاثّات من الوضعيّةِ الفكريّةِ الّتي بلغها البشرُ في الألوفِ الأخيرةِ من عُصورهِ الحجريّةِ القديمة.

ومن ثَمّ خصّصتُ فصلاً ثانياً علّلتُ فيهِ حكمةَ طولِ المدّة الّتي استلزمها اكتمالُ عقلِ البشر في تلك الحُقبةِ الطّويلةِ من الزّمان. فوضّحتُ تلك الحقيقةَ بأسلوبٍ علميٍّ لعلّي أكونُ قد أفلحتُ فيه.

فلمّا فرغتُ من ذاكَ التّعليلِ نبّهتُ ذهنَ القارئِ إلى مدى اتّفاقِ (التّقسيمُ القرآنيُّ) و (التّقسيمُ العلميُّ) لِتاريخِ هذا الإنسان، أي تقسيمُهما تاريخَ البشر إلى ما قبلَ وما بعدَ التّاريخ. وأبرزتُ هناكَ المصطلحات الّتي وضعها القرآنُ المجيدُ للتّعبيرِ عن تلكَ الحقيقةِ. ومن بابِ أنّ لكُلِّ طرفٍ الحقَّ أن

يصطلحَ ما يراهُ مُناسباً. وبالإضافةِ إلى ذلكَ فقد بَيَّنتُ في هذا الفصلِ الثّالثِ ما ثبتَ للعلمِ من أنَّ نُطقَ هذا البشر بأحرُفِ هجاءِ ذات أحرف علّةٍ كانَ أمراً داخلاً في طبيعتهِ وفطرتِه. ومن بابِ أنَّ هذا العقلَ البشريّ ما كانَ باستطاعتهِ الإبداعَ والتّرميزَ بدونِ ما أشرنا إليه.

وهذه الحقيقةُ اقتضتْ منّي فتحَ فصلٍ رابعٍ لهذا البابِ الثّاني لأشرحَ ما قصدتُهُ من كلمةِ (تَرميز) ولبيان أساسها الموضوعي في كتابِ اللّهِ عزَّ وجلّ. ووجدتُها مُناسبةً لبيان أنَّ تلكَ الحقيقة اقتضتْ من جانبِ اللّهِ تعالى أنْ يبعثَ (آدَمَ) كأوّلِ نبيٍّ من أنبيائهِ ورسلهِ الكرام وبعدَ أن اكتملَ عقلُ البشر في أواخرِ عصورهِ التّاريخيَّةِ القديمةِ، أي ما قبلَ ثمانيةِ إلى عشرةِ آلاف عامٍ، لِيُحدثَ نقلةً نوعيَّةً في تاريخِ هذا الإنسان. وبالتّالي ألقيتُ بعدَ ذلكَ الضَّوءَ على مَنْ كانَ الّذي سمّاهُ القرآنُ باسم (آدم). وأنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قد صاغَ لنا قصّتهُ القُرآنيَّةِ ليسَ كما يرويها الرّاوي العاديّ. بل صاغَ لنا قصّةَ آدمَ بمزيجٍ من المعاني الحقيقيَّةِ والدّلالاتِ المجازيَّةِ ولسانِ الحال.

وقد شئتُ أن يوقنَ القارئُ بمصداقيَّةِ ما ذكرتُهُ لــهُ، لذلــكَ عمدتُ إلى تفسيرِ الجزءِ الوارد في سورةِ البقرةِ من قصَّــةِ آدمَ هذه وبأُصولِ تفسيرِها، وانكشفَ بذلكَ أنَّ هذه القصَّةَ قــد اشتملتْ على حقائقَ ســبعةٍ تاريخيَّــةٍ مُدهشــةٍ وضَّحَــتْ للمؤرِّخينَ زوايا خفيَّةً وغامضةً من تاريخِ هذا الإنسانِ. كمـا وضَّحَ اللَّهُ تعالى المقاصدَ الأربعَ الكبرى المرجــوَّةَ مــن وراءِ عرضِ هذه القصَّةَ بالأسلوبِ المذكور.

وأمّا الفصلُ الخامسُ فقد أشرتُ فيهِ إلى أحرُفِ هِجاءِ اللُّغةِ الّتي تعلّمها النبيُّ آدمَ عليهِ السّلام من لَدُن ربِّهِ عزَّ وجــلَّ الّذي بعثَهُ لإحداثِ نقلةٍ نوعيَّةٍ في حياةِ البشرِ القديم.

وهذا الأمرُ دفعني لإثبات مصداقيَّةَ ما أطلَعنا هــــذا القرآنُ العظيمُ عليهِ من خلال مُعطَيات ما توصَّلَ إليهِ (علــمُ اللّسانيّات) حتّى الآن. وما تضمَّنهُ العلمُ المذكورُ من خُيــوطٍ مَعرفيَّةٍ أشارتْ إلى الموطنِ الّذي نشأَ فيهِ النَّــبيُّ آدم وكيــفَ أنطقَهُ اللَّهُ جلَّ شأنُهُ فيهِ أحرُفَ هجاء تطوَّرت مــع طــولِ الزَّمن على أيدي أهلِ مَوطنهِ إلى الشَّكلِ الّذي هو عليــهِ في هذه الأيّام. وقد قُمتُ بذلكَ كُلِّهِ بالأسلوبِ العلميِّ المطلوب

وبذلكَ أبرزتُ اتّفاقَ المعطياتِ العلميَّةِ والقرآنيَّةِ في الموضوعِ المذكور .

ومن ثَّم قمتُ بتخصيصِ فصلٍ سادسٍ من فصولِ هذا الباب الثّاني وضَّحتُ فيهِ للقارئ معالِمَ تعاليمِ الشَّريعة الّتي كانَ اللَّهُ تعالى قد أنزها على آدمَ. وكيفَ أدَّتْ تلكَ التَّعاليمُ لِقيامِ أوَّلِ تعاونيَّةٍ في تاريخِ هذا الإنسان. تلكَ التَّعاونيَّةُ الّتي قامتْ على مبادئَ أربعةٍ أساسيَّةٍ من حُقوقِ الإنسان. وقد تضمَّنت تلكَ المعلومات الآيتان (١١٨/١١٩) من سورة (طه). الآيتان اللَّتان أوجبتا على حكومةِ كلِّ دولةٍ ضرورةَ المساعدة على تأمينِ (الغذاء والكساء والمسكن والماء) لكلِّ فردٍ من أفرادِ رعيَّتِها.

وقد جرَّني هذا الكشفُ عن تلكَ الحقيقةِ الحقوقيَّةِ إلى فتحِ فصلٍ سابعٍ لهذا الباب الثّاني خصَّصتُهُ للكلامِ عن حُقوقِ الإنسان الّتي جاءتْ بها شريعةُ الإسلامِ وما أكملتهُ من هذه الحقوق الإنسانيَّةِ الّتي كانتْ قد أتتْ بها شريعةُ آدمَ من قبل. فوضَّحتُ في هذا الفصلِ السّابعِ المنطلَقات الّتي أُسِّستْ على

أساسٍ منها حُقوقُ الإنسان الّتي جاءتْ بها شريعةُ هذا الدّين الحنيف. وما أضافتهُ من حُقوقٍ أساسيَّةٍ وغير أساسيَّةٍ نتيجةَ المُتغيِّرات الحاصلةِ بعدَ بعثةِ آدمَ عليه السّلام. إلى جانبِ ذكرِ السّورة التي اشتمَلتْ على تلكَ المعلومات.

ولم أكتفِ بما وضَّحتهُ ممّا ذكرتُهُ، بل وتكلّمتُ عن حُقوقِ الإنسان ما بين الحقوقِ الوضعيَّةِ الّتي ابتدعها النّاسُ بتفكيرهم المُجرَّد الذاتيّ وبعقلِ تفكيرٍ ماديٍّ محض, وما بينَ حقوقُ الإنسان الّتي أتَتْ بها الأديانُ السّماويَّةُ، والفارقُ ما بينَ مُعطيات الطّرفينِ المذكورَين.

وهذا دفعني لأتعرَّضَ لِذكرِ (حقوق الإنسان) الّتي تدعونا الأممُ الغربيَّةُ المُعاصرةُ للأخذِ بها وإلى تطبيقِها في بلادنا، وبيَّنتُ هناك المنهلَ الّتي انتهلَتْ منهُ معلوماتها بهذا الخصوص. وأتيتُ بالأدلّةِ الّتي يثُبتُ من خلالها ضرورةُ ربطُ موضوعِ حقوقِ الإنسان بمُعطياتِ التّعاليمِ الّتي أتتْ بها الأديانُ السّماويَّة. ومن بابِ أنَّ الخالقَ الّذي خلقَ هذا الإنسان هو المفوَّضُ بوضعِ ما لهذا المخلوقِ من حقوقٍ إنسانيَّةٍ، وليسَ

الإنسانُ نفسهُ هو المفوَّضُ بتحديدِ تلكَ الحقوق. وبهذا أكونُ قد أنهيتُ البابَ الثّاني من هذا الكتاب .

وبعدَ الّذي أتيتُ على ذكرهِ كُلّهِ بقيَ عليَّ أن أُطلعَ القارئَ على ما مرَّ على هذا الإنسانِ من تطوُّرٍ بعد بعثةِ آدمَ وإلى يومنا هذا. لذلكَ اضطرَرتُ لفتحِ بابٍ ثالثٍ مُخصَّصٍ لبيانِ ما ذكرتُهُ وأشرتُ إليه ولِتكتملَ في ذهنِ القارئ معالمُ موضوعِ (نشوء الإنسان وتطوُّره) هذا الموضوعُ الّذي خصَّصتُ هذا الكتاب للكلامِ فيه.

فإذا كانت تُتوقُ نفسُ القارئ ليعرفَ ماذا جرى مع النبيِّ آدم بعدَ أن تابَ ربُّهُ عليه وعلى اعتبار أنَّ مسرحيَّةَ القصَّةِ لا تكتملُ بدونِ هذا المشهدِ الأخير. فقد خصَّصتُ الفصلَ الأوَّلَ من هذا البابِ الثّالثِ لتوضيحِ ما أشرتُ إليه. وكيفَ أنَّ نسلَ الفئة من البشرِ الّذين بايعوا آدمَ قد باركَ اللّهُ في ذُرّيّاتهم من بعدهم، وتكوَّنتْ منهم أممٌ كانَ أوّلها قومُ نوحٍ عليهِ السّلام ومن جاءَ من بعد قومهِ من الأقوامِ الّتي ذكرها لنا هذا القُرآن العظيم. كما وضَّحتُ في هذا الفصلِ

الأول بان رسالات جميع أنبياء تلك الأقوام كانت تدور حول توحيد الله وتفريده وتحارب ما كان قد تفشى بين الناس من مفاهيم دالة على الشرك بالله عز وجل. وقد دعمت أقوالي تلك بنصوص واضحة الدلالات من آيات هذا القرآن العظيم.

وتعرضت كذلك لبيان أن جميع أنبياء الله ورسله الكرام قد كانت مهمتهم (التبشير والإنذار) وبصورة سلمية لا إكراه فيها في الدين. وتاريخ هؤلاء الأنبياء يشهد على أنهم ما بادروا أقوامهم بالعنف ولا باشروهم من جانبهم بشن حرب عليهم مطلقا. بل إن العنف والحرب كان يعمد إليهما الذين يكذبون هؤلاء الأنبياء الكرام هذا وإن الله تعالى أعطانا صورة واضحة دالة على هذه الحقيقة عندما وقف في قصة آدم موقفه المعروف والمصاغ صياغة بلسان الحال. فهو تعالى لم يبطش بإبليس الذي (أبى واستكبر) وأعطى الله تعالى من خلال ذلك أنموذجا حسنا لجميع فئات المؤمنين وعلى مر الزمان. ولذلك لم يعرف تاريخ الأنبياء أن الأنبياء وأتباعهم

بادروا مكذبيهم بحرب مفاجئة لها صبغة اعتداء بل إن كـــان قد حدث أن كان قد خاض أحدهم حربا على مكذبيه فقــد كانت حربا دفاعية.

وقد بحثتُ في الفصلِ المذكورِ أيضاً موضوعَ الفطـــرةِ البشريَّةِ وكيفَ أنَّ اللّهَ تعالى قد فَطرَ هذه النَّفسُ على حُرِّيـــةِ الاختيار. لماذا ؟ بسبب أنَّهُ تعالى قد جعلَ هذه الحياةَ الدُّنيـــا (دار ابتلاء) ولِيعودَ هذا الإنسانُ بصيراً على نفسهِ وليتحمَّـــلَ نتائجَ ما كسبتهُ يداه بعد أن ينتقلَ من هـــذه الدّنيـــا إلى دارِ الحساب. وهل يحدُثُ أنْ يُكرهَ أحدُ النّاسِ على عقيدة مُعيَّنـــةٍ ومن ثَّم يحقُّ للّذي أكرههُ على اعتناقِ تلكَ العقيدةِ أن يُحاسبَهُ على ما أكرَهَهُ عليه ؟؟

كذلكَ أعطيتُ هذا القارئ صورةً حقيقيَّةً عن مـــدى ما فوَّضَ اللّهُ تعالى لهؤلاء الأنبياء والرّسل من صلاحيّات. فقد قصرَ جلَّ شأنُهُ تلكَ الصَّلاحيّات على ضرورةِ قيامهم بتبليـــغ رسالاتِ ربِّهِم بوسائلَ سلميَّةٍ وبالقيامِ بتـــهذيبِ المؤمنـــين وحسب .

فلمّا فرغتُ من بيان المضامين الّتي أتيتُ على ذكرها والّتي تضمَّنها الفصلُ الأوّلُ المذكورُ، أطلعتُ هذا القارئَ على الشَّرائعِ السَّماويَّةِ الكبرى الّتي أشارتْ إليها سورةُ (التّين). وكيفَ أنَّ خالقَ هذا الإنسان، وبعد أنْ نقلَ البشرَ النَّقلةَ النَّوعيَّةَ الّتي حقَّقها عن طريقِ بعثةِ آدم، فقد هذَّبَ تعالى هذا الإنسانَ وطوَّرَ عقلهُ عن طريقِ تعاليمِ تلكَ الشَّرائع السَّماويَّة المُشارُ إليها في سورةِ التّين والّتي خضعتْ تعاليمُها إلى قانونِ النُّشوءِ والارتقاء. فهذه المعلوماتُ جميعُها تضمَّنها الفصلُ الثّاني من هذا الباب الثالث المذكور. وبذلكَ يكونُ هذا البابُ الثّالثُ قد اشتملَ على فصلينِ فقط. وبهما أنهيتُ هذا الكتاب.

وقدَّمتُ بعدَ ذلكَ وعلى عادتي تلخيصاً لجميعِ ما أتيتُ على بحثِهِ في هذا المؤلَّف لأساعدَ هذا القارئَ على استجماعِ المعلوماتِ الّتي أطلعتُهُ عليها فيه . وقد جعلتُ تلكَ الخلاصةَ (خاتمة الكتاب) وأنا أرجو من ربِّي جلَّ شأنُهُ الّذي أيَّدني فيما قمتُ بهِ تأييداً ظاهراً أنْ يفيدَ من شاءَ تعالى أن

يُفيدَه من عباده ما فتحهُ على شخصي الضَّعيفُ من بيِّنـــات، فهو الهادي وإليهِ المصير ، والحمدُ للّهِ تعالى أوّلاً وأخــيراً، ربيَّ وتقبَّل دُعاء. اللّهمَّ آمين .

❁❁❁

المَبْحَثُ الأَوَّل

خَلْقُ الإِنْسان

البــابُ الأوّل

الفصل الأوّل:

أوّلاً– مَاذا قصدتُ مِن كَلِمَةِ خَلْق :

قَصَدت من كلمةِ (خَلْق) ، بفَتْح الخاء ، دلالتَها على كـون الإنسانِ مخلوقاً خلقاً مُسْتقِلاً ومُباشَراً وليس تَطوُّريًّاً وهـذا الجَسَـدِ المتّصِفِ بانتصاب قامَتِهِ، وبدماغِهِ ذي الحجمِ الكبيرِ الّذي يُسـاعدهُ على القِيامِ بعمليّات ذهنيّةٍ مُرَكّبةٍ، تُعينهُ على السيطرةِ على ما حَولـهِ من بيئتهِ المسخّرة أصلاً للوَفاء بمُتطلّباتهِ الماديّةِ والرّوحيّةِ ، مَدى عُمُـرِهِ على سطحِ هذا الكوكَبِ الأرضيّ .

ويَتبيّنُ من مُعطياتِ القُرآن الكريمِ أنّ اللّه الخالِقَ قد أطلـقَ على هذا الكائنِ الحيِّ اسمَينِ اثنين: فَسمّاهُ (بَشَر) نِسبةً إلى تاريخـهِ العائدِ إلى عُصورهِ الحَجريّة . كما سمّاه (إنْسان) نسـبةً إلى تاريخـهِ العائدِ إلى ما بَعْدَ انتِهاءِ الزّمنِ المَذكور. وقد وَرَدَ هذا التّقسيمُ القُـرآنيُّ لِهاتينِ الكَلمَتينِ من مُنْطلَقِ أنّ كلمةَ (إنس) قد أُطلِقتْ على هـذا الكائنِ البَشَرِ من بعدِ أن ابتعدَ زمَنيّاً عن حالَةِ التّوحُّشِ الّـتي كـان عليها خلالَ عُصورهِ الحجريّة (معجم المقاييس) . ومن ثمّ تَأنْسَـنَ وهَذّبَ وتحَضّر وقد أفادتْنا بهذا التّقسيمِ سورةُ الحِجْرِ الّتي قال تعـالى فيها : ﴿ **وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا الْإِنْسَـانَ مِـنْ صَلْصَـالٍ مِـنْ حَمَـإٍ مَسْنُونٍ(٢٦)وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ(٢٧)وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَـالِقٌ بَشَـرًا مِـنْ صَلْصَـالٍ مِـنْ حَمَـإٍ**

مَسْنُون(٢٨)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ .

إنّ المفسّرينَ القُدماء رحمهم الّله لمْ يَنتبهوا إلى هذا التّقْسيم الّذي ذَكرناه ، والسببُ في ذلك أنّه لم يَظهرْ في حَياتِهم عِلمٌ اسْمُهُ (علم المُسْتحاثّات) هذا الّذي لم يَكُنْ لهُ من وُجود في زمنِهم . وهذا هو سبَبُ أنّهم ما انْتَبهوا إلى أنّ كلمةَ (الجانّ) قد قُصِدَ بها في هذه الآيات الكريمة الكائِنَ البَشر الّذي قَطنَ الكهوف الطّبيعِيَّةَ طِوالَ عُصوره الحجريّةِ مُتَخفّياً فيها. ذلك أنّها كلمةٌ اشتُقّتْ من (جُنَّ) بمعنَى اسْتترَ واختْفىَ عَنِ الأنْظار (محيط المحيط). وعليهِ فَلا تَعْني كَلِمَةُ (الجانّ) في هذا الموْضعِ مخلوقاً آخر غيرَ هذا الإنسان .ثمّ إنّ اللّه عزّ وجلّ وصفَ طبيعةَ البَشَرِ المَذكورِ بأُسلوبِ الاسْتِعارةِ وقال (مِنْ نارِ السَّموم) لأنّ طبيعَتَهُ كانت أقربَ إلى حالاتِ رُدودِ الأفعالِ مِنها إلى حالاتِ التَّعقُّل . وسيأتي شرحُ ذلك في حينه.

وسأُحاوِلُ أن أتكلّمَ في المَبْحثِ الثّاني من هذا الكتابِ عن كَيفَ تطوَّرَ هذا البَشَرُ وانتَقَلَ بعد بعثةِ آدمَ عليه السلام من حالَةِ التّوحُّشِ إلى حالةِ الأنْسَنة ، كما سأُبيِّنُ بعد ذلك أدْوارَ تهذيبِهِ الّتي تَحقّقتْ على أيْدي رُسُلِ اللّهِ تعالى وأنْبيائهِ الكِرام الذين كان آخِرُهُم محمّدٌ خاتم النَبيّين ﷺ .

هذا ، علماً بأنّ اللّهَ تعالى ما خَلَقَ هذا الإنسان على شاكلةِ ما هو عليهِ شَكْلُهُ اليوم ، بل مَرَّرهُ خالِقهُ من أطْوارٍ عَديدةٍ مِصداقَ

قولِ اللّهِ عزّ وجلّ في سورة نُوح ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا(١٣)وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا(١٤)﴾. وقد قصدَ تعالى من كلمةِ (أطواراً) هنا ، الأطوارَ التّاريخيّةَ الّتي مرَّ بها هذا البَشَرُ وكشفَ عنها العِلمُ الحديث . ذلك أنّ كلمةَ أطواراً هي جمعُ طَوْر ويعني : الحالُ والهيئةُ على حَسَبِ ما هو واردٌ في معجم (محيط المحيط). عِلماً بأنّ الحالَ والهيئةَ هما صِفَتان ، وليْس شيئاً آخر .

ثانياً : ما يَتضمَّنُهُ مَبْحَثُ (خَلْقُ الإنسان)

يَتضمّنُ هذا المَبْحثُ أهمَّ ما أوْردهُ عُلماءُ الطّبيعةِ المُعاصرون بشأنِ تاريخِ نشوءِ الإنسان ، إلى جانب ما أورَدهُ علماءُ الأديان في هذا المجال أيضاً، وإلى جانبِ محاولتِي الكشْفَ عمّا بين آراءِ هؤلاء وهؤلاء من اختلافات جوهريّة ، ومحاولتي التّوفيقَ بين هذه الاختلافات بغايَةِ إزالتِها بأُسْلوب علميٍّ مُدَعَّمٍ بالأدلّةِ والبراهينِ القاطعةِ ولإبرازِ الحقيقةِ المُرجَّحةِ في نَظَري على رأيِهِمْ في نهايةِ المَطاف .

وإنّها عمليّةٌ شائِكةٌ وعسيرةٌ بلا ريب ، هذا وإنّ طريقَها غيرُ مفروشٍ بالرَّياحين. بسبب أنّ تَناوُل الكلامِ عن خلْقِ الإنسان يُولّدُ حَساسِيَّةً بين فريقَينِ من النَّاس هما فريقُ المثقّفينَ المُتحرّرينَ وفريقُ المُتديِّنينَ التَّقْليدِيين . كما يُفترضُ أن نكونَ مُطّلِعينَ على ما كتبَهُ الفريقانِ في مجالِ موضوعِ خَلْق الإنسان أيضاً وما قدَّموه من أدلّةٍ وبَراهين .

فإن شاءَ القارئُ تَبيُّنَ مَعالِمَ حقيقةِ ذلك ، فما عليه إلاّ أن يجلِس مع صديقٍ له متديّنٍ بتديّنٍ تقليديٍّ ومن ثمّ لِيُجاذِبَهُ أطرافَ الحديث ولِيُثِرْ أمامهُ بحثَ خَلْقِ الإنسان ، ولينتظر رُدودَ فِعلهِ . فسيُلاحظه وقد انْتفخَتْ أوداجُهُ وأخذَ يُهاجمُ المثقّفينَ الّذين يزعمونَ أنّ أصْلَ الإنسان كان من قِرد . ومن ثمّ تُلاحِظُهُ يمْلي عليكَ معتقَدهُ كحقيقةٍ ثابتةٍ نهائيّة . ويدعُكَ أيّها القارئ وكأنّكَ قد صَحَوْتَ لِلتَّوِّ من حُلُمٍ عَجيب .

أمّا إذا جلسَ هذا القارئ مع صديقٍ لهُ مُثقّفٌ بثقافةٍ عصريّةٍ مُتحرّرة وراحَ يجاذبهُ أطْرافَ الحديثِ ولِيُثِرَ أمامه بحْثَ خَلْقِ الإنسان ولِيُراقِبَ رُدودَ فِعْله . فسيلاحظُ انتِفاخَ أوْداجِهِ وكيفَ أنّهُ يحْمِلُ على المُتديّنينَ التَّقليديّينَ الّذين يَزْعمونَ أنّ الإنسانَ ابتَدَأ خَلْقهُ من آدم هذا المخلوقُ الّذي لم يمضِ على وُجوده عِدّةُ أُلوف من السنوات . ومن ثمّ تراهُ يَنْبري لِيُبرهِنَ لكَ أنَ الإنسانَ تطوّرٌ عن حلقةٍ مَفْقودة تقعُ ما بين القردِ والإنسان . يفعلُ ذلكَ وكأنّه يمْلي عليكَ حقيقةً علميّةً لا سبيلَ إلى مُناقشتِها . ويدعُكَ أيّها القارئ العزيزُ مَشْدوها .فبنتيجةِ التَّجربةِ الشخصيّةِ سَتتَراءى لِعَيْنيّ هذا القارئ ردودُ الفِعلِ العنيفةِ والمتَناقضةِ الّتي ذكرناها له آنفاً. وبالتّالي فإنّ هذا القارئ سيُدركُ مَبْلغَ ما يُواجهُهُ مُؤلّفُ هذا الكتاب من صُعوبات تَعْترِضُ سبيلهُ غير المُمَهّدِ وغير المفْروشِ بالرَّياحين على حسب ما ذكرتُ ذلكَ في مُستَهلّ هذا الكلام .

هذا ، وإنّي لأُشبّهُ ما أقومُ بهِ مِن خِلالِ هذا المؤلّفِ مُحاولـةُ قِيامي بعمليّةِ رَدْمِ كُبرى لِواد كبيرٍ يَقعُ بينَ جَبلينِ عالِيينِ ومُتقـابلَين . وظاهِرٌ أنّهُ من العَسيرِ عليَّ إنجازُ هذه المهمّةِ إلاّ بتأييدٍ من اللّهِ الخـالقِ نفسهِ ربِّ العالمين.

ثالثاً : لِمَ هذا الاختِلافُ وما هيَ حَقيقَتُه ؟

ففكِّرْ يا قارئي العزيز في حديثِ نَفْسكَ وتَساءَل معي : هـل يُعقَلُ أن تختَلفَ مُعطياتُ الدّينِ عن مُعطياتَ ما يكشفُ العلمُ عنـهُ من حَقائقَ كَوْنيَّةٍ ثابتة ؟ فمن المعتقدِ أنّ الكُتُبَ السـماويَّةَ تَشْـمَلُ كلامَ اللّهِ مُبْدِعِ هذا الكوْنِ الرَّحيب ، وأنَّ تلكَ الحقـائقَ الكونيّـةَ الثّابتة تُمثّلُ عَظَمةَ ما أبدعَه هذا الإلَه الخالقِ وما صَنَعَه . ومـادامتِ الصَّورةُ على الحالِ الّذي ذَكرْناهُ فلا يُعقلُ أنْ يحْدُثَ أيُّ اختـلاف ما بين كلامِ اللّهِ وَصُنْعِه ، خصوصاً وأنّ مَصْدرْهما واحدٌ هـو هـذاً الإلهُ الخالِقُ الّذي هو ربّ العالمين ؟

فأنا أزينُ بهذا الميزان، وأنظُرُ إلى هذا الموضوع مـن هـذا المنظار وأدقّقُ وأنظرَ فيما هو بينَ أيْدينا من كُتُب سماويّةٍ مُتداولةٍ بـين أيدي أصحاب الدّيانات السماويَّةِ المعروفةِ في هذه الأيام . وهو نفسُ المنهَجِ الّذي انْتهجتُهُ في هذا الكتاب . وهو منهجٌ إسلاميٌّ مُسْـتَلهَمٌ من تعاليمِ القرآن العظيم .

❁❁❁

الفَصْلُ الثَّاني

قصَّةُ آدَمَ في التَّوْراة وَسَلْبيَّاتِها

منَ المعلومِ أنَّ لِلتَّوراةِ المُعاصِرةِ دَورٌ كبيرٌ في موضوعِ إشاعةِ قِصّةَ آدمَ وحوّاء خلالَ ثلاثينَ قرناً الماضِيَةِ بين النَّاس ، وإلى درجةٍ رسخَتْ معها هذه القِصَّةَ في أذهانِهم في منطقتنا العربيّة خاصّة . وعندما أنزلَ اللّهُ تعالى القرآن العظيم قبلَ أربعةَ عشرَ قرناً من الزَّمان، تعرّضَ فيه هو بِدَورِه لِقِصّةِ آدمَ هذه في آيات كثيرة من سُور كتابهِ العزيز. لكنّ ما أورده القرآن من معلومات فهي تختلفُ كثيراً عمّا أوردته التّوراة من معلومات بخُصوصِ القِصَّةِ المذكورة . والأصحَّ أن نقول لقد صحّحَتْ آياتُ القُرآن المجيدِ ما سبق لأهل التّوراة أن حَرّفوهُ وشوَّهوهُ من معلوماتٍ حولَ قصّةِ هذا النبيّ.

وقد يستغربُ قارئي ما طرحْتهُ على مَسامعهِ ، بسبب أنّهُ لا يكونُ قد سَمِعَ مثلَ هذا الكلامِ من قبل ، لذلك يُطالبُني بالدّليلِ الّذي يُثْبتُ هذا الادّعاء . وإنّها لَمطالبةٌ عادلةٌ تستحقُّ من جانبي العِنايةَ والاهتِمام . لكنْ من حقّي عليه أن يُعْطيني أُذُناً صاغِيَةً إلى ما سأقوله وباهتمامٍ ظاهرٍ أيضاً ، فلا يَتعجَّلُ في إصدارِ الحُكْمِ عليه .

أقول : لَوْ راجعَ هذا القارئُ ما أوردهُ كاتبُ سِفْرِ التّكوينِ من هذهِ التَّوراةِ المعاصرةِ ، لَتبيّنَ لهُ أنّ الكاتبَ المذكورَ حدّدَ لنا زمنَ ظُهورِ آدم وحوّاء، على حينِ لَوْ أنّهُ طالعَ ما أوردهُ القرآن الكريمُ من

هذه القِصّةِ ، فلن يعثر على أيّ تحديدٍ للزّمانِ المذكور، كذلكَ لَـــن يعثَرَ على اسمِ أو كلمةِ حوّاءَ في أيّة سورةٍ من سُوَرِه .

ثمّ إنّ كاتبَ السفرِ التّوراتيّ قد زعمَ فيهِ أنّ اللّهَ الخالقَ ابتـــدأ البَشرَ من آدم وحوّاء . على حين أنّ هذا القرآن العظيم يَنْفي هـــذا الزّعمَ المذكور ، وينبّهُ أذهاننا إلى أنّ وجودَ البشرِ يعودُ إلى زمنٍ مـــا قبل وجود آدمَ بملايينِ الأعوام . وأنّ آدم عليه السلام كان أوّلَ نـــبيٍّ اصطفاهُ اللّهُ عزّ وجلّ من بني البَشر . وقد حقّقَ تعالى علـــى يديـــهِ إخراجَ البشرِ من سكنى الكهوف ، وعلّمهُم سُـــكْنَى مَســاكِنَ في السُّهول ، كما سعى إلى تهذيبهم وتعليمهم النُّطقَ بلُغةٍ عِلميّةٍ قائمـــةٍ على قواعدٍ وأُصول ، كما علّمهمُ الحياةَ التّعاونيّةَ والزّراعةَ وغيرَهـــا من ضروراتِ حياتهمُ اليوميَّة . وسآتي على شَرحِ جميعِ ما ذكرتهُ مـــن فروقٍ واردةٍ بين القِصّتينِ في الوقتِ المناسبِ لها إن شاءَ اللّهُ العزيز .

مابَيْنَ القِصَّةِ التَّوْراتيَّةِ والقُرآنيَّةِ مِنْ اختِلافات

١ . الإختِلافُ الجَوهريُّ الأوَّل

لَوْ أنّكَ طالَعتَ يا صاحِبِي ما أوردهُ كاتبُ سِفْرِ التّكويـــنِ في الإصحاح (٢ / ٧) إنّهُ كَتبَ يقول : (وجبلَ الرّبُّ الإلهُ الإنســـانَ تُراباً من الأرضِ ونفخَ في أنفهِ نسْمةَ حياة ، فصارَ الإنســـانُ نَفْســـاً حَيّة.) . وإن أنتَ دقّقْتَ فيما زَعمهُ هذاً الكاتبُ يتبيّنُ لك منهُ أنّـــها كانتْ قد جرتْ عمليّةُ جبلٍ لِتُرابٍ الى جانبِ نفْخِ نَسْمةَ حياةٍ فيـــه

من بعدِ إعطاءِ التُّراب المجبول شكل هذا الإنسان المعـــروف . أي أنّ الإلهَ الّذي صوّرهُ لكَ هذا الكاتبُ عادَ يُشبهُ إلى حدٌّ كبيرٍ طالباً مـــن خرّيجيّ إحدى كُلّيات الفُنون الجميلةِ المُعاصرة . لكنَّهُ يملـــكُ قُـــوَّةً مُتميِّزةً وهيَ قُوَّةَ نَفْخ حياةٍ في أنْفِ التِّمثالِ المَنْحوت.وإنّي لأظنُّـــكَ ستتصوّرُ نتيجةً لقولِهِ المذكور أنّ حَجْمَ الإلهِ الّذي قـــامَ بالعمليّـــةِ لا يزيدُ حَجْمُهُ كثيراً عن حجمِ الطّالبِ نفسه . والّذي سيزيدُكَ غَرابـــةً أن يقولَ الكاتب المذكور بعد ذلك (١ / ٢٧) : (فخلـــقَ اللّـــهُ الإنسانَ على صورتِهِ ، على صورةِ اللّـــهِ خَلقـــهُ ، ذَكـــراً وأُنثـــى خَلقهُم.) وهوَ قولٌ يُفيدُ أنّ الإله المُشارُ إليه كانَ قد نحتَ شكلَ هـذه الأُنثى أيضاً شبيهاً لِصورتِهِ ذاتِه .

لكنْ لا يَنْبغي لكَ أن تَتعجّلَ هذا التَّخيُّلَ وأدعوكَ يا عزيـزي القارئ أن تُلاحظَ ما راحَ يقولهُ هذا الكاتبُ في الإصْحـــاح (٢ / ٨ ١ و إلى ٢ / ٢١) فهوَ كَتَبَ : (وقالَ الرّبُّ الإلـــهُ : لا يحسُـــنُ أن يكونَ الإنسانُ وحْده . فلأصْنعنَّ لهُ عوْناً يُناسِبهُ .... فَأوْقعَ الـــرّبُّ الإلهُ سُباتاً عَميقاً على الإنسانِ فنام . فأخذَ إحدى أضلاعـــهِ وســـدَّ مَكانَها بلَحْم . وبنى الرّبُّ الإله الضِّلْعَ الّتي أخذَها من الإنسانِ امْرأةً . فأتى بها الإنسانَ . فقال الإنسانُ : هذه المرّةُ هي عظمٌ من عِظـــامي ولَحْمٌ من لَحْمي . هذه تُسمّى امرأة . لأنّها من امـــرئ أُخِـــذتْ . ولذلك يتْرُكُ الرَّجلُ أباهُ وأمّهُ ويَلْزمُ امرأتهُ. فيصيرانِ جَسَداً واحداً).

فمن خِلال هذا النّصِّ لابُدّ أن تكونَ قد أدركتَ يا عزيـــزي لماذا هُيتُكَ ألاّ تتعجّلَ التّخيُّل . ذلك أنّ هذا الكاتبَ كانَ قد خطرَ لـــهُ

نَفْسُ ما خطرَ لك آنفاً ، لذلك لاحظتَهُ كيف عَمَدَ إلى حَبْكِ هـذه المعْلومةِ الأخيرةِ التي قَرأْتَ. هذا وهيّا أصغي معي إلى ما كتبهُ في نفسِ السِّفْرِ وفي الإصْحاح (٣/٢٠). فهو كتبَ يقول : (وسمَّى الإنسانُ امرأتَهُ حَوّاء ، لأنّها أمُّ كلِّ حَيّ . وصنعَ الرَّبُّ الإلـهُ لآدمَ وامرأتَـهُ أقْمِصةً من جلْدٍ وألْبَسهُما) عِلماً أنّهُ سبق أن كتبَ في الإصْحـاح (٢/٢٥) وقال : (وكانا كِلاهما عُرْيانَين ، الإنسانُ وامرأتهُ ، وهما لا يخْجَلان .).

و الخلاصةُ هي أنّ التّوراةَ المعاصرةَ تعتبرُ أنَّ خَلْقَ هذا البَشـرِ ابتدأ من زمنِ آدمَ وحوّاء ، وأنّهُ لم يمضِ على خَلْقِهما عدّةُ أُلوف من السنوات . وذلك حسبْما يُستفادُ من التّواريخِ الّتي ذَكرَها كاتِبُ سِفْرِ التّكوينِ نَفسُهُ .

وهنا ستَسألُني عمّا أفادَتْنا بِهِ آياتُ القرآن الكريم في هـذا المجال ؟

أقول : لو قُمْتَ يا عزيزي القارئ بمُراجعةِ جميـعِ السُّـورِ القُرآنيّةِ الّتي تعرّضَتْ لِقصّةِ آدمَ بالذّكرِ ، وبتَرْتيب تِلاوتها الحـاليّ ، فإنّكَ ستأخُذكَ الدّهْشةُ بسبب أنّكَ لَنْ تعثُرَ في آيات تلكَ السُّـورِ المذكورة على كلمات (جَبْلٍ أو نحْت) . بل الّذي ستعثرُ عليه فيـها هو كلمات (خَليفةٌ أو جَعْل) . ومن المعلوم أنّ كلمةَ (جعْل) تُفيدُ معنى صُنْعٍ وتَصْيّر . وأنّ كلمةَ (خليفَة) تُستعملُ لِغَيْبَةِ المُسْتخلِفِ وهو اللّهُ عزّ وجلّ . فالخليفةُ يُسْتَخْلَفُ على الّذينَ سيكونُ عَلَيْـهم أميراً . (محيط المحيط)

والآن فتعالَ معي إلى الآية (٣٠) من سورة البَقرة . لِتلاحظَ قولهُ تعالى فيها: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ فلاشكَّ أنّهُ سيتبادرُ لِذهنكَ من أوّلِ وَهْلَةٍ من تِلاوتِها أنَّ اللّهَ تعالى قد راحَ يتكلّمُ عن قِصّةِ خَلْقِهِ هذا الإنسانَ . أمّا أنّكَ لَوْ أمْعنت نَظرك وتَدبَّرتَ ألفاظَ الآيةِ جيّداً ، فإنّك ستُدرك أنّهُ تعالى قد راحَ يتكلّمُ فيها عن عَمليّةِ استخلاف في الأرضِ وليسَ في السّماء، وليَبْتَدِئَ بخَليفتِهِ هذا سِلسلةَ النُّبوّات والرِّسالات السماويّةِ المَعروفةِ. ويُستدَلُّ من ذلكَ على أنَّ آدمَ كان أَوّلَ نبيٍّ استَخْلفَهُ ربُّنا عزّ وجلّ من بني نوعِ الإنسان . ذلك أنّهُ لا يصلُحُ استعمالُ كلمةِ (خليفَة) إلاّ إذا كان في الأرضِ بشرٌ لِيَستَخْلِفَ اللّه تعالى من بينهم واحداً مِنْهم ، وليجْعَلَهُ عليهم أميراً . (محيط المحيط) لِذلِكَ إيّاكَ أنْ تَستغربَ ما قلتُه لك . لأنّي سآتي لك بنَصٍّ قرآنيٍّ صَريحٍ يُؤكّدُ لك مصداقيّة ذلك . فهيّا إلى الآية (٣٣) من سورة آل عِمرانَ الّتي يقولُ تعالى فيها :﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ فَفي هذه الآيةِ الكريمةِ تَصْريحٌ بأَنَّ آدمَ كان أوّلُ نبيٍّ بعثهُ اللّهُ تعالى واصْطَفاهُ على شاكلةِ ما اصطفى تعالى مِن بَعده نوحاً وبقيّةَ أنبياءِ اللّهِ الكرام . ليسَ هذا وحسْب بل تُوجدُ هُناكَ آياتٌ وآيات يُفهمُ مِنها أنّهُ كان هناكَ بَشَرٌ قَبلَ آدم عليهِ السّلام . ولا توجدُ ولا أيّة آيةٍ واحدةٍ تَنصُّ على أنّ آدم كان أوّلُ بَشَرٍ على سطحِ هذهِ الأرض .

وتَعالَ معي يا قارئي العزيز إلى الآيـــةِ (١١) مـــن ســـورة الأعْراف الّتي يقول تعالى فيها : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُـــمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَـــمْ يَكُـــنْ مِـــنَ السَّاجِدِينَ﴾** ، أفلا تلاحظ يا عزيزي كيف أنّ الخطـــابَ قـــد وردَ بصيغةِ الجمعِ من جهةٍ ، وكيف تَوسَّطَ حرفُ (ثمّ) كلماتِ هذه الآيةِ الكريمة ؟ وأنْتَ تعلمُ أنّ الحرف ثمّ يُفيدُ التّرتيب ؟ أفلا يُستدَلُّ مـــن ذلك على وُجودِ البَشَرِ قبْلَ آدم بزمنٍ طويلٍ وأنّ هؤلاءِ البَشـــرِ قـــد مَرُّوا جميعُهُم بدَوْرَيْنِ رئيسيَّين قبلِ زمنِ اصطفاءِ اللّهِ تعالى آدم عليـــه السلام ؟ وأنّ فِعْلَ خَلقناكُم يُشكِّلُ في حقيقةِ أمرِه قرينةً علـــى أنّـــهُ تعالى لَمْ يقصدْ من فعلِ (صوّرناكُم) المعْنَ المُتبادرَ للذّهنِ الّذي هـــو تصويرُ مَلامحِ الجسدِ ونحتهُ ، بل قُصِدَ بهِ تمييزَ صِفاتِ وسُلوك الجِنْسِ البَشريِّ عن بقيّةِ الكائنات الحيّةِ من حولِه ؟ فقد أوردَ صاحبُ مِعجمِ (محيط المحيط) أنّ كلمةَ (صورة) يجوزُ أنْ تُســـتعارَ بمعـــنى النّـــوعِ والصِّفة. وعليه فإنّهُ يُستدلُّ بهذه الآيةِ الكريمةِ على وُجودِ البشرِ قبـــلَ آدمَ بزمنٍ طويلٍ ، وأنّ هذا الكائنَ البشرَ قد مرَّ بدورينِ رئيســـيّينِ أيضاً قبلَ بعثةِ آدمَ عليه السلام . أي أنّ البشرَ كانوا قد مرّوا بـــدورٍ كان سلوكهُم فيهِ أقْربَ إلى حالةِ التّوحُّشِ منهُ إلى سُلوك إنســـانٍ . ومن ثمّ أخذَ هذا البشرُ يبتعِدونَ عن حالـــةِ التَّوحّـــشِ المذكـــورة ، وأخذتْ تظهرُ على تصرّفاتِهم ما يُميِّزُهم عن الكائنات من حولِهـــم ، إلى أن تأهّلوا لِيَصْطفيَ ربُّهم من بينِ أفرادهم نبيّاً رسولاً هو آدم عليـــه السلام . وكانت مُهمّتُهُ أن يفجّرَ الطّاقاتَ الكامنةِ فيهم ولِيُهذِّبَـــهُم وليستحِقّوا تسميَةَ إنْسان ؟

فإذا انتقلنا الآن إلى الآية القرآنيّة (٢٦) وما يليها من آيات من سورةِ الحِجْرِ ، والتي تعرّضَتْ لِذكرِ قصّةِ آدمَ أيضاً ، فلا تَدهَشْ يا صاحبي إذا لاحظتَ أنَّهُ يُستْفادُ من هذه الآيات أيضًا وجودُ البشرِ قبل دورِ تسويتهِ وهو الدّورُ الّذي أطلعَتْنا عليه سورةُ الأعْراف من قبل . بل وإيّاكَ أنْ تَستغربَ إذا نبّهَتْكَ هذه الآياتُ من سورة الحِجرِ إلى أنّ البَشرَ ما كانوا يعرفونَ قبل بعثةِ آدم لا بناءَ المساكنَ ولا التَّزاوُجَ لِبناءِ أُسَرْ . حتّى وكانوا يقطنونَ الكهوفَ الطبيعيّةَ الّتي هي في الجِبالِ ، فلا يغادرونها إلاّ لِطَلَبِ حاجةٍ من حاجيَّاتِهم . ولقد استعملَ اللّهُ عزّ وجلّ لهؤلاء البشرِ ليُعبِّرَ عن دورهم المُشارُ إليه إ سم (جنّ) والمُشتقُّ من فِعلِ (جُنَّ) ، كاسمٍ وَصْفيٌّ له ، لاستتارهِم عن الأعْيُنِ في الكُهوف . كذلك اسْتعارَ لِيَصفَ طبيعتهُم كلمتي (نار السموم) بسببِ أنَّ أحدهُم كان يستشيطُ غضباً لأتْفهِ الأُمور. فهذه الحقائقُ جميعُها ، والتي أثْبَتَها العِلْمُ الحديثُ قد أوْرَدتْها الآياتُ المُشارُ إليها من سورة الحجر ، والتي قال تعالى فيها هناك : **﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ(٢٤)وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(٢٥)وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ(٢٦)وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ(٢٧)وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ(٢٨)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٢٩)﴾** .

فكلمةُ (المتقدِّمين) قد قُصِدَ بها في هذا المَوْضِع البَشرَ خلال تاريخ عصورهِمُ الحجريّةِ ، أي فَترةَ ما قبلَ التَّاريخ . وإنّ كلمة (المُستأخِرين) قد قُصِدَ بها تاريخَ هؤلاءِ البشرِ ما بعدَ تاريخِ بعثةِ آدم عليه السلام . أي أنّ اللّهَ تعالى قد استعملها للإنسانِ الحاليّ.

ثُمّ إنّ الآيةَ الكريمةَ قد نبَّهَتْ أذهانَنا في الوقتِ نفسهِ إلى أنّ البَشر جميعَهُم ، سواءَ منهُم مَن وُجدوا قبلَ التَّاريخِ أو بعدَهُ ، كانوا مِن جنْسٍ واحدٍ ، وسيُحشرونَ جميعُهم لِيَومِ الدّين . وهذه إشارةٌ صريحة إلى أنّ اللّهَ تعالى قد خلَقَ هؤلاء البشرِ قد خلقهُم لِيُصبحوا إنساناً آخِرَ المَطاف ، وأنَّهُم لا يُشكّلونَ حَلَقَةً مُتطوّرةً عن كائنٍ قبلَهُم من الكائنات الحَيّة . وسيأتي تفصيلُ ذلك كلّهِ في الوقتِ المُناسبِ إن شاءَ اللّهُ تعالى العزيز .

ولْننتَقِلِ الآن سويّةً يا عزيزي إلى آيةٍ أُخْرى لتؤكّدَ لكَ وُجودَ البشرِ قبل آدم ، وهي الآية (٥٠) من سورة الكهْفِ الّتي أجملَت للقارئ ما مضىَ ، وهو أنّ آدمَ كان أوّلُ نبيٍّ اصطفاهُ ربّهُ من بين البشرِ الّذين وُجدوا في زمانه . وأنّ قصّةَ آدم إنْ هي إلاّ قصّةُ اصطفاءٍ واستخلافٍ في الأرض . وأنّ البشرَ الّذي تَزعّمَ مُقاومةَ رِسالةِ آدمَ وناوأهُ وكَفرَ به وبما جاءَ بهِ من تعاليمَ ، كان من ذاكَ الجنسِ البشريّ الّذي كانَ منهُ آدم ، وأنّه سمّاهُ ربُّه بإبليس ، بسببِ قُنوطهِ من رحمةِ ربّه عزّ وجلّ الّذي اصطفى نبيَّهُ آدَمَ كأوّلِ رسولٍ إلى بني نَوعِ الإنسان وحمَّلهُ ما حمَّلَهُ مِن تعاليمَ سماويَّة . فهذه الحقيقة تكشف عنها الآية (٥٠) من سورة الكهف : ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ**

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ .

فالتَّصريحُ بكُفرِ إبليسَ ، واعتِبارُهُ من الجِنّ دلالَتُهُ على أنَّ إبليسَ المذكورُ كانَ أحَدَ سُكّان الكهوف، العائد تاريخُهُم إلى العُصورِ الحجريّةِ وهمُ الّذين سلفَ ذكرُهم في سورة الحجر ، وهو أمرٌ واضحٌ في هذه الآيةِ الكريمةِ كُلَّ الوُضوح . ثمّ إنَّ كلمةَ (إبليس) تعني لُغَةً الإنسانَ القانطَ من رحمةِ اللّه تعالى ، على حسبِ ما هو واردٌ في مِعجم (محيط المحيط) .ولتَدَعْ سورةَ الكهفِ هذه الّتي أجملتْ جميع ما وردَ سابقاً ، وتعالَ معي إلى سورة (طَه) وإلى الآيةِ (١١٥) بالذّات ، فهي صرَّحَتْ أنّ آدمَ كان نبيّاً لقوله تعالى فيها: **﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾** . وقد راحَ تعالى يُعطي القارئ بعدها فِكرةً عمّا كانَ تعالى قد أنزلهُ من تعاليمَ على آدمَ ، وبإيجازٍ شديدٍ ، وبصياغةٍ بلاغيّةٍ ليس لها مثيلٌ ، وسيأتي شرحُ ذلكَ حين تأتي مناسبتُه .

وإيّاك أنْ تَستوقفَني هنا يا عزيزي لِتسألني عن سببِ تجاوُزي تناولَ ما أوْرَدَتْهُ سورةُ الإسراء من قبلِ . فأنا تعمّدتُ ذلك لأجمعَ لكَ بين معلومتِها ومعلومةِ سورةِ (ص) ، التي هي سابعُ سورةٍ تعرّضتْ لِذِكرِ قصّةِ آدم عليه السلام . ولتلاحظ كيف أنّه تعالى قد أوردَ في كلتا السّورتَين ، وعلى لسان إبليسَ بالذّات ، أنّهُ تعالى خلقَ الإنسانَ من طين . في الوقت الذي كان قد قال في سورةِ الحِجر ،

وعلى لسان إبليس نفسُه : (لم أكُنْ لأَسجُدَ لبشـــر خلقتــهُ مــن صلصال منَ حمإٍ مَسنون .) . أفَما تساءلتَ عن الحكمةِ مــن هــذا الاختلافً بين القَولين ؟ فضعْ في حُسْبانكَ أنّي سأشرحُ لك ذلـك في الوقتِ المُناسب . لكنّي أختصرُ لك هنا ، فأنبّــهكَ إلى أنــه تعــالى استعارَ كلمةَ (منٍ طين) ليعبّرَ بها عن طبيعةِ رســـولهِ آدم مــن أنّ طبيعتَهُ كانت مرنةً وتشبهُ في مُرونتِها مُرونةَ الطّينِ الّذي يَتقبّلُ تحويلـهُ إلى كلِّ شكلٍ تُريدُه . بمعنى أنَّ آدمَ كان مُطاوعاً لأمرِ ربّهِ عزّ وجلّ . ولم تكن طبيعتُهُ طبيعةً ناريّة ، كطبيعةِ إبليس . وأمّا في سورة الحِجــر فقد استعارَ تعالى كلمات (مِن صَلصالٍ من حمإٍ مَسنون) ليوضّــحَ تعالى للقارئ وبأسلوب بَلاغيٍّ الحالة الّتي انتقلت حالةُ آدم ، بسـبب طبيعتهِ المرنةِ ، بعد تَلقّيهِ تعاليمَ ربّهِ عزّ وجلّ وعمله وفقاً لمضامينــها . فقد أمسى أشبه بالفخّار الذي إذا نقرت عليه ، تعود تســمع مــن جانبه صدىً . أي يلبّي كلّ ما يطلبه منه ربّه عزّ وجلّ .

فبهذه الصّورة ، أكونُ قد أخذتُ بيديكَ يا عزيزي القــارئ، وأطلعتُكَ على عناصرِ التدرّجِ الّتي تَضمَّنتها سبْع سورٍ مـــن ســور القرآن المجيد، والّتي تَحكي لنا شيئاً من قصّةِ آدم عليه السّلام . وهــي سور (البقرة ، الأعراف ، الحجر ، الإسراء ، الكهف ، طّه ، وصّ). هذه السُّورُ الّتي راحَ يكشفُ اللّه تعالى للقارئ فيها، وخطــوةً إثــر خطوة ، وبأسلوب بلاغيٍّ مُعجزٍ وفريدٍ ، عن أنّ نبيَّهُ آدم ، كان أوّلُ نبيٍّ اصطفاهُ ربّهُ رسولاً لتهذيب البشرِ مِمَّن آمنوا بهِ وكانوا من قبــلُ من سُكّانِ الكُهوف. فآدمُ هو أَوّلُ نبيٍّ اصطفاهُ ربُّنا لهذه المُهمّة مـــن بين بني نوع الإنسان . وبالإضافةِ إلى التّنبيهِ إلى أنّ آدمَ لم يكـــن أوّلَ

مخلوق خلقهُ اللّهُ عزَّ وجلّ . وبالإضافةِ إلى أنّ البشرَ كانوا مخلوقينَ من قبلِ بعثةِ آدم بزمنٍ طويل. وأنّهمْ كانوا يعيشونَ في الكهوفِ عيشةً كانت أقربَ إلى حالة التوحُّشِ منها إلى حالةِ الأنْسَنَة . وسيتبيّنُ لك يا عزيزي فيما بعد ، أنَّ البشرَ في تلك المرحلةِ من الزَّمان ، هم نفسُ البشرِ الّذين سمّاهم علماء (المُستحاثّات) ، وباللّغةِ الإنكليزيّة (Cave Man) أي سكّانُ الكهوف . وعلى هذه الصورةِ أكون قد وضّحتُ للقارئ الاختِلافَ الجوهريّ الأوّلَ ما بين ما أوردَتهُ التَّوراةُ المعاصرةُ من قصّةِ آدمَ ، وما بينَ ما أوردهُ القرآن الكريمُ من هذه القصّةِ وذلكَ في سبْعِ سُورٍ من سوره. الأمر الّذي يؤكّدُ لهذا القارئ اختلافَ القِصّتينِ ، وبصورةٍ يقينيّة . وأنّ قصّةَ آدمَ الواردُ ذكرُها في هذا الكتاب العزيزِ تُلقي الضَّوْءَ على تاريخِ البشر ، بما يتّفِقُ مع مُعطيات العِلمِ الحديث . وأنّ قصّة آدم الواردُ ذكرُها في التَّوراة ، يرفُضها العقلُ والعلمُ في وقتٍ واحدٍ أيضاً .

خَصوصيّةٌ قُرآنيّة

وقد تتساءلُ يا عزيزي القارئ عن السَّببِ الّذي دعاهُ تعالى لتوزيعِ عناصرَ قصّةِ آدم على سبْعِ سُورٍ ، ولِمَ لَمْ يأتِ اللّهُ تعالى بها في سورةٍ واحدةٍ من سُورِ كِتابهِ العزيز ؟ وعلى شاكِلَةِ ما هي مُدرجَةٌ في التَّوراةِ المعاصرة . فاعلم أنّ السببَ في ذلك يعودُ إلى خَصوصيّةٍ من خصائصِ هذا الكتابِ السماويّ المُقدَّس . وإنّها

لخصوصيّة تُميّزُهُ على سائرِ الكتبِ السماويّةِ السابقةِ ، وتدخـــلُ في باب إعجازه أيضاً .

فمنَ المُتعارَف عليهِ لدى جميعِ كُتّاب وأُدباءِ العالَم هو أنّـــهم لا يسيرونَ على هذا النَّهجِ القُرآنيِّ في مؤلّفاتِهم ، لَذلك لا يضطــرّ قارئ تلك الكتبِ إلى القيامِ بالبحثِ عن عناصرِ الموضـــوعِ هُنــا وهناك . أمّا هذا الكتابُ المقدّسُ فقد انفردَ بخصوصيّتةِ تلكَ ، لذلـكَ تَراهُ يُوزّعُ عناصرَ الموضوعِ الواحدِ في أكثرِ من سورةٍ من ســوره . ولذلكَ فقد أمرَ اللّهُ المؤمن في الوقتِ نفسهِ أنْ يتدبّرَ الآيات وِفْـــقَ مَنهجيّةٍ وأصولٍ بحثاً عن عنـــاصرِ الموضـــوعِ الواحـــد . ومـــن ثمّ ليَجْمعَها، وليخرُجَ من ذلك بكتابٍ مختصّ . ذلك لأنّ هذا القــرآن لم يترل من أجلِ مُعالجةِ أحوالِ زمنٍ بعينهِ ، ولكنّ اللّه العزيـــزَ قــد أنزلهُ ليفيدَ بِهِ النّاس قاطِبةً حيثُما وُجدوا وفي أيّ زمانٍ تَواجَدوا فيــهِ ، وإلى ما شاء اللّه تعالى . لذلك يستحيلُ جمعُ عنـــاصرَ موضـــوعٍ واحدٍ ، إلاّ في الموضِعِ المناسبِ لهُ وضِمـــنَ التَّسلسُـــلِ الموضوعـــيِّ للسّورةِ الواحدةِ التي تتضمَّنُ بدورها موضوعاً مُستقِلاً أيضا . وعليـهِ فإنّ الإنسانَ الّذي كانَ يجهلُ هذه الحقيقةَ من المفسّـــرين القدمـــاء الذينَ تصدّوا لتفسيرِ آياتِ هذا الكتاب المقدّس ، يلاحظُ البـــاحثُ المدقّقُ كيف أنّهم لم يُوفّقهُم ربُّهم إلى الإحاطةِ بكلّ موضوعٍ مـــن مواضيعِ القُرآن إحاطةً تامّة . ومن هذه المواضيع التي تاهوا في خِضـمّ بحرِها ، قصّةَ آدم بالذّات ، وعلى حسبِ ما سيثبتُ مـــن خـــلال مُعطيات كتابي هذا الذي أضعهُ بين أيدي القُرّاء. ولولا ضيقُ هــــذا

المقام ، لكنتُ توسّعتُ هنا في الكلام عن خَصائصِ هــذا الكتــابِ السماويّ المقدّسِ والمباركِ والمتّصفِ بالنّماءِ والدَّوام .

٢. الاختِلافُ الجَوْهَريُّ الثاني ما بين القصّتين

وبعد أن أمَطْتُ لكَ اللّثامَ عن الاختــلاف الجوهــريّ الأوّلِ الكائنِ ما بين قِصّتيَ آدمَ الواردتينِ في التَّوراةِ والقُرآن .أُحاولُ أنْ أكَشِفَ لعينيكَ الغطاءَ عن الاختلافِ الجوهريّ الثاني ليــتراءى لك ما بين هاتين القصّتين من اختلافات. ويتعلّق هذا بموضــوعِ ذاتِ اللّهِ نفسهِ حيثُ يزعمُ كاتبُ التَّوراةِ أنّ الإلهَ نفسَهُ كان قد جبلَ آدمَ من طينٍ ونحَتهُ ، ونفخَ في أنفهِ نَسْمةَ حَياة . فلو أنّكَ أمعنتَ نظــركَ فيما كتبَ ودقّقتهُ ، لتبيّنَ لك بصورةٍ جليّةٍ أنّ اللّــهَ تعــالى الــذي اصطفى آدم ، وعلى حسبِ ما أخبرنا به القرآن الكــريم ، يختلــفُ كلامُهُ كلّيةً عمّا ذهبَ إليهِ كاتبُ التَّوراة المذكــور، مــن حيــثُ موضوعِ ما يتَّصِفُ بهِ اللّهُ من صفاتٍ وقُدُراتٍ .

فأنْتَ تذْكرُ أنّ سِفْرَ التّكوين كان قد صوّرَ لعينيــكَ الإلــهَ الّذي خلقَ آدم كانَ صورَّهُ وكأنّهُ خرّيجُ إحدى كُلّيــاتِ الفُنــونِ الجميلة ، ونحّاتاً من الطراز الأوّل. وأنّ حَجْمَ الإلهِ المذكور يُقــاربُ حجْمَ آدمَ نفسه . كذلك يتبيّنُ لك أنّه أبرزهُ لعينيكَ على أنّهُ محــدودُ القُدُرات . ثمّ إنّك لو كنتَ تابعْتَ القراءةَ هناك ، لكانَ تبيّنَ لــك أنّ الكاتبَ صوّرهُ على أنّهُ يتْعبُ على شاكلةِ الإنسان ، ويحتــاج بعــد ذلك إلى الرَّاحة ، لِيسْتجمِع أنفاسه .

ولا أدعُ الدّهشةَ تسيطرُ على عقلِكَ ، وتظنَّ بالتَّالي أنّي مُتحاملٌ عليه فيما أنسبُهُ إليه . لذلك تَراني أنقلُ لك ما أوردهُ الكاتب المذكورُ في (٢/٣) من سفرِ التكوين ، قال : (فاستراحَ في اليومِ السابعِ من كلّ عملِهِ الّذي عمله . وباركَ اللّهُ اليومَ السابعَ وقدّسهُ ، لأنّه فيه قد استراحَ من كلّ عَملِهِ خالقاً). فهيّا تساءلْ معي يا عزيزي: وهل يحتاجُ الإله إلى الرّاحة ، إلاّ مَنْ كان ذو قُدرات محدودة ؟ ثمّ فكّر معي : فهل يُعقلُ أن يخلقَ الإلهُ المزعومُ آدمَ على صورتِهِ ، ولا يكونُ شكلُ هذا الإله المزعوم ، مُشابهاً لشكلِ آدم نفسه ؟ فهذه هي ملامِحُ الإله الّذي زعمَ كاتبُ سِفْرِ التَّكوين أنّه كان قد خلقَ آدم ، وابتدأ بهِ خَلْق هذا الإنسان .

والآن سآخذُ بيديكَ إلى هذا القرآن العظيم ، ولتَنْصت معي إلى ما تَتلوهُ علينا آياتهُ من أوصاف وقُدُرات يتحلّى بها اللّهُ الّذي اصْطفى آدم لتبليغِ رسالته . فها أنّهُ يَتباهى ويَتفاخرُ بما يحْملهُ من قُدُراتٍ لا تحدُّها حدود، وبما له من أوصافٍ لا يشبههُ بها أحدٌ من مخلوقاته ، فهو تعالى يقول في الآيتين التاليتينِ من سورة (قَ) : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ(٣٨)فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(٣٩)﴾** .

فإن أنتَ راجَعْتَ معجم (محيط المحيط) ، تعلمُ من خلالهِ أنّ كلمةَ (لَغوب) تعني التَّعبَ وشدّةَ العَناء . وأنّ كلمة (يوم) كانت

تستعملها العربُ لِتُعبِّرَ بها عن الوقت والحين . وعليهِ تتَّضحُ لك دلالةَ هذه الآية الكريمة، على أنّ اللّه تعالى يخبرنا فيها عـن نفسـهِ ، وأنّ قاموسَ حياتهِ وقُدراتهِ خُلْوٌ من كلمةِ التَّعبِ وشدّةَ الإعيـاء . وأنّـه خلق هذا الكون الذي لا نعرفُ له حدوداً، ومع ذلك ما مسّهُ تعـبٌ ولا جهد . فهل بإمكانكَ ، بعد الّذي اطّلعتَ عليهِ من خلالِ هـذه الآيةِ المذكورة ، أن تُقارنَ ما بين مُعطياتها ، وما بين مُعطيات سـفر التَّكوين ، في مَجالِ صفات اللّه وقُدُراته ؟ أم أنّك ستُسـلِّمُ معـي بوجودِ هذا الاختلافِ الجوهريّ الثاني الذي حدّثْتُكَ عنهُ ، والواقـعُ ما بين قصّتي آدم الواردتينِ في التَّوراة والقرآن العظيم ؟

٣. الاختلافُ الجوهريُّ الثالثُ ما بين القصّتين

ثمّ إنّكَ إنْ أنتَ نظرتَ بمنظارٍ علميٍّ إلى ما تضمّنـهُ سِـفر التَّكوين من معلوماتٍ بشأن كلامهِ عن موضوعِ خلـقِ اللّـه هـذا الكون. فستُلاحظُ جهلَ كاتبهِ حولَ علاقةِ النُّـور بـالظلام فيـه ، وبموضوعِ تناوُبِهما من جرَّاءِ وُجودِ النّظام الشمسيّ . فتعال اسـتمعْ إلى ما كتبهُ هناك . فهو قال : (في البدءِ خلـقَ اللّـهُ السـماواتِ والأرضَ ، وكانت الأرضُ خاويةً خاليةً ، وعلى وجه الغَمْرِ ظـلام . وروحُ اللّهِ يُرفرفُ على وجهِ المياه . وقال اللّه : لِيكُنْ نورٌ ، فكـان نور . ورأى اللّهُ أنّ النُّورَ حسنٌ . وفصل اللّهُ بين النُّور والظّـلام . وسمّى اللّهُ النُّور نهاراً ، والظّلامَ سمّاهُ ليلاً . وكان مساءٌ وكان صبـاحٌ يومٌ أوّل .)

فإن أنتَ دقّقتَ فيما قرأتهُ ، أفلا يتخيّلُ إليك أنّك ، وكأنّك تُطالعُ قصّةَ ألفِ ليلةٍ وليلة ؟ وأنّك لا تطالعُ كلاماً علميّاً ؟ فأينَ ما بتْنا نعلمهُ من حقائقِ هذا الكون الّتي كشفَ عنها العِلمُ الحديث ، وأين هذه المعلومات التي تبدو لنا وكأنّها جملةُ أساطير وخرافات ؟ ألا إنّ هذا هو نفسُ السّببِ الّذي دفعَ بعلماءِ الغربِ المسيحيّين أنفسهم لِيهجُروا الكنائِسَ ولِيُصبِحوا بالتّالي عِلمانيّين ، وعلى حسبِ ما هو معروف .

ثمّ إنّ قولَ كاتبِ السِّفْرِ المذكور : (ليكُن نورٌ ، فكان نور.ورأى اللّهُ أنّ النُّورَ حَسنٌ . وفصلَ اللّهُ بين النُّور والظَّلام) ، فقولهُ هذا يُشْعرني أنّ الإلهَ التّوراتيّ المذكور لربَّما كان يجري تجاربَ ومن ثمّ كان يستشعر أحاسيسَ نفسهِ وما يُلائمُها ممّا تُسفرُ عنهُ تلك التَّجارب . ولم يحاول خلقَ شيءٍ وِفْقَ خِطّةٍ وتصوّرٍ سابقَين .

كذلك فإنّي أستشعرُ شخصيّاً من قوله : (وسمّى اللّهُ النُّورَ نهاراً والظّلامَ سمّاهُ ليلاً) إنّما هو ادّعاءٌ فارغُ المحتوى العِلْميّ . فهل أنّكَ استشعرتَ نفسَ ما أنا شعرتُهُ ؟ وهل وقعَ في نفسكَ من هذه الأقوالِ ما قدْ وقعَ منها في نفسي ؟

ودعْ عنكَ الآن ما نقلتهُ لكَ وأسمعتُكَ إيّاهُ من الأقوال الّتي اشتملَتْ عليها قصّةُ آدمَ الّتي أوردها سفر التكوين المذكور . وأمْسكْ بِيدي لأشُدّكَ إلى حيثُ تُنصِتُ إلى كلامِ اللّهِ تعالى المُنْزَلِ في هذا

القرآن العظيم ، ولتُصغي لما أورَدَتهُ الآيـــةُ (٣٣) مـــن ســـورة إبراهيم، هذه الّتي يقولُ تعالى فيها :﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾ . أفلا تلاحظْ عمليّةَ الرَّبْطِ مـــا بين النِّظامِ الشَّمسيّ ، وما بين ما أسْفَرَ عنهُ مِن ليلٍ ونهار ؟ وكيـــف أنّه تعالى وضَّحَ المقصدَ المرجوَّ ممّا أبدعهُ وصنعه ، هذا الّذي عـــبّرتْ عنه كلمةُ (وسخّرَ) ؟ فأين هذه المعلومةِ العِلميّةِ الواقعيّةِ الّتي بيَّنـــها هذا القُرآنُ، ممّا قَرأتهُ مِن مَزاعِمِ كاتبُ قصّةِ آدم المُستقاةُ ممّا كتبـــهُ في سفر التّكوين؟ فهذا الاختلافُ الّذي يتبيّنُ من مَصـــدرَي : التَّـــوراة والقرآن، يبسطُ أمامَ ناظرينا اختلافاً جوهريّاً ثالثاً ، كائناً مـــا بـــين قصّتَي آدم الواردتين في هذينِ الكتابَيْن . خُصوصا إذا عِلمـــتَ يـــا عزيزي القارئ أنّ اللّهَ الّذي عرَّفَنا القرآن على أسمائهِ الحُسنى ، قـــد راحَ في سورةِ الرّحمن يُوضّحُ لنا ما يملكهُ تعالى من قُدرات مكّنتهُ مـــن ابتداعِ هذا النّظام الشمسيّ ، وذلك من خلال قوله تعـــالى فيـــها : ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(٥)وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْـجُدَانِ(٦)**﴾ ، وموضّحاً من خلالِ قولهِ المذكور مدى ما لِلّهِ تعالى مـــن قُـــدرات وتقنيّات مكّنتهُ من ابْتِداعِ هذا النِّظام الشمسيّ ، هذا النّظامُ الّـــذي ارتبطَ وجودُ النَّبات ، صغيرُهُ وكبيرُهُ ، وموضوعُ دَوامِ وُجودِهِ بـــهِ بصورةٍ عُضويّةٍ إلى أبدِ الآبدين . هذا ، وقد أضافت الآيـــةُ (٤٠) من سورة (يَس)، معلومةً علميّةً إضافيّةً من خلال ما أوردهُ تعـــالى فيها ، قوله : ﴿ **لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَـا اللَّيْـلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ .

وهكذا تعودُ يا عزيزي القارئ لا تملِكُ القُدرةَ على الزّعم باتّفاقِ القِصّتَينِ المذكورتَين .

٤.الاختلافُ الجوهَريُّ الرَّابعُ ما بين القِصّتين

وإن شئتَ الإطّلاعَ على اختِلافٍ جوهريٍّ رابعٍ ، فاستمعْ إلى ما أوردهُ كاتبُ سفر التكوين في الإصحاحِ الثَّالث منه (٥-١) : (وكانت الحيّةُ أحْيَلَ جميعِ حيوانات الحقولِ الّتي صَنعها الرّبُّ الإله . فقالتْ لِلمرأة : أيقيناً قال اللّهُ لا تأكُلا من جميعِ أشجارِ الجنّة ؟ فقالت المرأة للحيّة : من ثَمرِ أشجارِ الجنّةِ نأكلُ ، وأمّا ثمرُ الشجرةِ الّتي في وسطِ الجنّة ، فقال اللّهُ : لا تأكلا منه ولا تمسّاهُ كيلا تموتا . فقالت الحيّةُ لِلمرأة : موتاً لا تَموتان . فاللّهُ عالِمٌ أنّكُما في يومِ تأكُلانِ منه تنفتِحُ أعيُنكما ، وتصيرانِ كإلهٍ تعرفانِ الخيرَ والشرّ .) .

فاحفظْ يا عزيزي قصّةَ الحيّةِ هذه التي قصَّها علينا هذا الكاتب . واحفظْ ما رواه لنا من أقوالِها التي كذّبَتِ الحيَّةُ مِن خِلالها قولَ (الربّ الإله) واحفظ هذا الدّرسَ الّذي لقّنْتُهُ الحيَّةُ على حَوّاء ، والّذي لعبَ دوراً رئيسيّاً في حياةِ آدم وحوّاء . ولا تُشْغِلْ ذهنكَ وتعجَّبُ أنْ كيف يُعقلُ أن تتَفاهمَ الحيَّةُ معَ حوّاء بغير لُغَةِ تَفاهُم، وبأيِّ لغةٍ تمَّ هذا التَّفاهُم . ولا تتساءلْ عن كيف أكلَ آدمُ وحوّاءُ من الشجرةِ الممنوعةِ ولم يموتا ، الأمرُ الّذي أثبَتَ صِدقَ كلامِ الحيّة ، كما أثبتَ في الوقتِ نفسهِ كَذِبَ كلامِ الإلهِ المزْعوم .

فدعْ عنكَ جميعَ هذه المزاعمِ الأُسطوريّة جانباً . وأنصتْ إلى جميعِ ما سأتلوهُ على مَسامعكَ من آيات قرآنيّةٍ تعرّضَتْ لِذكرِ قِصّةِ آدم ، فسيتبيّنُ لك بكلّ جلاء أنّها خاليةٌ من جميعِ هذه الأمورِ الّتي أوردها كاتبُ سِفر التّكوين آنفاً . فلن تعثرَ في جميعِ هذهِ الآياتِ على كلمةٍ (حيّة) ، حتّى ولا على ما يشيرُ إلى قِصّتِها وأقوالِها .

فهاكَ ما وردَ في سورةِ البقرةِ بخُصوصِ قصّةِ آدم . فكلُّ ما وردَ فيها من ألفاظ مُلفتةٍ للنّظرِ ، فهي كلِمَتا (إبليس و الشيطان) . فإن أنتَ راجعتَ معي ما أوردهُ صاحبُ مِعجم (محيط المحيط) بشأنِ هاتين الكلمَتين. وهو المعجمُ الّذي جمعَ معلوماتهُ العالمُ المسيحيُّ المعروفُ وهو المعلّم بطرس البستاني . فستقرأ فيه أنّه قال : تقولُ أَبْلَسَ الرَّجُلُ ، ويكون معناهُ قلَّ خيرُ هذا الرّجلُ وانكسرَ وحَزِن . كما تقول أَبْلسَ من رحمةِ اللّهِ وبمعنى يَئِسَ وَتحيَّر. وهذه المعاني لا تمتُّ لقصّةِ (الحيّة) بصلةٍ من الصِّلات . وأمّا بشأنِ كلمةِ (شَيْطان) . فقد كتبَ صاحبُ المعجم المذكور يقول : الشيطانُ هو كُلُّ عاتٍ مُتمرّدٍ من إنسٍ أو جنٍّ أو دابّة . وأنَّ كلمةَ شاطَ تعني احترق .

فأمّا كلمةُ إبليس فستلاحظُ أنَّ القرآن الكريم أطلقَها على البَشرِ الّذي كفرَ برسالةِ آدم عليه السلام . والدّليلُ الّذي يَثْبُتُ منه مصداقيّةُ ما أقول ، تجدهُ في الآية (34) من سورة البقرة حيث قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى

وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾. فلاحظْ كيفَ أنَّ هذه الآية الكريمة وضَّحتْ لكَ أنّ (إبليس) كان من البَشرِ الّذين كفروا بآدم . وسُمّي كذلك لِقُنوطهِ من رحمةِ ربّهِ المُنزَلةِ على النَّبيِّ آدم عليهِ السّلام .

وأمّا كلمةُ (شَيْطان) فستلاحظُ أنَّ القرآن الكريم أطلقَها على نَفْسِ البَشرِ الّذي كَفَرَ وانْبرى لمقاومةِ آدم . فهذا البشرُ الكافرُ لم يقفْ عِنْدَ حدِّ اليأسِ والقُنوطِ من الرّحمةِ النّازلةِ ، بلْ خَطى خُطوةً أبشعَ منها ، وهي أنّهُ انْبرى لمقاومةِ ما أنزلهُ ربّهُ مِن رحمةٍ تمثّلتْ في رسالةِ آدم عليه السلام . والدَّليلُ الّذي تَثْبُتُ منه مِصداقيّةُ ما قلتهُ لك، تعثرُ عليه في نفسِ الآياتِ من سورةِ البقرة ، وذلكَ من بعد الآية التي أوردُها لك قبل قليلٍ بآيتين . فقد قال تعالى هناك ، ومُستبدلاً كلمةَ (إبليس) بكلمةِ (الشيطان) دلالةً على هذا المعنى الّذي أوْرَدْناه، قال : **﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾** . وهكذا تكونُ قد أدركتَ أنَّ هاتينِ الكلمتين : إبليس وشيطان ، قد استعملهُما آيُ الذّكرِ الحكيم على سبيلِ وَصْفِ حالةِ الكافرِ المذكور ليس إلاّ . وبسببِ انتقال هذا الكافرُ من حالةِ يأسهِ وقُنوطهِ ، إلى حالةِ تمرُّده وعُتوّه ليس إلاّ . فهذه ألفاظٌ قد وُصِفَ بها حالُ أوّلِ كافرٍ في تاريخِ البشر . هذا وإنَّ هاتَيْنِ الكلِمَتَيْنِ ما هُما بأسماء .

وعلى هذه الصُّورة أكون قد وضّحتُ لِعَيْنَيْكَ اختِلافاً جوهرياً رابعًا يَثْبتُ من خلاَلهِ اختلافُ قصّةِ آدم الواردة في التَّوراة

المُعاصرة عن قِصّتهِ الواردةُ في القرآن الكريم . فإنْ بقيِ في نفسكَ أيُّ شكٌّ بعده ، فلا أبخلُ عليكَ بإبراز اختلاف جوهري خامس ليُطَمْئِنكَ . هذا واعلمْ يا صاحِبي أنّ كلمةَ (آدمً) هي بِدورِها وَصْفٌ أيضا ، وَصَفَ اللّهُ تعالى بها أوّلَ نبيٍّ كريم .

٥.الاختِلافُ الجوهَري الخامسٌ ما بين القِصّتين

وتعالَ معي يا صاحبي إلى ما كتبهُ الكاتبُ المشار إليه في الإصحاح(١٨/٣) من سفر التكوين . حيث زعمَ أنّ كُرَتنا الأرضيّةَ الّتي نعيشُ على أديمِها ملعونةٌ بسبب (خطيئةِ) آدم وحوّاء . قال على لسان الرّبّ الإله : (فملعونةٌ الأرضُ بسببكَ ، بمشقّةٍ تأكلُ منها طِوالَ أيّامِ حَياتكَ ، وشوكاً تُنْبتُ لك ، وتأكلُ عُشبَ الحقول ، بعَرقِ جبينكَ تأكلُ خُبزاً حتّى تعودَ إلى الأرض . فمنها أُخِذْتَ لأنّكَ تُرابَ ، وإلى التُّراب تعود .) .

فأرجو ألاّ أكونُ قد أفزعتُكَ من خلالِ ما يفيدهُ النّصُّ المذكور.فتعود لا ترغبُ بالبقاءِ على سطحِ هذه الأرض ، وتعودُ تُفكّرُ جدّياً في مُغادرَتِها إلى المرّيخِ في إحدى السُّفُنِ الفضائيّة . فلا تفزعْ ، وتذكّرْ أنّكَ قرأتَ نصّاً من قصّةٍ توراتيّةٍ أسطوريّةٍ بعيدة عن الحقيقةِ والواقع ، ومن بَناتِ الخيال . وامْسكْ بطرف يَدَيَّ ، ولتُصغي معي إلى عكسِ ما سمعتَهُ آنفاً ، وذلك في آياتِ هذا الكتاب السماويّ الّذي أنزلهُ ربُّنا عزّ وجلّ لِيصحِّحَ من خلالِ ما تضمّنهُ من مغارفَ هذه المزاعمَ والأقوال .

فتعالَ إلى الآيةِ العاشرة من سورة فُصّلَت . فستسمعُ أنّ اللّهَ تعالى باركَ هذه الأرض ، ولَمْ يلعنْها كما لَعَنَها كاتبُ سِفر التّكوين قال تعالى :﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ**﴾. فها أنّ هذه الأرضَ هي مباركة ، لذلك إيّاكَ أن تُفكّرَ في الارْتحال إلى المرّيخِ أو إلى القَمر ، إلاّ للنُزهة ، فَكُرَتُكَ الأرضيّةُ بُورِكَ فيها ، ولم يَلعنها مُبدِعُها وصانعها .

وأُطَمْئِنُكَ أكثرَ ، بما أنقلهُ لكَ من الآيتين القرآنيّتين (٢١ــ٢٢) الواردتين في سورة البقرة ، حيث يُخاطبُ اللّهُ تعالى جميعَ النّاس ويقول :﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١)الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٢)**﴾. وعليه فالأرضُ في القرآن العظيمِ مُباركةٌ وفراشٌ مريحٌ أيضا . وشتّانَ ما بين أن تكونَ الأرضُ ملعونةً ، وما بين أن تكونَ مُباركةً وفراشاً . ولا أظُنُّكَ إلاّ أن تكونَ قد سلّمْتَ معي باختلاف قصّةِ آدم الواردةُ في التّوراةِ المعاصرةِ ، عن قصّتهِ الواردةُ في القُرآن المجيد .

حَقيقةُ التوراة المعاصرة

فلمّا يصلُ القارئُ معي هذا الحدِّ ، ستُدهِشهُ الحقيقةُ الّتي توصّلنا إليها ، ويتوجّهُ لِيسألني : ولِمَ لم نسمعْ بهذا من قبل ؟ وكيف غابتْ هذه الحقيقةُ عنِ المحقّقينَ السابقين ؟

وأُجيبُ بصورة مُجملَةٍ ، وهو أنّه قد حدثَ ذلك بسبب أنّ التّوراةَ والأناجيلَ كانتْ على شكلِ مخطوطات مُتداولةٍ بين أيدي الكَهنةِ ، ولم تَكُنْ مطبوعةً ولا مُتداولةً على الصَّعيدِ الشعبيّ . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان هؤلاءِ الكهنة يُوهمون عُلماءَ أمّتِنا من أنَّ القِصّتينِ واحدةٌ في الكِتابين .

فلمّا بدأ عصرُ الطّباعةِ ، وطُبعتِ التّوراةُ بأعداد كبيرة ، وتداولَها النّاسُ ، فَما حدثَ على حَدِّ عِلمي أنْ قامَ محقّقٌ بما قمتُ به الآن ، بسببِ أنّه لم تدعُ الضّرورةُ إلى ذلك . ودأبَ النّاسُ على تقليدِ الّذينَ قبلهمْ ببساطةٍ تامّة .

أمّا وقد جلستُ أكتُبُ عن موضوعِ خَلْقِ الإنسان ، وقمتُ بهذا التّحقيق ، فقد اتّضحَتْ لِعينيَّ هذه الحقائقُ الّتي بسطتُها بين يَديْك . ولتُدرك بالتّالي أنَّ التّوراةَ المعاصرة ما عادتْ تصلحُ مرجعاً للمُحقّقين في البحثِ الّذي تناولتهُ في هذا الكتاب .

وأزيدُكَ عِلْماً بحقيقةِ التّوراةِ المعاصرة ، وأقول : هل لاحظتَ أنّي دأبتُ على استعمال ألفاظ (كاتبُ سِفْرِ التّكوين) ؟ فأنا كُنتُ أكتبُ ذلك، من مُنطلقِ أنّ هذه التّوراة المُتداولةِ بين أيدينا ، والّتي هي عبارةٌ عن مجموعةِ أسفارٍ ، قد سبق أن ألّفها أشخاصٌ ، فما هي

بأسْفارِ كلامٍ سماويٍّ مُنزلٍ كالقرآن الكريم . فلا يصِلُ تاريخُ تـــأليفِ هذه الأسفارِ إلى زمنِ موسى عليه السّلام . والدَّليلُ علـــى صِحَّـــةِ ومِصداقيّةِ ما قُلتهُ ، هو اعترافُ أهلِ التَّوراة أنفُسهُمْ بهذه الحقيقـــة . فقد أصدرَتْ جمعيّاتُ الكتابِ المقدّسِ في المَشرِق ، وعن دار المشـــرق في بيروت عام /١٩٨٩/ ميلاديّة ، ترجمةٌ مُصحّحةٌ ، وتساءلوا فيـــها على الصَّفحةِ التَّاسعةِ والعشرين : (ما هو الكتابُ المُقدّس ؟) وأجابوا بأنفسهم على السؤال المذكور ، فقالوا: (لا تكفي نظرةٌ نُلقيها علـــى الفهرسِ لنرى أنّه — أي الكتاب المقدّس التَّوراة — (مكتبـــة) ، بـــلْ مجموعةٌ كُتُبٍ مُختلفةٍ جدّا . وإن رجعنا إلى مداخِلِ هذه الكتُـــب ، تأكّد لنا هذا الانطِباع . ذلك أنّها — أي أسفار التَّوراة — تمتدُّ علـــى أكثر من عشرةِ قرون . وتُنسبُ إلى عشراتِ المؤلّفـــينَ المختلِفـــين . بعضُها وُضِعَ بِالعبريّة (مع بعض المقاطع بالآراميّة) ، وبعضُها الآخـــرَ باليونانيّة . وهي تَنتمي إلى أشدِّ الفنون الأدبيّة اختلافـــاً . كالرِّوايـــةِ التاريخيّة ، ومجموعةِ القوانين ، والوعظُ والصَّلاةُ ، والقصيدةُ الشعريّة، والرِّسالةِ والقصّة . وعمّنْ صدرَ الكتابُ المقدّس ؟ صَدَرَتْ جميعُ هذه الكُتب عن أناسٍ مُقتَنعين بأنَّ اللّهَ دعاهُم لِتكوينِ شعبٍ يحتلُّ مكانـــاً في التَّاريخ بتشريعِهِ ومبادئِهِ في الحياةِ الفرديّةِ والجماعيّة . .).

فهذا كما أراهُ يُعتبرُ اعترافاً واضحَ الألفاظِ من قِبَلِ هـــؤلاء وإقرارٌ بأنَّ التَّوراةَ المعاصرةُ المطبوعةُ المُتداولةُ لا تعودُ إلى زمنِ موســى عليه السلام . وقد كتبَ أسفارَها أشخاصٌ أمثالُنا . لذلك تَنوّعـــتْ

هذه الأسفار أدبيّاً وموضوعيّاً على ما لاحظَهُ أهـــلُ هـــذا الكتـــاب أنفُسُهُم .

فهذه هي حقيقةُ التَّوراة المعاصرة ، ولذلك وردتْ قصّةُ آدم فيها مُشوّهةً ، وعلى النَّحوِ الّذي لاحظناه . وقد أنزل اللّـــهُ تعـــالى آياتِ هذا القرآن العظيم لتُصحِّحَ ما رُوِيَ من هذه القصّةِ في ســـــفرِ التَّكوينِ المذكور، لصلتِها برسالةِ أوّلِ رسول بعثهُ اللّهُ تعالى من أجـــلِ نقلِ البشر من سُكنى الكهوف نقلةً نوعيَّة ، ولتهذيبهم بما أنزلهُ ربُّـــهُ عليهِ من تعاليم . وهكذا تَكونُ التَّوراةُ المعاصرةُ قد فقَدَتْ مِصداقيّتَـها كمرجعٍ دينيٍّ بما يتعلّق بقصّة آدم عليه السلام . وإلاّ ، فلو أنّ ما رواهُ سفرُ التكوين من قصّة آدم وحوّاء كان حقيقيّاً كان قـــد اتّفقـــتْ معلوماتُهُ مع ما أوردهُ القرآن الكريم من معلوماتٍ ، وما دامَ مصـــدرُ القِصّتينِ واحداً .

واعلم يا عزيزي القارئ أنّ اللّهَ تعالى الّذي أنْزلَ هذا القُـرآنَ العظيمَ قد نبّهَنا تعالى فيه إلى ما وقعَ في التَّوراة من تشويهٍ لقِصصِـه ، ولذلك تُلاحِظْه تعالى قد نبّهَنا في الآيةِ الثّانيةِ من سورة يُوسف وقال: **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُـــرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ.﴾** . فنبّهَ تعالى من خـــلال كَلِمَـــةِ (أَحسن) إلى أنّ قِصصَ هذا القرآن هي أفضلُ ممّا أوردتـــه الكتـــبُ السابقةُ ، من حيثُ الصِّياغةِ ومن حيثُ المضمون أيضاً . كما نبّـــهَ تعالى من خلال كلمةِ (الغافلين) إلى الحذرِ من تناولِ قِصـــصِ تِلـــكَ

الكُتُبِ بدون تحقيقٍ ولا تَدقيق . ففي معجم (محيط المحيط):غفل عنه معناه تركهُ وسها عَنه .

كذلك تُلاحظهُ تعالى قد أطلَعَنا في الآيةِ (١٣) من سورة الكهف على قصّةِ أهلِ الكهف ، فهو تعالى قال : ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾أي نقُصُّ عليكَ قِصَّة أهلِ الكهفِ بالصِّدق والقولِ الثّابت . فهذا هو معنى الحقّ (محيط المحيط) .

ثمّ إنّكَ لَوْ راجَعتَ الآية (٧٦) من سورة النّمل ، تلاحظُ أنّ اللّهَ تعالى يُخاطبُ بنو إسرائيل فيها ويقول : ﴿**إنّ هذا القُرآن يقُصُّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مُختلفون**﴾ . ويقول في الآية (٤٨) من سورة المائدة : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مُصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومُهيمناً عليه ..**﴾ . فمعنى (مُهيمناً عليه) أي رقيباً عليه وحافظا (محيط المحيط).

وعليه ، فلولا أنْ أنزل اللّه تعالى هذا الكتاب العزيز ، المُصحِّحَ والمُهيمنَ على الكُتبِ السماويّةِ السابقةِ الّتي حرّفَها أهلُها ، والمنسوخةُ ، لكانتْ قِصصُ الأنبياءِ السابقين وتعاليمُهم قد أمْسَتْ في خَبرِ كانَ ، ولَعادَ النّاس يَشُكّون في مِصداقيّتهم ومِصداقيّةِ ما كانوا قد أتَوا بهِ من رسالاتٍ سماويّة ، بسبَبِ هذا التُّراثِ المُتداولِ بين أيدي أتباعِهم المعاصرين .

وفي نهايةِ هذا الفصْلِ ، أُذكّرُك يا صاحبي بأنّ ما لفتُّ نظرَكَ إليه في هذا الفصلِ الثّاني من هذا الكتاب ، فقد كانت الغايةَ منه تصحيحُ أفكارَكَ المُتوارثة ، ومن أجل أن أبدأ بحثَ موضوع خلق الإنسان على أرضيّةٍ سليمةٍ ، ومن مَصْدَرٍ سليمٍ أيضاً .

❁❁❁

الفصلُ الثّالثُ

١ . ضرورةُ الأخْذِ بالمُعْطَيات العِلْمِيّة :

والآن أنعِمْ بالاً يا عزيزي القارئ بعد أنْ أسقطْتُ من عينكَ مرجعِيَّةَ التَّوراةِ المُعاصرة ، فهيَ بعد الّذي بينتُهُ لكَ من سلبيّاتِها فقد عادتْ لا تصلُحُ مرجعاً مَوْثوقاً لِبَحْثِ موضوعِ خَلْقِ الإنسان ، وقد عادَ هذا القرآنُ العظيمُ وحدهُ وهو المُتداوَلُ مُنذُ أربعة عشر قرناً هو المرجعُ الدّينيُّ المَوْثوقُ الّذي يُرجَعُ إليه . ثُمَّ لا ينبغي لك أنْ تظُنَّ بالتَّالي أنّي سأعودُ بكَ إلى ما أورَدَتْهُ كُتبُ التّفاسيرِ القديمةِ بشأن هذا الموضوع . بل إنّك ستَراني أستَدِلُّ بآياتِ هذا القرآن ، وفْقَ مَنهجٍ وأُصولٍ اشتَمَلَتْ عليها آياتُ هذا القُرآن العظيم ، ومُنطَلِقاً من المُنطَلَقِ الذي سبق لي بيانُهُ من قبلُ ، والّذي يتمثَّلُ باحترامِ الحقائقِ العِلمِيَّةِ الّتي تتَكَشَّفُ على أيدي العُلماءِ المُختَصّين .

ذلكَ أنَّ من أُصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن العظيم ، خُصوصاً على صَعيدِ الزّمنِ الماضي ، وعلى شاكِلَةِ ما هو الحالُ في بحث موضوعِ خَلقِ الإنسان ، هذا الذي يتعلّقُ بزمنٍ ماضٍ سحيق ، فمن أُصول تفسيرِ الآياتِ العائدة لهذا البحث ، أنْ نَسعى إلى تفسير كُلِّ آيةٍ تَمُتُّ إلى هذا البحثِ بصلةٍ من الصِّلات ، أنْ نسعىَ إلى تفسيرِها على ضَوْءِ مُعطَياتِ حقائقِ العِلمِ العائدِ إليها ومُكتَشَفاتِه .

وقد تقولُ أنّك ما سَمِعْتَ من أحدٍ من عُلماء التَّفسير طرْحاً يُماثِلُ الطَّرحَ الآنفَ الذِّكر . وأنا أعذُرك من جانبي أيضاً . بسبَب أنّه لَمْ يفطَنِ المُفسّرون القُدماءُ إلى هذه النُّقطةِ بالذّات من قبل. خُصوصَاً وأنّ عِلْمَ المُستَحاثّات ،وهو عِلمٌ مطَلوبٌ الرّجوعُ إليهِ بشأنِ موضوعِ خلقِ الإنسان، فلم يكُنْ لِهذا العِلْمِ من وُجودٍ في أزْمِنةِ المفسّرين القُدماء .

وأنتَ إن شِئْتَ الاطّلاعَ على علمِ أصولِ تفسيرِ آياتِ القُرآن الكريم ، فما عليك إلاّ مراجعةُ مؤلّفي (أصولُ التّفسير) . أمّا إذا كنتَ تتعجَّلُ ، وترغبُ إليّ أن أدُلّكَ على مَرجعيّةِ الأصلِ التّفسيريِّ الّذي يُؤكّدُ لك ضرورةَ الاستعانةِ بمُعطياتِ علمِ المُستحاثّات المذكور . فما عليكَ إلاّ أنْ تُصغي إلى الآيتين التاليتين من سورةِ الفُرقان الّتي يقول تعالى فيها: **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا(٥٨)الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(٥٩)﴾** .

فموضوعُ هذه الآية الكريمة انقسمَ بفاءِ (فاسألْ بهِ) إلى شَطرَين . وقد وجّهَ اللّهُ تعالى ذهنَ قارئ هذه الآية الكريمة ، وذلك في الشّطرِ الأوّلِ إلى موضوعِ خَلْقِهِ السّماواتِ والأرضَ وما بينهُما ، خلالَ ستّةِ أدوارٍ زمنيّةٍ، الأمرُ الّذي إذا ثبتَ عِلْمِيّاً يعودُ يشكّلُ دليلاً قاطعاً على كونِ اللّهِ هو خالقُ هذه السّماواتِ والأرضَ وما بينهُما وأنّهُ يتّصفُ بالحَياةِ الدّائمةِ ورحماناً أيضاً ، بمعنى أنّه يملكُ قُدُراتٍ لا

تحدُّها حدود . وقد صاغَ تعالى هذا الشطر الأوّل من الآية بصيغةِ التّقريرِ القاطعِ الجازمِ .

وفي الشّطرِ الثّاني من الآيةِ ، أي (فاسأَلْ بِهِ خبيراً) ، فقد وردتْ صياغتُهُ الأدبيّةُ الإنشائيّةُ لطلبِ الاستِخْبار ، الذي يتعدَّى إلى مَفْعولين : المفعولُ الأوّل يتعدّاهُ بنفسهِ ، كما هو الحال في هذه الآية الكريمة . ويتعدّى إلى المفعولِ الثّاني بالباء وبمعنى (عن) كما هو واردٌ فيها أيضاً (راجع معجم محيط المحيط) .

فالتّقديرُ والمعنى هو أنَّ اللّهَ الحيَّ الرَّحمان يدفعُ بهذا القارئَ لِيَسْتفسرَ عن مِصداقيةِ ما أعلنهُ تعالى بشأنِ الخلقِ وأدوارِه المُشارُ إليها في هذه الآيةِ هو الاستفسارُ مِن عُلماء الطّبيعةِ المُختَصّين الّذين يُعاصرونهُ ، وهمُ الّذينَ سمّاهمُ اللّهُ تعالى (خبيرا) أي مُختصّين بعِلمِ هذا الموضوعِ في هذا المقام .

وعلى هذه الصُّورة ، فقد أخطأ الّذي أعادَ ضميرُ (به) هنا إلى جهةٍ غير الجهةِ التي ذَكرناها . وأُضيفُ وأقول : إنّ طلبَ الاستفسارِ المذكور ، قد قُصِدَ بِهِ الإشارةَ في زماننا الحاضر إلى عُلماءِ الطّبيعةِ وطبقاتِ الأرض المُختَصّين الغربيّين الّذين اتَّخذوا لِلّهِ ولداً بدونِ دليلٍ مَقبول.فمنْ شاءَ التوسُّعَ في هذا البحث ، فليُراجع كتاب (أصولُ تفسيرِ القرآن الكريم) وكتابَ (النَّظريّةُ الكونيّةُ حولَ خلقِ العالم) .

فاللّهُ تعالى دفَعَكَ يا صاحبي لِترجعَ إلى الحقائقِ التي ثبتَتْ بِطريقِ عُلماءِ هؤلاءِ المُختصّين ، ولِتَستَوثِقْ من خلالِ مُعطياتِ هذه

الحقائقِ الّتي حَصلوا عليها بوسيلةِ ما توفّرَ لهُم من تَقنيّات حديثةٍ ، أن تستخبرَ ممّا علِموه عن مدى صحّةِ ما أوردَتْهُ هذه الآيةُ الكريمة مــن خبرٍ مُتعلّقٍ بالأدوارِ الزّمنيّةِ التي مَرَّ بها خلقُ وتطَوُّرُ هذه السّـماوات والأرض وما بينهما . وهو هذا الخبرُ القُرآنيُّ الواردُ في هــذه الآيــة الكريمة بصيغةِ التّقريرِ والجزم . هذا الأسلوبُ الإنشائيُّ الّذي يتضمَّنُ تحدّياً صارخاً في وجهِ هؤلاء الّذين اتّخذوا للّهِ ولــداً مــعَ أنَّ هــذه الحقائقَ قد تكشّفتْ على أيديهم أنفُسهم . هذه الحقائق الّتي ثبتَ من خلالها مِصداقيّةَ ما أورده هذا القرآن العظيم قبلَ أربعةَ عشر قرناً مــن الزّمان .

وبهذهِ المُناسبة ، آخُذُ بيدكَ لِتطّلِعَ على معنى (خبيراً) بقلــمِ صاحبِ مِعجم (محيط المحيط) فقد قال: (الخبيرُ هو الشخصُ ذو الخِبرةِ التّامّةِ العارف بكُنهِ الشّيءِ وحقيقتِه) . ولا يوجدُ في زماننــا هــذا (خبيراً) هو على هذا المُستوى من الخِبْرَةِ إلاّ عُلماءُ الغرب ، والموجّــهُ إليهِم هذا التّحدّي المذكور في الآيةِ الكريمةِ من سورةِ الفُرقان .

وإنَّ الّذي يهُمُّنا من ذلك كلّهِ يا عزيزي هو أنْ تُسلِّمَ معــي بأنّ فقرةَ (فاسأل بهِ خبيراً) ،أنّها وضَعتْ لنا أصلاً تَفسيريّاً لِنتَقيَّدَ بــهِ عندَ تَصَدّي أحَدُنا لِتفسيرِ آياتِ هذا القرآن العظيم المُتعلّقةِ مضامينُــها بموضوعِ عِلمٍ من العُلوم أنْ يعودَ إلى الاستعانةِ بمُعطَيــات العلــومِ المُختصّةِ لفهمِ مضمونِ كلٌ منها بِأسلوبِ عِلميٌ . وما دُمنا نَبحثُ في موضوعِ خلقِ هذا الإنسان الّذي خلقَهُ الخالق في الأزمنة الماضيةِ ، فلا سبيل أمامنا إلاّ أن نستعينَ بِعلمِ ما يُسمّونه (علــم المســتحاثات) ،

ولِتُساعدُنا مُعطياتُ هذا العِلْمِ على الإحاطَةِ بِمضامينِ تلك الآياتِ الكريمةِ إحاطةً صحيحةً وواقِعيّة .

٢. التَّطوُّرُ العِلميُّ يخدُمُ الفِكْرَ القُرآنِيَ

وقد تسألني ، ولسانُك يتلعْثمُ : أفلا تخشى أن يكشفَ العِلمُ الحديثُ عن حقائقَ تُخالفُ مُعطيات آياتِ هذا القرآن الكريم ؟ خصوصاً وأنّهُ مُنزلٌ قبل أربعة عشر قرناً من الزَّمان .

وأهدِّئُ من روْعِكَ يا صاحبي وأقول لك : مَهْلاً ، أفلا تَذكرُ أنّي سبقَ لي أن نبّهتُكَ إلى أنّ الدِّينَ والعِلمَ لا يَصْطدِمان، بِسببِ أنَّ قولَ اللّهِ وصُنعَهُ يكونُ واحداً ، مادام مصدرُهما واحدٌ .

وأُضيف إلى ما ذكرتهُ آنفاً ، لأزيدكَ علماً ، بأنّ الأمرَ هو على عَكْسِ ما تخشاهُ تماماً . فالتطوّرُ العلميُّ يخدِمُ الفكرَ القرآنيّ الحقَّ المُنقّىَ من شوائبِ الأهواءِ والمصالح ومن مُنطلَقِ أنَّ هذا القرآنَ يَصْلُحُ لكلِّ زمانٍ ومكان .

وأُوضِّحُ لكَ هذه الحقيقة بمثال أسْتقيهِ لك من الآية (٣٢) من سورةَ الأنبياءِ الّتي قالَ تعالى فيها : **﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾** . فابنُ كثيرٍ رحمهُ اللّه ، وهو الّذي ما كان قد اطّلعَ على ما كشفهُ العلمُ الحديثُ ، فهو فَهِمَ من خِلالِ كلمَتي (سقْفاً محفوظاً) دلالتُهُما على وجودِ قُبّةٍ سماويّةٍ مُزخرفةٍ بالكواكِب . أمّا نحنُ الّذين التزَمْنا بالأصلِ التّفسيريِّ الّذي تضمَّنهُ أمرُ ربِّنا عزّ وجلّ (فاسأل به خبيراً) ، واسْتعنّا بِما كشفَ عنهُ علمُ

الفَلكِ الحديثِ من حقائقَ كونيَّةٍ ، فلا نَعودُ نرى تفسيرَ ابـن كثـير رحمهُ اللّهُ مُرضياً وشافياً ووافياً . بل نفهمُ من قولهِ تعـالى (سـقفاً محفوظاً) ، دلالتُهُ على طبقةِ (الأوزون) المحيطةُ بالأرض ، والّتي تكُـفُّ عنّا أذىَ أَشعّةِ الشمسِ فوقَ البَنفسجيّةِ الّتي ثبتَ أنّها تَتسبّبُ بسـرطان الجِلْد . خصوصاً وأنَّ ابن كثير نفسهُ كان قد أوردَ في تفسيرهِ قـولاً لرسول اللّهِ ﷺ يؤكّدُ ما فهِمْناه من (سقفاً محفوظاً). فقد قال (ص) : إنّهُ موجٌ يُكَفْكَفُ عنكُم . عِلماً بأنّ الأشعّةَ تُعتَبَرُ من قَبيلِ الموج.

وعليه ، فإنَّ التَّفسيرَ القديمَ لا يتَّفِقُ مـعَ مُعطيـاتِ هـذه الحقيقةِ العِلميَّةِ وقد بات أقلُّ شأناً في نظرِ الباحثِ المحقِّـق . فلـم تُخالف مُعطياتُ حقائقِ العلمِ الحديثِ ما هو واردٌ في كتـابِ اللّـهِ تعالى ، بل على العكسِ من ذلك فقد أعانت هذه الحقـائقُ علـى شرحِ الآيةِ الكريمةِ وبأُسلوب عِلمي .

ألا إنّ المؤمنَ الذي يخشى مُعطيات العلم . أُرَجِّحُ أنْ يـدُلَّ ذلكَ على ضَعفِ إيمانه ضعفاً فهو يتناقضُ مع نفسهِ ، وكأنَّهُ يُثبِـتُ بفعلهِ المذكور أنَّهُ لا يعتقدُ أنَّ مصدرَ هذا القرآن وهذا الكون واحدٌ.

والآن وقد استْأنسْتُ بمُوافقتِكَ على جميعِ ما ذكرتُه لـك ، وبتَّ تعتقدُ معي يا صاحبي أنّ التطوّرَ العِلميّ يخدمُ الفِكرَ القُـرآنيّ . لذلك أدعوكَ لِتَستريحَ معي من عناءِ هذا الشوطِ الأوّلِ من رَحلَتِنـا على طريقِ الكلامِ عن موضوعِ خَلْقِ الإنسان .

٣ . فكرةٌ خاطفةٌ حَوْلَ العُلومِ الحَديثَة

فاعلمْ يا عزيزي القارئ أنّ اختراعَ الآلةِ البُخاريّةِ في أوروبة رافقَ ذلك هُناك نهضةٌ في شتّى مجَالاتِ العُلوم . وقد هَيْمَنَ على فكرِ العلماءِ الأوربيّين أسلوبُ تفكيرٍ مادّيٍ محضٍ، وسببُهُ انتشارُ المقولات المادّية وطرْحُ نظريَّةَ دارونٍ وآراءَ عالمِ النَّفس فرويْد .

ففي حين كان علماءُ القرنِ التّاسع عشر يأملونَ أن تَرْسَخَ جذورُ نظريّاتهِم في القرنِ العشرين . فقد حدثَ عكسَ ما كانوا يَرْجونه . حيث تطوّرتْ التقنيّاتُ والعُلومِ تطوُّراً عظيماً وإلى درجةٍ قَلَبَتْ المفاهيمَ القديمةَ ، ونَشأتْ علومٌ جديدةٌ في مجالاتِ الفيزياءِ الذرّيةِ والكوزيولوجيا ومباحثِ الأعصابِ وجراحةِ الدِّماغِ وعلمِ النَّفس الإنساني ، إلى جانبِ تَطوُّرِها على صعيدِ علومِ الطَّبيعةِ والحيلةِ والآثارِ وعِلمِ طَبقات الأرضِ وغيرها من العلُوم . وهكذا تبدّلتِ النَّظرةُ القديمةُ إلى الكَونِ وما فيه ، تلك النظرةُ الّتي كانت قد تأسَّستْ على فِكرٍ نَظَرِيٍ محض ، وليسَ على تجاربَ واستِنتاجات . على حين أنّ العُلومَ الحديثَةَ المُعاصرةَ قد أُرسِيتْ على أساسٍ من المُلاحظةِ والتَّجرُبةِ والاستِنتاج . هذه الأسسُ الّتي جَعلها ربُّنا عزّ وجلّ عاملاً مُساعداً لِيُساعدَ عُقولِنا على إصدارِ أَحْكامٍ سَديدة في شَتّى المجالات المادّية . أي أنّ علومَ القرنِ التّاسعِ عشر اعتمدَتْ الفِكْرَ النَّظَريَّ المحضَ ، على حين أنّ علومَ القرنِ العشرين استعانَتْ بتَقنيّات

مُتطوِّرَة راقيةٍ ومُذْهِلة . (راجع كتاب نظريـــةُ جـــذورِ الأخـــلاق للإطّلاعِ على العواملِ المساعدة للحَواس) .

وعليه ، فإنّ العُلومَ المُعَاصرةَ القائمةُ على الأسُسِ المســـاعدة الّتي ذكَرناها ، قد أتَت بحقائقَ ، ولم تأتِ بتُرّهـــات . ولذلـــك لا يعقلُ أنْ تَصطدمَ إحدى حقائقُها مع مُعطياتِ الآياتِ القرآنيّةِ الّـــتي هيَ أقوالٌ صَادِرةٌ عنْ فاطرِ هذا الكوْنِ الماديِّ اللّانهائيّ .

وعلى هذه الصورة ، فأنا لا أدعوكَ يا صـــاحبي لتخضَـــعَ لِنظريّات فكريّةٍ مُجرّدة عن عواملِها المساعدة . ولكني أدعوكَ لتـأخُذَ بالحقائقِ الثّابتةِ الّتي تكشّفَ عنها العلمُ التجريبيُّ . وإنَّ دَعْوَتي هذه مـا هيَ بدَعوةٍ شخصيّةٍ ، ولكنّها دعوةٌ صَدرَتْ عن أمرِ اللّهِ خالقنا الّذي أمَرَنا وقال:(واسأل به خَبيراً) وعلى حسبِ ما سبقَ لي أنْ وَضَّحْـــتُ لكَ من قبل .

هذا وأنا ما قدّمتُ لك هذه الفِكرةَ الخاطفةَ عـــن التطـــوّرِ العلميِّ ، إلاّ لأُقوّي هِمّتكَ ، ولِتستجمِعَ أنْفاسكَ ، وتعودُ تُصغـــي إلى ما تَكشّفَ عنهُ علمُ المُستحاثّات بشأنِ الإطّلاعِ على تـــاريخِ نُشـــوءِ الإنسانِ وعلى أدوارِ تطوّرِهِ خلالَ عُصورِهِ الحجَريّةِ وما بعدهـــا وإلى يومنا الحاضِر.

ولا بأس أن أُلخّصَ لكَ في نهايةِ استراحتِنا الأولى هذه كُلَّ ما تكلّمنا عنهُ في الفصولِ الثلاثةِ الماضية ، لِنَنطلقَ معاً ، وأنـــتَ تحمِـــلُ تصوّراً كاملاً حولَ جميعِ ما بحثناهُ حتّى لحَظتِنا هذه .

فتذكّرْ يا عزيزي أنّي حدّدْتُ لك في البدء ماذا أعني من كلميّ خَلْقِ الإنسان . ومن ثُمّ أعطيتُكَ فكرةً عامّةً عمّا سيتضمّنُهُ هذا الكتاب . ونبّهتُكَ في الوقتِ نفسهِ إلى أنّ هذا الموضوعَ شائكٌ وعسيرٌ ، وتتطلّبُ قِراءتهُ صَبراً من القارئِ وتؤدةً وعدمَ تَسرُّعٍ في إصدارِ الأحكامِ عليهِ . كما نبّهتُ ذهنكَ إلى أنّهُ يستحيلٌ أن تصطدمَ حقائقُ ما يكشفُ عنهُ العِلمُ الحديثُ مع مُعطيات آياتِ هذا القرآن الكريمِ الصّالحِ لكُلِّ زمانٍ ومَكان. بسبب أنّ آياتَ هذا القَرآن تمثّلُ قولَ اللّه ، وأنّ هذا الكونَ الماديَّ من حولِنا هو من صُنعِ اللّهِ وإبداعه . فالقولُ والصُّنعُ لا يَتعارضان ما دام مَصدرهُما واحدٌ وهو ذاتُ اللّهِ عزّ وجلّ . ومن ثمّ عرَّجْتُ بكَ على قصّةِ الخلق الواردة في التّوراة المُعاصِرة. وأبرزتُ لِعينيكَ خمسَةَ اختلافات جوهريّةٍ تختلفُ القِصّةُ التّوراتيّة فيها معَ مُعطَيات قصّةِ آدمَ القُرآنيّةَ . ومن ثُمّ علّلتُ لكَ أسبابَ ذلك ، وبشكلٍ موضوعيٍّ أيضاً . وكشفتُ لك عن حقيقةِ أسْفارِ ما يُسمّونَهُ بالعَهدِ القديم . فهذا ما تضمّنهُ الفَصلان الأوّلُ والثّاني .

أمّا في الفصلِ الثّالثِ فقد أثبتُّ لك ضرورةَ الأخْذِ بحقائق العلمِ الحديث. كما وضَّحتُ كيفَ أنّ التّطوّرَ العِلميّ يخدمُ الفِكرَ القُرآنيّ الخالصَ من الشّوائبِ والأهواء . ورحتُ فأعطيتُ القارئَ فِكرةً خاطفةً عمّا تطوّرتْ إليه العُلوم في القَرن العشرين .

فإن ساعدكَ هذا التّلخيصُ يا عزيزي القارئ، وشعرتَ بعُلُوِّ الهِمّةِ ، فهيّا شُدَّ الحِزام ، لِنبدأ رحلةً جديدةً على طريقِ موضوعِ خَلْقِ هذا الإنسان.

الْفَصْلُ الرَّابع

١. ما هِيَ حَقيقَةُ عِلْمِ المُسْتحاثّات ؟

فأوّلُ ما أراكَ تُريدُهُ منّي هو أن أُعطيكَ فِكرةً واضحةً عن علمِ المُستحاثّاتِ وعنْ تاريخِ نُشوئِه .

فاعلمْ يا عزيزي أنَّ هذا العلمَ هو العلمُ الّذي يبحثُ علماؤهُ عن حقيقةِ تاريخِ وكيفيَّةِ نُشوءِ هذا الإنسان المعروف وعن كيفيّةِ تطوّرِه . ويُسَمّى هذا العلم وبِلِسانِ أهْلِه (Pantalogy) .

وأنا أخَذْتُ بمُصطلح (مُستحاثّات) ممّ أوردهُ الدكتور سُلطان محيسن ضمنَ ترجمتِهِ كتاب (أفريقيا وأصلُ الإنسان) . ولربّما اشتقَّ صاحبُنا هذا المُصطلَح من قولك: حثا التُرابَ على القبرِ بمعنى صبَّهُ فوقَه . عِلماً بإنّ هذه الكلمة لا تُفيدُ معنى: صبَّ التُّرابَ وحَسْب ، بل وتفيدُ معنى: رفعُ التُّراب أيضاً على عكسِ قولِكَ: هالَ التُّرابَ عليه ، الّذي يعني صبّهُ و لم يرفَعْهُ (محيط المحيط).

وعليه فلربّ أنَّكَ عُدتَ تُدركُ يا صاحبي وذلك من خلالِ ما وضّحتُهُ لك آنفاً أنَّ اهتِمامات عُلماء المُستحاثّات هو أنْ يسْعى هؤلاء لإجراءِ عمليّاتِ حَفْرٍ بغايةِ محاولةِ الكَشْفِ عمّا هو مدفونٌ في باطنِ الأرضِ من بقايا عظميَّةٍ تعود إلى فصيلٍ من فصائلِ الكائناتِ من مُختَلفِ أصْناف الحَيَوانات والبشر على مرِّ الزَّمان . وقد أسفرَتْ هذه الحفرياتِ وما تكشف عنها تَراكُماً معلوماتيّاً تولَّد من خلالِ

دلالات ما يعثرون عليه من بقايا عظميّةٍ بشريةٍ وبقايا عظميّةٍ حيوانيّةٍ وبقايا أسماك مُتحجّرة وأصداف وغيرها مِمّا يعثرونَ عليه . مع العِلم أنّهُ كانت قدْ طرأت على هذه الأرض أدوارٌ حدثت فيها انهدامات ، كذلك مرّت على الأرضِ عصورٌ جليديّة . أي أنّ عُلماءَ المستحاثّات يسعونَ لمعرفةِ حقيقةِ كُلِّ ما كان حيّاً على وجهِ كُرتِنا الأرضيّةِ على مرِّ العُصور ، نوعاً وحجماً وشكلاً ، وبواسطةِ جميع ما يتوفّر ما بينَ أيديهِم من تقنيّات .

٢. كيفيَّةُ تَعامُلِهِمْ معَ ما يَعْثرونَ عَليه

فإن استْفسَرتَ منّي عن الخُطُوات الّتي يخطوها بعد عُثورِهم على أيّةِ بقيّةٍ من الأشياءِ الّتي سبقَ لنا أن ذَكرناها . فاعلم يا عزيزي أنّهُم يلتزِمونَ بأسُسِ الملاحظةِ والتَّجربةِ والاستنتاجِ العِلميّة ، لِيتخيّلوا بهذا الأسلوبِ العلميِّ ما كان عليهِ جسمُ المُستحاثّةِ الأصليّ . ويستعينونَ في خُطواتِهم تلك بما قد يتوفّرُ لدَيهم من تقنيّات مُتقدّمةٍ حديثةٍ ، ومُستعينينَ أيضاً بعلومٍ مُرافقةٍ زمنيّاً لتلك المُستحاثّة ، بمثابةِ خُطوةٍ ثانيةٍ . ويخطون بعدها خُطوةً ثالثةً يَسْعَونَ خِلالها إلى محاولةِ الرَّبطِ بين ما حصلوا عليه من معلوماتٍ ولِيُرتِّبوها بتَرتيبِ أزْمِنتها الّتي تعودُ إليها هذه البقايا المدفونةُ في الأرض .

فمن خلالِ ما ذكرتُهُ لك فما عليك إلاّ أن تتصوّرَ حَجْمَ العمل والجهدِ الّذي يَتطلّبهُ هذا العلمُ من حيث الإمكانيّاتِ الماديّةِ

المطلوبة ، واليدِ العاملةِ الماهرة المُختصّة ، والآليات المُتطوّرة ، والتقنيّات المُتقدّمةِ ، وقوّة المحاكمةِ والاستنتاج ، إلى جانبِ ما يتطلّبُهُ الاطّلاعُ على العلومِ المُساعدةِ من وقتٍ وجهدٍ مُضْنٍ أيضاً . وذلك للقيامِ بتحديدِ زمنِ هذه المُستحاثّة الّتي يعثرونَ عليها ، ودرجةِ حرارتِها الّتي كانت عليها ، والثّابتِ من بُحيرات وأنهارٍ وجبالٍ وسُهولٍ وأشجارِ منطِقتها ونَباتاتها . وإنّ عمليّةَ تصوّرِ شكلِ الكائنِ الّتي تعودُ إليه المستحاثّة هو أتعبُ وأخطرُ مرحلةٍ من تلك المراحلِ على الإطلاق .

وبألفاظٍ أُخرى أقول : إنّ علمَ المُستحاثّات المذكورُ يقومُ على مَرحلتينِ بارزتين : الأولى منهُما يدويّةٌ ، والثانيةُ منهُما تقومُ على أساسٍ من التخيُّلِ والافتراضات ، وعليه فبإمْكاننا تصوّرُ احتمالِ وُقوعِ خَطأٍ وصوابٍ فيما يطلُعُ عَلينا بهِ علماءُ العلمِ المذكور . ومن هنا جاءت طرافةُ هذا العلمِ وحساسيّتُهُ وأهمّيته .

فالعالِمُ البانتولوجي وهو عالِمُ المستحاثات ، لا يدورُ بحثُهُ فيما يَعْثَرُ عليه من مُستحاثّات فقط ، بل ويهتمُّ كذلك بكلِّ ما يكونُ لاصقاً ومُحيطاً بالمستحاثّة أي أنّهُ يهتمُّ أيضاً بغلافِها الترسُّبيّ وبالبَقايا الحَيوانيّةِ والنباتيّةِ المُرافقةِ ، ويبحثُ عن الجوِّ الّذي كانت تتواجدُ فيه هذه المُستحاثّة . كما يسعىَ إلى تخيُّلِ ومعرفةِ شكلِ الأرضِ الّتي كانت تواجَدت فيه . إضافةً إلى ماكانَ مُنتشراً حولَها من قارّات وبحارٍ ووضعٍ مَناخيّ . وانّ هذه الأمورُ كُلّها التي ذكرناها ، يُحتَملُ أن تَتجلّى لعينيهِ على وَجْهِها الصَّحيحِ الّذي كانتْ عليه ، كما

يُحتَملُ أن تغيبَ عن عِلمِهِ بعضُ حقائِقها ولذلك سبقَ وقُلت أنَّ ما يتوصّلُ إليه هؤلاء العلماءُ يحتملُ فيهِ الخطأ والصَّوابُ في وقتٍ واحد. ذلك لأنَّ هذه المعلومات الّتي يسعى هذا العالم لِيَحصلَ عليها تحتاجُ منه أن يستعينَ بمُعطَيات علومٍ أخرى يضطرُّ إلى مُراجعتِها ، ولِيستنتجَ مِمّا تُفيدُهُ بِهِ من معلومات ما يريدُ استنتاجُه واستخلاصُه منها . وهذا الأمر يُضفي على هذا العلم ما ذكرتهُ من حساسيّتِهِ وأهمّيته .

أفأحطتَ يا عزيزي بأهمّيّةَ ما زوّدتُكَ به من معلومات مُتعلّقةٍ بالعِلمِ المذكور ؟ فإن أجبتَ بالإيجاب ، فإنّي مُلخّصٌ لك إيّاها أيضا، ليساعدُكَ هذا كلّه على الإصغاءِ إليّ بإيجابيّةٍ مطلوبةٍ منكَ على طريق كلامِنا عن موضوعِ خَلْقِ الإنسان . فتذكّرْ أنّ عالمَ المُستحاثات ما إن يعثرَ عُمَّالُهُ على مُستحاثّةٍ مدفونةٍ تحتَ الأرضِ ، بنتيجةِ ما يقومونَ به من حَفْريّات ، إلاّ ويشرعُ بتمريرِ هذه من خلال مراحلَ أربعة : فيحاولُ في المرحلةِ الأولى تَشْخيصَ نَوعِ المُستحاثة الّتي بينَ يديه ، ولِيعلمَ أ هيَ عائدةٌ لبشرٍ أم لغيرِ البشَر . ومن ثمّ يُحاولُ في المرحلةِ الثّانيةِ إعادةَ تَركيبِ عناصرِ ما عثروا عليه، لِيأخذَ من خلالِ ذلك فِكرةً عن شكلٍ تقريبيٍّ لِصاحبِ المُستحاثّة . فإذا فَرغَ من ذلك كُلّه ، يسعىَ ، ومِن خلالِ ما يقومُ بِهِ من عمليّات تجميليّةٍ وغيرِها إلى إضفاءِ مُسْحَةٍ من الحياةِ والحيويّةِ عليها ، وعلى قَدَرِ ما أوتيَ من إمكانيّاتٍ مُتوفّرة لدَيه . أمّا في المرحلَةِ الرّابعة فيضعُ لَمَساتَهُ الأخيرَةَ على هذه المُستحاثّة ،ولِيُضفي عليها جمالاً طبيعيّاً . فتذكّر يا صاحبي ما ذكرتُه لك من هذه المَراحلِ الأربعةِ التي حدّثتُكَ عنها آنفاً .

ولا بأسَ أن أُذكّرَكَ أيضاً بأنّ العلمَ المُختصَّ بِعلم طبقات الأرض ، قد أفاد بأنّ علمَ المستحاثات يدرسُ علماؤه ما هو مدفونٌ تحت القشرةِ الأرضيّةِ منذُ ثلاثةِ مِليارات من الأعوام الماضية ونيّفٍ أيضا وإلى أيّامِنا هذه. وقد تبيّن لدى عُلماء طبقاتِ الأرضِ أنّ الخليّةَ الحياتيّةَ الأولى التي نَشأت الحياةُ منها وبشتّى أنواعِها ، تعودُ إلى تلك الفترةِ الغابرةِ من الزّمان ، وعلى وجهِ التّقريب . ومن بعدِ ذلك تَتابعَ ظهورُ النّباتاتِ البحريّة ، وتَبعها ظهورُ الحيوانات البحريّةِ اللاّ فَقريّةِ وسطَ البِحارِ والمحيطات ، تلك التي كانت قد ظهرتْ آنذاك مجاورةً لليابِسة .

كذلك أفادَ علمُ طبقاتِ الأرض أنّ الحيواناتِ الثّدييّةِ ظهرتْ بعد ذلك على ظهرِ اليابسة ، وذلك منذ ما يُقارب مائتين وخمسين مليون سنة . ثمّ ظهرت ما يُسمُّونهُ بالرّئيسيّاتِ ، وذلك منذُ سبعين مليون سنة . هذه الّتي يفترضونَ انحدار الإنسانَ من أرْقاها شَبهاً وتكويناً .

هذا ، وإنّ علماءَ المستحاثات يحصُرون علمَ أصلِ الإنسان في نطاقِ الحيواناتِ الثّدييّةِ على الأساسِ الّذي ذكرناه . من بابِ أنّ لهذا النّوعِ من الحيوانَات قامةٌ ووجهٌ وطاسُ رأسٍ ودماغٌ مُتطوّرٌ وقَوسُ أسنانٍ دائريّ ، ونابٌ صغيرٌ وما إلى ذلك من أوْصاف .

ويحلُمُ علماءُ المستحاثات أيضاً بإمكانيّةِ اكتشاف أصلِ الإنسان من خلال ما يعثرونَ عليهِ من هذه المُستحاثات ، وعلى أنّها تُمثّلُ أسلافَنا القُدَماء.

٣.الوَسائِلُ المُعتَمدةُ لَدَى عُلماء المُسْتحاثات

واعلم يا صاحبي أنّ علماءَ المستحاثات يتناولونَ ما يعـــثرونَ عليهِ وِفق تخطيطٍ مَنهجيٍّ ، مُستعينينَ في ذلك بتقَنيّـــاتٍ مُتطــوّرةٍ ، وبالقيامِ بتحاليلَ مِخبريّةٍ مُعقّدةٍ ، ويَسْتندونَ في ذلك على حِســاباتِ بالغةِ الدِّقّة ، و وِفقَ ما تفيدُهُ علومُ الذرّةِ والرياضيــــاتِ والحاســبِ المُتطوّر ، وغيرِ ذلك ممّا يتوفّرُ لهم من أدواتٍ تُوفّرُهــــا لَهُــم عُلــومٌ مُساعدة . فمن خلال ذلك كلّه تتبيّنُ لك ضرورةُ عدمُ الاســـــتهانةِ بعلمِ المُستحاثات المذكور .

وقد تطلُبُ مِنّي زيادةَ شرحٍ حولَ العُلومِ المُســـــاعدةِ الّـــتي يستعينُ بها علماءُ المستحاثات . فأتناول الكلامَ عن علـــمِ طبقـــاتِ الأرضِ ، وأقول: إنّه علمٌ يُساعدُ على تحديدِ زمنِ المُستحاثّة وعلــــى تعيينِ مكانِها من جُغرافيّة الأرض . وهناك علمُ المَناخ ، فهو يُســـاعدُ على معرفةِ ما كان عليهِ حالُ مَناخِ الزّمانِ الّذي عاشتْ فيـــه هـــذه المُستحاثة الّتي عثروا عليها . كذلك يستعينُ علماء المستحاثات بعلـــمِ دراسةِ الأجْناسِ ، وليستعينوا بما يفيدُهُ هذا العلمُ على تحديدِ جنـــسِ المستحاثّة من وَجهتيهِ الثقافيّةِ والاجتماعيّة . ويستعينُ هؤلاء أيضـــاً بعلمِ البيئةِ الطبيعيّة ، وعلمِ الحيوان ، وعلم النَّبات ، وعلـــمِ الآثـــار وغيرِها من العلومِ المساعدةِ المُتوفّرة ، فيستعينونَ بمُعطياتها في مضمـــارِ أبحاثهم أيضاً ، ممّا لا حاجةَ لك بالاطّلاع عليه .

ولا أظنّكَ يا صاحبي إلاّ وقد أخذتَ فكرةً واضحةً عن علم المستحاثات ، وعن كيفيّة تعامُلِ عُلماؤه مع ما يعثرون عليه ، وعن الوسائلِ المُعتمدَة لديهم ، والعلومِ الّتي تُساعدُهم في هذا المجال . وأكون بذلك قد أشْبعتُ حُبَّ الإطّلاعِ لَدَيك . لكنّي أستدركُ لأقول : لا تنسَ يا عزيزي أنّي كُنت لفتُّ نظرَك إلى أمرٍ هامٍّ وهو أنّ لعلمِ المستحاثات هذا سلبياتُهُ أيضا . لكنّي لم أُنوِّرْكَ بعلمِ تلك السَّلبيّات ، هذه الّتي ستُعينُكَ على التَّمييزِ ما بين ما هو حقائق ، وما بين ما هو من قبيلِ التصوّر والافتراض فيما يحمله علم المستحاثات من معلومات . لذلك تعالَ لنستريح معاً من عَناء رحلَتِنا هذه ، من أجْلِ أن أحْكي لكَ وجهةَ نَظري فيما يتعلّقُ بسلبيَّاتِ هذا العِلم .

٤ . سَلْبيّاتُ عِلْمِ المُسْتَحاثّات

وإيّاكَ أن تظنَّ وتفهمَ من كلمةِ (سلبيّات) أنّني أستهينُ وأنتقصُ من أهمّيةِ علمِ المستحاثات ، أو أنّني أحاولُ دفعكَ لِتُعرِضَ عن الأخذِ بمُعطياته . بل الّذي أقصُدهُ هو أن ألفِتَ نظركَ لَمَا أتصوّرُهُ وهو إمكانيَّةُ حُدوث أخطاء غير مُتعمّدة من المُمكِنِ أن تقعَ خلالَ المراحلِ الأربعةِ الّتي يتِمُّ تمريرُ المُستحاثةِ من خلالها .

أوّلاً : فأنتَ تعلمُ يا صاحبي أنّ الخطأ يجرُّ خطأً آخر مثلَهُ وهذا يجُرُّ خطأً ثالِثاً ورابعاً. فإن تذكّرتَ أنّهُمْ يُمرِّرونَ ما يعثرونَ عليه من مرحلةِ تشخيص ، إلى مرحلةِ إعادة تركيب ، إلى مرحلة تخيُّلٍ وتصورٍ للشَّكلِ الحقيقيِّ ، وإلى وَضْعِ لَمَساتٍ أخيرةٍ تزيينيَّةٍ

وتحميليّةٍ. فكُلّ مرحلةٍ من هذه المراحلِ تحتمِلُ وُقوعَ خطإٍ بل وقـــوعَ عدّةِ أخطاء ، في مجالات الطُّولِ والعرضِ والثّخانةِ والشّكلِ المُتصـــوَّرِ لها . وهذه الأخطاءُ ستُلقي بظلالها على المعلومةِ الّتي يُتوَصّلُ إليها بـلا جِدال . إذ لا يُعقلُ أن يصلَ شيّ إلى حدِّ الكَمال .

فبفرضِ وقوعِ هذه الأخطاء المذكورة ، ففكّر يا صاحِبي أفلا تَترُكُ هذه الأخطاءُ آثارها على حصيلةِ تلك المراحل ؟ فإن حـــــدثَ مثلُ ذلك ، فهو أمرٌ يُلقي بظلالهِ على مِصداقيّةِ هذه المُستحاثّة أيضا . وقد يبلُغُ حدَّ تشويهِ الحقيقة التي نشاءُ التعرُّف عليها . إلاّ أن نتـــأكّدَ من صحّةِ ذلك بأسلوب علميّ .

ثانياً : والناحيةُ السلبيّةُ الثّانيةُ ، تعود إلى تاريخِ نُشوءِ هـــذا العلمِ . فلم يؤسَّس هذا العلمُ على تنظيمٍ ولا وِفق خِطّـــةٍ مدروســة أصلاً. وسأفصِّلُ وأشرحُ لكَ هذه الحقيقة ، تحت عنوان خاصٍ بهـا ، وبعد الفَراغِ من الكلامِ عن سلبيّاتِ عِلْمِ المُستحاثّاتِ المذّكور .

هذا ، وقد كان الدَّافعُ وراء ظهورِ هذا العلـــم ، العقليّـــةُ المادِّيّةُ البَحتةُ الّتي هَيْمنتْ على عُقولِ مُثقّفيِّ أوروبةَ منذ بدايةِ نهضتهمُ العلميّةُ المعروفة ، وما تَبِعَ ذلك من نُشوءِ نظريّاتٍ ماديّـــةٍ أيضـــا ، كالنَّظريّةِ الدّاروينيّةِ وسواها من النَّظريّات .

وإضافةً إلى ذلك ، فإنّ هذا العلمَ قد قـــامَ علـــى أكتـــاف أشخاصٍ هُواةٍ ، أكثر منهُم مُحترفينَ في المراحلِ الأولى من نُشـــوئِه ، وعلى حسبِ ما ستُلاحظهُ فيما بعد .

فمن خلالِ ما نبّهتُكَ إليهِ ، تستطيعُ تفسيرَ وُجـودِ عِـدّةِ نظريّات طلعَ علينا بها عُلماءُ هذا العلمِ المذكور . فكيـف تتعـدّدُ نظرياتُهم ، لولا وُجودُ ما ذكرتُه لك من سَلبيّاتِه ؟ ولا داعي للكـلامِ عن هذه النَّظريّاتِ في هذا المقام .

ثالثاً: والوجهُ السلبيُّ الثالثُ في نظري ، أنّ ما يقـومُ علـى أساسِ تخيُّلٍ وتصوّرٍ وافتراض ، فلا يحقُّ لصاحبِهِ الجزْمَ فيما يطلعُ بـهِ على النَّاس من رأيٍ . ذلك أنّ الجزمَ يكون فيما ثبتَ بشكلٍ قـاطعٍ وبأسلوب علميّ .

أَضِف إلى ذلك أنّ من الواجبِ أن يكونَ عقلُ الباحثِ خُلواً من أيّةِ خلفيّةٍ فكريّةٍ ، كي لا يؤثّرُ ذلكَ على تخيُّلاتـهِ وتصوّراتـهِ ، فتلك الخَلفيَّةُ تعميهِ من حيثُ النَّتيجةِ التي يطلُعُ بها ، وبما شابَهَا مـن أفكارٍ وتصوّراتٍ سابِقة .

وهذه التحفُّظاتُ لم ألحَظْها في أغْلب شخصيّات هذا العلـم المذكور. ودليلي على صحّةِ رأيِي هذا ، هو أنّني كُنت كُلّما راجعـتُ مُؤلّفاً من مُؤلّفات هؤلاء ، ألاحظُ مُسارعَةَ مؤلّفِهِ لِيقطَـعَ ولِيجـزِمَ برأيٍ ونظريّةٍ جديدَتين. وهو الأمر الذي سيأتي بيانُهُ على محلّه . وقـد اعتبرتُ تلك الظّاهرة أحدَ سلبيّات هذا العلم المذكور .

وبعدَ أن لخّصتُ لك يا صاحبي سلبيّاتَ علم المسـتحاثات ، فسآخُذُ بيدك لأدُلّكَ على كيفيّةِ نُشوءِ هذا العِلم .

٥. كيفَ نَشأَ عِلْمُ المُسْتحاثّات ؟

من المعروفِ أنّ بيئةَ المسيحيّةِ ، وحيثُما تَواجَدَت ، كان يُرافقُها الاعتقادُ بأنّ بني نوعِ الإنسان ابتدأ خَلْقُهُمْ من آدمَ وحوّاء ، وذلك لتأثيرِ ما وردَ في سفر التكوين من العهدِ القديم على عُقولِ العامّةِ من المسيحيِّين . فهذه هيَ العقيدةُ التي كانت سائدةً في أوروبةَ المسيحيّةَ حتّى عام ١٨٥٩ ميلاديّة .

لكنّكَ تستطيعُ أن تسْتثني من عامَّةِ المسيحيّينَ ، طبقةَ المُثقّفين، تلك الطَّبقة من الأوروبّيين ، التي نشأتْ بعد اختراعِ الآلةِ البُخاريّةِ وتوجُّهِ أبْناء تلك الطَّبقةِ للبحثِ العِلميِّ ، والتَّفْكيرِ بأسلوبٍ علميٍّ ، والابتعادِ عن المُتوارث من العقائدِ التَّابعةِ للكَنيسة

فمن جُملةِ العقائدِ الّتي أخذَ المُفكّرونَ منهم يُعيدونَ النَّظرَ فيها في تلكَ الفترةِ من الزّمان، زعمُ التَّوراة المعاصِرة أنّ آدم وحوّاء كانوا أوّلَ البشر لذلك أخذَتْ تظهرُ نظريّاتٌ افتراضيّةٌ عن أصْلِ الإنسان .

ولا أريدُ الإطالةَ عليك يا عزيزي ، فأختصرُ الكلامَ في هذا الموضوع وأخبركَ أنّها صدرتْ وسْطَ ذاك الجوّ من النظريّات والآراء نظَريَّةٌ احتلّتْ مكانَ الصَّدارة بينها جميعِها ، وهي ما سُمّيتْ بعد ذلك بالنَّظريّةِ الدَّاروينيّة نسبَةً إلى العالِمِ الذي طَرحَ النَّظريَّةَ المذكورة.

ولنْ أُحدِّثك عن شخصِيَّةِ دارون وحياته ، ولا عن كَيف هَيّأَ لِعَقْلِهِ ما تضمّنتْهُ نظريّته . فلن تجدَ الأهمّية المطلوبةَ منها هُنا ،

ولكنّي سأحدّثكَ عن تاريخ إعلانِ نظريّتِهِ وأُتبعُها بخُلاصةٍ مِمّا اشتملَت عليه فقد حدثَ أن صدرَ في الرّابع والعشرين من تشرينِ الثّاني من عام ١٨٥٩ ميلادي الّذي سبقَ لنا أن ذكرناه ، أقول قد صدرَ كتابٌ موضوعُهُ (أصلُ الأنواع) وبقلمِ عالمٍ إنجليزيٍّ اسمُهُ (تشارلز دارون). وقد وضّحَ العالِمُ المذكور رأيهُ في أصْلِ الأنواع ، وهو أنّ جميعَ الكائناتِ الحيّةِ قد انحدرت ، وعلى حدِّ رأيهِ ، من خليّةٍ حياتيّةٍ بدائيّة . فذاع صيتُ هذه النّظريّة بسعةٍ ما توقّعَها صاحبُها نفسُه . لماذا ؟ للأسبابِ الّتي حدّثتُك عنها آنفاً ، وهي الّتي أعقَبتْ اختراعَ الآلةِ البُخاريّة .

والمُهمُّ أنّ ما زعمهُ العالم المذكور في مؤلّفِه ، انتشرَ بين مُثقفيّ أوروبّة ومنها الجزرُ البريطانيّة ، انتشارَ النّار في الهَشيم . وتسبّبتْ هذه النّظريّةُ في دَفْعِ الأثْرياء والباحثينَ إلى بَذْلِ كثيرٍ من أموالهم وكفاءاتهم للتّنقيبِ في باطنِ الأرض ، علّهُم يعثروا على ما يُثبتُ مصداقيّةَ رأيِ العالِمِ المذكور . خُصوصاً وأنّهُم كانوا قد تبرّؤوا من قبلِ هذا ممّا اشتمل عليهِ سِفْرُ التّكوينِ التّوراتيّ .

من هذا تُدركُ كيف أنّ عمليّةَ البحثِ عن المُستحاثّات كانَ قد ابتَدأها الهُواةُ من الأثرياءِ ومن الباحثين وفي زمنٍ لم تكن قد تطوَّرت فيه التّقنيّاتُ المُناسبة، ولم يتحقّقْ ذلك وِفقَ مَنْهجٍ ولا تخطيط. وهذا الأمر أدّى بعدَ مُضيٍّ عُقودٍ من السنين ، إلى تشتُّتٍ في الآراء وإلى تعدُّدٍ في النّظريّات ، وعلى حسب ما ذكرتُه لك سابقاً عند كلامي عن سلبيّات علم المُستحاثّات . كما أدّى ذلك بالتّالي

إلى بَقاءِ جميعِ الباحثين في هذا المجال ،إلى بقائِهم تحت تأثيرِ ما تركتهُ نظريّةُ داروِن في خلفيّةٍ في تَفكيرِهم . وكان كُلّما عثرَ أحدُهُم على مُستحاثّةٍ ما ، اشتُبه الأمرُ في ذهنه ، وذهبَ ظنُّهُ إلى أنَّ تلك المُستَحاثّةَ تمثّلُ أصلَ الإنسان . وفي وقتٍ لم تكن قد توفّرت للعلماءِ والباحثين فيه آنذاكَ تقنيّاتٌ مُتطوّرةٌ ، كالّتي هي عليه في النِّصفِ الأخيرِ مِن القَرنِ العِشرين .

ففي خِضَمِّ هذه الدوّامة التي ذكرتُها لك يا صاحبي انقضى على اندِفاعِ الباحثينَ المذكورينَ أكثرَ من نصفِ قرنٍ من الزمان والآراءُ تَتعدَّدُ والنَّظريّاتُ تَتراكمُ ، بِغَيْرِ مَنهجيّةٍ وبغيرِ تخْطيط . فهذه حصيلةُ ما توصّلتُ إليه . وهنا تُطالبني بالدَّليلِ من مُعطيات تاريخ التطوُّرات المذكورة الّتي مرَّ بها هذا العلم . وإنّها لَمُطالبَةٌ عادلةٌ مقبولةٌ. إنّما تتطلّبُ منك الإنصاتَ بإصغاءٍ وصبر .

٦. المراحِلُ الّتي مَرَّ بها عِلْمُ المُستَحاثّات

فأنتَ تذكرُ يا صاحبي تاريخَ صُدورِ كتابُ (أصلُ الأنواع)، كما تذكرُ ما أحْدَثَهُ الأفكارُ المطروحةُ فيه في أوساطِ مُثقّفيِّ أوروبة أيضا ، وقد راح الباحثون منهُم يتلهَّفون إلى إجراءِ حفريات لعلّهُم يعثرونَ من خلالِها على ما يُؤيِّدُ نظريّةَ (أصل الأنواع) ، ولِيتعرّفوا بالتّالي على حَدِّهُمُ الأعلى أيضاً. فمن طبيعة الإنسان أن يسعىَ إلى التعرُّفِ على شَجرةِ حَياتِه .

وقد كان قد حدثَ قبلَ التَّاريخِ المذكور ، وعلى التَّحديدِ في عام ١٨٥٦ ميلاديّة ، أي قبل صُدورِ الكتاب المُشار إليه ، أن كـــان هُناكَ عُمّالٌ يَقومونَ بحفريات في وادٍ اسْمُهُ (وادي نياندَر) في ألمانيـــا . فعثَروا هناك على جُمجُمةٍ ، كان يبدو قحفُها سميـــكٌ ، وحـــروفُ جبينها ثقيلَةٌ ، وما كانت تُشبهُ جَماجمَ البَشرِ المعروفين . فـــأحدثَ الاكتِشافُ المذكورُ ضَجّةً علميّةً للسَّببِ الّذي كُنتُ قد حدّثْتُكَ عنـهُ من قبل . وكان من تأثيرِ ذلك أن نُقِلَ عن لسانِ صديقٍ للعالم تشارلز داروِن قولُه، تعقيباً على اكتشافِ تلك الجُمجُمة : (إنَّنا نُلاحـــظُ في هذه الجُمجُمةِ صفاتَ جُمجمةِ قِرد ، وتبدو مـــن أكـــثرِ الجمـــاجمِ المُكتَشفةِ شَبَهاً بها حتّى الآن .. لكنّهُ لا يَسعُنا في الوقتِ نفسهِ اعتبـــار هذه الجُمجُمةَ من بقايا كائنٍ من البَشر . ومُتوسِّـــطٍ بـــين البَشـــرِ والقُرود.) . وكان اسمُ الصَّديق المذكور (توماس هكسلي) . وقـــد أزْكَتْ كلماتُهُ تلكَ همّةَ الباحثينَ عن أصلِ الإنســـان ، فـــازدادوا اندفاعاً ، وبعد صدورِ كتاب (أصل الأنواع) خاصَّةً ، لِيعثروا علـــى دليلِ مِصداقيّةِ ما أوردهُ صاحبُهُ فيه . وكان مـــا حـــدثَ لأولئـــكَ الباحثينَ شيءٌ طبيعيٌ ، ومن باب أنَّ النَّاسَ يُؤخذون بكُلّ مـــا هـــو جديدٌ وغريب .

وتوالَتِ السنواتُ على المذكورين . إلى وقتٍ عثَرَ فيه أحـــدُ الأطبّاء الهولّنديّين ، واسمُهُ (يوجين دوبوا) وكان مركـــزُهُ في (ســـو مطره) ، وعلى ضفاف نهر (جاوه) . أقول عثرَ علـــى جُمجُمـــةٍ ، وخَيَّلَ لهُ عقلُهُ أنّها جُمجُمةُ قِرْد ، وكان على مَقْرُبةٍ منها عظمَةُ فَخْذٍ

تَعودُ لِبَشر . فصرّح ذاك الطبيبُ وقال : (إنّي أتصوّرُ أنَّ ما عــثرتُ عليه يمثّلُ حلقةَ ما بين القردِ والإنسان) . فهذا الحدثُ الآنف الذّكــو يرجعُ إلى عام ١٨٩٠ ميلاديّة .

وفي عام ١٩٢٧ ميلادي ، حدثَ أيضــاً أن عــثرَ طبيــبٌ كَنديٌّ على مُستحاثّات مُماثلةٍ ضمنَ رَواسبِ كَهْفٍ قديمٍ في الصِّين، وذلك بالقُربِ من عاصمتِها (بكين) . وعُثِرَ بجانبِها علــى أدوات مَصْنوعةٍ بمهارةٍ مَلحوظة ، وعلى مَواقِدَ ، وقد طُهِيَتْ عليها طَرائِــدُ أيضاً .

وقد كان قد سبقَ الحَدثَ المذكـــور ، وفي عـــام ١٩٢٥ م بالذّات ، حَدَثٌ قد ذاعَ صيتُهُ أيضاً ، وهو أنّ عُمّالاً كانوا يحفُـــرونَ في مَقْلَعٍ (تاونغ) في جنوبِ أفريقيا ، فعثروا على مُستحاثّات ، كـــان من بينِها جُمجُمةُ طفلٍ يبدو أنّه كان في السَّادسةِ من عُمُرهِ . أســنانُ الجُمجَمة أسنانُ بشر . لكنّ ارتفاعها ، كانَ بارتفاع جمجمةِ قـــرد . فأرسلَ العُمّالُ المذكورون ما عثروا عليه ، ضمنَ صُندوق ، إلى خبـير بعِلمِ التَّشريحِ يُدعى (رايموند دارت) . فطـــارَتْ شُــهرةُ الحـــادث المذكور بين صفوفِ المُتأثّرينَ بنظريّةِ أصلِ الأنواع ، وازدادوا تَوَقانـــاً لمعرفةِ أصْلِ الإنسان .

فاندفعَ باحثون علماء يُنقّبونَ بدوافِعَ شخصيّةٍ ، وليس وِفـقَ مُخطّطٍ مدروسٍ مع غيرهم من العلماء . فتوالت على أيدي هــؤلاء اكتشافاتٌ مُماثلةٍ لسابقتها . فعثروا ، من جُملةِ ما عثروا عليه ، على جماجمَ ذات أدمِغةٍ لا تزيدُ حُجومُها عن حُجومِ جمــاجمِ القُــرود .

كما تبين لهم أن أصحاب تلك الجماجم كان لهم أقدام ، ويسيرون منتصبي القامة أيضا . وظن العلماء المنقبون أنهم عثروا على الحلقة المفقودة المزعومة ما بين الإنسان والقرد .

كذلك حدث بعد ذلك ، وفي صيف عام ١٩٧٨ م أن تحقق على أيدي امرأة تدعى (ماري ليكي) ومعها رفاقها ، أن اكتشفوا آثار أقدام بشرية على سطح صخور قديمة يغطيها رماد بركان مجاور، وذلك في (لايتولي) ، وعلى مسافة عشرين ميل من جنوب وادي (أولدوفاي) من نواحي (تنزانيا) . وقد تبين لهؤلاء أن تلك الآثار كانت محتفظة بمعالمها الأصلية ، وكأنها تكونت بالبارحة وذلك من جراء الرماد البركاني الذي كان قد غطاها خلال ثورته قديما .

وقد تبين أن آثار الأقدام تلك كانت لكائنين من البشر على حسب تقديراتهم . وأن أحدهما كان أكبر من الآخر . وبلغ طول المسافة التي قطعتها اثار الأقدام تلك ما يقارب خمسة وعشرون مترا .

وكان من حظ هؤلاء المكتشفين أن كانت قد توفرت في زمانهم تقنيات متقدمة ومتطورة جدا . فاستعانوا بتلك التقنيات على تحديد زمن حدوث آثار تلك الأقدام . فتبين لهم أنها ترجع إلى أكثر من ثلاثة ملايين ونيف من الأعوام . والذي يهمنا من ذلك كله يا صاحبي أن المرأة ورفاقها المذكورين قد تأكد لهم وبصورة يقينية أن الذين تركوا تلك الآثار ، كانوا من البشر ، ولم يكونوا من القرود . خصوصا وأنهم عثروا في المنطقة ذاتها على عظم فك متحجر ، وعلى

أسنانِ إنسانٍ أيضاً . وبألفاظ أخرى بإمكانكَ أن تقولَ يا صاحبي أنّ الاكتشافَ المذكور باتَ يُشَكِّلُ دليلاً يقينيّاً يُستَدَلُّ منهُ على وجودِ البشرِ منذُ التَّاريخ المذكور على أقلّ تقدير .

وهنا قد تظُنُّ من خلال قولي هذا أنّ الاكتشافَ المذكور كان آخر الاكتشافات . فأقطعُ عليكَ ظنَّك ، ولأخبِرُك بالاكتشافات التي تَوالت بعده.

فقد عثروا في منطقةِ (عفار) من أعمال (أثيوبيا) على عَظمِ حوْضٍ لِمخلوق قامتُه مُنتَصبة .ويختلفُ حوضُه عن حوضِ القرد الّذي يَدُبُّ أصْلاً على أربعةِ أرجُلٍ . واستعانوا بما توفّرَ لدَيهم من التَّقنيّات المُتقدّمةِ فتبيّنَ لهُم أنّهُ يعودُ إلى ثلاثةِ ملايينِ من الأعوام . وهذا الاكتشافُ الجديد دعّمَ ما كان قد أسفرَ عنهُ الاكتشافُ الّذي تمّ قبله . لكنَّ الّذي حيّرَ أولئكَ العلماءَ أنّهم لم يعثروا في أيّ من مَوْقِعَيّ هذين الاكتشافينِ على أدواتٍ حجريّةٍ مصنوعةٍ

فعلى تلك الشاكلة من الأحداث تَوالَتِ الاكتشافات . فكانوا يعثَرونَ يا صاحبي عل عِظامٍ وجماجمَ تعودُ إلى نَوْعِ البَشرِ الّذي كانوا قد اكتشفوا آثارهُ من قبلُ ، ويَجِدونها في مكامِنَ مُختلَطةٍ داخِلَ الكُهوف . وقد راحوا يُمرِّرون تلك العظامَ والجماجمَ بالمراحلِ الأربعة التي مرَّ ذكرُها من قبل ، ويَتدارسونها ، وانتهوا من ذلك كُلّه إلى الاعتقادِ بأنّها كانت توجدُ تلك الكائناتُ البشريّةُ في المناطقِ التي ذكرناها من قبل . ويعودُ زمنُها إلى فترة غابرة تتراوحُ ما بين أربعة إلى ثمانيةِ ملايينٍ من الأعوام . كما اتّضحَ لأولئكَ العُلماء وبنتيجةِ

دراساتهم التي أجروها على تلك المُستحاثّات ، أنّها تعودُ لأفراد من البشرِ كانت في حالتِها الابتدائيَّةِ القُصْوى . كما قـدّروا أنّ حجمَ دماغِ الفَرْدِ الواحدِ منهم ، كان يُعادلُ أحْجامَ أدمغةِ القُرود المعروفة ، وبما يُعادلُ (٤٥٠) سم٣ . كما تبيّنَ أنَّهم كانوا قد اهتّدوا إلى صُنعِ الأدوات الحجريّةِ الّتي احتاجوا إلى صُنْعِها لكنَّ أولئكَ البشر لم يهتدوا آنَذاكَ إلى صُنْعِ الأدواتِ الحجريَّةِ إلاّ بعد مليونٍ من الأعوام على تَواجُدِهم على سطحِ كُرتنا الأرضيّة ، ولتُساعدهم تلك الأدواتُ الحجريّةُ في مجالات الاصطياد وما إليه . (كتاب – من قرد إلى إنسان – وبقلم ف.ل.روسبيرن وروث مور ، وترجمة توفيق الأسدي)

وهُنا أدفعُكَ يا عزيزي القارئ لِتَتساءل ، إثْرَ استعراضِك جميعَ هذه المراحل التي مرّ بها علم المستحاثات ، والنَّتائجُ الّتي أسفرتْ عنها : فهل تستنتِجُ أنت شخصيّاً من ذلك كُلّه أنّ تِلك الكائنات البشريّةَ تُمثّلُ حلقةً مُتطوّرةً عن القرودِ ، ولمُجرّد تشابُهِ أحْجامِ أدْمِغتِها مع أحجامِ أدمغةِ القُرود؟ أم أنّكَ ستُسلّمُ بأنّها كانت ذاتَ خَلقٍ مُستقلٍ عن القرود ؟

وقد تستغربُ يا صاحبي أن أسألكَ هذا السؤال ، وفي هذا الوقتِ بالذّات . ويزولُ عنكَ استغرابُكَ إذا أعلَمْتُكَ أنّ عُلماءَ المستحاثات اعتقدوا نتيجةً لِما أوردناه أنّ البشرَ المذكورينَ يُشكّلونَ الحلقةَ المُتطوّرةَ عن نَوْعِ القُرود . أمّا لِماذا خَيّلَتْ لهم عُقولُهم بذلك ، فالجوابُ هو في مُنتهى البَساطة، وهو أنّهُم كانوا مُتأثّرينَ بِنظريّةِ أصلِ

الأنواعِ الّتي كانَ قد طلعَ عليهم بها العالم تشارلز دارون ، وكانوا يبحثون من جرّاء ذلك عن الحلقةِ الأولى المُتطوّرة عن القُرود ، فدفعتْهُم هذه الخَلفيّةُ الذّهنيّةُ إلى الاعتقاد الّذي ذكرناه . أمّا أنتَ يا عزيزي القارئ فقد رفضتَ ما اعتَقَدوه ، بسبب أنَّكَ كُنتَ خالِيَ الذّهْنِ وحِياديّاً وطالباً للحقيقة عندما اتّخذتَ هذا القرار. فميزانُ عقْلِكَ لا تشوبُهُ شائبةٌ ممّا كان يدفعُ أولئكَ العلماء إلى الاعتقاد المذكور ، وهُنا بيتُ القصيدِ . وهذا هو ما تقولُه الأمثال . ولذلك أعود فأذكّرُكَ بما ذكرتهُ لكَ من قبلُ أنّها توجَدُ سلبيّاتٌ لعلمِ المستحاثات وكان منها هذه السَّلبيّةُ بالذّات .

٧. عودةٌ إلى سَلْبيّات موضوع عِلم المُستحاثّات

فيا عزيزي لابُدّ وأنّكَ قد لاحظتَ من خلالِ ما أطلعتُكَ عليهِ من معالِمِ المراحلِ الّتي مرَّ من خلالها نشوءُ وتطوُّرُ علمُ المُستحاثات ، هو أنَّ هذا العِلْمَ قد قامَ على أيْدي الهواة أوّلاً ممّن كانوا تأثّروا بالطُّروحاتِ النَّظريّةِ المادّيةِ الّتي كانَ من جُمْلَتِها الطَّرحُ الّذي تضمّنهُ كتابُ (أصلَ الأنواع) . وفي وقتٍ ما كانت قد توفّرتْ فيه تقنيّاتٌ مُتطوّرةٌ بالغةُ التَّعقيدِ لِتُساعدَهُم على تحديدِ زمانِ كُلِّ مُستحاثّةٍ كانوا يعثرونَ عليها ولِتحديدِ أعمارها وما إلى ذلكَ من معلومات هامّةٍ وضروريّة . فلابُدَّ أن لاحظتَ كيفَ أنّ عُلماءَ المستحاثّات كانوا قد اتّخذوا قراراً يُغايرُ قرارَكَ بشأنِ البشرِ الّذي عثَروا على آثارهِ ، والعائدةِ إلى ما قبلَ أربعة إلى ثمانية ملايين من

الأعوام . ولابُدَّ أن تكون َ قد تَعَرَّفتَ أيضاً على السَّبب الجوهـــريّ الذي يكمُنُ وراء الاختلاف المذكور . وهو أنّ عُلماءَ المُتَســحاثات جميعهُم ما كانوا حِياديّينَ في قَرارِهِم الّذي سبقَ لنا أن ذكرناه فالحُقُّ يُقال أنَّهُم اتّخذوا قرارهُمُ المذكورَ بسببِ أنَّهُم كانوا واقعينَ تحـــتَ تأثيرِ نظريّةِ (أصل الأنواع).

وهذه مُناسبةٌ جيّدةٌ لأعودَ بكَ يا عزيزي القارئ إلى بحـــثِ سَلبيّاتِ هذا العِلم والّتي سبقَ لي أن لَفتُّ نظركَ هُنـــاكَ إلى ثـــلاث سلبياّتَ هامّةٍ من سلبيّاتِه . حيثُ أنّي اضطررتُ هنـــاك للانتقـــالَ للكلامِ عن نُشوءِ ومراحلِ تطوّرِ هذا العلم والّذي أعود لأبحَثَ هنـــا عن سلبيّاتهِ من جديد . ولأُطلِعْكَ على سلبيّةٍ رابعةٍ هامّةٍ من سـلبيّاتِ هذا العِلْمِ المذكور .

فأنتَ لابُدّ وأنّكَ قرأتَ كثيراً بما يتعلّقُ بوجودِ شيء سمّـــاهُ عُلماءُ عصرِنا باسم (توازُنٌ طبيعيٌّ) . وتذكيراً من جانبي إيّاكَ بشـأن موضوعِ التَّوازُنِ الطَّبيعيّ أحاولُ أن أنقلَ لك مِثـــالاً حيّـــاً طالعتـــهُ وقرأتُ عنهُ أنا شخصيّاً في وسائلِ الإعلامِ الرُّوسيّة ، ويـــوم كـــان الاتّحادُ السُّوفييتيُّ ما يزال يحتلّ مكانَتَهُ في المُجتَمَعِ الدُوليّ .

قالوا آنذاك إنّه تبيّنَ للعُلماءِ الرُّوس وجودُ أعداد هائلةٍ مـــن النَّمْلِ الأبيضِ في غابات سيبيريا وأنّ هذا النَّملَ الأبيضَ يقّتاتُ العَفَـــنَ الّذي يتسبّبُ بهِ الجوُّ الرَطبُ هُناك . فقاموا بحساب تكُلفَةِ المُبيـــدات الحَشَرِيَّةِ الّتي هُم بحاجَةٍ إليها للقضاءِ على كَمّيّاتِ العفنِ هنـــاكَ في تلكَ الغابات ، فبلغت أرقامُها بما يُعادِلُ الميزانيّةِ السَّـــنويّةِ للاتّحـــادِ

السوفييتي بكامله . لكن النمل الأبيض المذكور كان يقوم بهذه المهمة لوحده مجانا وبشكل طبيعي أيضا .

فهذا مثال حي على وجود توازن طبيعي في هذا الكون ، وعلى سطح كوكبنا الأرضي بالذات . فلو أنك حذفت يا صاحبي وجود النمل الأبيض من غابات سيبيريا ، أو حذفت غيره من الكائنات الحية بمختلف أنواعها من على سطح كرتنا الأرضية ، لكان اختل التوازن الطبيعي الذي نلحظه من حولنا ليلا ونهارا .

والآن ، إن أنت راجعت ما أورده علماء العلوم الطبيعية.فستلاحظ اعتقادهم بأن نشوء الإنسان ووجوده كان قد شكل آخر حدث نشوء كائن حي من هذه الكائنات الحية على سطح الأرض . وإنه بإمكانك أن تلحظ من خلال معطيات قولهم المذكور ، مؤشرا علميا يشير بإصبعه إلى هذا التوازن الطبيعي الذي حدثتك عنه . كما يشير بإصبعه إلى وجود الله الخالق لجميع عناصر هذا التوازن الطبيعي ، وأنه هو سبحانه وتعالى الذي خلق هذا الإنسان والذي نحن بصدد الكلام عن موضوع خلقه وتطوره .

وتعال إلى حقيقة أخرى وهي أن معلومة التوازن الطبيعي التي أطلعتك عليها آنفا، كانت غائبة عن ذهن صاحب نظرية (أصل الأنواع) ، وعن أهل عصره أيضا . وهي حقيقة يعلمها المطلع على تاريخ معرفة حقيقة وجود هذا التوازن الطبيعي الذي تكلمنا عنه .

وبألفاظ أخرى أقول إن من السلبيات التي رافقت نشوء علم المستحاثات أن كان الذي طرح نظرية التطور ، والذين اندفعوا

يبْحثون عن أصل الإنسان ، أنْ كانوا جميعُهُمْ غيرُ عارفينَ بحقيقةِ وجودِ التَّوازُنِ الطَّبيعيِّ الّذي كلّمتُكَ عنه آنفاً، هذا التوازُن الطَّبيعيُّ الّذي مهّدَ بهِ خالقُ هذا الكون لخِلقِ هذا الإنسان الّذي أثبتَ علمُ المُستحاثات نفسُه أنهُ ابتدأَ ظُهورُهُ على سطحِ كُرَتِنا الأرضيّةِ منذُ أربعة إلى ثمانية ملايين عام .

فهذه هي أهمُّ وأخطرُ سلبيّاتِ هذا العلم التي آخُذُها عليه شخصيّاً كباحثٍ وناقدٍ في آن واحد . وأرى أن أُضيفَ إلى تلكَ السَّلبيّات الأربعةِ الهامَّةِ ما يؤكّدُ مِصداقيّتِها من خلال التَّضارُبِ في الآراءِ والنَّظرياتِ الّتي بَدَرَتْ عن عُلماءِ المُستحاثاتِ أنفُسهم على مدَى تاريخه .

٨.آراءُ عُلماءِ المُستحاثّات مُتحيِّزةٌ لا مُحايدَة

فاعلم يا عزيزي القارئ أنّ مؤلّفَ (أصلُ الأنواع) اكتفى بالقول فيه إنّ الإنسانَ انحدرَ في نظرهِ من سُلالَةٍ حيوانيّةٍ أقدمُ منه . لكنّهُ صرَّحَ فيما بعد وقال : الإنسانُ فرعٌ من الأرومةِ القِرديّةِ للعالَمِ القديم . وقد قصد بالعالم القديم آسيا وأفريقيا وأوروبّة معاً ، بسبب أنَّهُ بعد اكتشافِ القارَّةِ الأميركيّة ، عادوا يُطلِقون عليها يومئذٍ مُصطلحَ (العالم الجديد) . هذا وإنّ هذا الطَّرحَ الّذي طرحهُ العالِمُ المذكورُ كان لهُ من التأثيرِ الجذّابِ والسَّاحرِ على عُقولِ علماءِ المستحاثات الشيءَ الكثير ، لذلك ستُلاحظُ أنّ هؤلاء العلماء جميعَهم

راحوا بعد ذلك يفكّرون بتفكيرٍ ماديٍّ بحْت . وما عــاد أيٌّ واحــدٍ منهم يتخيّلُ ولو للحظةٍ واحدةٍ وُجودَ خالقٍ لهــذا الكــونِ وهــذا الإنسان وبالتّالي فكيف كان بالإمكانِ الاعتقادُ بأنَّ هذا الإنســان مخلوق . فأنصِت يا عزيزي إلى ما سأختصِرهُ لكَ ممّا طلَع بــهِ كُــلّ واحدٍ منهم من آراءَ ونظريّاتٍ لِتتأكّدَ مِن مِصداقيّةِ ما ذكرْتُهُ لك :

هِكسلي صديقُ دارون

وقد ذكرتُ لك في حينهِ كيف أنّ صديقَ تشــارلز دارون المدعو (هكسلي) ما إن سمع بالجُمجُمة التي عثروا عليــها في وادي (نياندر) في ألمانيا عام ١٨٥٦ م ، حتّى سارعَ ليقرّرَ أنّــها جمجُمــةٌ قِرديّة المظهَرِ وحسب . فلم يجرؤ على اعتبارِها كائناً بشريّاً مُتوسّــطاً ما بين القُرود والبَشر .

الطَّبيبُ الهولّنديُّ

ثُمَّ إنَّ هذا الطَّبيبُ الدبلوماسيُّ ما إن سمِعَ بالجُمجُمةِ والعظْمــةِ الّتي عَثَروا عليهما في سومَطرة عام ١٨٩٠ م إلاّ وسارعَ هذا الطَّبيــبُ لِيُصرّحَ بأنّهُما تُشكّلانِ الحلقةَ المفقودةَ الكائنــةَ مــا بــين القــردِ والإنسان.

رايموند دارْت

كذلكَ فإنَّ عالِمَ التَّشريح الّذي استلمَ صندوقَ المُســتحاثات العظميّةِ الّذي كان يحتوي على جُمجُمةِ طفلٍ في السَّادسةِ من عُمُــرِه.

وهي الجُمجُمةُ الّتي كانت بارتفاعِ جمجُمةِ قِرد ، فقد سارعَ بــدورهِ ليقرّرَ بأنّها تُمثّلُ الحلقةَ المفقودةَ ما بينَ القِرد والإنسان .

ماري ليكي

كذلك فإنّ تلك المرأةَ ورفاقَها الّذين عَثَروا على آثارِ الأقدام الّتي كانت مُغطّاةً برمادِ بُركان قريب منها في (تنزانيا) والعائدة لأكثرَ من أربعةِ ملايين من الأعوام ، فـهُم ســارَعوا لِيقــرِّروا أنَّ تلـك المُستحاثّات وإن كانت لكائنات بشريّةٍ ، فهي تمثّلُ حلقةً مفقودةً مـا بين القِردِ والإنسان ، بسبب أنّ أدمِغَتَها كانت تُعادلُ حَجْمَ دِمــاغِ قِرد أي ٤٥٠سم٣ .

فالسؤالُ المطروحُ هنا هو: ما معنى أنْ يُقرِّرَ هؤلاءِ وُجــودَ حلقةٍ مفقودة ما بين القِرد والإنسان ، إلاّ أن يكونوا مُتأثّرين بنظريّــة (أصلُ الأنواعِ) وواقعينَ تحتَ تأثيرِ أفكارِها ؟ حتّــى وأنَّــهُم غــيرُ محايدين أيضا.

فالعالِمُ المحايدُ المتحرّرُ من تأثيرِ فِكرَة من الأفكار ، إذا قامَ بما يقومُ به علماءُ المُستحاثات لا يستسلِمُ لأفكــارِ كتــابِ (أصــلُ الأنواعِ)، بل يُناقشُ الأمورَ وِفقَ مُختلَفِ الاحتمالاتِ وينظــرُ مــن زَوايا نظرٍ مُختلفة . وهذا المنهجُ لم يلتزِمْ بهِ عُلماءُ المُستحاثّات .فــلا يكفي أن يَنطلقَ هؤلاءِ لِينْظُروا من زاويةِ وُجودِ قانونِ اصطفاء طبيعيٍّ مزعوم . وبِفَرَضِ صِحّةِ القانونِ المذكور ، فلِمَ لا يَتصوّرونَ إمكانيَّــةَ فعّاليَّةِ وشُموليَّةِ هذا القانونِ على نطاق الحَيوانات الغريزيّةِ وحْدهــا، ولِمَ لا يَسْتثنونَ الإنسانَ من هذا القانونِ خصوصاً وأنَّهُم يُلاحِظــونَ

اختلافَ الإنسانِ العاقِلِ عنْ بقيَّةِ الكائناتِ الأُخرى الغريزيّةِ من جميعِ النَّواحي الجسميَّةِ منها والحسيَّةِ والقُدُراتِ والمؤهّلاتِ حتّى وفي تَكوينِ نُطفةِ كُلٍّ من الفَريقَين ؟

٩. الاختِلافُ حَوْلَ تَعْيين مَكانَ نُشوء الإنسان

ومن سلبيّاتِ ما وقعَ فيه رجالاتُ هذا العلمِ هو تَسرُّعُهم في إصدارِ الأحكامِ والنَّظَريّات . لذلك تُلاحظُهم يا صاحبي وقد تَعددَتْ آراؤُهم ونظريّاتُهم بشأنِ تعيينِ المكانَ الأصليَّ لِنُشوءِ الإنسان .

فمن المعلومِ أنَّ صاحبَ الرَّأيِ الرَّاجحِ ، هو الّذي لا يُصدِرُ رأياً في أمرٍ من الأمورِ إلاّ بعد اكتمالِ التَّحقيقات الجّاريةِ بشأنه . على حين أنّكَ تُلاحظُ يا صاحبي عدمَ توفُّر هذه المزيّةَ عندَ هؤلاءِ العُلماء .

ففريقٌ من هؤلاءِ زعموا نُشوءَ الإنسانِ في رُبوعِ القارّة الآسيَويّة . وحُجّتُهم في ذلك أنَّ آسيا تتمتّعُ بالمَناخِ والوسطِ الجغرافيِّ المُلائِم . ومُستبعدينَ نشوءَ الإنسانِ في القارّة الأوربيَّةِ بحُجَّةِ أنَّ أكثرَ بقاعِ أوروبَّةَ ظَلّتْ مُغطّاةٌ بالثُّلوجِ والجليدِ وعلى حسب ما يُفيدهُ عِلْمُ المَناخ . كذلك استَبعدَ أصحابُ هذه النَّظريّةِ أنْ تكَونَ القارّةُ الأفريقيّةُ مهداً لِنُشوءِ الإنسانِ في رُبوعها . وحُجّتهُمْ في ذلكَ أنَّ رُطوبةَ جَوِّ أفريقِيا يُساعدُ على نُموِّ وتكاثُرِ الجراثيمِ القَتّالةِ ، ولوُعورة جبالها أيضاً ، ولِكَوْنها مَنطقةً معزولة . فلم يَلْحَظوا ضِمْنَ نظريّتهمُ المذكورةُ وُجودَ الصَّحراءِ الأفريقيّةِ الكُبرى والّتي تَتوفّرُ فيها جميعُ الظُّروفُ المُلائمةُ لِنُشوءِ وترَعرُعِ الإنسانَ هناك في نواحيها.

وفريقٌ آخر من هؤلاء العُلماء ذَهبوا إلى أنّ القارّةَ الأفريقيَّةَ كانتْ الموطنَ الأوّلَ لِنشوءِ الإنسان ، وخالَفوا بذلكَ رأيَ أصْحابِ الرَّأيِ الأوّلِ تماماً . وكانتْ حُجَّتُهُمْ في ذلك هو عُثورُهُمْ على تلكَ العظامِ والجَماجمِ الّتي عَثَرَ عليها الباحثونَ هناكَ في أفريقِيًّا والّتي تعودُ إلى كائنات بشريّةٍ بدائيّةٍ جدّاً ، وهو الأمرُ الّذي كُنّا أتَينا على ذكرِهِ من قبلُ . فهذه كانت نظريّةَ العالِمان (ليكي ــ دارت) .

وقد طلعَ علينا فريقٌ ثالثٌ بنظريّةٍ ثالثةٍ زعموا فيها أنّ البشرَ لم يوجَدوا في منطقةٍ بعينها ، بل ظهَروا في عدّةِ مناطقَ منَ الكرةِ الأرضيّة . وأنّهُم كانوا انحدرَوا قبلَ ذلك عن كائناتٍ حَفريّةٍ مُتنوّعة كانت قد تطوّرت هذه الحفْريَّاتُ تَبعاً لظروفٍ مناخيَّةٍ مُلائمةٍ وبمعزِلٍ عن بعضِها الآخر وذلك في جنوبِ شرقيِّ آسيا ، وفي شمالِ وشرقِ أفريقيا ، وفي جنوب وغربِ أوروبة . وفسّروا تعدُّدَ أجْناسِ البشر ، واختلافَ ألوان كُلِّ عِرْق ، لاختلافِ الأدَواتِ الصَوّانيةِ الّتي كانَ صنَّعُها الإنسانُ القَديمُ، اختِلافُها عن بعضِها بعضاً في الشَّكلِ والموضُوع .

بل وذهبَ فريقٌ من هؤلاء العُلماء إلى أنَّ من الصَّعْب على عالِمِ المُستحاثّات أن يُسلّمَ بمصداقيَّةِ ما أوردناهُ من نَظريّات ، وتركَ هؤلاء أمرَ البَتِّ في هذا الموضوعِ إلى المستقبلِ ، وإلى ما ستكشِفُ عنه السِّنون المُقبلة . وإنّي لأرى أنّ هذا الرأيَ الأخيرَ هو أرجحُ هذه الآراءِ والنَّظريّاتِ ، ومن منطلقِ ما ذكرتهُ آنفاً من أنّهُ لا يَنبغي استباقُ الأحْداثَ .

وهكذا تتضح لك يا صاحبي سلبية جديدة من سلبيات علم المستحاثات ، فالظاهر أنهم يراوحون فيما بين عمليات تصورات وعمليات تخمين فيما يصدرونه من آراء ونظريات، علما بأنهم لم يبلغوا في ذلك حد اليقين .

١٠ . استنتاجاتنا

وتعال الآن يا صاحبي لنستريح ولنقوم بعملية استنتاج من جميع نواحي ما ذكرناه . فأنت بت تعلم ما هو علم المستحاثات المختص بالكلام عن نشوء الإنسان وأصله كذلك بت على يقين من المرجع الديني الموثوق الذي ينبغي علينا أن نرجع إليه ، والوارد فيه أمر ربنا (واسأل به خبيرا) هذا الأمر الإلهي الذي سبق لنا أن تكلمنا عنه ، والذي تضمنته سورة الفرقان .

كذلك أطلعتك على الكيفية التي يتعاملون فيها مع كل مستحاثة يعثرون عليها في أي مكان من العالم . وعلى الوسائل التي يعتمدها علماؤه للقيام بتلك العمليات .

ولا أنسى أني أطلعتك على ما تبين لي من سلبيات هذا العلم . وهناك أطلعتك على كيفية نشوء هذا العلم ، وعلى المراحل التي مر بها أيضا. وبعد ذلك عاودت الكلام عن سلبيات هذا العلم من جديد . فوضحت لك صورة سلبية رابعة من سلبياته . وأثبت لك هناك أن آراء جميع علمائه غير محايدة وأنها منحازة إلى ما طلع به عليهم صاحب (أصل الأنواع) من أفكار ونظرية . كما أطلعتك

على جميع ما طلعوا به علينا من نظريات بشأن المكان الذي ظهر فيه هذا الإنسان. ووضحت لك كيف أن نظرياتهم تلك متضاربة بسبب أنهم كانوا يستبقون الأحداث وتتراوح أفكارهم ما بين تخيل للأمور وما بين تصور لها .

وأراك ستسألني ، بعد الذي ذكرته لك:أن أين بقيت الحقيقة من بين جميع ما أتى به علم المستحاثات إذن ، لنسلم بها ، ولنطلع على ما يؤيدها مما تضمنته آيات هذا القرآن العظيم ؟ ذلك لأنني كدت أعتقد أن جميع ما تضمنه هذا العلم هو من قبيل التخيلات والتصورات والنظريات ، ومن كثرة ما أبديت لي من سلبيات أصحاب هذا العلم .

فأهدئ من روعك وأقول: ألم تلاحظ يا عزيزي كيف أن جميع علماء المستحاثات كانوا قد استسلموا لأفكار العالم دارون ، وكيف أنهم اعتقدوا بوجود قانون النشوء والارتقاء ، وأنه لا يعمل هذا القانون فقط على صعيد النبات والحيوان وحسب ، بل ويشمل الإنسان أيضا . لذلك رأيت كيف أنهم دأبوا على البحث عن حلقة تربط ما بين أعلى الحيوانات الثديية وما بين الإنسان . وكان همهم الأول والأخير هو إثبات أن الإنسان غير مخلوق خلقا مستقلا ، بل إنه تطور عن كائن حي قبله ؟ فما دمت قد لاحظت ذلك ، وأن أحدا منهم لم يعثر على ما يساعده على إعلان مصداقية ذلك بصورة نهائية ، فما لنا ولهم ، فلندعهم وشأنهم في هذا المجال . ولنكتفي بهذه الحقيقة التي ثبتت على أيديهم وهي أن وجود هذا

الإنسان على سطح كرتنا الأرضية قديم ، وقديم جدا أيضا . وعلى حسب ما دلت عليه آثار أقدامه وجماجمه وعظامه التي عثروا عليها ضمن الشريط الأرضي المار من تترانيا فأثيوبيا وغيرها من أقطار القارة الأفريقية ومن معظم دول القارة الآسيوية وأوروبة أيضا . وأن بداية تاريخ ذلك كله يرجع إلى ما بين أربعة إلى ثمانية ملايين من السنين.

فلنسلم بهذه الحقيقة ، ولنسلم معهم بأن تلك المجموعات البشرية كانت على حالة بدائية جدا أيضا ، وأنها كذلك ما تركت وراءها أدوات منحوتة من الحجر الصوان تشعر بوجود وعي وثقافة لديها . حتى وأن جماجم أفرادها كانت أيضا بحجم جماجم القرود . فهذه الأشياء جميعها باتت لدينا حقائق مسلم بها ، ولا يجوز لنا إنكارها أو رفضها بأي شكل من الأشكال ، نزولا عند أمر ربنا عز وجل الذي كان قد أمرنا قبل أربعة عشر قرنا من الزمان في سورة الفرقان وقال: ﴿ **فاسأل به خبيرا** ﴾. فالخبير بحقيقة تاريخ وجود البشر على سطح كرتنا الأرضية ، علميا ، هو معطيات هذا العلم الذي تكلمنا عنه من قبل . هذا ولا ينبغي لنا أن نفهم مضامين الآيات القرآنية العائدة مضامينها إلى موضوع تاريخ خلق الإنسان ونشوئه إلا على ضوء ما أفادنا به علم المستحاثات المذكور ، وإلا نعد في نظر ربنا من المخالفين لأوامره تعالى يقينا . فهذا هو ما يقتضيه علم أصول التفسير .

أما لماذا كانت أحجام جماجم وأدمغة تلك المجموعات البشرية القديمة أقرب إلى أحجام جماجم وأدمغة القرود المعاصرة لها، فهذا سؤال وجيه بلا شك ، وإني سأجيبك عنه يا صاحبي في الوقت المناسب له أيضا .

الفصل الخامس

١ . القرآن الكريم مسلم بقدم وجود الإنسان

ويدهشك يا عزيزي القارئ أن تراني أسلم بقدم وجود الإنسان على سطح كرتنا الأرضية ، وأنت تعلم أني عالم من علماء الدين الإسلامي وتتصور أيضا أني لابد أن أكون قد طالعت جميع ما كتبه المفسرون القدماء بهذا الخصوص أيضا . وأنك لم تسمع من أحد ممن طالعوا تلك التفاسير ما سمعته مني آنفا . ولربما ستستأذنني لمراجعة تفسيري الإمامين الرازي وابن كثير أيضا . فأقول : إيلك أن تدهش لقولي المذكور ، ولا حاجة بك لمراجعة التفسيرين المذكورين بسبب أني سبق لي أن راجعتهما ، ولاحظت أنهما لم يتقيدا بأصول التفسير التي تعرفت عليها من كتاب الله العزيز نفسه . وقد كتبا بمعطيات ما كان شائعا في زمانهم من معلومات كان قد أشاعها اليهود والنصارى. ويوم لم يكن لعلم المستحاثات من وجود .

وما لك تنشغل بهذه الأمور ، وتنسى أني سأستدل على مصداقية ما ذكرته لك من ضمن آيات هذا القرآن العظيم نفسه ؟ وبأصول تفسيره أيضا .

فأنت تتلو دوما آيات هذا الكتاب المقدس ، ولابد أنك عرجت على إحدى سوره التي تحمل نفس اسم هذا الإنسان ، فهي سورة الإنسان والمسماة أيضا سورة الدهر .

ألم يستهل الله هذه السورة العظيمة بقوله تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟**﴾ فتعال نتدبر معا دلالة هذه الآية الكريمة .لنستوحي منها ما تضمنته من معارف وعلوم. خصوصا وأن موضوعها هو هذا الإنسان نفسه الذي نبحث عن أصله وعن نشوئه . كذلك فالملاحظ أن خطابها غير محدد بشريحة معينة من الناس ، إنما من واجبنا أن نضع في حسابنا أننا نتدبر كلاما بلاغيا معجزا ، وأنه ما هذا بكلام كاتب أو أديب عادي حتى يفيد ما يتبادر منه لذهن الإنسان . فها أنه تعالى استهل هذه الآية الكريمة بالحرف (هل) ، والذي يتبادر للذهن منه معنى الاستفهام ، لكننا إذا انتبهنا إلى أنه تعالى أتبع هذا الحرف بفعل الماضي (أتى) فيكون تعالى قد استعمله بمعنى حرف التحقيق (قد) وعلى حسب ما ورد في معجم (محيط المحيط) . وينتفي بذلك معنى الاستفهام الذي تبادر لأذهاننا منه، وقد انتبه إلى هذه الحقيقة العلامة الرازي رحمه الله، لكنه لم يستفد مما انتبه إليه شيئا . بسبب تأثر أهل زمانه بأفكار اليهود الذين كانوا قد أشاعوها بشأن موضوع أصل نشوء الإنسان خطأ وبما كان يفيده سفر التكوين الذي هو أول أسفار التوراة المحرفة الموروثة . ثم إن فعل (أتى) يتبادر منه معنى جاء ، لكنه تعالى استعمله هنا بمعنى : مر بالشيء وأهلكه (محيط المحيط) ، وأمسى معنى (أتى) : قد مر في الحقيقة على هذا الإنسان حين من الدهر أي زمان طويل قد كان أهلكه مرور الوقت عليه ودون جدوى من حياته لذلك لم يترك أثرا يدل عليه . وهنا يتساءل المرء عما يقصده

تعالى من قوله المذكور (هل أتى)، ويوضح الله تعالى لهذا السائل، ويقول : ﴿ **لم يكن شيئا مذكورا** ﴾ وقد أتى تعالى بكلمة (مذكورا) في محل نصب على الحال من كلمة إنسان ، وكأنه تعالى قد قال: إن الإنسان في تلك الفترة من الزمان الطويل ما كان قد احتل مكانته بين الذين من حوله من الكائنات الحية ككائن له امتيازه وثقافته وامتيازه الذي يمتاز به عما كان حوله من تلك الحيوانات . وبذلك يكون تعالى قد نبه من خلال قوله المذكور ذهنك أيها السائل إلى فترة ما قبل التاريخ المعروف ، أي إلى تلك الفترة الطويلة من الزمان التي مرت على هذا الإنسان والتي استعمل لها المؤرخون مصطلح (العصور الحجرية) . والتي ثبت عن طريق علم المستحاثات أنها امتدت إلى ما بين أربعة إلى ثمانية ملايين من الأعوام.

وتعال يا صاحبي لنلخص ما توصلنا إليه من حقائق أفادتنا بها هذه الآية الكريمة . فقد أفادتنا بالحقائق التالية:

أولا: أن الله تعالى شاء أن يطلعنا على حال الإنسان الذي يرجع تاريخ وجوده إلى فترة ما قبل التاريخ أي إلى عصوره الحجرية، بدليل صيغة الإخبار (قد) التحقيقية .

ثانيا: كما شاء أن يوضح لنا أن الإنسان ما تميز عما حوله في فترة ما قبل التاريخ بأية ثقافة أو وعي ليتميز بذلك عما كان موجودا من حوله من الكائنات الحية، لذلك أتى عليه الدهر فأهلكه و لم يبق منه على أثر .

ثالثا: كذلك شاء تعالى أن ينبه ذهنك إلى أهمية الوعي والثقافة وإلى ضرورة تأهيل الإنسان بها ، وأن البشر الذي لا يهتم بتثقيف نفسه ولا بتنمية وعيه ،يظل لا يستحق أن يسمى (إنسان) ويهلك بدون أن يترك أثرا يخلده، ويعود حاله أشبه ما يكون بحال إنسان ما قبل التاريخ .

فهذه هي خلاصة قول الله تعالى الذي استهل به سورة الإنسان وقال: ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا**﴾، وهذا القول بالنظر إلى ما حمله للبشر من حقائق أتينا على ذكرها ، لا نراه يخالف ما توصل إليه علماء المستحاثات من أن وجود البشر على سطح كرتنا الأرضية ، قديم وقديم جدا ويعود إلى ما بين قبل أربعة إلى ثمانية ملايين سنة مضت. وعليه فقد التقى هذا الكتاب المقدس والمبارك والمتصف بالنماء والدوام، أقول قد التقى يقينا مع الحقائق العلمية الثابتة عن طريق العلم المذكور ، وبسبب أنه وصل إلى أيدينا سالما غير محرف ، فحال هذا القرآن لا يشابه حال التوراة المعاصرة التي كان قد حرفها بنو إسرائيل .

وبهذه المناسبة ، وانطلاقا مما فهمناه من هذه الآية الأولى من سورة الإنسان ، أرغب إليك يا صاحبي أن تعطيني أذنك فتصغي لما سأهمس فيها ، فأنا سأقارن لك هنا ما بين حال علماء المستحاثات المندفعين وراء تقولات مؤلف (أصل الأنواع) ، وما بين حالنا نحن المندفعين وراء معطيات هذا القرآن العظيم والمترل من قبل الله (رب العالمين) . وقلت سأهمس في أذنك لأني لن أخبرك بما سأخبرك به شامتا ولا أنا سأخبرك ساعيا إلى نشر فضيحة .

فأنت قد لاحظت كيف أن هذا القرآن المنزل قبل أربعة عشر قرنا من الزمان قد حمل لنا حقائق ثبتت صحتها علميا . أما علماء المستحاثات الذين لابد أن لاحظت كيف أنهم يلهثون مهرولين وراء ما زعمه لهم العالم البريطاني تشارلز داروين بما يتعلق بشمولية قانون النشوء والارتقاء هذا الإنسان أيضا ، فهو لم يستثنه. فهاهو قد انقضى عليهم قرن من الزمان تقريبا ، وهم يسعون في كل مكان من هذه المعمورة ، ومع ذلك لم يعثروا على ما يساعدهم على الجزم بمصداقية زعمه المذكور . هذا بالرغم من لجوئهم إلى جميع التقنيات المتطورة التي توفرت لديهم . حتى وأن رموز علمائهم يعترفون بأن جميع تحقيقاتهم ما تزال ناقصة ، وبحاجة إلى مسعى جديد . ولا أزعم هذا الذي أخبرتك به ادعاء ، بل سأنقل لك هذه الحقيقة بقلم أحد رموز علمائهم واسمه (ايف كوبتر) مؤلف كتاب (أفريقيا وقصة الإنسان) والمترجم إلى اللغة العربية بمسعى من الدكتور الجامعي في قطرنا العربي السوري هذا الذي قرظ صاحب الكتاب المذكور، فمما امتدحه به ، قوله: (هو من تأليف باحث كبير مشهود له في الأوساط العلمية والعالمية . تناول الموضوع وفق منهج علمي أصيل، واعتمد البحث الميداني والمخبري وحاول استنادا إلى وثائق ملموسة وناطقة الإجابة على السؤال الهام :كيف ومتى وأين ظهر الإنسان.) .

فقد صرح صاحب الكتاب المذكور وقال على الصفحة قبل الأخيرة :(إن تاريخنا هو إذا طويل جدا ، وديكوره منوع جدا . إنه

من غير الممكن أن نختم هذا الكتاب بالاعتقاد بأننا امتلكنا مـــرة وإلى الأبد شجرتنا السلالية واضحة على البلاتين القزحي . فهناك عدد من الأحداث بلا وثائق مستحاثية . كما أن الكثير من المستحاثات غـــير كاملة . ولكن هناك لحسن الحظ قطع محددة بشكل جيد ومعـــبرة بشكل جيد . وحتى إذا كان الخط التطوري المقترح هنا هو ليـــس نفس الخط الذي سلك فعلا ، فإنه مما لاشك تقريبا بأن هذا الخط قد مر بالمستويات الشكلية التي مثلتها تتابعا ..) صفحة ١٠٥ . فـــالذي تلاحظه يا صاحبي من خلال ما نقلته لك من كلام العالم المذكـــور ، أنه اشتمل على النقاط الثلاثة التالية :

أولا: فقد صرح بأن تاريخ الإنسان هو قديم ، وطويـــل ، ومنوع .

ثانيا: كذلك أقر بأن شجرة الإنسان الســـلالية لم يكتمـــل الكشف عنها .

ثالثا: وصرح بأن الخط التطوري الذي بينه ، ما هو بـــالخط التطوري النهائي ، وإن كان ما وضحه قد جاء أقـــرب إلى الحقيقة .

فاحفظ يا صاحبي ما همسته في أذنك ، وانقله إلى أحفادك ، ولينقلـوه هم بدورهم إلى أحفادهم وهكذا دواليك . وليتهامسوا في زمـــانهم بكل فخر أنه يستحيل أن يثبت علماء المستحاثات شيئا خلاف مـــا أطلعنا عليه هذا القرآن العظيم .

٢. القرآن الكريم أنبأ عن زمن ظهور علم المستحاثات

وقد تعجب يا عزيزي القارئ من هذا التحدي الذي همست به في أذنك ، وتروح تتساءل عن الحكمة منه . ولا أبخل عليك بالإجابة عما تساءلت عنه ، وأقول: إن الدافع الذي دفعني لأهمس في أذنك بالتحدي المذكور تسبب به معرفتي أن الله علام الغيوب الذي أخبرنا قبل أربعة عشر قرنا من الزمان عن قدم وجود الإنسان على سطح كرتنا الأرضية في أول آية من آيات سورة الإنسان ، هو نفسه علام الغيوب الذي كان قد أنبأ في الآية الرابعة من سورة الانفطار عما يقوم به علماء المستحاثات في عصرنا من تنقيب عن الجماجم والعظام ومن حفريات . وكيف يعقل أن يكون الله جل شأنه يعلم هذا الغيب ، ولا يكون يدري في الوقت نفسه عما ستسفر عنه تلك الحفريات ؟

وتعجب مما سمعته مني آنفا ، وتسارع لتسألني عن نص هذه الآية الكريمة المذكورة وعن معناها ، وكيف أنه لم يتبادر لذهنك منها ما فاجأتك به الآن من معنى ؟ فأهدئ من روعك من جديد وأقول لك رويدك فاعلم أن سورة الانفطار هذه مفعمة بالنبوءات المتعلقة بزماننا هذا وبأحوال أمم الغرب خاصة . أفلم تطالع قول ربنا عز وجل بحقهم خاصة في الآيتين التاليتين من سورة مريم والتي قال تعالى فيها بحق معتقدهم : ﴿ **تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا(٩٠)أن دعوا للرحمان ولدا(٩١)** ﴾ ؟ ثم أفلا طالعت في يوم من الأيام معنى فعل (تكاد)

في معاجم اللغويين ، هؤلاء الذين ذكروا أن فعل (كاد) وضع لمقاربة فعل الشيء . وأنه في الوقت الذي ينفي فيه فعل الشيء فهو ينبئ في الوقت نفسه عن وقوعه أيضا ؟ وعليه فقد كان تعالى قد أنبأ منذ أربعة عشر قرنا إذن أنه سيأتي زمان على هؤلاء الذين (دعوا للرحمن ولدا) أنهم سيقومون يومئذ بما أوردته هذه الآية الكريمة من أفعال . وقد خصص الله تعالى سورة (الإنفطار) ليختصر لنا بعض هذه الأفعال المذكورة ، وبأسلوب التنبؤ عن المستقبل ، وبنظم بلاغي معجز. فمن جملة ما أنبأ به هنا قوله تعالى: ﴿**وإذا القبور بعثرت**(٤)﴾ . فهو تعالى أتى بحرف (إذا) الظرفية ولينبئ بها عن الزمن المستقبل الذي يتحقق فيه على أيدي الذين (دعوا للرحمن ولدا) يتحقق فعل بعثرة القبور . وهو تعالى لم يقصد من القبور هنا ، قبور الأموات المعروفة وحسب ، بل وأراد بكلمة (القبور) معناها الشامل، والذي يشمل كل ما هو مقبور في باطن الأرض ، وبغض النظر عن ذكر الأسباب التي تسببت بجعله مدفونا تحت القشرة الأرضية . فهذا الكلام الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ورد عاما غير مخصص. ولذلك فهو يشمل علم الآثار المعروف كما يشمل علم المستحاثات الذي نحن بصدد الكلام عنه . أي أنه يشمل هذين العلمين المعاصرين اللذين تحققا على أيدي هؤلاء الذين (دعوا للرحمن ولدا) . وأنا لست هنا بصدد تفسير الآيات من سورة (الانفطار) لأتوسع لك هنا وأشرح أكثر مما شرحت .

٣. عندما يفقد العالم المتحيز اتزانه العلمي

فيا عزيزي القارئ إننا عندما التزمنا بأمر ربنا عز وجل القائل (فاسأل به خبيرا) ، وقمنا بعملية تدقيق ما قدم لنا إياه علماء المستحاثات من خبراتهم لم نعثر من خلال ما اشتملت عليه إلا على حقيقة واحدة ألا وهي موضوع قدم وجود البشر على سطح هذه الأرض . وهي حقيقة أعانتنا على تبنيها أخبار الآية الأولى من سورة (الإنسان) أو (الدهر) . أما باقي ما قدمه لنا هذا العلم فلا يزيد عن آراء متحيزة ونظريات متضاربة وعلى حسب ما سبق لنا أن أثبتناه .

فإن سألتني عن سبب تشتت آراء علماء المستحاثات وعن سبب تضارب نظرياتهم . أختصر لك ذلك وأقول: إن كل عالم من العلماء في الوقت الذي يصاب بمرض التحيز ويبتعد عن جادة الحياد، يفقد هذا العالم اتزانه العلمي . فهذا هو ما حصل لعلماء المستحاثات الذين انحازوا إلى نظرية صاحب كتاب (أصل الأنواع) .

وقد تطالبني بتقديم ولو بمثال واحد يثبت منه مصداقية ما ذكرته لك . وإني لأجد أن أقرب مثال يصلح لأقدمه لك هو ما لاحظته أنا من تضارب في أفكار العالم صاحب مؤلف (أفريقيا وقصة الإنسان) هذا الذي اقتبست لك بعضا من أقواله من قبل .

فمما قاله هذا المؤلف : (فهناك عدد من الأحداث بلا وثائق مستحاثية ، كذلك فأن الكثير من المستحاثات هي غير كاملة). فتراه يا صاحبي وقد ردد هذه الأقوال من دون أن يوضح لنا حقيقة تلك الأحداث والغاية منها . وعلى هذه الصورة فألفاظه

وردت مطاطة غير محددة . ثم إنه استعمل كلمة (الكثير) التي يقابلها كلمة (القليل) ، وهي تشكل مؤشرا سيئا . فكيف يؤسس هذا العالم رأيا على معلومات ناقصة إلى هذا الحد المصرح به ؟ ولنستمع معا يا صاحبي إلى ما طلع به علينا هذا العالم من رأي مؤسس على هذا التحيز الواضح ، والذي تضمنه قوله : (الكثير من المستحاثات التي هي غير كاملة).

فهو قال:(.. إن العشرة ملايين سنة الأخيرة من تاريخنا قد دارت في تلك القارة . والحدث الأخير كان ظهور (القرود Tanides) والإنسانيات من جد مشترك عبر تشكل بطئ .) .

فالسؤال الذي يطرح نفسه : كيف عرف هذا العالم ، ومن خلال هذا الكثير من المستحاثات التي هي غير كاملة ، أقول كيف علم بظهور القرود والإنسانيات من (جد مشترك عبر تشكل بطئ) وليس عبر تشكل سريع أيضا؟ إلا أن يكون هذا العالم منحازا إلى رأي صاحب نظرية (أصل الأنواع) ، وأن يكون تصريحه هذا الذي صرح به قد صدر عنه ، بصورة غير شعورية ، ويكون بذلك قد فقد اتزانه العلمي ؟

ثم إن الذي زاد الطين بلة هو أنه أضاف يقول : (لقد أظهرنا تطور الرئيسيات بين الانهدام الأفريقي والمحيط الهندي . كما رأينا من جهة أخرى كل المعطيات التشريحية والبيوكيميائية والخلوية والسلالية الضرورية من أجل إظهار قرابتنا مع القرود . ولكننا ، للغرابة ، لا نعرف شيئا عن تاريخ الغوريلا والشمبانزي في الملايين

الأخيرة من السنين ، والذي ربما حصلت أحداثه في تلك القـــارة . لأن هذه القرود لا زالت حتى الآن تعيش فيها في بيئة مشجرة وهـــي متكيفة هناك بشكل رائع ، من خلال قدرتها على التحرك بالتـــأرجح أو السير على أربعة دافعة بثقلها على سلاميات الأيدي . ولنتذكـــر بأن أعمامنا القرود هما اثنان الغوريلا التي يمكن أن تصل حتـــى (٢)م و ٢٥٠ كغ وزنا ، والشمبانزي الذي لا يتخطى مترا وسبعين سنتمترا ووزن ٧٥ كغ والاثنان يتغذيـــان بالثمـــار والأوراق ، ولكنـــهما يستهلكان أحيانا البيوض والجوارح الصغيرة (فقاريات أو مفصليـــات الأرجل) وهما إضافة إلى ذلك أكثر الرئيسيات ذكاء ، إذا اســـتثنينا الإنسان . وهما قادران على البرهنة على مستوى مدهش في نوعيـــة التخيـــل والتذكـــر والإحســـاس . (حجـــم دمـــاغ الشـــمبانزي ٣٧٠-٣٨٠سم٣ ، الغوريلا ٤٥٠-٥١٠سم٣ ، ويمكـــن أن يصـــل حتى ٧١٠ سم٣).

وألخص لك يا صاحبي أقواله الأخيرة ، ولأظهر لك تضاربهـــا مع قوليه السابقي الذكر ، ودلالة ذلك على أنه قد فقد هذا العـــالم بأقواله هذه جميعها اتزانه العلمي ، بنتيجة هـــذا التحـــيز المصـــاب بمرضه، وهو ما تلاحظه من محاولاته المتكررة لإثبات أن موضـــوع نشوء الإنسان يشمله قانون النشوء والارتقاء الذي وضحه وقال بـــه صاحب كتاب (أصل الأنواع) ، وكأن ما قرره هو بمثابـــة حقيقـــة ثابتة.

فقد تضمنت أقوال العالم المذكور المزاعم التالية :

أولا: فهو زعم فيها أن القرود والإنسان من جد مشترك .
ثانيا: وزعم أن هذا الظهور قد حدث بتشكل بطئ .
ثالثا: وقد اعترف في الوقت نفسه أنه لا يعرف شيئا عن تاريخ الغوريلا والشمبانزي في الملايين الأخيرة من السنين .
رابعا: كما اعترف بأن نفس القرود التي هي والإنسان من جد مشترك ما تزال تعيش حتى الآن هناك في منطقة الإنهدامات على الساحل الأفريقي ، وفي بيئة مشجرة ومتكيفة بشكل رائع أيضا .
خامسا: هذا وإن أضخم زعم أتى به بعد ذلك هو ادعاؤه بأن الغوريلا والشمبانزي هما أعمام هذا الإنسان .

ونحن بدورنا ، أفلا يحق لنا أن نطالب هذا العالم صاحب هذه المزاعم والادعاءات ، أن نطالبه ليقدم لنا الأدلة التي تثبت صدق مزاعمه وادعاءاته ؟ إنه زعم أولا أن القرود والإنسان تولدا من جد مشترك ، لكنه لم يدل بالدليل الذي يثبت مصداقية زعمه المذكور ، وبالرغم من ضخامة ادعائه. وإنه زعم ثانيا أن ما ذكره قد حدث بتشكل بطئ . لكنه لم يبرهن لنا على صحة زعمه المذكور ، هذا مع الافتراض أن المستحاثات التي كانوا عثروا عليها تؤيد هذا الطرح التاريخي . ثم إنه نفى أن يكون قد عثر على آثار للغوريلا والشمبانزي ليستدل من خلالها على تواجدها في منطقة الحفريات، وطوال ثمانية ملايين السنين الأخيرة . وزعم في الوقت نفسه أن الغوريلا والشمبانزي هي من أعمام القرود ، ومن غير أن يقدم لنا مـا

يؤيد زعمه المذكور ، حتى و لم يسأل نفسه عن سبب خلـــو تلـــك المنطقة من آثار الغوريلا والشمبانزي طوال ثمانية ملايين عام . هــــذا بالرغم ، وحسبما قال ، من أن القرود ما تزال تسرح وتمرح هنـــاك . فما هو هذا الدليل العظيم الذي دفع هذا العـــالم المحـــترم ليقـــرر ، وبصورة الجزم ، أن أعمامه من القرود هم الشمبانزي والغوريلا ؟

وعليه فلابد أنك أدركت يا عزيزي القارئ وأحطت علمـــا بالدافع الذي دفعني لأقرر أنا من جانبي بأن هذا العالم ، بالرغم مـــن مكانته العلمية ، هو منحاز لاشعوريا إلى معطيـــات آراء صـــاحب كتاب (أصل الأنواع) ، لذلك لاحظنا كيف أن انحيازه المذكور قـــد أبعده عن اتزانه العلمي في هذه النقاط بالذات ، فلم يعد بإمكانـــه أن يتساءل تساؤلاتنا التي سألناه إياها من قبل . ولا ينبغي لك يا صاحبي أن تعتقد أن هذه حالة انفرد بها هذا العالم وحده من بين جميع علمـــاء المستحاثات وأنه يعد بحكم الشواذ ، بل إن ما وقع فيه هذا العالم مـــن مرض فكري ونفسي ، قد أصيب به جميع رفاقه من الباحثين علـــى طريق البحث عن أصل الإنسان وبلا استثناء ، وهو الأمـــر الـــذي سأبرهن لك على مصداقيته أيضا . ويعود ذلك لسبب جوهري وهـــو أن هؤلاء جميعهم كانوا قد تبرؤوا مـــن الديـــن في بدايـــة النهضـــة الأوروبية وابتعدوا عن سلطة رجال الكنائس التقليديين . فلم يبـــق هناك ما يربطهم بالدين وبكل ما يمت إلى التفكير بأسلوب روحاني .

٤ . تجارب علمية غير حاسمة

فيا عزيزي القارئ قد حدث عام ١٩٠٤ م أن خطر لعـــالم مختص بعلم المناعة ، واسمه (بوتال) ، وبتأثير لاشعوري من هيمنـــة

نظرية (أصل الأنواع) على تفكيره ، أن اقترح على قرنائه من علماء المناعة ، الاستعانة بما لديهم من هذا العلم ، لإجراء تجارب بشأن تحديد صلات القرابة الكائنة ما بين مختلف أنواع الحيوانات ، فلعل ما تسفر عنه تلك التجارب تساعد على حسم صراع دام أكثر من نصف قرن مضت على ظهور نظرية دارون.

والسبب في أن الدراسات الارتقائية التي كانت قد جرت من قبل ذلك اعتمدت على اجتهادات شخصية ، وعلى معطيات علم تشريح جسم الحيوان ، وذلك بالإضافة إلى ما كان يسفر عنه ما يعثرون عليه من المستحاثات من معلومات .

وقد تتساءل عند سماع اقتراح هذا العالم عما أحدثه من ردود فعل لدى بقية علماء المناعة ؟ وتضيف إلى سؤالك المذكور : إياك أن تظن بأني فاجأتك بسؤالي المذكور لمجرد التساؤل ، بل الذي دفعني إلى هذا السؤال هو لأقدر من خلاله مدى هيمنة نظرية (أصل الأنواع) على عقول الأكثرية من علماء المناعة أيضا وإلى جانب هيمنتها على عقول علماء المستحاثات ، الأمر الذي تأكدت لي مصداقيته من خلال ما أقنعتني به حتى الآن .

أقول : ألحق أنه خطر لك ما كدت أن أبادر بالكلام عنه ، فسؤالك وجيه وقد طرحته أنت في الوقت المناسب أيضا . فاعلم أن ابتعاد مثقفي أوروبة عن سلطة الكنيسة المسيحية كانت قد أوجدت فراغا في أذهانهم بشكل طبيعي . ذلك أن الإنسان كان وما يزال يتساءل عدة أسئلة بما يتعلق بهذا الكون من جوله: هل هو مخلوق أم

أنه غير مخلوق ومن الذي خلقه وأمثالها من تساؤلات غيبية لا يجد هذا البشر عليها إجابات إلا في الدين ، هذا الدين الذي احتكرته فئات وشرائح من الناس في كل مكان وزمان من هذه المعمورة والتي يزعم أصحابها أن ما بين أيديهم من صحف هي من تنزيل خالق هذا الكون . وما دام علماء أوروبة قد ابتعدوا عن دينهم المسيحي لأسباب معروفة فقد باتوا يعانون جميعهم من فراغ في أذهانهم ، وبمختلف اختصاصاتهم ، وإلى يومنا الحاضر . لذلك لا تستغرب إذا أخبرتك يا صاحبي بأن اقتراح العالم (نوتال) قد أحدث في نفوس علماء المناعة شبه ثورة ألهبت مشاعرهم وبشكل لاشعوري لوجود الفراغ المذكور في أذهانهم، ولهيمنة نظرية دارون من قبل عليها أيضا.

ومما يدلل لك على صحة ما أخبرتك به ، هو أن عالمين كان لهما نفس اختصاص العالم (نوتال) وهما (موريس وغودمان) من أساتذة جامعة (وين ستيت) من ولاية (ديترويت) الأميركية ، كذلك العالم (فنسنت ساريتش) والمختص بعلم المناعة وكان يدرس في جامعة كاليفورنيا من ولاية بيركلي الأميركية ، قد سارع هؤلاء جميعهم إلى تلبية طلب الاقتراح المذكور ، فسارعوا إلى القيام بدراسات واسعة ، ومستخدمين وسائل مناعية مختلفة ، واستندوا إلى وحدات المسافة المناعية التي تقيس ردود فعل الرئيسيات الأخرى ضد البشر ، وضمن اختبارات عالم (أبحاث المناعة) ، إلى أن تبين لهم نتائج اختباراتهم ، فهي انحصرت في أن ردود فعل مناعة الشمبانزي والغوريلا ، كانت أقل هذه الردود المناعية وأقربها إلى ردود فعل

المناعة لدى جسم الإنسان . أما ردود الفعل المناعية لــــدى أجســـام السعادين وخاصة منها نوع (بروزيمان) فكانت أبعدها عــــن ردود الفعل المناعية لدى جسم الإنسان . حيث تبين لهؤلاء أن الوحـــدات القياسية لردود فعل السعدان من نوع (بروزيميان) مائة وحدة قياسية، والسعدان الأمريكي (سيبوس) ٧١ وحدة قياســـية ، وردود فعـــل السعدان المسمى (المكاك) ٣٤ وحدة قياسية ، ونوع (الأورانغوتـــان) ٢٠ وحدة قياسية ، بينما لم تتجاوز وحدات ردود فعل الشـــمبانزي تسعة وحدات قياسية ، أما الغوريلا فثمانية وحدات قياسية . فـــهذه معلومات نقلها لنا صاحبا كتاب (من قرد إلى إنسان) ، وهو كتــاب ترجمة توفيق الأسدي وطبع عام ١٩٨٨ م) .

فهذا مثال وضعته بين يديك يا صاحبي لتدرك من خلالــــه مدى هيمنة نظرية (أصل الأنواع) على عقول علماء علـــم المناعـــة أيضا. والذي ينبغي أن تتساءل عنه هو: هل جزم أحد من العلمــــاء بعد التجارب المذكورة بصحة رأي دارون ؟ أقول : لو أنهم جزمـــوا بصحة نظريته لكانوا قد توقفوا عن إجراء تجارب من نوع آخــــر . لكن الواقع يؤكد أنهم ما يزالون يعيشون في نطاق وهـــم النظريـــة المشار إليها و لم يبلغوا في ذلك حد اليقين .

والدليل على صحة ما ذكرته ، هو أنـــه راح علمـــاء مـــن اختصاص آخر يجرون تجارب على الحموضة الأمينية (D.N.A) الـــتي تشكل أساس تركيب جسم الإنسان وغيره من أجســـام الكائنـــات الحية الأخرى . فتبين لهم ضآلة فروق نسبها ما بين القرود وما بـــين

البشر . فالشمبانزي اختلف بنسبة ثلاثة في المائة . والغوريلا بنسبة ستة في المائة . ونوع (الأورانغوتان) بنسبة عشرون وثمانية أعشار . وسعدان أفريقيا ثلاثون وتسعة أعشار في المائة . وسعدان أمريكة سبعون وستة أعشار في المائة .

فهذه التجارب التي قام ويقوم بها هؤلاء إن دلت على شي ، فإنما تدل على أن هؤلاء العلماء كانوا متحيزين إلى جانب نظرية دارون ،هذا بالرغم أنهم ما يزالون غير متيقنين من صحتها ، وأنها لم تنقلب في نظرهم إلى حقيقة واقعة .

وقد حاول بعدهم علماء البيولوجيا الجزيئية أيضا إجراء تجارب في حقل موضوع هجرة الدقائق الكهربائية المعلقة (Electrophoresis) فتبين لهم أن البروتينات تختلف بعضها عن بعضها الآخر في موضوع شحناتها الكهربائية . وأنه قد عاد بإمكانهم فصل هذه الشحنات عن طريق وضعها في حقل كهربائي وعلى نحو مناسب ليتبينوا الفروق الدقيقة جدا الكائنة ما بين تلك الشحنات . لذلك حاول عالمان هما (بروس – أيالا) استخدام هذه الوسائل لاستخراج هذه النسب من مختلف الكائنات الحية . وقد ثبت لديهما أن نسب تلك الشحنات الكهربائية لدى البشر والقرود متقاربة جدا أيضا . وتبعهما العالمان (كنغ – ويلسون) فلخصا ما أسفرت عنه تلك التجارب المشار إليها ، واستنتجا من ذلك كله أن البشر والشمبانزي يشتركان فيما يزيد عن ٩٩ في المائة من مادتهما الجينية ، لذلك فهما شديدا القرابة جينيا . وأشد قرابة من تلك التي

تجمع الحصان وحمار الوحش . وطاروا بهذه النتائج التي حصلوا عليها فرحا ، واعتقدوا بالتالي أنهم اكتشفوا قرابتهم مع القرود الأفريقية وخاصة منها الشمبانزي ، وكأنهم قد أنهوا بذلك جدالا ظل قائما مائة عام ما بين أنصار النظرية الداروينية وما بين أعدائها .

حال أن اشتراك الشمبانزي والإنسان في المادة الجينية بهذه النسبة هو شئ ، وأن نشوء هذا من ذاك هو شئ آخر . فالتكوين وإن جاء متقاربا إلى حد كبير جدا ، فلا يعني بحال من الأحوال أن هذا قد نشأ عن ذاك . فبفرض أن رساما صور لنا لوحتين ولاحظنا أنه يوجد بينهما شبه كبير ، فهل يعقل أن يقال إن إحدى اللوحتين قد تولدت عن الأخرى ؟ أجل من الممكن القول حينئذ أن الرسام واحد والريشة واحدة ، ويكون قولنا هذا مقبولا . فهذا ما يفرضه المنطق والعقل السليم .لذلك كان من واجبنا ، إذ نتمسك بهذا المنطق وبهذا الميزان العقلي ألا نفرح مع هؤلاء الذين توصلوا إلى تلك النتيجة التي ذكرناها ، ولا أن نسلم بأن تلك النتيجة قد حسمت صراعا فكريا دام قرابة مائة عام . بل إن من واجبنا ، واستنادا إلى ما عرفناه من تحيز أولئك العلماء إلى جانب صاحب كتاب (أصل الأنواع) أن نقرر بأنهم فقدوا اتزانهم العلمي ليس إلا ، وأن ما استخلصوه من تلك التجارب لا يمت إلى الحقيقة بصلة من الصلات .

فتأمل يا صاحبي في هذه المأساة التي نجمت عن القصة الأسطورية التوراتية والمنسوبة إلى الدين ، تلك التي تضمنها سفر التكوين من التوراة المعاصرة . فالفراغ الفكري الذي عاشه الباحثون

بعد أن أدركوا تفاهة قصة آدم التوراتية وابتعدوا من جراء ذلك عن دينهم ، بل وهجروا كل ما يمت إلى الدين بصلة من الصلات ، وعادوا يفكرون بتفكير مادي بحت ، أوصلهم كل ذلك إلى ما وصلوا إليه من أمر غير منطقي ولا معقول.

على حين أنك قد لاحظت يا عزيزي كيف أن القرآن العظيم لم يأت شيئا يخالف معطيات العلم ، بل وحثنا أن نعود إلى خبرات العلماء المختصين من خلال قوله تعالى (واسأل به خبيرا) . فنحن عندما استعرضنا معطيات علم المستحاثات علمنا من خلالها قدم وجود الإنسان على سطح الأرض ، فلما راجعنا سورة الإنسان، تبين لنا من خلال معطيات هذه الآية الأولى من آياتها أنه تعالى يقول فيها بقدم وجود الإنسان أيضا .

٥. النطفة الأمشاج حسمت موضوع استقلالية خلق الإنسان

والآن ، وبعد أن اعتقدنا بقدم وجود الإنسان ، قد تسألني يا صاحبي : مادام وجود الإنسان قديم ، فما هو الدليل على أنه مخلوق بخلق مستقل عن خلق ما دونه من الكائنات الحية ؟ وأين الدليل القرآني ؟

أقول في الإجابة على سؤالك الوجيه : إن من عظمة هذا القرآن أن الله تعالى لا يأت فيه بطرح إلا ويتبعه بدليل ليثبت من خلاله مصداقية ما طرحه من موضوع وادعاه . فهو تعالى عندما أخبرنا في الآية الأولى من سورة الإنسان أن وجود هذا البشر قديم ،

وقديم جدا ، يكون تعالى قد أخذ في علمه الغيبي أنه بحاجة للإدلاء بدليل علمي ليثبت من خلاله صدق ما أخبرنا به عز وجل . لذلك لاحظناه وقد راح يدلي بالدليل المذكور ويقول في سورة الإنسان: **﴿إ نا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا(٢)﴾** . وكأنه تعالى قد قال بألفاظ أخرى : إن الذين سيجرون تجارب على صعيد تشريح جسم هذا الإنسان أو على صعيد علم المناعة وغيره من العلوم ليثبتوا من خلال تلك التجارب أن وجود هذا الإنسان حدث صدفة ومن خلال طفرة إرتقائية عما دونه من الكائنات الحية التي سبق وجودها وجود الإنسان ، إن هؤلاء يعيشون أصلا في فراغ فكري ، وسيظلون كذلك ، ولن تجدهم تلك التجارب نفعا ، بل ستزيدهم ضلالا على ضلالهم . ما لم يرجعوا إلى ما نقدمه لهم من دليل علمي يرشدهم إلى الحقيقة وهو أن تكوين نطفة الحيوان تختلف عن تكوين نطفة هذا الإنسان التي هي من (نطفة أمشاج) . وبمعنى أن الكائن الغريزي لا يتولد عنه إلا كائن غريزي ، وليس إنسانا عاقلا وناطقا ومفكرا وواعيا يبني ثقافة وحضارات .

فالحقيقة يا صاحبي هي أن النطفة مكونة من خلايا مادية ومورثات وقوى فطرية . فالخلايا مكونة من ماهية مادية وتخضع بالتالي للأبحاث والتجارب العلمية المادية . أما القوى فمكونة من ماهية غير مادية ولا تخضع للأبحاث والتجارب المادية . فإذا نمت خلايا النطفة يتشكل منها جسم هذا الإنسان . أما إذا نمت قوى

النطفة يتشكل منها ما يعرف بالفطرة البشرية التي هي قوى أشبه بقوى المغناطيس ، فلا تدرك هذه القوى إلا عن طريق ما تتركه من آثار في تصرفات هذا الإنسان .

وأنت يا صاحبي ، ما إن تسمعْ مني هذا الطرح ، إلا وتتدافع في ذهنك أسئلة كثيرة فتسأل : **أولا:** ماذا تعني من كلمة (قوى) ؟ **ثانيا:** كيف علمت أن الفطرة البشرية هي مجموعة هذه القوى؟ **ثالثا:** وهل أن لهذه القوى جذور مادية ؟

وأتناول الإجابة على السؤال الأول فأقول : إن كلمة (قوى) هي صيغة جمع ومفردها قوة . وأعني بالقوى هذه الصفات التي يتصف بها هذا الإنسان من شجاعة وجبن ، إلى كرم وبخل ، ومن ذكاء وبلاهة إلى فطنة وحرص وما شابه ذلك من قوى يتصف بها كل فرد من بني نوع الإنسان .

كما أتناول الإجابة على السؤال الثاني فأقول : إن كل طفل ينمو ويترعرع ، تلاحظ كيف ينشأ وهو يحمل صفات فطرية تنشأ معه ، فيقال هذا طفل فطر على الصدق ، وذاك طفل فطر على الكذب . وعليه فالفطرة البشرية هي مجموعة ما ينشأ الطفل عليه من صفات . ومن ثم تتطور صفات كل طِفل بتأثير توجيه والديه وبيئته.

وأتناول الإجابة على السؤال الثالث فأقول: أجل ، إن لقوى الإنسان جذور مادية تعود إلى تركيب الذرة المادية نفسها . فأنت تعلم يا صاحبي أن ذرة المادة تتركب من بروتون وكهارب يهبونها وزنها النوعي .

وهذه الذرة تحمل قوى ستة أيضا بعدد الجهات الستة المعروفة . وإن تلك القوى الستة هي أساس ما يحمله الإنسان من صفات فطرية كلمتك عنها . فإن شئت الاستزادة من الشرح والتفصيل فبإمكانك مراجعة مؤلفي (نظرية جذور الأخلاق) ، وإلا فلا يتسع هذا المقام لشرح أكثر مما فعلته . وعليه فإن للفطرة البشرية جذور مادية يقينا . وإن ما يحمله هذا المولود من صفات فلم تنشأ صفاته هذه من خارج نطفة والديه .

وعلى هذه الصورة فإن الله عز وجل يكون قد قدم للقارئ الدليل الذي يثبت من خلاله استقلالية خلقه لهذا الكائن البشر وذلك من خلال قوله تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) . وإنه لدليل علمي عظيم يحسم هذا الصراع الفكري الذي تسببت به نظرية (أصل الأنواع) منذ قرابة أكثر من مائة عام ويزيد.

وخلاصة مضمون هذا الدليل العلمي هو أن تركيب خلطة نطفة الإنسان تختلف عن تركيب خلطة نطفة الحيوان لذلك يستحيل أن تتطور نطفة الإنسان عن نطفة الحيوان .

وتعود لتسألني عن معنى كلمة (أمشاج) . وإنه لسؤال وجيه أيضا. ذلك بسبب أن المفسرين القدماء لم يفهموا من هذه الكلمة إلا دلالتها على اختلاط نطفة الرجل بماء المرأة .

فاعلم يا عزيزي القارئ أنه يتبادر لذهن الإنسان من هذه الكلمة أنها صيغة جمع مشيج، والحقيقة أنها استعملت هنا بصيغة مفرد . والدليل على هذا الأمر ، هو أن كلمة (نطفة) هي صيغة

مفرد ، وأن كلمة (أمشاج) هي صفة لهذا المفرد فهي صيغة مفرد أيضا . وقد وردت على شاكلة قولك : ثوب أخلاق أو برمة أعشار أو أرض سباسب. فهذا ما ذهب إليه الزمخشري بطريق الإمام الرازي. وعليه فإن كلمة (أمشاج) قد استعملت لإيضاح حقيقة تكوين نطفة الإنسان خاصة ، وليس للتعبير بها عن اختلاط نطفة الرجل بماء المرأة .

ولاحظ يا عزيزي القارئ كيف أن الله جل شأنه ما إن فرغ من الإدلاء بالدليل العلمي الذي شرحناه إلا وراح يوضح فلسفة سبب ما أجراه من تعديل على نطفة الإنسان من حيث التركيب ولتختلف بذلك عن نطفة الحيوان الغريزي السلوك ، ولقد وضح فلسفة ذلك وقال: (نبتليه) . فما معنى نبتليه ؟

إن هذه الكلمة جاءت من قولك بلاه يبلوه بمعنى جربه واختبره وامتحنه . أي أنه تعالى نبه ذهنك بصورة غير مباشرة إلى أن تركيب نطفة الحيوان قد صبغت سلوكه بصبغة الحياة الغريزية التي لا تصلح ليطالبه خالقه بما يطالب به هذا الإنسان ليتقيد به من سلوك يومي . لذلك ترى كيف أن هذا الحيوان يسير في حياته اليومية على وتيرة واحدة ، على حين أن هذا الإنسان ليس كذلك فهو لا يسير في سلوكه اليومي على وتيرة واحدة. بل عاد يملك عقلا وإرادة تمكنانه من استعمال ما فطر عليه من قوى متضادة استعمالا حرا وعاقلا .

وعليه فإن الله عز وجل قد دفعنا دفعا حينما أخبرنا عن نطفة الإنسان أنها (نطفة أمشاج) ولنستنتج من ذلك من أنفسنا

نتيجة حاسمة وهي أن الكيان الغريزي يستحيل عليه أن يتطور إلى كيان عاقل إرادي لا صلة له بالحياة الغريزية من قريب أو بعيد. وإنها لحقيقة أن الكائن الغريزي يكون فاقد العقل والإرادة فلا يصح امتحانه، أما الكائن العاقل ذو الإرادة فهو القابل للامتحان . وعليه لاحظ معي يا صاحبي كيف راح الله تعالى يوضح لك هذه الحقيقة ويقول في سورة الروم : ﴿**بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين(٢٩)فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون(٣٠)**﴾ . فالله تعالى ينبئك في هذه الآيات الكريمة عن المسيحيين من علماء الروم المعاصرين (إشارة إلى علماء أوروبة المعاصرين) الذين تجاوزوا حدودهم واتبعوا أهواءهم (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم) وانحلزوا إلى جانب نظرية دارون وعلى غير أساس علمي . ينبئك عن ظهورهم ، وأنه تعالى سيدعهم ضالين في فهمهم المذكور ، فلا يمن عليهم بأي فتح علمي يصحح لهم مسار تفكيرهم المذكور (فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين .) ومن ثم أتى تعالى بفاء الاستئناف ، وليستأنف كلاما غيره وراح يأمر هذا المؤمن المعتقد بصدق كلام ربه عز وجل أن يتمسك بأهداب تعاليم هذا الدين الحنيف الذي قدر الله تعالى وأنزله على قلب محمد (ص) ليكشف عن ضلال هؤلاء القوم من الروم وعن اتباعهم أهواء أنفسهم في موضوع استحالة نشوء الكائن الإرادي من الكائن غير الإرادي،

وراح تعالى يجزم بتباين فطرة الإنسان عن فطرة الحيوان كما تدل على ذلك نطفة كل منهما ، وأن هاتين النطفتين قد خلقهما الخلاق مستقلتين الواحدة عن الأخرى ، أقول : لقد راح تعالى يستخلص من هذا الموضوع الذي وضحه ونبه أذهاننا إليه، يستنتج حقيقة ثابتة وهي (لا تبديل لخلق الله) أي أن هذا الخلق المستقل يستحيل أن يتغير أو أن يتطور في يوم من الأيام من حال إلى حال آخر. وبذلك يكون الله تعالى قد دحض وبهذا الأسلوب العلمي، دحض نظرية إمكانية نشوء الإنسان عما دونه من كائنات حية سواه . فعظم ربك يا صاحبي بعد أن سمعت واطلعت على هذا الدليل العلمي الذي كان الخالق قد قدمه. فهو علام الغيوب ومطلع على حال القوم الروم السابقين منهم والمعاصرين ، فهو قدم هذا الدليل قبل أربعة عشر قرنا من الزمان ، يوم لم يكن لعلم المستحاثات وغيره من العلوم من وجود . فهذه الحقيقة العلمية التي حدثتك عنها يا صاحبي لم تخطر لأذهان هؤلاء العلماء الذين سحرتهم نظرية (أصل الأنواع) وأزاحتهم عن جادة الاتزان العلمي .

٦.رابطة جدلية ما بين النطفة الأمشاج ونبتليه

وعلى هذه الصورة تبرز إلى العيان رابطة جدلية كائنة ما بين تكوين نطفة (الأمشاج) التي هي نطفة الإنسان ، وما بين فلسفة الابتلاء والامتحان التي قام عليها معترك هذه الحياة الدنيا . وهي الرابطة الجدلية الموضوعية التي نبهت إليها هذه الآية الثانية من سورة الإنسان بأسلوب صياغة بلاغية معجزة .

فعندما نقول إن هذه الحياة الدنيا قامت على أساس فلسفة الابتلاء والامتحان ، نقول ذلك مدعما بما يترتب على هذه الفلسفة الحياتية من آثار ومن ظواهر . فمن المعلوم أن ظاهرة الإخفاء تعتبر من أهم الآثار التي تقتضيها عملية الامتحان. ولذلك نلاحظ كيف أن الله الخالق يخفي وجهه عن أعين عباده . كذلك يتطلب امتحان الطالب أن يفسح له مجال الإرادة والتفكير الحر ، والله الخالق قد أعطى هذا الإنسان حرية التفكير وحرية العمل . ثم إن عملية الامتحان يعقبها عملية إعلان نتائج الامتحان ، فالذي يلاحظه المرء هو أن نتائج الصراعات التي تحدث ما بين المؤمنين وما بين الكافرين تكون دوما في صالح الفريق المؤمن. وتلك الظاهرة هي بمثابة إعلان نتائج صراع هذين الفريقين . كذلك فإن لنيل كل شهادة من الشهادات العلمية نتائجها على الصعيد العملي . وعليه فما الحياة الآخرة الموعودة إلا لتمثل هذا الجانب العملي أيضا .

وبذلك يكون الله عز وجل قد كشف هنا علينا هذه الفلسفة الحياتية لتصبح قرينة تعيننا على فهم الشطر الأخير من هذه الآية الكريمة وهو قوله تعالى : (فجعلناه سميعا بصيرا) . فما معنى (فجعلناه سميعا بصيرا؟)

إن مما يؤكد أن الله تعالى راح يطلعنا على هذه الرابطة الجدلية أنه أتى بفاء الاستئناف مدخلا إياها على فعل (جعلناه) الذي يفيد معنى (صيرناه) أي نقلناه من حال إلى آخر . وكان في ذلك إشارة إلى أنه ما إن بدأت عملية الامتحان هذه تعمل إلا وأخذ حال

هذا الإنسان الذي أمضى ملايين الأعوام من عصوره الحجرية ، إلا وأخذ حاله يتبدل إلى إنسان يصفه الله تعالى بقوله أنه أصبح (سميعا بصيرا) . أي أن الإنسان خلال زمن عصوره الحجرية ما كان يليق بعد ليبعث خالقه إليه برسله وبتعاليمه وبشرائعه ليتقيد بها سلوكيا . أما بعد أن اكتمل بناء عقل هذا الإنسان عند نهاية عصوره الحجرية، بعث إليه بنبيه (آدم) كأول رسول من رسله إليه، وهو الأمر المأخوذ من معطيات سور أخرى ، وابتدأ بذلك تحول هذا الإنسان إلى حال آخر جديد ، انتهى به ليصبح (سميعا بصيرا) . أي أن هذا الإنسان وإن كانت له فيما مضى أذنان وعينان يسمع بهم ويرى الأشياء من حوله خلال عصوره الحجرية ، إلا أنه ما كان يستفيد يومئذ من حواسه تلك الاستفادة المرجوة منها . أما وقد التزم بما أنزله ربه عليه من تعاليم سماوية عن طريق آدم عليه السلام فقد عاد بإمكانه أن يستفيد من تلك الحواس ، وأصبح بذلك (سميعا بصيرا) . فما عاد يسمع صوتا من غير أن يدقق نظره فيه ويقلبه على أوجهه ليحيط بكامل دلالاته ، ولا عاد يبصر شيئا من غير أن يفكر فيه متأملا إياه بعقله وبقصد معرفة حقيقته .

وعلى هذه الصورة يكون تعالى قد نبه عقولنا إلى العلاقة الجدلية الكائنة ما بين (نطفة أمشاج) وما بين عملية (نبتليه) . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يكون الله جل شأنه قد قسم تاريخ هذا الإنسان بنفس تقسيم المؤرخين المتعارف عليه لدى علماء التاريخ المعاصر والمؤسس على أسس ومعطيات علمية .

ولاحظ يا صاحبي كيف أن الله عز وجل لم يدعك في حيرة من أمرك تتساءل في حديث نفسك عن حقيقة معنى (نبتليه) ؟ بل راح تعالى يحصر لك دلالة اللفظ المذكور، وبصياغة بلاغية معجزة، وقال في سورة الإنسان : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا(٣)** ﴾ . بمعنى أن انقسام البشر إلى فريق عارف بوجود ربه وبنعمائه عليه ، وإلى فريق كافر بوجود ربه وبحقيقة نعمائه عليه ، حدث ذلك منذ أن (هديناه السبيل) . أي من زمن بعثة أول نبي بعثناه إليه وهديناه بواسطته إلى وجود ربه وعرفناه على المقصد من حياته وعلمناه ما ينبغي له أن يتجنبه وما ينبغي له أن يعمل عليه .

وعليه فقد صارت تبدو لأعيننا عظمة الحقائق التي تضمنتها هذه الآيات الثلاث الأوائل من سورة الد هر هذه . وتمثلت الحقيقة الأولى في أن وجود البشر قديم ، وقديم جدا . وتمثلت الحقيقة الثانية بعد توضيح هذه العلاقة الجدلية الكائنة ما بين تكوين نطفة أمشاج وما بين انتقال البشر من عصورهم الحجرية إلى كائن إنسان (سميعا بصيرا) . وتمثلت الحقيقة الثالثة من خلال موضوع التنبيه إلى أن هذا التحول في حياة هذا الإنسان قد حدث منذ عهد بعثة آدم عليه السلام .

٧. تجارب هؤلاء العلماء لن تحسم المشكلة

فأنت يا عزيزي القارئ تجاه ظاهرتين متميزتين : الأولى منهما ظاهرة سلوك غريزي . والظاهرة الثانية منهما ظاهرة سلوك

عاقل وواع أيضا . فإن عدت إلى ما طلعت به عليك نظرية (أصـــل الأنواع) ، تلاحظ أن أهلها يهللون زاعمـــين أن قـــانون النشـــوء والارتقاء هو وراء ظهور هاتين الطاهرتين المذكورتين . لذلك لابـــد أنك قد لاحظت كيف أن علماء المناعة وغيرهم أجروا تجارب علـــى ردود الأفعال المناعية لدى الإنسان من جهة ،

ولدى الغوريلا والشمبانزي وغيرها من أنواع القـــرود مـــن جهـــة أخرى. وكانت غايتهم من تلك التجارب أن يصلـــوا إلى أن هـــذا الإنسان قد تطور عن ذاك الحيوان. حتى أنهم توصلوا إلى أن البشـــر والشمبانزي يشتركان فيمـــا يزيـــد عـــن (٩٩) %مـــن مادهما الجينية،وعلى حسب ما اتضح من تجارب وسائل الهجرة الكهربائيـــة للدقائق المعلقة . وذهب ظنهم من ذلك كله إلى أن هـــذه الحصيلـــة المذكورة أثبتت صدق ما ذهب إليه صاحب نظرية

(أصل الأنواع) . وسبق لي أن ذكرت أن تقارب هذه النسب هـــو شئ ، وأن القول بتطور هذا عن ذاك هو شئ آخر تماما ، ولا يـــزال بحاجة لإثباته علميا ، وإلا فيظل الأمـــر يـــدور في فـــراغ النظريـــة والادغاء.

وأنت بعد أن أحطت علما بذلك كله ، ورحت تتذكر مـــا كشفت لك عنه الآيات الأوائل من سورة الدهر من حقائق ثلاثـــة علمية سبق لنا أن ذكرناها . فقد عاد بإمكانك أن تواجه أهل نظريـــة (أصل الأنواع) ، ولتقول لأتباعها ، وبكـــل بســـاطة زائـــدة : إن تجاربكم لن تحسم هذه المشكلة في يوم من الأيام . وما عليكـــم إلا أن

تتذكروا دوما أن تقارب نسب التكوين الجسماني هـــو شـــئ ، وأن نشوء شئ عن شئ آحر هو موضوع آخر مستقل عنه تماما .

فإن كنتم تطلبون الحقيقة غير منحازين إلى جانب معيـــن ، فمن واجبكم الرجوع إلى ما هدتنا إليه حقائق سورة الدهر هـــذه ، فتعلموا بالتالي أن كلمة الفصل ترجع إلى القوى التي تضمنها تكويـــن نطفة (الأمشاج) هذه والتي تكون منها هذا الإنسان ، ولــــن تـــأت كلمة الفصل من خلال الأبحاث الجارية على أجسام الكائنات الحية . هذه الأجسام التي تمثل الجانب المادي في نطفة كل شئ ، والتي تعود إلى الوزن النوعي لنواة الذرة المادية المعروفة . فالكائن الغريزي يظـــل غريزيا مهما تطاول عليه الزمان . هذا وإن الكائن العاقل الواعي يظل عاقلا واعيا مهما تطاول عليه الزمان أيضا . هذا مـــا دام تركيـــب القوى في نطفة الحيوان مختلف عنه في نطفة الإنسان . فبفـــرض أن تنوع الحيوانات الغريزية كان قد خضع لقانون النشوء والارتقـــاء . ولا نستغرب مثل هذا الكلام . فمن الممكن أن تكون وراءه حقيقـــة وبسبب ظاهرة التوحد التي تربط بين تكوين نطف جميع الحيوانـلت . فجميع أصناف الحيوانات تحمل في نطفها قـــوى غريزيـــة واحـــدة ووحيدة الجانب . أما نطفة هذا الإنسان فتحمـــل قـــوى زوجيـــة ومتضادة ، وعلى حسب ما أثبت ذلك في مؤلف (نظريـــة جـــذور الأخلاق) . ولذلك كانت فلسفة حياة هذا الإنسان صالحة لتقـــوم على أساس موضوع الابتلاء والامتحان ، ولم تكن حياة هذا الحيـــوان الغريزية لتصلح أصلا لتقوم على هذا الأساس نفسه الذي ذكرناه .

الفصل السادس

١. الدّارونيّة ، ونظريّةُ الانفجارِ العَظيم

فيا عزيزي القارئ هلاّ تساءلتَ لِماذا يَتسابقُ هؤلاء العلماءُ المُنحازون لِرأيِ صاحبِ نَظريَّةِ أصلِ الأنواع ولإجراء التّجاربَ الّتي سَبقَ لنا أن ذَكرناها.وكي يُثبتوا تَطوُّرَ الإنسان عَن كائِنٍ حَيَواني قبله؟ أُجيبُكَ وأقول لكَ : إنّهُم يَفعلون ذلك لِكَوْنهم ما يزالون يَعيشون بعقْليّةِ دارون نفسهِ وهو الّذي كان عاشَ في عصرِ النّهضة الصّناعيةِ الأوربيّةِ الّتي غَلبَ على عُقول أهلِها وعُلمائِها أنَّ كلّ شيءٍ في هذا الكَون عبارةً عن مادّة وتفاعُلات ماديّةٍ ، ولا شيء سِوى ذلك ،كما كانوا يُنكرون كلَّ ما يمُتُّ إلَى الغَيْب بصلةٍ من الصّلات، وبعكسِ ما عَلّمَنا إيّاهُ القرآنُ العظيم وذلك في الآيَة الثالثةِ من سورةَ البقَرة حيثُ قال : ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(٣)** ﴾ .لكِنَّ عُلماءَ القرن العشرين قد نَأوْا بأنفُسهم عَمّا كان يتّسِمُ بهِ عِلمُ العالم (تشارلز دارون) وأهلُ عَصرهِ من اتّجاه ماديٍّ .فالمعلوم أنّها كانت قد حدثت ثورةٌ فيزيائيّةٌ في بدايةِ القرنِ العشرين ، وكان من أعلامِها عُظماءُ عِلمِ الفيزياء أمثال (آينشتاين) و(بور) و (هايزنبيرغ) . وللتّدليلِ على هذه الحقيقةِ التي أشرتُ إليها فاسمَع ما كتبه هذا العالِم الفيزيائيُّ الأخير على الصفحة ٩٨ من مؤلّفِه (الفيزياء والفلسفة) ، فهو كتب يقول: (إنّ الفيزياء الذّريّة المُعاصرة قد نَأَتْ بالعِلمِ عمّا كان يتّسمُ به العِلم من اتّجاهٍ ماديٍّ في

القرن التّاسع عشر .) . وأضاف هذا العالمُ الفيزيائيُّ الكبيرُ يَصِفُ مَنهجيّةَ النّظرةِ القَديمةِ ، ويقول : (إنّ مِيكانيكا نيوتُن وجميعَ الأجزاءِ الأُخرى من الفيزياء الكلاسيكيّة الّتي صِيغَت على نَسَقِها ، انطلقَت من الافتِراض القائل إنّ المرءَ يستطيع أن يصفَ العالَمَ من غير التّحدُّث عن الله أو عن أنفُسنا ، أي يستطيعُ التّحدّثُ عن عالمٍ ليس وَراءهُ عَقْلٌ يُدبّره . ولكنّ النّظرةَ الجديدةَ تُبيّنُ أنّ العكسَ هو الصّحيح في كِلتا الحالتَين . فالانفجارُ العظيمُ والمبدأُ الإنسانيُّ ، كلاهما يُشيرُان إلى وُجودِ عَقلَين في كِلا طَرَفيِّ الكوْن .) ويقولُ في الفَصلِ الثّالثِ من كتابه :(والنظرة الجديدة لا تقتصِرُ على تأكيد أوّليّةِ العقل في الكون ، بل هي تؤكّد أيضاً أنّ الجَمال جزءٌ من بُنْيَةِ العالَمَ . وهذه النّظرةُ الجديدةُ تقودُنا كذلك إلى الأَدِلّةِ على وُجودِ اللّه.) .

فقولُه هذا العالم واضحٌ لا لُبسَ فيه ، وهو أنّ الفيزياء الذرّية قد فَتحت أمامَ العُلماءِ آفاقاً كانت غائبةً عن أذهان عُلماء القرن التّاسع عشر ، ولذلك اتّجهوا اتّجاها مادّياً على صَعيدِ الفِكرِ وأنكروا كُلَّ ما يَمُتُّ إلى الْغَيبِ بِصِلةٍ من الصّلات .

وقد تَعجب عزيزي من كلمة (الغيب) التي استعملتُها آنفاً وتسألني عن مَعْناها . أقول: هذه الكلمة أتَت من غابَ عنه أي بَعُدَ . وغاب الشيءُ عن نظرِكَ معناه :استَتَر . وقال صاحِبُ التَّعريفات: الغيبُ كلُّ ما سَتَرَهُ الحَقُّ مِنك . والغيبُ مصدر . فبسبب دلالتِهِ هذه فإنّهُ يستعملُ بِمَعانيَ أُخْرى فيُستعمل بمعنى الشكّ ولِما اطمَأنَّ من

الأرض . وتصَوّر يا صاحبي أن يترلَ هذا القرآن قبلَ أربعة عشر قــرن من الزّمان ويأمرُ المؤمِنَ أوّلَ ما يأمُرُهُ بهِ هوَ أن يُؤمِنَ بــــالغَيْب . أيّ يأمُرُه ألاّ يتّجهَ على صَعيدِ الفِكرِ اتّجاهاً مادّياً . وهو بهذا التّوجيهِ قــد صانَ عقلَ المُسلِمِ مِن أنْ يَقَعَ فيما كان قد وَقَعَ فيه (داروِن) وعلمــاءُ عصرهِ في القرن التّاسع عشر . فتصوّر عَظَمة ما عَلّمَكَ ربُّــك إيّــاه وكيف أنّه تعالى أثبتَ من خلالِ قول عالمِ الفيزياء المذكور مِصداقيّــةِ ما أمرَ به قبلَ أربعة عشر قرنٍ من الزّمان وهو قوله في الآية الثالثة مــن سورة البقرة (الّذين يُؤمِنونَ بالغَيْب) حيثُ كُشِفَ في بدايةِ القـــرن العشرين عن حقيقةِ وُجودِ (الغَيب) ، على أيدي عُلماء مـــن نَفْــسِ تِلكَ الأَقْوامِ الغربيّةِ المسيحِيّة . كما أنّه تعالى قد دفـــعَ أقلامَـــهُم في الوقتِ نفسهِ لِتُسَفّه عِلْمَ (داروِن) وعِلْمَ أمثالِهِ من أهـــلِ عَصْـــره .

ولا تحسَب يا صاحبي أنّ الأَمر اقتصرَ على ما نقلتُهُ لك مــن قَوْل عالمِ الفيزياء (هايزنبيرغ) وحسب ، بل وظهرَ عالمُ فيزياء آخـر اسمهُ (جورج غاموف) وقد تبيّنَ له أنّ هذا الكَون بأجمعهِ قد نَشأَ عـن تَمدُّد مادّة أوّليّةٍ ، كان قد حدثَ لها ما سَمّاهُ هو نفسُــــهُ (انفجــارٌ عَظيم) . وقد تَوالَت الأيّامُ لتُؤكّدَ مِصداقية نَظريّتِهِ المذكورة. حتّى أنّ التَّقنيّات الحديثَةِ المُتطوّرة قد أعانَتْ على تَقْديرِ عُمُرِ هذا الكونِ بِمــا يتراوحُ ما بين (١٢–٢٠) مِليار عام أيضاً .

فهل تعلم يا صاحبي ما دلالةُ تقديرِ عُمُرِ هذا الكون ؟دلالَتُــه أنّ هذا الكَون هو مَخْلوقٌ ، وأنّ له خالقٌ أيضاً . وهذا الأمر هــو في الحقيقةِ يدخُلُ في مَفْهومِ (الغَيْبِ) القُرآنيّ الّذي نبَّهتُكَ إلى مَوعِظَتِــه.ثمّ

إنّ علماءَ أوروبّة الذين أقْنعَتْهُم نَظريّةُ (الانفِجار العظيم) هذه الّتي أتَيْنا على ذكرها ، فقد غُدْتَ تَلمَحُ في مؤلّفاتِهم اندفاعَهُم للاعتِراف بوجودِ خالقٍ لهذا الكَون ، وبمعنى أنّهم نأوا بأنفُسهم عن التَّفكير باتّجاهٍ ماديّ ، ومُنْطَلِقين من مُنطَلَقِ مفهومِ (الغَيْب) القرآنيّ .

فها أنّهُ قد راحَ عالِمُ الفيزياء المشهور (إدموند ويتيكر) يقولُ على الصفحة ١١٢ من مؤلَّفه (Puoled in gastrow):(ليسَ هُناك ما يَدعو إلى أنْ نفترَضَ أنّ المادّةَ والطّاقةَ كانَتا موجودتَين قبل الانفِجار العظيم ، وأنّ نفترِضَ أنّهُ حدثَ بينهما تفاعُلٌ فُجائيّ . فما الذي يُمَيّزُ تِلك اللّحظةَ عَن غيرِها من اللّحَظاتِ في الأزليّة ؟ والأبسطُ أن نفترِض خَلقاً من العَدَم ، وهو إبداعُ الإرادةِ الإلهيّةِ للكَوْنِ من العَدَم.) .

كذلك لاحِظْ ما ذكرَهُ عالِمُ الفيزياء المشهور وهو (إدوارد ميلن) فهو قد راحَ يُؤيِّدُ زميلَه ويقول وهو يُشيرُ إلى العِلّةِ الأولى الّتي أوْجدَتْ هذا الكون :(أمّا العلّة الأولى للكَون في سِباق التّمدُّد ، فأمرٌ متروكٌ أمرُ إضافتِهِ للقارئ ولكنّ الصّورة التي لَدَيْنا لا تَكتمِلُ من غيرِ اللّه .)

وقد صَدرَ عام ١٩٨٤م في نيويورك الأمريكيّة كتابٌ بعُنوان (العِلم في مَنْظوره الجديد The new story of science) ولمُؤلّفيه (Robert M.Augros و George N.stanciue) وبعد أن نبّها إلى أنّ علماءَ القرن التّاسع عشر كانوا يُفسّرونَ وُجودَ الأشْياء وأشكالَها بمنظارِ الصُّدفةِ أو الضّرورة ، بسببِ اتّجاهِهما المادّيُ المحضُ ، فقد قدَّما مِثالاً رائعاً

يَثبُتُ منه وجودُ أشياء يَستحيلُ أن تُفسّرَ عن طريق الصُّدفةِ أو الضّرورةِ وحدِهما ، بل لا تُفسّرُ إلاّ بوُجودِ عَقْلٍ مُطْلَقٍ هو ما نُسمّيهِ (اللّه) . وقد طرحَ هذان المؤلّفان هذا المثال من ضِمن الفَصْلِ المخُصَّص لِبَحْثِ مَوضوعِ اللّهِ ،وكَتبا يقولان : (تَأمَّلْ لِلَحظةٍ قصيرةٍ فتصوّرْ أنّ حِرَفيًا قد راحَ يَصنَعُ سِكّيناً لِتَقطيعِ الخُبزِ ولاسْتِخدامهِ الشخْصيّ، فَمِنَ الجَليِّ بالضّرورة أنّه سيَجعَلُ لِهذه السكّين الجديدة شَفْرةً حادّة ، إذ أنّه من دونها لن يستطيعَ قطْعُ الخُبز . أمّا أن يُصمّمَ لهذه السكّين مِقبَضاً مُزَخْرَفاً ومُرَصّعاً ، فلا نَستطيعُ أنْ نَعزُوَ وُجودَ هذا المِقبَض للضّرورة وذلك بسَبَبِ أنّ السكّينَ قادرٌ على أن يَقطعَ الخُبزَ بنَجاحٍ دون أيّةِ حاجةٍ إلى أيّةِ زخرفةٍ لِمقبضِ السكّين على الإطلاق . والحُرفيُّ اختار بمحضِ إرادَته تَزْيين مِقبضَ السكّين بِتلك الزّخارف وقد كان بوسعهِ أن يُزَخرِفَهُ أو لا يُزَخْرِفَه . وما دامَ قد اختارَ زَخْرَفةَ مِقبضِ السّكّين ، فقد تَوفّرتْ لهُ تشكيلةٌ غيرُ مُحدّدة من التّصاميم لِيَنتقي منها ما يشاء . وعليه فإنّ زَخْرفة المِقبَض يقبلُ البَدائِلَ ، ومع ذلك فهُناك سببٌ لِوُجودِ هذه الزّخارف . وهو أنّ الفنّانَ لَم يشأ صُنعَ سكّينٍ وحَسْب ، بل وأنْ يكونَ هذا السكّين جميلاً أيضاً . أي أنّ الزّخرفةَ التي زيّنَتْ مِقْبضَ السكّين ما كانت من نتاجِ الصُّدفةِ ولا من نتاجِ الضّرورة ، بل كانت تلك الزّخرفة تتّسمُ بحُرّيّةِ الاختيار . وهكذا يكونُ العقلُ هو الّذي يختار بحُرّيةٍ إذن ، وهذا هو الطّريق الوَسَطُ ما بين الصُّدفة وما بين الضّرورة . وعلى هذا النّحو ذاتهِ فإنّ الجَمالَ البالغَ الوَفْرَةِ في الطّبيعة ، فلا يمكن أن

يكونَ ناشئاً عن الصُّدفةِ ولا عن الضّرورة ، إذ لابُدّ لهُ مِن سَبب مَعقول .. إذ ليس من ضرورةٍ مُطلقةٍ تفرضُ أصلاً وُجودَ الجَمال في الحيوان والنّبات والجَماد .. وعليهِ فلابُدَّ من وُجودِ عَقْلٍ مَسْؤول عن جَمَالِ الطّبيعة . وهذا العقلُ القائمُ وَراء الطّبيعةِ ، يُطْلِقُ عليهِ كُلّ النّاس اسم ــ الله ــ.

وعلى هذه الصّورة فيكفيك يا صاحبي أن تَعلم أنّ النّظرةَ العِلميّةَ الحديثةَ الّتي نَشأتْ عنِ الفيزياءِ الذّريّةِ وعَنْ نظريّةِ الانفجارِ العظيم الّتي أثبتت أنّ هذا الكون مخلوق ، وعن أنّ الصُّدفة والضّرورة وحدَهما لا تكفيان لِتَفْسير ما في هذا الكوْنِ من أشياء . فالنّظرةُ العِلميّةُ الحديثةُ هذه تَراها وقد نَأتْ بالعِلْمِ عَن الاتّجاه المادّيّ الّذي كان مُسيطراً على عقلِ العالِم (تشالز داروِن) هذا الّذي طَلَعَ بنظريّةِ أصْلِ الأنواع في مُنتصَفِ القَرن التّاسع عَشر وهي النّظريّةُ التي سَحرَ بها عقولَ أبْناء عَصرِهِ حتّى وقد تَرَكَ عُلماءَ المُستحاثات وغيرَهم يَعمَلون على إثبات مِصداقيّتها دونَ جَدوى وعلى حَسب ما كُنْتُ قد ذَكرتُهُ لكَ يا صاحِبي مِن قبلُ .

فالعِلم الحديث عاد يُسَلّم بمُعطَيات القرآن العظيم ، من حيث يَدري علماؤه أو لا يَدْرونَ بوجود (عالَمِ الغَيْب) الذي لا تراهُ الأَعْينُ المُجرّدة في هذا الكون . ومن قَبيلِ هذا الغَيْب : تَركيبُ الذّرة ووجودُ خالِقٍ هو عِلّةُ وُجودِ هذا الكَون المادّيّ . وليس هذا وحسْب، بل وقد ثبتَ وبصورة عِلميَّةٍ أيضاً أنّ كِيانَ الإنسان مؤلّفٌ من جسَدٍ وروحٍ وعَقْل ، وأنّ جَسدَ الإنسان وإن كانَ يأتِ عَليهِ

الفَناءُ فقد ثَبتَ عِلمِيّاً أيضاً أنَّ رُوحَ الإنسان وعَقْلَهُ خالِدان ولا يَفنَيان . وهكذا فإنّ كَوْنَ هذا الإنسان قد خَلَقهُ خالِقُهُ خَلْقاً مُستقلاًّ عمّا دونهِ من الكائنات الحيّةِ فهوَ موضوعٌ يدخلُ بدَوْرِه في موضوع الفِكْرِ الغيبيِّ الذي تكلّمنا عَنه ويتعلّقُ بالقِوى الكامنة في النُطفة الأمْشاج الّتي نبّهَ القُرآنُ الكريم أذهانَنا إليها في سورةِ الإنسان ، ولا عَلاقةَ لموضوعُ استقلاليّةِ خَلْق هذا الإنسان بنَواحي تَشابُهِ مَوادِ جسْمهِ مع مَواد جسمِ بَقيّةِ الكائنات الحَيَّةِ المعروفة . لذلك فلا جَدْوى مِن إجراءِ التَّجارِبِ العلميَّةِ المِخْبَرِيَّةِ على أجسامِ هذه الحيوانات .

٢. العقلُ جوهرٌ مُجرّدٌ عن المادّة في ذاته

واعلم يا عزيزي القارئ أنّ (دارون) صاحب نظريّة أصل الأنواع فما كان يَدْري الفَرْقَ الكائِنَ ما بين الكائِنات الثّدييَّةِ وما بين الإنسان على صعيدِ العقْل والإرادة . بسبَب أنّ مُعطَيات عُلومِ عَصْرِه ما كانت لِتُساعدَهُ على إدراك ذلك الفَرْقَ المُشارِ إليه . وإنّني أرى أنّه لو أنَّ دارونِ قد سَنَحَ لهُ أنْ يُعاصِرَ عُلومَ عَصرِنا الحاضر ، لكان تراجعَ يقيناً عن نَظريّته ، ولَكان قد ضحِكَ من حالِ هؤلاء الذين ما يزالونَ يَتّبعونه وَسطَ هذا الجوِّ العِلمِيِّ الحديث .

فنظريّةُ أصلِ الأنواع التي اعتَبرَت أنَّ ظهورَ هذا الإنسان توَلَّدَ عن طَفْرةِ حادثةٍ عن حَلقةٍ حَيَوانيّةٍ سابقةٍ وفي وَقتٍ تُقرُّ فيه بأنّ جميع الكائنات الثّدييّة قَبله ، تعيشُ حياةً غريزيّةً ، ومُجَرَّدَةً عن أيّ

عَقْلٍ أو إرادَة. فقد قال صاحبُ هذه النظريّة بها بسَبَبِ أنَّــهُ كــانَ يُفكِّرُ بأُسلوب التّفكير الماديّ الّذي كان عليه عُلماءُ عَصره المـــاديّ التّفكير . ومِنْهُم عالِمُ الأحْياء (هكسلي) الذي كان يقول في مؤلفــه: (إنّ الأفكار التي أُعبِّرُ عنها بالنُّطقِ ، وأفكارَك، إنّما هي عبارةٌ عـــن تَغيُّرات جُزيئيَّةٍ) /١/. ويستَتْبعُ هذه النّظـــرة المذكـــورَة أنّ العقــل البشريّ لا يستطيع أن يختارَ بإرادة حُرّة . أي أنّ

النّظرةَ القديمةَ الّتي عاشَها دارون وأمثالُه من العُلماء كـــانت تُفسِّــرُ تصرُّفات الإنسان بلُغَةِ الغَريزة وبلُغةِ عِلم وظائِفِ الأعضـــاء وعِلــم الكيمياءِ والفيزياء . هذا التّفسير الّذي لا يفسحُ مجالاً للقولِ بحرّيّــةِ اختيارِ لهذا الإنسان. وهكذا فلا يعودُ هُناك من مجـــالٍ للاعـــتراف بوجودِ العقلِ مُستقلاً عن الدّماغ ، ولا للاعتراف للإرادة من وُجود. فهذه هي الصورة القاتمةُ الّتي عاشَها دارون وأمثالُهُ من عُلماءِ عَصْره. لكنَّ هذه النّظرةَ النّاقِصة حَوْلَ مَفهومِ العَقْـــل والإرادة قـــد غيَّرَهْـــا مُعطَياتُ عُلوم القَرن العِشرين . فقد تبيّنَ لهؤلاء أنّ مُهمّـــةَ دمـــاغ الإنسان تقتصِرُ على إيصال المعلوماتِ الّتي تردُ إليـــهِ عـــن طريـــق الحواس، إيصالَها إلى عَتَبةِ العَقْلِ المَوْجود خارجَ جُمجُمَةِ الإنســـان ، وليس داخِلَها . وأنّ هذا العقلَ هو قُوّةٌ خالدةٌ لا تُدرَكُ حقيقتُـــها ، فهيَ كالمغناطيسِ لا يُعرَفُ إلاّ بآثاره ، حتّى وأنّ هذا العقْلَ خالِدٌ من بعدِ مَوت صاحبه ، ولا يَفْنى إذا فَنيَ جسَدُ الإنسان ولا يأتي عليـــه الفَناء . وقد رجعَ بذلك عُلماءُ هذا العصر إلى مفهوم العقلِ وتعريفِــه الذي عرّفَهُ به صاحبُ التّعريفات قبل ما يزيدُ علـــى ألـــفِ عـــامٍ ،

والوارد تعريفُهُ في مِعجم (محيط المحيط) . فقد عرّفَ العقلَ وقـــال : (العقلُ جوهرٌ مُجرّدٌ عن المادّة في ذاتِه ، مُقارِنٌ لها في فِعلِه ، وهـــي النّفسُ النّاطقَةُ التي يُشيرُ إليها كُلٌّ أحدٍ بقولِه — أنا-.. فصريحٌ بـــأنّ القُوّة العاقِلة أمرٌ مُغايرٌ للنّفس النّاطِقة ، وإنّ الفاعلَ هو النَّفـــس . وإنّ العقلَ آلةٌ لها بمَنزلِةِ السِّكّين، بالنّسبةِ إلى الّذي يَقْطعُ شيئاً ما).

وبألفاظ أخرى أقولُ لكَ يا صاحبي إنّ عُلماء القرن التّاسـع عشر الّذين انتَهجُوا نَهْجَ التَّفكير المادّي ما استطاع أحـــدٌ منـــهم أن يُحدِّدَ بالضَّبطِ كيفيّةَ انبثاق العقلِ من المادّة ، بل وإنّ الّذي طالَعَ مـــا كَتبهُ علماءُ الفيسيولوجيا آنذاك يُدرِكُ بأنّ موضوعَ انْبثاق العَقْل مـــن المادّة كان قد شغلَ أذهانَهُم في تلك الحُقبَةِ من الزّمان وكانوا يتوقّعون أن يأتيَ جـــوابُ السّـــؤال المذْكـــور في المُســـتقبل . وَهـــا أنّـــه قد جاء القرنُ العُشرون بكُشوف رائعةٍ عن الفيسيولوجيا ، ولكنّها لم تكُن بأيِّ حالٍ من النّوع الذي كان يمُتُّ إلى النَّظرة المادّيةِ التي تَبنّاهـا أسلافُهم من عُلماء القرن التاسع عشر فالكُشوفُ الحديدة لم تُكمِـــلْ النّظرةَ القديمَةَ المذكورَةَ ، بل قدّمَت نظرةً جديدةً ابتَدَأها مؤسِّـــسُ عِلْمِ فيسيولوجيا الأعصاب الحديثة (سير تشارلز شرنغتون) هذا الذي أجْرى بُحوثاً رائدةً في الجهاز العصبيّ والدِّماغ وخلـــصَ منـــها إلى القول : (الحياةُ هي مسألةُ كيمياء وفيزياء ، أمّا العقل فهو يسـتعصي على الكيمياء والفيزياء) -٢-. هذا وقد وافقَهُ على ذلك عالِمٌ آخـر من نفس الاختصاص وهو (سير جون اكلس) الذي كتبَ يقـــول : (تختلِفُ التَّجاربُ الّتي تَنِمُّ عنِ الوعيِ في نَوعِها كُلَّ الاختلاف عمّـــا

يَحدُثُ في آليّةِ الأعصاب . ومع ذلك فإنَّ ما يحدُثُ في آليّة الأعصاب شرطٌ ضروريٌّ للتّجرُبة ، وإن كان هذا شرطاً غير كاف)-٣-.فأقوالُ هذين العالِمين الكبيرَين لها وَزْنُها الكبير ، ولا يُحيطُ بها فَهماً إلاَّ مَنْ كان من أمْثالِهما من العُلماء . أمّا أنت يا صاحبي فلا مانِعَ من أن أشرحَ لك مفهومَ (شرنغتون) لكلمة الحياة التي استعملها، فهو أشار بها إلى التّغذية الذاتيّة لجِسم الإنسان ولاستِقلابِ الخلايا (الأيض) وللنّموّ . فهو نبّهَ إلى أنّ هذه الظّواهر تَتِمُّ بواسطة قوانينِ الفيزياء والكيمياء وبالإمكان تفسيرها بلُغةِ هذين العِلْمَين . أمّا أنشِطَةُ العقل فهي تَتجاوزُ آليّاتِ عِلمَي الفيزياء والكيمياء .

ولا أقتصرُ لك على هذا الشرح الموجَز ، بل أُوَضِّحُ لكَ ما قُلتُه بمِثالٍ من واقعِ الحياة . فافرِضْ أنّكَ تقفُ أمامَ شَجرة وتنظُرُ إليها، فماذا يحدُث حينذاك ؟ الّذي يحدُثُ هو أنّ أشِعّةَ الشمسِ المُنعكسةِ من الشجرة ،تدخلُ من خلالِ بُؤبُؤِ عَيْنكَ لِتُشكّلَ صورةً مقلوبةً ومُصغّرةً على شَبكيّةِ عَيْنَيْك وتُحدِثُ فيها تفاعُلات فيزيائيّةً وكيميائيّة . عِلماً بأنّه قد ثَبتَ عِلميّاً أنّ شَبكيّةَ العَين مُؤلّفةٌ من عَشْرة ملايين مَخْروط ومائة مَليون قَضيب . وتبدأُ بعد ذلك هذه النّبضات تنتَقِلُ إلى قِشْرَة الدِّماغ البَصريَّة بواسطةِ العَصَب البصريّ . فلو أنّك يا صاحبي كُنتَ تُراقبُ ما يحدُث لِقِشْرَة الدِّماغِ المذكورة ، فإنّكَ ما كُنْتَ لِتَلحَظَ أيّ تبدُّل في لَونها ، فلا تتلوّنُ قِشْرَةُ الدِّماغِ باللّون الأخضر الذي هو لَوْنُ الشجرة بل يَبْقَى لَونُ قِشرةِ الدِّماغ تلك رماديّاً .

وينبغي لك أن تتساءل هنا : إذا تلقّى دماغُك لَوْنَ الشجرة المذكورة فكيف حافظ العقلُ على الّلون الأخضَرِ ما دام هذا الدِّماغُ مُغلقاً ومعزولاً تماماً عن أيّ ضوء ؟ وبالرّغم من عدم تلوُّن الدّماغ باللّون الأخضر ، تتمَكّنُ أنت يا صاحبي من إبصارِ تلك الشجرةَ مُلوَّنةً باللّون الأخضر وبأبعادها الثّلاثة أيضاً .

ومن واجبك يا صاحبي أن تعلمَ أنّني ما دفعتُكَ لِتتساءل هذا التساؤل إلاّ لأدفعكَ تُركّز اهتمامَك على هذه النّقطة بالذات ، ومن أجل أن أنقُلَ لك جواب العالم(إكلس) على السؤال المذكور وهو يشرحُ لنا سرَّ الإدراك الحِسّي . فهو كَتَبَ يقول: (أليسَ صحيحاً أنّ أكثَرَ تجاربنا شُيوعاً تُقْبلُ دون أيِّ تقديرٍ لِما تَنطوي عليه من غُموضٍ هائلٍ ؟ أَلَسْنا لا نزالُ كالأطفال في نَظْرَتنا إلى ما نَقْبلُهُ من تجارِبنا المُتعلِّقةِ بالحياة الْواعِية ، فلا نَتريّثُ إلاّ نادَراً للتّفكير في أُعجوبة التّجربةِ الواعيةِ أو لتَقديرها؟ فالبصرُ مثلاً يُعطينا في كُلِّ لَحظةٍ صورةً ثُلاثيّة الأبْعاد لِعالَمٍ خارجيٍّ ، ويُركّبُ في هذه الصّورة من سِمات الالتماعِ والتلَوُّنِ ما لا وُجودَ لهُ إلاّ في الإبصار النّاشئ عن نَشاطِ الدّماغ . ونحنُ بالطّبع نُدرِكُ الآن النظائرَ المادّيةَ لهذه التّجارب المُتولّدة من الإدراك الحسّي : كحِدّةِ المصدرِ المُشِعّ والطّولِ الموجيِّ للإشعاعِ المُنبعِث ، ومع ذلك فعمليّاتُ الإدراك ذاتها تنشأُ بطريقةٍ مجهولةٍ تماماً عن المعلومات المَنقولةِ بالرُّموز من شبكيّةِ العين إلى الدّماغ ...فالصُّورة التي تُسلّطُ على الشّبكيّةِ مَثَلاً لا تعودُ إلى الظُّهور مُجَدَّداً في الدِّماغ ، بل لابُدَّ للعقلِ الواعي من أن يُعيدَ

تَرْكيبَها من أَنْماط النّبضات المَرموزة . وعليه فإنّ كُلّ عمليّــةِ إدراك حِسّي تتكوّنُ من ثلاث مَراحل هي : المُنبّهُ الأصليُّ لِعُضوِ الحــسّ . والنّبضاتُ العصبيّةُ المُرسَلَةُ إلى الدّماغ . ونَمَطُ النّشاط العصبيِّ المُثــارِ في الدّماغ .) ومن ثمّ يُلخِّص العالِم (إكلس) المذكور العمليّةَ الـــتي تكلَّمَ عنها ويقول:(إنّ عَمليّةَ النَّقْلِ من عُضوِ الحِسِّ إلى قِشرَةِ الدماغ تَستَخدِمُ نَمَطاً من النّبضات العصبيّةِ مُعَبَّراً عنها برُموز تُشبهُ رمــــوز مُورْس ، وتنحصرُ فيها النّقاطُ في تسلسُلات زمنيّةٍ شتّى. ومن المؤكّدِ أنّ هذا النّقل المَرموز يختلِفُ تمامَ الاختلاف عن عمليّةِ الحَفْزِ الأصلــيِّ لِعُضْوِ الحسِّ المَعْنيِّ ، كما أنّ النّمطَ المكانيّ/ الزّمانيّ للنّشاط العصــبيِّ المُثارِ في قِشرَةِ الدّماغ ، مُختَلِفٌ هو الآخَرُ كُلّ الاختلاف .)-٤- .

فمن خلال قولهِ هذا تُدركُ يا صاحبي أنّه نبّهنا إلى أنّ عمليّــةَ إبصار شيء من الأشياء تَنْطوي على عمليّةِ تَرْجمَةٍ مُزدوجةٍ مُدهشَــةٍ لعُقولِ المتفكّرين فهناك ترجمةٌ لِما يَردُ إلى شبكيّةِ العينِ من إحســاس. وهذه الترجمةُ تحدُثُ في الدّماغ وهناك من بعد عمليّةِ الدّماغ هــــذه عمليّةٌ أُخرى تَجري خارجَ الدّماغ . بمعـــنى أنّ النّظــرةَ الجديــدة للإحساس باتَتْ مُختَلِفةً عن نَظْرَةِ عُلماء القرن التّاسع عشر الّذين قَصروا أَحاسيسَ الإنسانِ على الخواصِ الفيزيائيّةِ والكيميائيّــةِ الــتي تحدُثُ داخِلَ أعضاءِ الجسم وحدها على حينِ أنّ العالم (شــرنغتون) يقول (إنّ مُخَطّطَ الطاقة – وهو عمليّــةُ التَّرجمــةِ الأولى- تصــلُ بالإحساسِ إلى عَتَبةِ فِعلِ الإدراك لِيُودِّعهُ هناك . وهو فيما يبدو ينقُلُنا إلى صَميمِ المكان والزّمان المُرتَبطَينِ بالتّجربة الذّهنيّة ، ولكنّه لا يُعطينا

أيّ إشارةٍ خفيّةٍ أخرى .) بمعنى أنّ المادّةَ وحدَها تَعجزُ عن تَفسير كيفيّة حُدوث عمليّة التّرجمة الثّانية للإحساس ، فلا تستطيعُ المادّةُ تفسيرَ كيفيّةِ حُدوثِ الإدراكِ الحِسّي من إبصارٍ وشَمٍّ وذوق وسَمعٍ ولَمْس و بمعنى أنّ الإدراك الحِسّي هو حقيقةٌ لا رَيبَ فيها ، لكن لا يصِحُّ الزّعم بأنّ الإدراكَ الحِسّيّ هو عِبارةً عن خَواصٍّ مادّيةٍ وكما فهِمَها داروِن وعلماءُ عَصْرِهِ ، فبالمادّة وحدها لا تستطيعُ تفسيرَ هذا الإدراك الحِسّي .

ولا حِظ معي يا صديقي كيف أنّ العالم المذكور (شرنغتون) يخلُصُ إلى القول : (إنّ كِيان الإنسان مؤلّفٌ من عُنصُرَين جَوهرِيّين، ولا يقتصِرُ على عنصُرِ الجَسَدِ وَحدَه). وعليه فإنّ النظرة العلميّة الجديدة ، عادَتْ تَختلِفُ عن نَظرة داروِن وغيره من علماء القرن الماضي وعادَت تفتَرِضُ وُجودَ عُنصُرَينِ جوهريّين في الإنسان هما:الجسمُ والعقل مُستَقلاً عنه . وهذه النَّظرة العِلميّة المعاصرة الحديثة باتَتْ تتّفِقُ مع نَفْسِ التَّعريف الّذي عَرّفَ بِهِ العَقْلَ صاحب التّعريفات قديماً والذي نقلتُهُ لك يا صاحبي من قَبل وهو (العقلُ جوهرٌ مُجرّدٌ عن المادّة في ذاتِهِ ، مُقارنٌ لها في فِعلِه ..) (معجم مُحيط المحيط) .

وهذه النتيجة التي تَوصّلَ إليها عُلماءُ هذا القَرن الأخير من الزّمان تُؤكّدُ لكَ يا صاحبي وُجودَ فَرْق عِلميٍّ كَبير يُميّزُ عُلومَ عَصْرِنا عن عُلومِ عصرِ صاحبِ نظريّةِ أَصل الأنواع الّذي كان كلفِراً هو وعُلماءُ عصرِه بشيءٍ اسمُه (غَيْب) أولئك الّذين راحوا يَعتقدون أنّ هذا الكون (مادّةٌ وتفاعُلاتٌ مادّية) وحَسب ، لذلك زاغ عقلُ

دارون وسواه عن أن يتصورّ أن يكَون هذا الإنسانُ مخلوقاً خَلْقاً مُستقلاً عن بَقِيَّةِ الكائنات الحيَّة، ولذلك فقد ذَهبَ ذهنُهُ إلى أنّ وُجودَ هذا الإنسان يُمثّلُ مُجرّدَ طَفرةً نوعيّةً عمّا دونه من الكائِنات الحيّةِ ليس إلاّ ، وراح الذين سَحَرَهُم نظريّتُهُ يغُطّون في سُبات عَميق حتّى اللّحظة فَلم يُوقِظْهُم صَدى دَوي نظريّةِ (الانفجار العظيم) ولا اسْتَفادوا مِمّا أَسْفَرَت عنهُ تحرّياتُ وبحوثُ عُلماء الفيسيولوجيا المعاصِرون .

٣- العقْلُ خالِدٌ في نَظَرِ العِلمِ الحديث

فيا قارئي العزيز عندما كُنتُ أستعملُ لك مُصطلحَ كلمةِ (الإدراك الحسّيّ) ، فقد كُنت أقصُدُ به كُلَّ ما يَرِدُ إلى أدمِغتنا من معارِفَ عن طريقِ الخواسّ الخمس مُفردةً تارةً ومُتعاونَةً تارةً أُخرى.وليس عن طريقِ هذه الحواسِّ الخَمْسِ الظّاهِرية المؤلّفةِ من حواسِّ البَصر والشمّ والسّمع والذّوق واللّمس التي لا تُدرِكُ سوى صفاتِ الأشياء المادّية وحدها بل وبمساعدَة ما نمْلكه من حواسّ داخليةٍ تُساعدُ على التّمييزِ بين صفاتِ الأشياء . كالذّاكرة والخَيال والعَواطِف وغيرها .

ومعلومٌ أنّ ما يُميِّزَ الإنسان عن الحيوانِ الذي هو غريزيُّ السُّلوك ، هو أنّ هذا الحيوان حين يتحرّكُ فهو لا يَدري فلسفةَ حركتِه ولا الغايةَ منها ، أمّا هذا الإنسان حين يَتحرّكُ فإنّهُ يتحرّكُ بتوجيهِ من عَقْلِهِ ، فيعرفُ إلى أين يمضي ولماذا يفعلُ ما يُقدِمُ على

فِعلِه . كذلك فإنّ عقلَ الإنسان يُساعدهُ على إدراك ماهيّةِ الأشـــياء وأبعادها الزمانيّة والمكانيّة وبوعيٍ وفهمٍ وبإرادة ذاتيّة . على حـين أنّ الحيوان مُجرّدٌ عن ذلك كُلّه ويَتبعُ أحاسيسَه وعَواطفَه دُون مـــا أيّ اختيارٍ منه .

فمن خلال ذلك تُدرِكُ يا صاحبي أنّك لا تَملِــكُ حواسّــاً ظاهريةً وحواسّاً باطنيّةً وحسب ، بل تَتميّزُ عنِ الحيوانِ بكَونكَ تملِكُ عقلاً وإرادةً أيضاً .

وبعد تذكيرِكَ بهذه الحقائقِ أعودُ بكَ إلى ما تَقولُـــهُ النّظــرةُ العِلميّةُ الحديثةُ بشأنِ العقلِ والإرادةِ وما بينَهما من عَلاقةٍ موضوعيّة .

وأختصِرُ لك وأقول : لقد ظَهَرَ في هذا القرنِ العشرين عـالِمُ جراحةِ أعصاب هو (ويلدر بنفيلد)وقد قام هذا العــالِمُ ببُحــوث رائدة ، وتمّ على يَديهِ أروعُ الاكتشافاتِ ويعودُ الفضلُ إليه في إدْماجِ علمٍ مباحثِ الأعصاب بعلمِ فيسيولوجيا الأعصاب وجراحتِها . وقــد نشرَ عام ١٩٧٥م كتاباً سمّاه (لُغزُ العَقل) وقد عَصرَ فيه خلاصةَ مـــا توصّلَ إليه من معلومات . فطَلعَ على عَالِمنا بنَظرة تجريبيّـــةٍ وعِلميّـــةٍ أيضاً وحديثةٍ غيّرتْ مَفاهيمَ النَّظرةِ القديمةِ المَوروثة . وقد انتهى هـــذا العالم إلى أنّ آليّةَ الكَلام عند الإنسان ، ليست مُتماثِلةً مـــع عقلِـــه ، وإن كانت آليّةُ كَلامِهِ مُوجَّهةً من عقلِه . فقد تبيّـــنَ لـــهُ أنّ هـــذه الكَلماتِ التي يُعبِّرُ بها صاحبُها عن أفكارِه لا تُمثّلُ أفكـــارَهُ ذاتَهَـــا . وهذا يعني أنّ العَقْلَ لا يَعمَلُ عَمَلاً آلِيّاً . فـــهو تَوصّـــلَ ، وبنتيجـــةِ مُراقبتِهِ لمئاتِ المرضى ومن خلالِ اســـتعمالِهِ المَجَـــسّ الكـــهرُبائيّ

(الألكترود) ووضعِهِ على مناطِقَ من القِشْرةِ الحركيّةِ من دماغ كثير من مَرضاه أقولُ إنّهُ توصّل إلى أنّ عقلَ المريضِ المذكور يُراقِبُ ما يحدُثُ وبعُزلةٍ وبطريقةٍ نقديّةٍ . وهذا كان يعني لهذا العالِم أنّ العقلَ هو شيءٌ آخر يختَلِفُ تماماً عنْ الفعلِ غير الإراديّ لأعصاب هذا المريض . وبمعنى أنّ مَضمونَ وَعْيِ الإنسان وإن كان يتوقّفُ إلى حدٍّ كبيرٍ على نَشاطِهِ العصبيّ ، إلاّ أنّ عمليّةَ إدراك هذا المريض لِشيءٍ بعَيْنِهِ لا يتوقّفُ على نشاطِهِ العصبيّ بحالٍ من الأحوال .

حتّى وأنّ هذا العالِمُ الكبير استَطَاعَ من خلال عمليّات أساليبِ المُراقبة تِلك ، أن يرسِمَ خريطَةً كامِلَةً تُوَضّحُ مناطِقَ الدّماغِ المَسؤولةِ عَنِ النُّطقِ والحَركةِ وعن كُلّ الحواسّ الخارجيّةِ والدّاخليّة . وبالرّغمِ من حُصولِهِ على تلكَ النّتائجِ ، فلم يتمَكّن من تَحديدِ موقعٍ بعَينِهِ لِعَقْلِ هذا الإنسان أو موقعاً لإرادَتِه في أيّ جزء من أجزاء الدّماغ . وانتهى هذا العالم من ذلِكَ إلى أنّ الدِّماغَ وإنْ يكُن يُشَكّلُ مَقرّاً للإحساسِ والذّاكِرةِ والعواطِفِ والقُدرة على الحَرَكَةِ لكنَّ هذا الدِّماغِ لا مَركَزَ فيهِ للعقلِ والإرادةِ ، بل إنّ مَركزَ العقلِ والإرادة هو خارجَ دماغِ الإنسانِ يقيناً .

فماذا أَعلنَ العالِمُ المذكور (بنفيلد) في كُتبهِ ؟ إنّهُ أعلنَ وكتبَ يقول (ما مِنْ عَمَلٍ من الأعمالِ الّتي نَعزوها إلى العَقلِ قد ولّدَهُ التّنبيهُ بالمِجَسّ – الألكترود- أو الإفراز الصَّرعيّ ... فليس في الدِّماغ أيُّ مكانٍ يستطيعُ التّنبيهُ الكهربائيُّ فيه أن يجعَلَ المريضَ يعتقِدُ أو أنْ يُقَرِّرَ شيئاً ما). وبِعِبارَةٍ أخرى فانّ (بنفيلد) أقرَّ بأنّ

(الألكترود) يستطيع إثارةَ الأحاسيسِ والذّكريات ، لكِنّهُ عاجزٌ عنِ اصطِناعِ القِياسِ المنطقيِّ وعن حلِّ مَسائلٍ في الجَبرِ ، بل ولا يستطيعُ أن يُحدِثَ في ذهنِ الإنسانِ أبسطَ عُنصرٍ من عَناصِرِ الفِكرِ المَنطِقيِّ . كذلك أعلن أنَّ (الألكترود) يستطيعُ أن يجعَلَ جسمَ المريضِ يتحرّكُ ، لكنّه يَعْجزُ عن أن يدفَعَ هذا المريضَ لِيتحرّكَ بإرادةٍ من نفسه . فلا يستطيعُ (الألكترود) إكْراهَ إرادَةِ أحَدٍ من النّاس . وانتهى من ذلك كُلّهِ إلى أنّه لا توجدُ لِعَقْلِ الإنسانِ وإرادَتِهِ أعضاءٌ جسَدِيّةٌ مادّيّة. وعلى هذه الصّورة فقد أحدثت تَجاربُ العالم (بنفيلد) ثورةً قلَبَتْ مفاهيمَ عُلماء القرنِ التّاسع عَشر المادّية ، وسلّمَتْ بتعريفِ صاحبِ التّعريفات الذي كان قد نبّهَ إلى هذه الحقيقةِ التي توصّلَ إليها العالم المُعاصِر المذكور بصورةٍ علميّةٍ قبلَ أَلْفِ عامٍ تقريباً من خِلالِ ما كان قد عرّفَ بِهِ عقلَ الإنسانِ ، وهو أنّ عقلَ الإنسان جوهرٌ لطيفٌ غيرُ مادّيٍّ ويقعُ هو والإرادةُ التي يملِكُها خارجَ دماغِ الإنسان . لذلك يدخُلُ العقلُ في عِلمِ اللّهِ الغيبيّ ، ولا يدخُلُ في بابِ العُلومِ المادّيّة أيضا بحالٍ من الأحوال .

وعلى هذه الصّورةِ فقد باتَتِ النّظرةُ العِلميّةُ الحديثةُ تُخالفُ نظرةَ المادّية القديمة ، فلا تَرى استحالةَ تأثيرِ الإرادةِ في المادّة . وها أنّ العالم (إكلس) الّذي سبق ذكرهُ من قَبل يشرحُ هذه الحقيقةَ العلميّةَ الحديدةَ ويقول (تعلّمتُ بالتّجرُبةِ الثّابتةِ أنّني بالتّفكير وبالإرادة أستطيعُ أن أتحَكّمَ بأفعالي كُلّما شئتُ ذلك . لكنّهُ ليسَ بوسعي أن أُفسّرَ وبأسلوبٍ علميٍّ كيفَ يستطيعُ التّفكيرُ أن يُؤدّي إلى الفِعل) .

وقال (فإذا كانَت الإرادةُ البشريّةُ غيرُ مادّيّةٍ ، فَليسَ ممّا يُنافي العَقل أنْ تَتصرّفَ هذه الإرادةُ بغَيرِ طُرُقِ المادّة أي بحُرّيةِ الاختيار. وبالتّالي فإنّ النّظرةَ الجديدةَ هذه لا تَرى في الاعتراف باستقلال الإرادة فينا أيَّ مُنافاةٍ لِلسُّلوك العلميّ ..وليس هناك إذَن أسبابٌ علميّةٌ وَجيهةٌ تَدعو لِإنكار حُرّيةِ الإرادة ، هذه الّتي لابُدَّ من افتِراض وُجودِها ، إذا أردنا أن نَتصرّفَ كباحِثِينَ عِلميّين .) كذلك فإنّ عالم الفيزياء (كارل فون فايتز ساكر) كتبَ يقول (الحُرّية شرطٌ من شُروط التّجرُبة .فأنا لا أستطيعُ أن أُجري التَّجارِبَ إلاّ حين لا يَكونُ فيها فِعلي وتفكيري محكومَين بالظُّروف والحوافِز والعادات ، بل بحُرّيةِ اختياري) وبناءً عليه فإنَّ النّظرةَ الحَديثةَ لا تَرى في قُدرَةَ العقْل على تَوْجيهِ أنْشِطةِ الدّماغِ أمراً مُستحيلاً .وقد باتَ عددٌ لا يُستَهانُ بهِ من العُلماء المُعاصرين يحمِلون هذه الأفكارُ والمُعتَقَدات أمثال (روجر سبري) و(أدولف بورتمان) وسواهُما من العلماء المعاصرين .

فهؤلاء العلماء جميعُهم باتُوا يَرون في أنّ الّذي يَتوقّعُ العثورَ على عَقْلِ الإنسانِ في أحَدِ أجْزاء الدّماغ ، أو في الدّماغ كُلّه ، يُشبهُ حالُهُ حالَ الإنسان الّذي يَتوقّعُ أن يكونَ الشّخصُ الذي يقومُ بِبَرمَجَةِ الحاسِبةِ الألكترونيّة جزءً منها ، وليس شخصاً مُستقِلاً في وُجودهِ عنها .

ولا ينبغي أن تَدْهَشَ يا صاحبي إذا أخبَرتُكَ بأنّ العالِمِ (بنفليد) الذي أدهشَ العالمَ بِما تَضمّنَهُ مُؤلَّفه –لُغزُ العَقل- كان في

بدْءِ حَياتِهِ يعتقِد بصِحَّة أفكار المادّيّن من عُلماء القرن التاسع عشر ، بلَ وكان جُلُّ همّهِ أن يُثبتَ مِصداقيّتها من خِلال تجاربهِ وأبحاثِهِ ، لكنّه ثَبتَ لهُ فيما بعدُ عكسُها وبُطلانُها . فهو كتبَ يعترفُ بهذه الحقيقةِ ويقول(سعَيْتُ جاهداً طِوالَ حَياتي العلمِيّةِ ، وكَغيري من العلماء ، سعَيتُ إلى إثباتِ أنّ الدّماغَ يفسّرُ العقْلَ) لكنّه اضطرّ أخيراً أن يُعلِنَ ويقول :

(ياله مِن أَمرٍ مُثيرٍ إذن أن نكتَشِفَ أنّ العالِمَ الذي يعمَلُ في المجالِ العِلميِّ يستطيعُ بدَوْرِه أن يؤمِنَ عن حقٍّ بوُجودِ الرّوح). وليسَ هذا وحَسْب ، بل إنّ العالِمَ (إكلس) ، وبعدَ أن اعتقدَ بأنّ العقْلَ والإرادةَ هما حقيقتان غيرُ مادّيّتين ، فقد كَتبَ أخيراً يقول :(إنّ العقلَ والإرادةَ لا تَخضَعان بالمَوتِ لعمَليّةِ التحلُّلِ التي تطرأُ على جسمِ الإنسان ودماغِهِ كِلَيهما بعدَ موت هذا الإنسان .). وواضحٌ أَنّ هذا العالِمَ الشّهير المُعاصِر قد اضطَرَّتهُ عُلومُهُ وتجارِبُهُ لِيعترف بصراحةٍ تامّةٍ بخلُودِ عَقْلِ الإنسان وإرادتهِ بعدَ مَوْت صاحبهما ، وهو الأمر الغيبيُّ الذي كانَ قد طَرَحهُ القرآنُ الكريمُ قَبل أربعةِ عشرَ قرنٍ من الزَّمان . وعِلماً بأنّ العقلَ والرّوح هما كيانٌ واحدٌ في نَظرِ الإسلام .

٤ .الخُلودُ مُرتبطٌ بالحياة العاقِلَةِ وليسَ بالغَريزيّة

وهنا ستُطالِبُني يا صاحبي بالدّليلِ القرآنيّ الذي يَثْبُتُ منه مِصداقيّةُ ما نسَبتهُ إليهِ وهو أنّهُ يتّفِقُ مع ما توصّلَ إليه العلمُ الحديث بشَأن العَقْلِ والإرادةِ المُرتَبطَينِ بوُجودِ هذهِ النّفسِ العاقِلة .

أقول : إنّ اللّه تعالى قَدّمَ هذا الدّليلَ العلميَّ وأثبتَ من خلالِهِ خُلودَ عَقْلِ الإنسانِ وإرادَتِهِ الّذين هما جزءٌ لا يتجزّأُ من النّفسِ البشريّةِ العاقِلة ، وذلك في الآية (٤٢) من سورة الزُّمُر التي قال تعالى فيها :
﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٤٢)﴾ وما دامَ اللّهُ عزّ وجلّ قد اختَتَمَ هذه الآيَةَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فقد مَنَحَ تعالى بذلكَ دليلَهُ هذا شُموليَّةً وليَشْمَلَ كُلَّ إنسان مُفكّرٍ بغَضِّ النَّظَرِ عَنْ لَونِهِ وجنسيَّتِهِ . أي أنَّ هذا الدّليلَ مُوَجَّهٌ إلى أصحابِ العُقول .

ثمّ إنّهُ تعالى يَكونُ قد دَفَعَ هذا المُفكّرَ أيضاً لِيَأخُذَ بأُسلوبِ المُلاحَظَةِ العِلميِّ ، ولِيُلاحظَ حالَتين يمُرُّ بهما كُلُّ إنسانَ يوميّاً. فيكونُ في الحالَةِ الأولى يَقظَان ويكون في الحالَةِ الثانيةِ نَائماً . وبينما يكونُ هذا الإنسان خاضعاً في يقظَتِهِ لِعامِلَيِّ الزّمان والمكان ولِلقوانين التي تنظُمُ حالةَ جسَدِهِ المادّي وحَواسّه الخمسِ . يُلاحَظُ أنّه يكون في حالَةِ نومِهِ خاضعاً لِقَوانينَ مُختَلِفةٍ تماماً ويَزولُ فيه حُكمُ الزّمان والمكانُ أيضاً .

فهذه المَعلومات قد حَصَلنا عليها بأُسلوب المُلاحظَةِ العلميِّ كمُفكّرين ، وهي تُمَثّلُ الإطار الموضوعيَّ لهذه الآيَة الكريمة . فما هو الطّرحُ الذي استَنَدَ إلى هذه المعلومات ؟ طرَح اللّه ذلك من خلالِ قوله تعالى: (هو الذي يتوفّى الأنفُسَ ..).

فهو تعالى أتى بكلمةِ (يَتَوَفّى) مِن تَوفّى اللّهُ فُلاناً أي أماتَـه . بدليلِ أنّهُ وردَ في مِعجَم لِسانِ العرَب : إذا كان المُتَوَفّي هـو اللّـه وكان المُتوفّى هو إنسان فلا يعني التّوَفّي إلاّ المَوت .

وهو تعالى أتى بكَلمةِ (الأنفُس) مُفرَدُها (نَفـس) وبمعـنى الرّوح ، حيث يُقال : خرجَتْ نَفْسُهُ أي خَرَجَتْ روحُهُ من جَسَـدِه (محيط المحيط).وما دامَ اللّه تعالى قد قَرَنَ كلمةَ (يتَوفّى) هُنا بكلمـةِ (مَوتِها) فهذه قرينةٌ دالّةٌ على أنّه تعالى قد استعملَ التّوفّي هنا بمعـنى أخْذِ الرُّوح .

فاللّهُ تعالى يتكلّمُ في هذه الآية الكريمةِ إذن عن روحِ الإنسان خاصّةً ، ومُوضِّحاً أنَّ هذه الرُّوح تُفارقُ جَسَدَ الإنسان في حـالَتين : في حالة النّومِ ، وفي حالَةِ المَوْت ، **﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَـى عَلَيْـهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**. فهذا هو الموضوعُ الذي طَرَحَتْهُ هذه الآيـة الكَريمـة . وهذا يعني بألفاظ أُخرى أنَّ ربَّنا عزّ وجلَّ يُنبِّهُنا إلى أنَّ روحَ كُلِّ فَرْدٍ مِنّا تَنْتَقِلُ يوميّاً مِن جَسَدِها إلى عالَمٍ بَرزَخِيٍّ يُغايِرُ عالَمِنا المـادّي ، ولِتَعودَ في صَباحِ اليومِ التّالي إلى جَسَدِها . وهذا العـالَمُ السـبَرزَخيُّ ينعَدِمُ فيه الزّمانُ والمكان وتَختلف قَوانينُهُ النّاظِمةِ لهُ عـنِ القَوانـينِ النّاظمَةِ لِعالَمِنا المادّي ، وعلى حَسَبِ ما توصّلنـا إليـه في البدايـةِ بأُسلوبِ المُلاحَظَةِ العِلمِيّ .

والآنَ فمِن واجب الإنسان المُفكِّر أن يَقِفَ هُنا مُتسائلاً : إنّه كانَ يكفي أنْ تَتَضمّنَ هذه الآيَةُ الكَريمَةُ الطّرْحَ الموضوعِـيَّ الـذي اطّلَعنا عليه ، فأيَّةُ ضَرورةٍ موضوعِيَّةٍ دَعَتهُ سُبحانهُ وتعالى لِيُنهي هذه

الآيةَ الكريمةَ بدَعوَتِنا كَمُفكِّرين لِنَتناولَ حالَتِي الإنسانِ بأُسلوبِ المُلاحظَةِ العِلمِيِّ ؟

وللإجابَةِ على هذا التّساؤل ، أقول: إنَّ الطَّرحَ الموضوعِيَّ المذكور يُشَكِّلُ في حَدِّ ذاتِهِ ادّعاءً والمعلومُ أنَّ من خَصائصِ هذا القُرآن المجيدِ أنّه لا يُقدِّمُ ادّعاءً من جانبِ اللّهِ تعالى إلاّ ويُتبعُهُ بدَليلِ مِصداقِيّتِه، وقد شاءَ تعالى هُنا بهذه الدّعوةِ المُوَجَّهَةِ إلى المفكِّرين أنْ يَستَنتِجُوا دَليلَ مِصْداقيّةِ الطَّرحِ المذكورِ مِن أنفُسِهم وعن طريقِ المُعادَلات الرِّياضِيّةِ المَعروفةِ .

والحقيقة هي أنَّ المُفكِّرَ المُدَقِّقَ إنْ قامَ يُقَلِّبُ حالَتَي الإنسان المَذكورَتَيْنِ أي حالةَ يقظَتِهِ وحالَةَ نومِه ، فَسَيُلاحِظُ هذا المفكِّرُ ارتِباطَ حالَتَي يَقظَةِ الإنسانِ ونَومِهِ بمُعادَلَةٍ رِياضيَّةٍ (عَكسيَّةٍ) ، ولَيسَ بمُعادَلَةٍ رِياضِيَّةٍ (طَرْدِيَّة).

وتفصيلُ ذلكَ أنَّ التَّعبَ والإجهاد يتَطَلَّبُ من التّعِبِ المُجْهَدِ أن يستريحَ لِيستعيدَ نشاطهُ الجِسمِيِّ . لذلك نُلاحِظُ أنَّ حَواسَّهُ تَتَراخى ويَخْلُدُ إلى النّوْم مِن تَلقاءِ نفسه ، من جَرَّاءِ تَعَطُّلِ حواسِّهِ عن العمَلِ . فإذا نامَ هذا الإنسان وكانَ في غايةِ التَّعَبِ والإجهاد ، تَتَراءى لهُ أحلامٌ أو أضغاثُ أحلام . أمّا إذا نام هذا الإنسانُ غير مُجهَدٍ فقد يرى أو لا يرى شيئاً أثناء نَومِه .

والّذي يَهُمُّنا في الأمر هو أن نَستَنبطَ المُعادَلةَ الرّياضِيَّةَ الّتي رَبَطت ما بينَ حالَتِي اليقظَةِ والنَّوم وذلك بأُسلوبِ المُلاحَظَةِ العِلمِيِّ . وسَيَتبيَّنُ لنا ارتِباطُ الحالَتينِ بمُعادَلَةٍ (عَكسِيَّة) .

نتساءَلُ عن دَلالَةِ هذه المُعادَلةِ العكسيَّة ،وعَمّا يُمكِننا الاستِنتاجُ من تِلكَ الدّلالَة ؟

فَنَستَدِلُّ منها أنَّ نَفسَ هذا الإنسان واقِعَةٌ في إسارِ جَسَدِهِ وأنَّهُ على قَدَرِ ما تتراخى حَواسُّ جَسَدِ هذا الإنسان ، بقَدَرِ ما تتمكَّنُ نَفسُهُ مِنَ التَّحرُّرِ مِن إسارِ جَسَدِهِ ولَو بصورةٍ جُزْئِيَّةٍ تَدخُلُ خِلالَها عالماً غَير عالَمِنا المادّيِّ والذي سمَّيناه عالَمَ المَنام . وهو عالَمٌ ينعَدِم فيهِ الزّمانُ والمكان ويَخْضَعُ لِقَوانينٍ تَنْظُمُهُ وتَختَلِفُ عن قَوانينِ عالَمِنا المادّي .

فإذا استَعادَ جَسَدُ الإنسان نَشاطَهُ وعادَتْ حَواسُّهُ تَعمَلُ ، تَعودُ نَفْسُ الإنسانِ إلى إسارِ جَسَدِهِ كَما كانت من قَبلُ . فهذا كُلُّهُ نُحيطُ بِهِ عِلماً من خِلالِ لُجوئِنا إلى أُسلوبِ المُلاحَظَةِ العِلمِيّ .

وبِفَرَضِ أنَّ حالَةَ استِرخاءِ حَواسِّ الإنسان ظَلّت تزدادُ استِرخاءً إلى دَرجةِ موتِ هذا الإنسان. فاستِناداً إلى المُعادَلَةِ العَكسيَّةِ التي تَربطُ جَسَد الإنسانِ بِنَفْسِهِ أو بِما يُسَمَّى الرّوح ، فإنَّ نفسَ هذا الإنسانِ المَيْتِ تَكونُ قد تَحَرّرت من جَسَدِهِ بصورةٍ جَذريَّةٍ ونِهائِيَّة . وبهذا الأَسلوبِ العِلمِيِّ نَتمَكّنُ من الإحاطَةِ بمَعنى قَولِهِ تعالى : **﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**.

فهذا هو دَليلُنا القُرآنيُّ المَطلوبُ والذي تضمَّنَتهُ الآيةُ المذكورةُ من سورةِ الزُّمَر . فنفسُ الإنسانِ تتحرَّرُ مِن إسارِ جَسَدِها بالموت ، فلا تَفنى كَفَناءِ الجسدِ ، بل تَخْلُدُ مَعَ عَقلها الذّي هو أحَدُ

أجزائها ، وعلى حَسَبِ ما ثبَتَتْ حقيقتُهُ لِعُلَماء القرنِ العِشرين المَذكورين .

٥ – تَقييمُنا للنّظَرِيَّةِ الدّاروينيَّة

فيا عزيزي القارئ لقد باتَ كثيرٌ من الناسِ منهُم مُتَديِّنون ومنهُم غيرُ مُتديِّنين ، يَنبُذونَ النَّظريّةَ الدّاروينيَّة نَبذاً عاطِفِيّاً ، وقَلّما حاولَ أحدُهُم تَقييمَها بأسلوب عِلْمِيّ مُتَّزن .

فإنْ أنتَ استوعَبتَ ما ذكرتُهُ وبيَّنتُهُ لك حتّى الآن ، تَعودُ تُدركُ الثُّغُرات الّتي توجدُ في هذه النّظريَّةِ المُتَعَلّقَةِ بأصلِ الأنواع .

وأنا أرى أنْ أُعَدِّدَ لكَ تلك الثُّغُرات هُنا باختِصار شديدٍ ، كَي أُساعِدَكَ لِتستَجمِعَ أفكارِكَ ولِتَعودَ مُستَعِدّاً لِتُحيطَ عِلماً بالتَّقييمِ الذي سأُقَيِّمُ به طُروحاتِ النّظريَّةِ الدّاروينيّةِ ، وبأُسلوب عِلميّ .

وهذه الثُّغُراتُ وعلى حسَبِ ما أثبتُّه سابِقاً هيَ بالتّدريجِ كما يلي :

أوّلاً: لقد انطَلَقَ صاحِبُ هذه النَّظريَّةِ من مُنطَلَق خاطئ ، فهو نَظرَ إلى الأشياءِ نَظرةً مادّيَّةً بَحتةً بداعي تأثير مُعْطَيات عَصْرِه العلمِيَّةِ البدائِيَّة على حَسَبِ ما أثبَتُّهُ لكَ سابقا . ومعلومٌ أنَّ مَنْ يُخطِئ في أوّل خُطوة على الطَّريق ، يَضِلُّ في نهايةِ المَطاف ويبلُغ مكاناً غيرَ المكانِ الذي يقصُدُه .

ثانياً: وَقد تَعَجَّل هذا المِسكينُ فيما أصدرهُ من حُكْمٍ بنَتيجَةِ ما تراكَمَ لَديْهِ من مُلاحَظات عِلميّةٍ عابرَة غير مُستَندة إلى تَجارِبَ عِلمِيّةٍ تَدعَمُها . ودلُيلُنا على ذَلكَ هذا الكَمُّ الكَبيرُ

من التَّجارب التي أجراها العُلماءُ من بعده وإلى هذه الأيّـــام . تلك التّجاربُ التي كلّمْتُكَ عنها وأثبتُّ لَكَ أخـــيراً أنّـــها لا تُجديهم نفعاً ، بسَبَب اختِلاف تكوينِ نُطفَةِ الحيَـــوان عــن تكوينِ نُطفَةِ الإنسان التي هي نُطفَةٌ أمشَاجٌ ، وقد ســبقَ لي أن شرحْتُ لكَ دلالةَ كلمةِ أمشاج بصورةٍ أُصوليَّةٍ وعِلميَّة أيضاً.

ثالثاً: ولم يكُن صاحِبُ هذه النّظريَّةِ يؤمِنُ بوُجودِ خـــالِقٍ ولا أنَّ هذا الكونَ المادّيَ مَخْلوق .

وبذلك ابتَعَدَ عن مُعطَيات ما سمّاه القُـــرآنُ الكـــريمُ بكَلِمـــةِ (غيب) لِغِياب حقائقِهِ عَنْ نَظَرِ هذا الإنسان على حـــينِ أنَّ العُلومَ المعاصرةَ قد أثبتَت مُعْطَياتها وُجودَ كثيرٍ من الغَيْـــبِ ، وعلى حَسَبِ ما أثبتُّه لك سابقاً .

رابعاً: وإنَّ دارون ما كانَ يَخطُرُ ببالِهِ في يومٍ من الأيّام أن يأتيَ يَوْمٌ يَثبُتُ فيه خُلودُ نَفْسِ الإنسان وعقْلُهُ وإرادَتُهُ وبأُسْـــلوبٍ عِلمِيٌّ أيضاً ، وهو الأمرُ الذي أفَضْتُ لكَ في شَرحِهِ من قبل .

خامساً: ثُمَّ إنَّ دارون الّذي اعْتَقدَ بخُلُوِّ هذا العالَمَ من الغَيـــب والرّوحِ فقد اضطُرَّ بنَتيجَةِ ذلكَ لِيُسَلِّمَ ومُضْطَرّاً أيضاً بتَطـــوُّرِ الكائنِ العاقلِ الإراديّ عَنِ الكائنِ الغَريزيّ وبدافع مُلاحظـــةِ وُجودِ قانون نُشوءٍ وتَطَوُّرٍ طبيعيّ . وأنا حينمـــا اســـتعمَلتُ كلمَةَ (لِيُسَلِّم مُضطَرّاً) فقدْ قصَدتُ بها أنّنا لوْ كُنّـــا مكانَـــهُ وكانَ قد تجَمَّعَ لدَينا ذاك الكمُّ الكبيرُ من مُلاحَظاتِهِ العِلميّـــةِ ونحنُ مُعتقدينَ اعتقادهُ بعدمِ وجـــود خـــالِقٍ وروحٍ وعقـــلٍ

خالدين لَكُنّا فَعَلنا فِعلهُ وسلَّمنا بنظريّته في زَمَنه . أمّا وقد جاء القرنُ العشرون بما جاء به من عُلوم ، وقد تجرَّدْنا وتحرَّرْنا مِن كلّ قَيْدٍ كانَ قد قَيَّدَ عَقلَ داروِن ، فقد عُدنا نَستَحي أمام مُعطَيات العلومِ الحديثةِ من التَّسْليمِ بكُلّ ما كان داروِن قد سلَّمَ بهِ في زمنه ، فإن لم نفعلْ ذلك ينظُرُ إلينا المفكّرون على أنّنا لا نحترِمُ مُعطَياتِ العِلمِ ، وأنّنا مُنحازون وغير مُتَّزِنين أيضاً.

فهذه خمسُ ثُغُرات كبيرة عادَتْ واضِحةَ المعَالم وتَتخلّلُ النّظريّةَ الداروينيّةَ على حَسَبِ تَفكيري واجْتهادي ، وهذا لا يعني لي أن أرفُضَ هذه النّظريّةَ بكاملِ أجزائها .

فأنا ما عادَ باستطاعتي التّسليم بأنّ هذا الإنسان قد تطَوَّر عمّا قبلهُ من الكائنات الحيّةِ بعد أنْ نبّهني كلامُ اللّه تعالى إلى موضوع اختلاف مُكوِّنات نُطفةِ الإنسان عن مُكوِّنات نُطفةِ الحيوانات . وقد عُدْتُ أُدرِكُ من خلال ذلكَ أنّ الكائنَ العاقلَ لا ينشأُ من الغريزيّ ، وهذا يعني بألفاظٍ أُخرى أنّ نُشوء الإنسان قد حدثَ بصورةٍ مُستقِلَّةٍ و لم ينبثِق عمّا دونَهِ من الكائنات الحيَّةِ ، هذا من جهة .

أمّا ما يُقالُ عن انبثاق الأنواعِ الحيَّةِ الأحدَث وُجوداً ، من الأنواعِ الأقدمِ وُجوداً ، فهو مفهومٌ قد عادت التّطبيقاتُ العِلميّة العَمليّة في مَجالات عُلوم الفيزيولوجيا وعلمِ التّحسين الوراثِيِّ وعلمِ النبات تَرْفُدُ هذا المفهومَ بأمثِلةٍ كثيرة لا يجوز إنكارَ مُعطَياتها .

وإيّاك أن تَظُنَّ يا قارئي العزيز أنّني سلَّمتُ بما ذكرتُهُ آنفاً عن غيرِ دليلٍ عِلميّ . خُصوصاً وأنَّك قد لاحظتَ حتّى الآن أنّني بحثتُ

كل ما بحثته على ما أعتقد فقد بحثته بأسلوب علمي . وإليك أحد الأدلة العلمية المخبرية التي تشهد على مصداقية ما ذهبت إليه وهو مثال بات يدرس من ضمن المناهج المدرسية .

فلقد ثبت أنها كانت توجد نبتة كانت تنبت في نواحي الحبشة واليمن وقد عربوها إلى اسم قمحاء ،ومن ثم أخذت زراعة هذه النبتة تزرع شمالي القطرين المذكورين ، وفي بيئة اختلفت عن بيئة موطنها الأصلي فحدثت من جراء ذلك تحولات في بنيتها الأصلية ، وعادت تعرف باسم الفيلارس الشوفاني أو حشيشة القمح الآسيوية . ومع توالي الأيام والسنون تحولت إلى ما يعرف بالشيلم البري ، وانتهى بها الأمر لتتحول إلى ما يعرف اليوم باسم الشوفان . وخلال بيئتها الثانية تحولت أيضا في منطقة أخرى إلى ما عرف بحشيشة القمح اللبنانية ، ومن ثم إلى هذا النوع من القمح المعروف في عصرنا وهو الذي نصنع منه الرغيف الذي نأكله على موائدنا . فتاريخ النبتة المذكورة قد تحقق من مصداقيته العلماء بأسلوب البحث المخبري والوراثي ،وعن طريق دراسة التصالب الوراثي بين الأقماح المتداولة . كذلك يسعى العلماء المعاصرون لتوليد نوع جديد من الشيلم ومن القمح ما أنتجته التربة الأرضية حتى اليوم وليطلقوا عليه اسما جديدا بنتيجة دمج اسم القمح المتداول (Tritical) باسم الشوفان المتداول (Seriyal) وليصبح الاسم الجديد (Triticum) .

وهذا المثال الذي قدمته لك يا صاحبي يوضح ما يجري من تغيرات وتحولات في عالم الأحياء . ولا يعقل أن تجري هذه التحولات إذا لم ينظمها قانون محدد طبيعي . ومعلوم أن وجود القوانين الطبيعية يثبت وجود الخالق المقنن ، ولا ينفي وجوده .

فالتَّسليمُ بانبثاق الأنْواعِ الحيَّةِ المُعاصِرةِ من الأنواعِ القَديمةِ هي مسألَةٌ تظلُّ تَدورُ في فَلَكِ القوانينِ الطَّبيعيّةِ المسْنونَةِ والتَّكوينِ الغَريزيِّ لنُطفةِ الحيوانات ، وهذا الأمرُ لا يَتَنافى مع ما أَوْردهُ القرآنُ الكريمُ مِن تعاليم سَماويَّة .

ثمّ إنَّ الإنسانَ الّذي يُلاحِظُ كيفَ يَقومُ العُلماءُ بإحداث خَلائطَ مَعدنيّة لإنشاء مَعْدَن حَديدٍ لهُ خواصُّهُ الفيزيائيّة المُستقلّةُ ، لا يعودُ يَسْتغربُ أن تَتحَوّلَ الأَحياءُ على مَرِّ الزَّمان بتبدُّل البيئةِ والتُّربة.

والمُهمُّ في الأمر أنْ ترتبطَ التحوُّلاتُ الحادثةُ بموضوعِ الجهازِ البيئيّ . فمِثل هذا التَّحوُّل يحدثُ بشكلٍ طبيعيٍّ على جميعِ الأصْعدة. فالّذي يتكلّمُ بلهجةٍ معيّنةٍ ،تختلفُ لهجتهُ بعد انْتقالهِ إلى بيئةٍ جديدة ومع مَرِّ الأيّام يأتي من نَسلهِ مَنْ يتكلّمُ بلهجةٍ غير لَهجةِ أبيهِ الأصليّة . كذلك الخُضارُ والفواكهُ ما إن تُزرعُ في أَرضٍ جديدة إلاّ ويعودُ يختلفُ مَذاقُها بتأثيرِ تكوينِ تُربتِها الجديدة ومائها الّذي يَرويها . فهذه جميعُها ظواهرُ طبيعيةٌ يَنتجُ عنها تحوّلاتٌ بصورة يقينيّة . ولا يُنْكِرُ وُجودَها إلاّ الّذي ماتَ عندهُ حِسُّ المُلاحظَةِ العِلميّ . وعليه فأنا لا أرفضُ الدّارونية وهي تَطرحُ هذه المفاهيم . فهذه المفاهيمُ وتِلكَ التّحوُّلات أشارَت إليها الآية (٢٢) من سورَة الرُّوم الّتي قال تَعالى فيها:﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ(٢٢)** ﴾ .

فليُلاحَظ القارئُ كلمةَ (لِلعالِمين) فهي جمْعُ (عَالِم) واللّام للتَّعليل . فهو تعالى يخاطبُ العُلماءَ المُخْتصّين هنا ، لِيَدفَعَهُم

لِملاحظة اخْتِلاف أَلسنةِ البَشرِ واختِلاف أَلوانهم ، فقد نبَّهَ عُقولَهم لِئلاَّ يمُرُّوا على هذه الظَّاهرة مرَّ الكِرام . بسببِ أنَّها تخْفي وراءَها قانوناً طبيعيّاً سنَّهُ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ لِيُساعدَ الأحْياءَ على التّلاؤم مع التَّغُّيرات المُناخيَّة والبيئيَّةِ هذه العواملُ الّتي تَسبَّبتْ بتعدُّد أَلْوان البَشرِ واخْتلاف أَلسنَتهم . أي أنَّ الله تعالى يقولُ بألفاظ ومُصطَلح الدّاروينيّين أنَّ كلَّ بُقْعةٍ مِن تُربةِ الكُرة الأرضيَّةِ هِيَ بمَثابَةِ جهاز بيئيٍّ يُؤدّي مُهمَّةَ إجْراء التّحوُّلات والتَّغيرُّات في النَّبات والحَيوان والإنسانِ وحتَّى في الجَماد . ولا تَرى حقيقةَ ما يجْري إلا أعْينُ (العالِمين) المُدْرِكين وجودَ هذا الجِهاز البيئيِّ . وإنَّ الله تعالى حذفَ مَفْعول العالِمين لِداعٍ بَلاغِيٍّ ولِيَدْفعنا جلَّ شأنُهُ لِنَسْتنبطَ دلالةَ العالِمينَ على وُصول العلماءِ المُختصّين من أنفُسِهم إلى معرفة هذا الجهاز البيئيِّ وبأُسلوب المُلاحظةِ العِلميِّ .

وعليه فأنا كمسلمٍ لا أختلفُ مع مفهوم ودلالة مُصطَلح الجهاز البيئيّ . وعلى هذه الصُّورة يكونُ القرآن الكريم قائلاً بمقولة انْبثاق الأنْواعِ الحيَّةِ الأحْدثُ من الأقْدم . أي أنَّهُ يقولُ بالتَّطوُّر إنَّما بمَفْهومِ التَّغُّيرِ والتَّحوُّلِ الّذي يقولُ بهِ أتْباعُ صاحبِ نظريَّةِ أصْلِ الأنْواعِ المُعاصِرون . بل ويحُثُّ على التَّخصُّصِ وإجراء الأبحاثِ العلميّةِ في هذا المجَال.

أمّا أن يقولَ هؤلاء بوُجود حلقةٍ مفقودة سبق أن نشأ عنها هذا الإنسان . فهو ادّعاءٌ لم يُقيموا عليه دليلاً علميّاً حتّى الآن . هذا بالرّغم من هذا التّطوّرِ العلميِّ البالغ الأهميّة والتّقنيّاتِ المُتطوِّرة التي

باتَت في مُتناولِ هذا الإنسان . وهل يقبلُ المنطقُ السّليمُ أن تُكتشَفَ الحلقات القديمةُ جميعُها ، وتغيبُ الحلقة الأخيرةُ عن الوُجود ؟

فَعلماء المُستحاثّات ما انقطعوا يوماً عن إجراء حَفريّاتهم وأبحاثِهم مُنذ أيّام طرحِ نظريّةِ أصلِ الأنواع والتي مضى على طرحها قُرابة قرن ونصف من الزمان ، ومع ذلك يُقرُّون ويعترفون بِأنّهُم لم يكتشِفوا أثراً لوُجودِ الحلقةِ المزعومةِ حتّى الآن .

فعالِمُ المُستحاثّات المشهور (كوبنز) وصاحبُ كتاب (أفريقيا وقصّةُ الإنسان) هذا الكتاب الذي ترجمه الدّكتور سُلطان محيسن مَشكوراً ، اعترف على الصّفحة (٨٠) منه وقال: (رأينا من جهةٍ أُخرى كُلَّ المُعطيات التشريحيّةِ والبيوكيميائيّة والخَلَويَّة والسُّلاليَّة الضَّروريَّة من أجلِ قرابتنا مع القُرود . ولكِنّنا ، للغَرابة لا نَعرِفُ شيئاً عن تاريخِ الغوريلاّ والشمْبانزي في الملايين الأخيرة من السنين الذي رُبَّما حَصَلَتْ أحداثُهُ في تلك القارّة . لأنّ هذه القرود لازالت حتّى الآن تعيشُ فيها في بيئةٍ مُشجَّرة ، وهي مُتكيِّفةٍ هناكَ بشكلٍ رائعٍ ، من خلالِ قُدرَتها على التَّحرُّك بالتّأرجُحِ أو السيرِ على أربعةٍ ، دافِعَةً بثِقلها على سُلاّمِيّات الأيدي.

ولنتَذكَّر بأنَّ أعمامنا القُرود هما اثنان: الغوريلاّ ...والشمبانزي... والاثنان لَهُما طبعٌ اجتماعيٌّ ويتغذّيان بالثّمار والأوراق ، لكنّهما يستهلِكان أحياناً البُيوضَ والجوارحَ الصّغيرة . .. وهما إضافةً إلى ذلك أكثرُ الرّئيسيَّات ذكاءً إذا استثنينا الإنسان . وهما قادران على البرهنَةِ على مُستوى مُدهشٍ في نَوعيّةِ التَّخيُّلِ والتَّذكُّرِ والإحساس.).

فهذا العالِمُ يكونُ قد اعترَفَ من خلالِ أقوالِــــهِ المذكــورةِ بالحَقائقِ التّالية :

أوّلاً: أنّه هو نفسُهُ كان ساعِياً دَوْماً لإثباتِ قَرابة فَصائِلِ القُرود .

ثانياً: وكان استِغرابُهُ كبيراً ألاّ يكتشِفَ تــاريخَ أعمامــهِ الغوريــلاّ والشمبانزي.

ثالثاً: وقد اعترفَ في الوقتِ نفسِهِ أنّ القُرودَ لا زالتْ تعيشُ حتّـــى الآن في بيئةٍ مُشَجَّرةٍ ومُكيَّفةٍ هذه القرودُ مَعها بشكلٍ رائعٍ حسْـــبَ تعبيره . يحدُثُ هذا في وقتٍ يعتقِدُ فيه العالِمُ المذكورُ بأنَّ وُجودَ هــذه القرودِ قد سبَقَ وُجودَ أعمامِه المذكورين وهما الشمبانزي والغوريلاّ . فما بالُكَ يا صاحبي بالحَلقَةِ المفقودةِ المزعومةِ أين بقِيتْ آثارُهـــا إن كانَتْ تُشكّلُ في الواقع حقيقةً ثابتَةً وكان لها من وُجود ؟

فهذه اعترافاتُ عالِمِ مُستحاثّاتٍ كبيرٍ باعترافِ الّذي قـــامَ بِتَرجَمَةِ كِتابه . خُصوصاً وأنَّ هذا العالِمُ كان جاداً في البحثِ عـــن أصلِ الإنسانِ من زاويةِ نظرِ صاحبِ نظرِيَّةِ أصْلِ الأنواع . ولم نقــرأ لأحَدٍ من الباحِثين والعلماءِ المُختصّينَ أنْ زعمَ أنّهُ اكتشــفَ الحلقــةَ المفقودَةَ المزعومة . وعليه فأنا أتقبَّلُ ما يكشِفُ عنهُ العلم ، وأرفُــضُ في الوقتِ نفسِهِ النَّظريّةَ الدّارونيّةَ من زاويةِ مُنطَلَقاها . خُصوصاً بعد أن اكتشفتُ ما فيها من ثُغُراتٍ أتيتُ علـــى ذكرِهـا مــن قبــلُ

وبالأسْلوبِ العِلمِيّ ، تلكَ الثُّغراتُ الّتِي كشَفَ لنا العِلمُ الحديثُ عنها الغِطاء.

عمليّةُ استنتاجٍ وتلخيص

وخلاصةُ ما ذكرناهُ في هذينِ الفَصلينِ الأخيرينِ هو أنَّ القرآنَ الكريمَ قد نبَّهَ أذهانَ المُفكّرين إلى قِدَمِ وجودِ الإنسانِ على سطحِ الكرةِ الأرضيَّةِ قبل أن يخطُرَ لعلماءِ أوروبةَ مجرَّدَ إعادةِ النَّظرِ في مُعطياتِ التَّوراةِ المُعاصرةِ بما يتعلَّقُ بأصلِ هذا الإنسانِ وكيفيَّةِ نُشوئِه. لكنَّ طُغيانَ الأفكارِ الإسْرائيليّةِ على المُجتَمعات التي انتشرَ فيها الإسلام أوائلَ سنواتِ ظُهورِه ، عتَّمَ على الحقائقِ القرآنيَّةِ الّتي استَنْبطناها من آيِ الذِّكرِ الحكيم.

ثمّ إنَّ علماءَ أوروبةَ عِوَضا عن أن يَتماشوا مع التَّطوُّراتِ العِلميَّةِ الّتي طلعَ بها علينا القرنُ العشرون ، فقد ظلَّ هؤلاء على انحيازِهم إلى نظريَّةِ أصلِ الأنواعِ فلم يُعاصِروا هذه العلومَ ولم يُراجعوا مُعطياتِ علومِ القرنِ التَّاسعِ عشرَ النَّظريةِ والبِدائيَّةِ ، ولا يزالون .

وإنَّ آياتِ هذا القرآن العظيم حسَمتْ موضوعَ أصلِ الإنسان بشكلٍ علميٍ محسوسٍ ، وذلك بتنبيهِ عقولِنا إلى أنَّهُ يستحيلُ أن ينشأَ كائنٌ عاقلٌ وذو إرادةٍ عن كائنٍ غريزيٍّ ، وذلك لسببٍ وجيهٍ وهو اختلافُ تركيبِ القُوى في نُطَفِهما . فنطفةُ الإنسانِ اشتملَتْ على قُوىً مُتضادَّةٍ ومُتوازنةٍ وبما يتَّفقُ مع فلسفةِ الابتلاءِ

والامتحان . هذه الصِّياغةُ الّتي استدْعَتْ من جانبِ اللّهِ الخالِقِ إرسالَ حلقاتِ سلاسلَ من أنبياءِ اللّهِ ومُرسليهِ لِتـــهذيبِ هـــذا الإنســـانَ ولِتعريفهِ على خالقه عزّ وجلّ . وعليه فإنَّه توجدُ هناك علاقةٌ جدليّـــةٌ ما بين تركيبِ نُطفةِ الإنسانِ (الأمْشاج) وما بينَ فلســـفةِ الابتـــلاءِ والامْتِحان .

هذا إضافةً إلى أنّ جسمَ الإنسانِ ما عادَ ، والحالُ هذه ، محلَّ بحثٍ عن أصلِ الإنسان ، ذلك من مُنطلقَ أنّ جسمهُ يُعَدُّ وسيلةً ماديّةً تَصِلُ هذا الإنسان بعالمِنا الماديّ ليس إلاّ ولذلكَ يَتشابهُ تركيبُ هـــذا الجسمِ (الوسيلة) مع تركيبِ بقيَّةِ أجسامِ الكائنات الحيَّة . ولقد أثْبتتْ من خلالِ مُعطيات العلمِ الحَديثِ كيف أنّ مُهمَّةَ دمـــاغِ الإنســـانِ تنحصرُ في عمليَّةِ إيصالِ المعلومات الّتي تأت بها حـــواس الجســـدِ ، إيصالها إلى عَتبةِ العَقْلِ . ولا توجدُ للدِّماغِ مُهمَّةٌ أكثرَ مما ذكرنـــاه . وقد أثبتَـــت التَّجاربُ العِلميَّةُ خُلُوَّ دماغِ الإنسانِ مـــن مَركزيـــنِ هامَّينِ هما العقلُ والإرادةُ . فلا يوجدُ للعقلِ مركزٌ في الدِّمـــاغ ، ولا يوجدُ فيه مركزاً للإرادة أيضا .

إنَّ هذه التَّطوُّرَاتُ العِلميَّةُ ومُستَجدَّاتُ البحثِ عـــن أصـــلِ الإنسانِ لا تَعني لنا أنْ نرفضَ النَّظريةَ الدَّاروينيَّةَ بصورة جَذرية . فـــلا يخلو شيءٌ في هذا الكونِ من طرف سلبيٌ ومن طرف أيجابيٌ . وعليـــه فانَّ لهذه النَّظريةِ الفضلَ في اكتشافِ ما جرى ويجريً علـــى جميـــعِ الأشياءِ من تحوُّلات .

أمّا وقد أثبتَتْ نظريّةُ (الانفجارُ العظيمُ) أنَ هـــذا الكـــونَ مخلوقٌ وأنّه يوجد خالقٌ لهذا الكونِ ولكلِّ ما يوجدُ فيه . ومادام قد

ثبتَ عِلميًّا خُلودُ عقلِ وروحِ الإنسان ، كما ثبت استمرارُ حياتهما من بعدِ موتِ هذا الإنسان فلا يعودُ بإمكانِ الباحثِ المُفكِّرِ أنْ يُسَلِّمَ بنُشوءِ الإنسانِ عن كائنٍ حيوانيٍّ قبلَه بل الإنسانُ مخلوقٌ خلْقاً مُستقلاًّ عن خَلَقِ بَقيَّةِ أنواعِ الحَيوان . فلو صحَّ الطَّرْحُ الدَّارويني فكيف يعودُ بإمكاننا إنكارُ وجود حَلقات النُّبوات والرِّسالات والشَّرائعِ السَّماويَّةِ الّتي اتَّفقتْ جميعُها على أنَّ الإنسانَ مخلوقٌ وكيفَ بإمكاننا أنْ نَغُضَّ الطَّرفَ عمَّا أفادَتنْا بهِ نظريَّةُ الانفجارِ العظيمِ الّتي أثبتَ أصحابُها بصورة عِلميَّةٍ أنَّ هذا الكونَ مخلوقٌ منذُ ما بين ١٢- ٢٠ مليار عام ممّا يدُلُّ على وُجودِ خالقٍ لاتُحَدُّ قُدُراتُه ؟ وكيف بإمكاننا أنْ نَتَجاهلَ ما ثبتَ لنا بصورة عِلميَّةٍ أنَّ نفسَ الإنسان خالِدةٌ وعقلُهُ وإرادتهُ ولذلك لا يوجدُ لهم مراكزُ في دماغِ هذا الإنسان المخلوق على هذه الحال ؟ هذا إذا كُنّا نَدَّعي ونزعمُ أننا نُفكِّرُ بأسلوب عِلميٍّ، ونؤمِنُ بالتَّعليم القُرآنيِّ الّذي يَعِظُنا ويقولُ : ﴿ **هُدىً للمؤمنين . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**(٣) ﴾هذا الكتابُ المُقدَّسُ الّذي أنبأنا كذلكَ عن وُجودِ عالمِ الخُلودِ وعن وجودِ حسابٍ وكتابٍ في نهايةِ المَطاف ؟

البـــابُ الثاني

تَقـــــديم

فعلى هذه الصُّورَة ، ومن خلال مُعطيات الباب الأوّل الّذي أنهيناهُ ، أكونُ قد فَرغتُ من موضوعِ الكَلامِ عن خَلْقِ الإنسانَ الّذي أثبتُّ من خلالِهِ أنْ لا تَضادَّ ما بينَ مُعطياتِ حقائقِ العلمِ الحديثِ وما بينَ مُعطَيات تعاليمِ القُرآن العظيم .

أمّا السؤالُ : كيفَ وُجدَ هذا الإنسانُ على سطحِ كَوكَبنا الأرضيِّ ، فما استطاعَ العلمُ الحَديثُ أن يُجيبَ على هذا السُّؤالِ حتّى الآنَ بصورة قطْعِيَّةٍ ، ثُمَّ إنّ اللّهِ عزَّ وجلَّ قد قال في سورة الكهف : **﴿ما أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾**. لذلكَ نَترُكُ الإجَابةَ على السُّؤالِ المذكورِ إلى ما سيَكشِفُ عنهُ المستقبَل ، ولِكُلِّ مَقامٍ مَقال .

وما دُمْتُ قد فرَغْتُ من الكلامِ عن موضوعِ خَلْقِ الإنسانِ يا عزيزي القارئُ ، فتعالَ نَبدأُ مِشوارَ الكلامِ عمّا كشَفَ عنهُ عِلمُ المُستحاثّات مِن حقائقَ تتعلّقُ بكيفيَّةِ تَطَوُّرِ هذا الإنسان القديم ، وبالمراحلِ الّتي مرَّ بها عبرَ ملايين السَّنواتِ الّتي قضاها لاجئاً وآوِياً إلى

الكُهوفِ الطّبيعيَّة ، فيما يتعلّقُ بِهيئةِ جَسَـــدِهِ وحجْـــمِ جُمجُمتــهِ وأساليبِ مَعيشَتِهِ وتدَخُّلِ خالقِهِ في جميعِ هذه الأمور . ومُعتمديـــن في أمرِ مَعرِفةِ ذلك كُلِّهِ على ما تضمَّنتـــهُ مؤلّفـــاتُ مشـــاهير عُلمـــاءِ المُستحاثّات ، وعلى الخُصوصِ منها كتـــاب (حضـــارات العصـــر الحجريّ القديم) لِمؤلّفهِ العالم (فرنسيس أور). وكتـــاب (أفريقيـــا وقصَّةُ الإنسان) لِمُؤلّفهِ العالم (إيف كوبتز) ، وترجمةِ الدّكتور سُلطان محيسن) المحترم .

الفصل الأوّل:

١.البشرُ الأقدَمُ وُجوداً (الأوسترالوبيتِك)

وعندما نُريدُ الكلامَ يا صاحبي عن أقْدَمِ إنسان عثرَ عُلماءُ المستحاثّات على أثرٍ يعودُ إليه ، فلا نتذكّرُ سوى قصَّةَ (ليكي) ورفاقَها وآثارَ أقدامِ إنسان كان قد رَدَمَها رمادُ بركان . وقصَّةُ ذلكَ سبقَ لنا أن تعرَّضنا لها بالذِّكرِ ، وحسبَ مُناسبتِها ، وذلك في الباب الأوّلِ من هذا الكتاب.

وقد اختلفَ عُلماءُ المستحاثّات في أمرِ البشرِ المشار إليه . فمنهم من اعتبرَ أنَّهُ كانَ يُمثّلُ مرحَلةً متوسِّطةً انتقاليَّةً ما بين أعلى حيوان ثدييٍّ معروف وما بين الإنسان المعروفِ. ولربَّما صنَّفوهُ كذلكَ بسببِ تأثُّرهم بنظريَّةِ (أصلُ الأنواع) . ومن علماء المستحاثّات فِئةٌ صنَّفوا البشرَ الأوَّلَ الّذي ذكرناهُ ضمنَ أوَّلِ حَلقةٍ من حلقات شجرةِ الإنسانِ المعروف . وهي نُقطةٌ نتَّفِقُ معهُم فيها ، لاتِّفاقِها مع مُعطَياتِ معارفِ هذا القُرآنُ العظيم . وتذْكُرُ يا صاحبي أنَّ تاريخَ هذه الحلقةِ الأولى يرجعُ إلى ما قبلِ أربعةِ ملايينٍ من السنواتِ على وجهِ التَّقريب .

والّذي يُطالعُ ما وردَ في مؤلّفاتِ العلمِ المذكور يتبيَّنُ لهُ أنَّ البَشرَ المُشارُ إليهِ لَمْ يترُكْ وراءَهُ أيَّةَ أدواتٍ هي من صُنعِ يَديهِ . وهذه المعلومةُ إن شِئنا تفسيرَها ، فليسَ

بإمكاننا إلاّ القول أنّ ذاكَ البشرَ كان في مرحلةٍ بدائيَّةٍ جداً ، ويعيشُ عيشةً هيَ أقربُ إلى الغريزيَّةِ منها إلى عيشَةِ الحياة العاقلةِ الواعيَة . وأرى أنّ ما وضَّحتُهُ لكَ يُعينُكَ على تفسير سبَب صِغْرِ جَماجم ذاكَ البشر ، هذا إذا كُنْتَ على اطّلاع على المُعادلَةِ الطَّرديَّةِ التي تربطُ علميّاً ما بينَ حَجْمِ جُمجُمَةِ الإنسانِ وما بينَ وعْيهِ وحجْمِ ثقافتهِ .

فإنْ سلَّمتَ معي يا عزيزي القارئُ بما أطلعتُكَ عليهِ من معلومات تخُصُّ تلكَ الحلقةَ الأولى من شجرتِكَ كإنسان ، تتوقُ بعدها لِتتعرَّفَ على الحلقةِ الثّانيةِ منها ، ومن خلال مُعطيات هذا العلمِ نفسهِ ، وليسَ مِمَّا قيلَ أو يُقال وانصياعاً لأمرِ ربِّنا عزَّ وجلّ القائل: (فاسألْ بهِ خبيراً).

٢. الإنسانُ الصَّانعُ (الهوموهابيل)

ولقد أثبتتِ الحفريات العائدةُ إلى ما يقاربُ المليوني عام على آثارِ صوّانيَّةٍ مصنوعةٍ بشكلٍ بدائيٌ جدّاً ورافقَ ذلك ظاهرَةُ تعاظُمِ حجْمِ جماجمِ بشرِ تلكَ الحُقبةِ من الزّمان. حيثُ بلغَ حجْمُ الجُمْجُمَةِ العائدةُ لذاكَ التَّاريخ ما بينَ (٥٠٠-٦٠٠سم)مُكَعَّب . الأمرُ الّذي يؤكّدُ مِصداقيَّةَ ما ذكرتُهُ لك من أنَّ حجمَ جمجمةِ الإنسانِ تربطها بوعيهِ وثقافتهِ مُعادلةٌ حسابيَّة .

وقد استدلُّوا من خلالِ ما عثروا عليهِ من مستحاثّات عائدة إلى ذاكَ التَّاريخِ ، أنَّ الهيكلَ العظميَّ للبشرِ الواحدِ اختلَفَ قليلاً ، وعادَ أكثرُ انتصاباً من هيكَلِ الأقدَمِ منه وأنَّه عادَ يستعمِلُ أسنانَهُ بشكلٍ حَلزونيٍّ ، أي أنَّهُ أصبحَ أقلَّ توحُّشاً مِنَ البشرِ الّذينَ كانوا قبلَهُ .

فالمعلوماتُ الّتي ذكرتُها لَكَ ، اسْتَقاها عُلماءُ المستحاثّات مِمَّا كانوا عثَروا عليهِ من جماجمِ وعظامِ أسفَرتْ عنها الحَفريَّاتُ الّتي كانوا أجْروها في موقعٍ اسمه:(أولدوفاي Olduvai) في تانزانيا . فقد عثروا هناكَ على حصىً مَطروقةَ الجوانبِ أطلقوا عليها مُصطَلح (حضارة الحصى المُكيَّفة Pebble culture). كما عثروا في نواحي كينيا على أدواتٍ منها مِطرقةٌ وسندانٌ وأدواتٌ مُسنَّنةٌ ومنقارٌ ذو فتحة وذلكَ من خلالِ الحفريّات الّتي أجروها هناك في السّتينات من هذا القرن. وقد تبيَّنَ لهؤلاءِ العُلماء أنَّ الأشياءَ المذكورةَ تَعودُ إلى قبلِ ما بين (١.٦-٢)مليون عام .

فاستنتجَ هؤلاء العلماء مِمَّا عَثروا عليه أنَّ البشرَ العائدَ إلى التَّاريخِ المذكورِ كانَ قد تطوَّرَ وكبُرَ وعيُهُ وعادَ يقدِرُ على صُنعِ أداة بواسطةِ أداة غيرها . كذلكَ لاحظوا من خلالِ تلكَ الآثار أنَّ بشرَ ذاكَ الزَّمان كان يُحاوِلُ الاستقرارَ لِمُدَد قصيرة قُربَ الأنهار والينابيعِ وحيثُ تتواجدُ الحيواناتُ والأشجارُ المُثمِرَةُ الأمرُ الّذي كان يضطرُّهُم إلى

بناءِ ملاجئَ لهم لتحميهِم وذلك بجمع أكوامِ حصىً من حولِهم . كما درسَ هؤلاء العلماء ما عثروا عليهِ من بقايا ما كانَ أولئكَ البشرُ يتغذّونَ بهِ فتبيَّنَ لَهُم أنّها بقايا أسماكٍ وتماسيحَ وخنازيرَ وظِباءٍ وزُرافاتٍ وفرسِ ماءٍ وجوارحَ وأرانب وضفادعٍ ولُحومُ الحيواناتِ الميتةِ . أي أنَّهُم ما كانوا قد التَزموا بتعاليمٍ دينيَّةٍ إطلاقاً .

٣.الإنسانُ السويُّ (هومواركتوس)

ولقد تعدَّدَتْ مواقِعُ الحَفْريات ، فكانوا يُجرونَها في شرقيِّ أفريقيَةَ وفي جنوبِها وفي شمالِها وفي آسيا وأوروبَّةَ . وتبيَّنَ للعُلماء ومن خلالِ ما عثروا عليهِ من آثارٍ في تلكَ الحَفريَّات أنَّهُ بعدما كانَ قد مضىَ نصفُ مليونِ سنةٍ على البشرِ الّذي سمّوهُ (الإنسانَ الصّانع) عادَ البشرُ يعرفُ كيفَ ينتَصِبُ ويسيرُ سويًّا على قَدميهِ وتميَّزَ بذلكَ عنِ الكائناتِ الحيَّةِ الّتي كانت قد عاصَرَته.

٤.فتِلكَ أدوارٌ ثلاثةٌ

والّذي تَبيَّنَ لكَ يا عزيزي القارئُ مِمَّا ذَكرناهُ هذا الّذي كانت قد كشفتْ عنهُ حفريَّاتُ هؤلاء العُلماء هو أنَّ إنسان عصرِنا وبعدَ أنْ خلقهُ خالِقُهُ ، دفَعهُ لِيتَميَّزَ عمَّا حولَهُ من كائناتٍ حيَّةٍ غريزيَّةٍ وذلك بوسيلَةٍ ما منَحهُ هذا الخالِقُ

داخِلَ تكوينِ نُطفتِهِ (الأمْشاجِ) من قُوىً مِن جُمْلَتِها حُرِّيـــةُ اختيارِ وإرادةٌ ووعيٌ مستندٌ إلى ما تُمدُّهُ بِهِ حواسُ جســـمِهِ من مُعطَيات تتجمَّعُ في دماغِهِ الّذي ينقلُها بدوره إلى عَتبـــةِ هذا العقلِ الّذي هو جزءٌ من تكوينِهِ النَّفْســـيِّ البـــاطنيِّ ، وعلى حسبِ ما أثبتُّ ذلكَ من قبلُ وبأُسلوبٍ عِلميٍّ .

وهذه المَعلوماتُ كُلُّها عادتْ تَمنَحُكَ وُضوحـــاً في رؤيتِكَ التَّاريخيَّةِ المُتعلّقَةِ بخَلْقِ البَشَرِ القديمِ الّذي يرجعُ تاريخُ وُجودِهِ إلى قُرابةِ أربعةِ ملايينِ عامٍ تقريباً .

هذا ، وقد عُدتَ تعلَمُ أنَّ البشرَ قد مرَّ مـــا قبـــلَ تاريخِنا المعروفِ بأدوارٍ ثلاثةٍ ، وقد أتيتُ لكَ على ذكرِهـــا قبل هذا ، وهي الأدوارُ الّتي اصطلحَ لهـــا هـــؤلاء العلمـــاء مُصطلحَ (العُصورُ الحجريَّةُ) .

ولا بأسَ إذا أعطيتُكَ فكرةً موجزةً عمَّـــا أفـــادت القُوى المَمْنوحةُ لهذا الإنسان ضِمْنَ نُطفتِهِ الأمشاجِ من خـــيرٍ عمَّهُ منذُ نشأتِهِ وميَّزَهُ عنِ الكائناتِ الغريزيَّةِ من حولِهِ والّـــتي عادت بذلكَ مُسَخَّرةً لِصالِحه .

فالبشَرُ في دورِ حياتِهِ الأوَّل ما كانَ واعيـــاً ، ولا كانَ يمْلِكُ ثقافةً تُعينُهُ على التَّكيُّفِ معَ ما حولِهِ من أشـــياءَ مُحيطةٌ به ، لكنَّهُ كان يملِكُ غرائزَ دفعتهُ في الدَّورِ المذكـــورِ من حياتِهِ من أجلِ أن يقِي نفسَهُ شُرورَ ما كان يحيطُ به مـــن حيواناتٍ مؤذيةٍ تلمَّسَ إيذاءها بصورةٍ عمليَّة . فكان يتســـلّقُ

الأشجارَ العاليةَ الكثيفةَ الأغصانِ أو يختبــــئُ في الكــــهوفِ الطّبيعيَّةِ ، فلا يتحرَّكُ ولا يخرُجُ إلاَّ بدوافــعٍ مــن غرائــزهِ ولِتأمينِ حاجيَّاتِه .

وشيئاً فشيئاً بدأ يُفكِّرُ بصُنعِ أدوات لِيستعينَ بهــا في شتَّى المجالات . فأخذَ يستفيدُ من الحصى الصَّوانيَّةِ والعِظــام وغيرها ليَصنعَ منها مختلفَ الأدواتِ اللاّزمةِ له.ويلُفُّ نفســهُ بجلودِ الحيواناتِ ليقي نفسهُ شرَّ التقلُّبات الجويَّــةِ ، وإلى أنْ عادتْ ظاهرةُ التَّخصُّصِ تبدو واضحةَ المَعالِمِ في صِناعاتــه . كذلكَ اكتشفَ إيقادَ النَّارِ وطُرُقَ استِعمالاتها على مرِّ الأيّام. لكنَّه لم يتركْ آثارَ مساكنِ كالّتي نَعرِفُها بل ظلَّ يــأوي إلى الكُهوفِ والملاجئ الطّبيعيَّة .

هذا ، ولقد دلَّتْ آثارُهُ العــائدةُ إلى دورِ عصــرِهِ الحجريِّ الثّالثِ الّذي كانَ انتهى قبلَ مائةِ ألفِ عــامٍ مــن تاريخنا الحاليِّ أنَّ البشرَ تقدَّمَ تقنيًّــا آنــذاك علــى جميــعِ المُستَوياتِ وفي أغلَبِ المناطِقِ الّتي جرت فيها حفريات. لكنَّ الّذي ينبغي ألاّ يغيبَ عــن ذهــنِ القــارئ هــو أنَّ حضارات تلكَ الفتَرات من الزّمانِ كانت مادتُها الأحجــارَ والحصى الصَّوان ، ولم يَكُن البشرُ قد اكتشفَ أيَّ نوعٍ مــن أنواعِ المعادنِ المعروفةِ اليوم .

والّذي يحُزُّ في نفسِ العالِمِ الباحثِ أنَّهُ لمْ يُعثَرْ حتَّــى الآنْ على أيِّ أثرٍ يكشِفُ للباحِثِ عن نوعيَّــةِ ذهنيَّــةِ ذاك

البشرَ ولا عن أُسلوب تفكيره ولا عن مدى تَهذيبِهِ وتحضُّره، خصوصاً وأنَّهُ كان يجهَلُ اللُّغةَ والكتابةَ كما كانَ ضَحْلَ المواهِبِ الفنِّية .

أمَّا كيفَ تحقّقَ لهُ اكتشافُ النَّارِ وكيفَ كان يكسَبُ قُوتهُ اليوميِّ فلا تزالُ تلك المعلوماتِ تقومُ على الاستنتاجِ والفَرَضِيّات .

فلمَّا تَسمعُ منِّي يا عزيزي القارئُ جميعَ هذهِ المعلوماتِ الّتي توصَّلَ إليها عُلماءُ المستَحاثّات بشأنِ بشرِ ذاكَ الزّمان . تتساءلُ في حديثِ نفسكَ : هل تعرَّضَ خالِقُنا إلى تَنبيهنا في كتابِهِ العزيزِ إلى ما يصدِّقُ ما أطلعتُكَ عليه من هذه المعلومات ؟ وأنا بِدَوْري أُسارِعُ من نَّفسي للإجابةِ على هذا السّؤال .

٥. القرآنُ يُسلّمُ بمُرورِ الإنسان من أَطْوار

فأنتَ عُدتَ تعلَمُ يا صاحبي أنّ أوّلَ نبيٍّ بعثهُ اللّهُ الخالقُ عزّ وجلّ كان آدمُ عليهِ السّلام . وأنّ النّبيَّ المُشَرِّعَ الّذي بعثهُ اللّهُ تعالى بعدهُ هو نوحٌ عليهِ السّلام . ولتعلَمْ أنّ من خَصائصِ هذا القرآن العظيمِ أنّ اللّهَ تعالى الّذي أنزلَهُ قد قصَّ فيهِ قِصَصَ بعضِ أنبيائهِ بغايةِ إطلاعِنا على ألسنَتِهم على أشياء تُفيدُنا تاريخيّاً وتعليمياً. وبما أنّ زمنَ نوحٍ كانَ أقربُ إلى أزمنةِ البشرِ القديمِ ، فقد كان من المنطقيِّ جدًّا أن يُطلِعَنا

ربُّنا هناكَ على لسانهِ على المعلومةِ المطلوبة الّتي تسألُني عنها.
فإن أنْتَ راجعتَ الآياتِ المنقولةِ على لسانهِ وذلك في الآيات (١٣-٢٠) من سورةِ نوح ، فستُلاحظُ يا صاحبي أنَّ ممّا خاطَبَ بهِ نوحٌ قَومهُ هناك ، قال: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا(١٣)وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا(١٤)أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَات طِبَاقًا(١٥)وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا(١٦)وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ نَبَاتًا(١٧)ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا(١٨)وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا(١٩)لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا(٢٠) ﴾.

فإنْ أنتَ تَدبَّرتَ ما أوردهُ اللّهُ في هذه الآيات من كلمات . وشئتَ فهمَ دلالاتها على حسبِ ما كان العربُ يفهمونها زمنَ نزولِ هذا الكتاب العزيزِ ، فما عليكَ إلاّ الرُّجوعَ إلى ما جمعهُ لنا أصحابُ المعاجمِ منها . فكلمَةُ (خلَق) اشتُقّت من خلقَ الشّيءَ معناه أوجدهُ وأبدعهُ على غيرِ مِثالٍ سابقٍ كذلك يعني مَلَّسَ الشَّيءَ وليَّنهُ . ثمَّ إنَّ كلمةَ (طَور) كمصدرٍ ، تعني الحالُ والهيئةُ والتَّارةُ ، حيثُ تقولُ:
أتيتُهُ طَوْراً بعدَ طورٍ
أي تارةً بعدَ أُخرى ، وتُجمَعُ على أطوار (محيط المحيط)

وعليهِ فقد شاءَ ربُّنا أن يُنبِّهَ أذهانَنا من خلالِ قولهِ تعالى على لسانِ نبيِّهِ نوحٍ إلى أنَّ الإنسانَ لمْ يُخلَقْ على هيئتِهِ

الحاضِرة ، بل مرَّرَهُ ربُّهُ بعدَ أنْ أبدَعَهُ من خِلال عِدَّة أطوار، أي من عِدَّة أدوار زمنيَّةٍ كانَ في كُلٍّ منها على هيئةٍ تختلِفُ عن سابقَتِها ، وذلكَ بعد أن أنبتهُ من الأرضِ إنباتاً . أي أنَّ القُرآنَ العظيمَ يُسلِّمُ مع ما يقولهُ علماءُ المستحاثّات من أنَّ الجنسَ البشريَّ قد مرَّ خلالَ عُصورهِ الحجريَّةِ بثلاثةِ أدوارٍ : من إنسانٍ بشَرٍ كانَ يعيشُ حياةً هي أقربُ إلى حياةِ الحيوانات منها إلى حياة إنسان . ومن ثُمَّ ترقّى فاستحَقَّ اسمَ (الإنسانُ الصانع) ومن ثَمَّ تعلَّمَ الاستِواءَ على قَدمَيهِ فاستحقَّ اسم (الإنسانُ السَّوي) وهذا يعني أنَّهُ عادَ يصحُّ تقسيمُ عُصورِ الإنسان الحجريَّة إلى الدَّورِ الحجريِّ القديم وإلى الدَّورِ الحجريِّ الأوسَطِ وإلى الدَّورِ الحجريِّ الأدنى ، وهذا هو ما اصطُلِحَ عليهِ في كُتُبِ التَّاريخِ المُعاصِرة . وقد تجاوزتْ جُمجُمَةُ إنسان الدَّورِ الحجريِّ الأدنى الألفَ سنتمترٍ مُكعَّب بسبب أنَّ وعيَهُ وثقافَتهُ كانت قد ازدادَتْ ، فازدادَ معَها تلافيفُ دماغِهِ كما توسَّعَتْ شبكيَّتهُ العصبيَّةُ الّتي هي داخلَ جُمجُمَتِه . لكنَّ الّذي لفتَ أنظارَ العلماءِ هو أنَّ هذا الإنسانَ الّذي ذَكرناهُ صارَ يهتمُّ في ذاكَ التَّاريخِ بممارسةِ شعائرٍ دينيَّةٍ ويقومُ بدَفنِ مَوْتاه . وهو أمرٌ لم يعرفوا لهُ سبباً واضحاً . لكنّي سأُطلِعُكَ يا صاحِبي على السَّببِ الحقيقيِّ حسبَ توجيهِ هذا الكتاب المقدّس وفي الوقتِ المناسب أيضاً. أمّا هذه المعلومةُ الّتي أوردتُها فقد تضمَّنها كتاب

(حضاراتُ العصرِ الحجريّ القديم) لمؤلّفهِ العالم (فرنسيس أور) صفحة ١٢١. ثمّ إنّ هذه الظاهرةَ وغيرها امتدّت حتّى تاريخَ الثّلاثين ألفِ عامٍ الماضية . وبسَببها اعتبرَ علماءُ المستحاثّات البشرَ الّذي يرجعُ تاريخُهُ الى الزّمَنِ المذكورِ إنساناً عاقِلاً فاستعملوا لهُ مُصطلح (Homo Sapiens) .

وعليه فقد تبيَّنَ لكَ يا عزيزي القارئُ أنّ هذا القرآنَ العظيمَ لمْ يُهمِل اللّهُ جلّ شأنهُ أن يدَعكَ تتساءلُ وتعودِ إلى كتابه العزيز إلاّ وتعثرُ على الجوابِ الصحيحِ وبما يتلاءمُ مع حقائقِ العلمِ الّذي تُعاصِرُه .

٦.أحوالُ البَشَرِ قبلَ بعثَةِ آدَم

وعلى هذهِ الصُّورةِ تكونُ قد أدركتَ يا صاحبي أنّ وُجودَ البشرِ قديمٌ في نظرِ العلمِ الحديثِ، وأنَّهُ كذلكَ في نظرِ القرآنِ الكريم. وأنّ هذا البشرَ كان قد مرَّ بأطوارٍ خلالَ عُصورِهِ الحجريَّةِ القديمةِ قبلَ تحضُّرِهِ وذلكَ في نظرِ العلمِ الحديثِ ، وهو الأمرُ الّذي صرَّحَ بهِ هذا القرآنُ أيضاً.لذلك أرى أنّكَ عُدتَ تتَساءَلُ من جديدٍ: فأينَ بقيَ موقِعُ بعثَةِ أوّلِ نبيٍّ من أنبياءِ اللّهِ تعالى هذا الّذي عرِفناهُ باسم (آدم) عليهِ السَّلام ؟

وأُمَهِّدُ للإجابةِ على سؤالِكَ وأقول: مادامَ هذا القُرآنُ قد نبَّهنا إلى أنّ آدمَ كانَ نبيًّا ، بل كان أوّلَ نبيٍّ أيضاً . وكانَ من المعلومِ أنّ من مُهمَّاتِ النبيِّ الرَّئيسيَّةِ هو القيامُ بتهذيبِ القومِ الّذي

يُرسلُ إليهم هذا النبيُّ .وهو الموضوعُ الّذي سأتوسَّعُ لكَ في شرحِهِ في الوقتِ المناسب . فإنَّ هذه المُهمَّةَ تبدو يا عزيزي مرتبطـــةً ارتباطًـــا موضوعيًّا بحالِ البشرِ خلالَ عُصوره الحجريَّةِ القديمـــة . أي أنَّ اللّـــهَ الخالِقَ وبعدَ أنْ أكملَ تكوينَ وبناءَ جُمجُمةِ هذا المخلوق البشرِ وبعدَ أنْ أهَّلها وصاحِبَها لِتصلُحَ لِتَخزينِ مَعلوماتهِ وثقافَتهِ لِيُساعِدَهُ ذلـــكَ على التطوُّرِ والتَّمايُزِ عن غيره من الكائنات الحيَّةِ بصـــورة ظـــاهرة الأبعاد تلك الّتي كانت تعيشُ من حولِهِ حياةً غريزيَّةً غيرَ واعِية . فقد احتاجَ هذا الإنجازُ ، ووفقَ القوانينِ الطبيعيَّةِ المسنونةِ إلى ما يقـــاربُ أربعة ملايين عامٍ تقريباً ويكونُ اللّهُ عزَّ وجلَّ بذلكَ قد أعـــدَّ هـــذا البشرَ للنُّطق بلُغةٍ عِلميَّةٍ تساعدُهُ على تلقّي علومٍ وتعـــاليمِ تُـــهذّبُ طِباعهُ وليتعرَّفَ على خالِقِهِ صاحبُ الأسماءِ الحُسنى ولِيستحِقَّ بذلـــكَ اسمَ إنسان .خُصوصاً وأنَّهُ تعالى كانَ قد خَلقَ هذا البشرَ حُـــرَّ الإرادَة والتَّفكيرِ والاعتقادِ ، وهي القوى الّتي كانت قد اشتملَتْ عليها نُطفَتُهُ (الأمْشاجِ) . فاعلمْ يا عزيزي القارئ أنَّ خالِقَكَ كان قد بعثَ بعـــدَ تلك الخُطُوات العمليَّة الضَّروريَّةِ المذكـــورةِ أوّلَ نـــبيٍّ وهـــو (آدمُ) المعروفُ ليبتَدئَ مرحلةً متَطوِّرةً في حياةِ هذا الإنسانِ المخلوق .

وبعدَ هذا التَّقديمِ أرى أنْ أُعطيكَ فكرةً موجزةً عمَّا كشَـفتْ عنهُ حفرياتُ علمِ المستحاثاتِ من معلومات تتعلَّقُ بمبلَغِ حالِ التَّطـوُّرِ الّذي كانَ قد بلغهُ النوعُ البشريّ خلال الفترة الزّمنيَّةِ الأخيرة مـــن الدّورِ الحجريّ الأدنى القديم . ومُستمِدًّا لكَ هذه المعلومـــات مـــن المرجعِ الأخيرِ الّذي ذكرناه .

فالعالم (فرنسيس أور) راح يُطلِعُنا في مؤلَّفـــهِ عـــن تِلـــكَ المعلومات والّتي يعودُ أقصى تواريخِها إلى ما قبل (٣٥) ألف عام. فقد ذكرَ أنَّ هذا البشر راحَ يُطوِّرُ أدواتَهُ الحجريَّةَ خلالَ تلـــك الفـــترةِ الزَّمنيّة . كما راحَ يُمارِسُ طقوساً دينيَّةً ويدفُنُ موتاهُ بإتقان ظـــاهر وهو الأمرُ الّذي أدّى إلى ظُهورِ حضارات قوامُها الأحجارُ والحجـــرُ الصَّوَّان . واكتُشفت أرضيّاتُ أكواخٍ مبنيَّةٍ قياسُ كُلٍّ منـــها(١٢في٧) و(١٥في٨). كما عَثروا على تماثيلَ لنساءٍ من الحجرِ والعـــاجِ كمـــا تطوَّرتِ الفنونُ: كنحتٍ على لوْحاتٍ أوْ نحتٌ على قِطَعٍ عظميَّةٍ وإلى تصويرٍ على جُدرانِ الكهوف . وقد استدلَّ العلماءُ من تلكَ الظّواهـــرِ على أنَّ عقلَ الفردِ من الجنسِ البشريِّ الّذي يعودُ تاريخُـــهُ إلى قبـــل ثمانيةٍ إلى عشرةِ آلاف عام كان قد اكتملَ نموُّهُ كما اكتملتْ رمـــوزُهُ ذاتُ الدَّلالاتِ الدِّينيَّة . لذلك سمَّاهُ علماءُ المســـتحاثّاتِ (الإنســـانُ العاقل) .

والأمرُ العجيبُ في نَظرِ الباحثينَ أيضاً هو أنَّ أزمِنةَ العُصورِ الجليديَّـــةِ المعروفةِ والّتي تعرَّضَ لها كوكبُنا الأرضيُّ انتهتْ عندَ التّاريخ الآنـــفِ الذّكرِ ومالَ الجوُّ بَعد ذلكَ إلى حالةِ الاعتدالِ المُعاصرة.

وتُدرِكُ من خلالِ ما استخلصتُهُ لكَ من معلومـــات كـــأنَّ الجِنسَ البشريَّ الذي يعودُ تاريخُهُ إلى ما بين ثمانيةٍ إلى عشـــرةِ آلاف عام كان قد تأهَّلَ لاستقبالِ أوَّلِ نبيٍّ يُرسِلُهُ ربُّهم لِتهذيبهم بتَـــهذيبٍ سماويٍّ . أمّا ما حدثَ بعدَ التَّاريخِ المذكورِ من تَطوُّراتٍ جذريَّةٍ فقـــدْ أوقعَ ذلك الأمرُ مُختلفَ العلماءِ في حَيرةٍ من أمرهـــم ، ومـــا عـــادَ

بأيديهم إلاّ اللُّجوءُ إلى الافتراضِ والتَّخمين بسببِ أنَّ الآثارَ دلَّتهُمْ على أنَّ ذاكَ البشرَ الّذي لجأَ إلى الكُهوفِ وبُطونِ الأشجارِ وقطنَ فيها ملايينَ السِّنوات، فإنَّ الآثارَ العائدةَ إلى قبلِ ما يُقاربُ ثمانيةِ آلاف عامٍ دلَّت على أنَّ ذاكَ البشر هجرَ بُطونَ الأشجارِ والكهوف وابتكرَ الزِّراعةَ وتربيةَ المواشي . حدثَ هذا كُلُّهُ من غيرِ أنْ يتبيَّنَ لَهُمْ مُبرِّراً يفسِّرُ لَهُم ما كانَ قد حَدَثَ لذلِكَ عَمَدوا إلى الافتِراضِ والتَّخمين .

أمَّا هذا القُرآنُ المجيدُ فقد حلَّ لنا تلكَ الألغازَ بمنطِقيَّةٍ ودليلٍ معقولٍ وهو أمرٌ سآتي على شَرحِهِ في الوقتِ المُناسِب.

الفصلُ الثَّاني

١. لِمَ طالَتْ مُدَّةُ تواريخ أدوار العُصور الحجريَّة؟

وقبلَ أنْ أنتقلَ لشرحِ ما ذكرناه ينبغي أنْ أُجيبَ على سؤالٍ يطرحُ نفسَهُ بصورة تَلقائيَّةٍ وهو :لِمَ طالتْ مُدَّةُ تواريخِ العُصورِ الحجريَّةِ تلكَ ولم تتبدَّلْ أحوالُ البَشرِ بالرَّغمِ من مُضيٍّ قُرابةُ أربعةِ ملايين عامٍ على وُجودِهم؟ فهذا سؤالٌ وجيهٌ كانَ لابُدَّ من الإجابةِ عليهِ إجابةً معقولةً ومنطِقيَّة .

أقولُ : من المعلومِ أنَّ الكائنَ الحيَّ إمّا أنْ يكونَ غريزيًّا لِحِرمانهِ من نعمَةِ العقلِ ، أو أنْ يكونَ عاقلاً يسيرُ هُدىً من عقْلِهِ . فالبشرُ القديمُ كانَ ناشئاً حديثاً وكانَ بحاجةٍ إلى هذا العقلِ لِيسيرَ على هُداه ولِيتميَّزَ بهِ عمّا حَولهُ من الكائنات الحيَّةِ الغريزيَّة. أي أنَّهُ لم يكُن واعياً وكان حالُهُ يُشبهُ حالَ المولود الَّذي يلدُ حديثاً، فجُمجُمتُهُ تكونُ صغيرةً ويكادُ يكونُ وعيُهُ صِفراً .

ولكنْ ما العقلُ وما حقيقتُهُ ؟ فلقد سبقَ لي أنْ تكلَّمتُ عنِ العقلِ في الباب الأوَّل من هذا الكتاب. وأزيدُ على ذلكَ وأقولُ: لقد ذكرَ صاحبُ التَّعريفاتِ أنَّ العقلَ هو الأداةُ الَّتي تُساعدُنا لِنَعْقِلَ حقائقَ الأشياء، ولتصيرَ النظريّاتُ وما نكتسبهُ من معلومات أن تصيرَ إلى ذاكرة القوَّة العاقلةِ ، وذلكَ بتكرارِ حِفظِ وتَذكّرِ الملاَحظاتِ العلميَّةِ كلِّها متى شاءت . فأنتَ تقولُ عقلَ فلانٌ الشّيءَ وتريدُ منَ

قولِكَ هذا أنَّه فَهِمَ هذا الشَّيءَ وتَدبَّره (محيط المحيط) وعليهِ فإنَّ الفردَ من البَشَرِ القديم النّاشئ حديثاً ، لا نكونُ مُغالينَ إذا اعْتقدنا بأنَّهُ كانَ يملِكُ عقلَهُ بالقُوَّةِ وما كان يملِكُهُ بالفِعلِ.

من هذا تُدرِكُ أنَّ البشرَ زمنَ حداثَةِ نُشوئهِ كانَ في سُلوكهِ اليوميِّ غريزيًّا كباقي الكائنات من حولهِ ، وإن كانَ يملكُ القوَّةَ العاقلةَ بالقوَّةِ ولا يملِكُها بالفعلِ وبما يُشبهُ البذرةَ الّتي تَملِكُ قوَّةَ النُّموِّ ولتُصبحَ شجرةً في يومٍ من الأيّام . لكنَّها ليستْ في حالَتِها الرّاهِنَةِ شَجرة.لذلكَ لا ينبغي لكَ أنْ تَستغربَ يا صاحبي إذا لاحظتَ من خلال مُطالَعاتِكَ أنَّ علماءَ المستحاثّات أخبروكَ بأنَّ البشرَ كانوا في بدءِ تاريخِهم يدُبُّونَ على الأرضِ كما تَدُبُّ الحيواناتُ من حَوْلِهم، ومن ثُمَّ تعلَّموا أنْ يمْشُوا سَوِيًّا مِثْلك. حدثَ ذلكَ وبإرادة أيضاً فالفردُ كانَ يملِكُ إرادةً ويتحرَّكُ بصورةٍ غريزيةٍ ، ولكنَّهُ ما كانَ يمشي بهُدى عقْلِهِ بسَبَبِ أنَّهُ ما كان يملِكُ من الوعيِ المعلوماتيِّ ما يُمكِّنُهُ من ذلك وإنْ كانَ يملِكُ عقلاً بالقوَّةِ وليسَ عقلاً بالفِعْلِ .

فالبشرُ لم تَكْتَمِلْ عُقولُهُم بالفعلِ إلاَّ بعدَ أنْ قضَوا ملايينَ السَّنوات . وهذا هو السَّبَبُ الجوهريُّ الّذي تَسبَّبَ في تأخيرِ ظُهورِ سِلسلةِ حَلقات الأنبياءِ والمُرسَلين أيضاً. ذلكَ أنَّ تعاليمَ الشَّرائِعِ لا تكونُ مُوجَّهَةً أصلاً إلاَّ إلى العاقلينَ، وليسَ إلى فاقديِّ العُقول .

وعندما تُسَلِّمُ معي يا صاحبي بهذه الحقيقةِ الّتي ذكرتُها لكَ آنفاً، يعودُ من واجبي أنْ أُثبِتَ لكَ علميّاً وقُرآنيًّا احتِياجَ عقلِ

الإنسانِ إلى تلكَ المُدَّة الطَّويلةِ الّتي ذَكرناها لِيَكتملَ بناءُ ما اشتملتْ عليهِ جُمجُمَةُ هذا الإنسانِ مِن تجهيزاتٍ ووِفقَ القوانينِ الّتي تنظِمُها وسيأتي بيانُ ذلكَ في الوقتِ المناسب . لكنّي أرى أنْ أُلقي لكَ الضَّوءَ أوّلاً على بعضِ الأمورِ المُتعلّقةِ بالأدوارِ الثّلاثةِ الّتي مَرَّ بها البشرُ خلالَ عُصورِهِ الحجريَّةِ القديمةِ لِتُعينُكَ تلكَ المعلوماتُ على ما أريدُ إفهامكَ إيَّاه.

٢. ملاحظاتٌ ضروريٌّ توضيحُها

أوّلاً-أهمِّيَّةُ وُقوفُ الإنسان على قَدَمَيه :

فلقد لاحظتَ يا عزيزي أنَّ عُلماءَ المستحاثّات أطلقوا على الدَّورِ الثالثِ من أدوارِ العُصورِ الحجريَّةِ الّتي مرَّ بها الإنسانُ اسمَ (الإنسانُ السَّوي) وذلكَ بناءً على مُتابَعتِهم لآثاره الماضيةِ الّتي دلّتهُم على أنَّهُ لم يكُنْ كذلكَ من قبل . فماذا تُخفي هذه التَّسمِيَةُ من حقيقةٍ ودلالَةٍ في نَظرِ العلمِ . وهل أنَّ لهذه الحقيقةِ ذِكرٌ في القُرآنِ الكريم ؟ دلالةُ هذه التَّسميَةِ عِلميًّا هو أنَّ الإنسانَ في بدءِ تاريخِ نُشوئهِ لم يكُن يملِكُ عقلاً واعْياً ، لذلك قاربَ حَجْمُ جُمجُمَتِهِ آنذاكَ حجْمَ جُمجُمَةِ أقربِ الكائناتِ الثَّديَّةِ إليه والّتي كانت تَحيى حَياةً غريزيَّةً .

أمّا ما يتعلّقُ بِذِكرِ هذه الحقيقةِ في كتاب اللّهِ العزيز فإنّي أَدْفَعُكَ لِتُطالِعَ الآياتِ (٢١-٢٤) من سورةِ المُلكِ والّتي قالَ اللّهُ

تعالى فيها : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ(٢١)أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٢٢)قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ(٢٣)قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)(٢٤)﴾ .

وأنا لستُ هنا بصدَد تفسيرِ هذه الآيات الكريمةِ ، لذلكَ آملُ منكَ أنْ تتساءلَ معي عنَ الحكمةِ التي دفعتهُ تعالى لِيصيغَ قولهُ تعالى (أ فمنْ يمشي مُكِبًّا على وَجهِهِ أهدى أمَّن يمشي سويًّا على صراط مُستقيم) ؟

أقولُ: إنَّهُ تعالى قد صاغهُ بأسلوبِ الاستفهامِ الاستنكاريِّ لِيُساعدَكَ ذلكَ على المُقارنةِ ما بينَ حالتينِ مذكورتَين . فما الدّاعي لِهذه المُقارنةِ في هذا المقام؟ إلاّ احتمالُ أنْ يكشفَ العلمُ في يومٍ من الأيّامِ عن أنَّ البشرَ كانَ في بدايةِ حياتِهِ يمشي (مُكِبًّا على وجههِ) ؟ خصوصاً وأنَّهُ تعالى كانَ قد قالَ قبلَ آياتٍ (هو الّذي جعلَ لَكُمُ الأرضَ ذَلولاً فامشوا في مَناكبها وكلوا منْ رزقهِ وإليهِ النُّشور) . فالأمرُ (فامشوا في مَناكِبِها) لا يتحققُ إلاّ إذا مشى هذا البشرُ سَوِيًّا على صراط مُستقيم . فبهذا الأسلوبِ الإنشائيِّ البلاغِيِّ يكونُ تعالى قد نبَّهَ الباحِثَ العلميَّ إلى الحقيقةِ الّتي كشفَ عنها الغطاءَ ما توفَّرَ لِعُلماءِ المستحاثّات من آثارِ البشرِ القديمِ من أنَّه أتى على هذا البشرِ دورٌ كان يمشي فيهِ مُكِبًّا على وجهِهِ ، ومن ثمَّ اهتدى لِيمشي سوِيّاً

على صراطٍ مُستقيم . وهو الدَّورُ الّذي دفعَ هؤلاءِ العلماءِ لِيصْطلحوا على تَسميتِهِ اسم (الإنسانُ السَّويُّ-هوموارِكتوس).

وهكذا أكونُ يا صاحبي قد وضَّحتُ لكَ أهمِّيَّةَ وضرورةَ مرورِ البشرِ من دورٍ يتعلَّمُ فيهِ السَّيْرَ سَويًّا على قَدمَيْهِ.

ثمَّ إنَّ انتصابَ الإنسانِ على قدميهِ وبصورةٍ نظاميَّةٍ يُفيدُهُ في تحريرِ يديهِ ولِتعودَ هذه الأيدي تُساعدُ حاسَّةَ لَمسِهِ على أداءِ وظيفتِها بشكلٍ صحيحٍ وكاملٍ من خلالِ حركاتِ اليَدَين التّي تمكِّنَهُ من تلمُّسِ ما وراءَ الأعمدةِ والجُدرانِ والأشياءِ بمهارةٍ وسُرعةٍ عاليتين . كذلكَ للإشارةِ باليدينِ . ولتُساعدانهِ على صُنعِ أدواتِهِ بابتكارٍ وتعقيدٍ وإتقانٍ في مجالات الإبداعِ الفنِّيِّ أيضاً . ذلكَ أنَّ ما بينَ الانتصابِ على قدمينِ وما بين تحرُّرِ اليدَينِ مُعادلةٌ جدليَّةٌ واضحةُ المعالمِ لذلكَ تطرَّقَ القرآنُ الكريمُ لذكرِ الدَّورِ المذكور .

ثانياً-يرتبطُ نموُّ شبكةِ الدِّماغِ العصبيَّةِ بالوَعْيِ الثَّقافيّ

وكنتُ قد ذكرتُ لكَ يا عزيزي القارئ أنَّ حجمَ جمجُمةِ البشرِ حين نُشوئهِ كان يُقاربُ (٥٠٠)سنتيمتر مُكعب. على حين أنَّ حجمَها الحاليَّ قد قاربَ (١٤٠٠)سنتيمتر مُكعَّبٍ . فما هي دلالةُ هذا التَّفاوُتُ بينَ الحَجمينِ المذكورينِ عِلميًّا ؟

أقولُ:لقد انتبهَ علماءُ التَّشريحِ إلى وُجودِ ممرَّات تتخلَّلُ تلافيفَ دماغِ هذا الإنسان، وأنَّ هذه الممرَّاتُ تشتملُ على شبَكةِ أعصابٍ ضخمةٍ ارتبطتْ حركةُ تضخُّمِها بازديادِ ثقافةِ ووعيِ هذا الإنسانِ

على مدى تاريخ وُجودِه.وقد حدثت هذه الظاهرةُ لدِماغِه لاختلاف طبيعتِه عن طبيعةِ سواه من الكائنات الحيَّةِ الّتي تعيشُ حياةً غريزيَّة.فمنَ المعلومِ أنَّ من طبيعةِ هذَا الإنسان استعدادهُ للتَّعلُّمِ ولتحصيلِ الثّقافةِ والاطّلاعِ وهي خاصَّةٌ قد حُرِمَ منها بقيَّةُ الكائنات الحيَّة .

كذلكَ تبيَّنَ لِعلماءِ التَّشريحِ وجودُ قِشرةٍ تُحيطُ بدِماغ الإنسانِ وأنَّ هذه القِشرةَ تَتَّسعُ وتتعاظَمُ مع تَعاظُمِ حجمِ دماغِه. فلَمْ يعرفْ هؤلاءِ العلماء لهذه القشرةِ حتّى الآن عملاً ذاتيّاً تختصُّ بالقيامِ به. إلاّ أنَّهُ قد ثبتَ لديهِم أنّها تُساعدُ هذا الإنسانَ على استعمالِ بصرِه كأداةٍ لِيُوسِّعَ ثقافتهُ ولِيُنَسِّقَ ما بينَ يديهِ وما بينَ عينيهِ ولِيُمسي هذا سبيلاً آخرَ لِتوسيعِ معرفتِه. وقد أثبتَتِ التَّجاربُ العلميَّةُ أنَّ قشطَ قِشرةِ الدِّماغ المذكورةِ يُؤدّي إلى أن يُحرَمَ هذا الإنسانُ من مَرتبتِهِ الإنسانيَّةِ المعروفةِ فيعودُ يُؤدّي عملهُ بالتّالي بشكلٍ آليٍّ غريزيٍّ .

ثمَّ إنَّهُ قد ثبتَ للعُلماءِ وبأُسلوب علَميٍّ أيضاً أنَّ تجاربَ ملايينِ السّنوات الّتي مرَّ بها دماغُ هذا الإنسان جَعلتهُ عُضواً مُختَلِفاً عن أَدمِغَةِ غيرِه من الكائناتِ الحيَّةِ. حيثُ أصبحَ نَشيطاً جدّاً ، وبحيثُ تَردُ إليهِ في كُلِّ دقيقةٍ كمّيَّةُ دمٍ من دَمِهِ تُساوي وَزنَ دماغِه . هذا مع العِلمِ بأنَّ وزْنَ دماغِ الإنسانِ النّاضِجِ يُعادلُ اثنان في المائةِ من وزنِ جسمِه. وأنَّهُ يستَهلِكُ عشرينَ بالمائةِ مِمّا يستَهلِكهُ الإنسانُ من السُّكَّريات . وأنَّهُ إذا انقطعَ ورودُ الدَّمِ عن الدِّماغِ لِثوانٍ مَعدودات يَحرِمهُ ذلكَ من مُتَطلّباتِهِ من الأوكسجين والسُّكَّريّاتِ وهو أمرٌ

يؤدّي بصاحِبِهِ إلى الإغماءِ . فإنْ طالتْ مُدَّةُ الإغماءِ هذه، تتسبَّبُ بموتِ المَغمِيِّ عليه .

وقد بيَّنَ علمُ تشريحِ الأعضاء أنّ دِماغَ الإنسان يتألَّفُ من فِصَّين شبيهَين بفِصَّيِّ ثمرة الجَوْز ويَرتَبِطان بنَسيجٍ عَصَبِيٍّ. يُضافُ إليهما المُخيخُ والنُّخاعُ المُستطيلُ ويحيطُ بهم قشرةُ الدِّماغِ الّتي تكلّمنا عنها من قبل .

وقد يتبادرُ لِذهنكَ يا صاحبي ممّا ذَكَرتُهُ لكَ أنّ قشرةَ الدِّماغِ المذكورةِ لربَّما تكونُ مَلَساءَ مُستويةً ، وذلكَ لأوّلِ وَهلةٍ ، لكنَّ علمَ التَّشريحِ قد أثبتَ أنَّها قِشرةٌ مُجَعَّدةٌ وإلى درجةٍ تبدو معها وكأنَّ فيها شُقوقٌ. وأنَّها لهذا السَّببِ قادرةٌ على احتِواءِ كمِّيَّةَ الدَّمِ الكبيرةِ الواردَةِ إلى دماغِ الإنسانِ . وقد قدَّرَ العلماءُ أنّها إذا سُوِّيتْ صفحةُ قشرةِ الدِّماغِ وبُسطتْ تَجاعيدُها لكانت قد بَلغتْ مَساحتُها مساحةَ صحيفةٍ يوميَّةٍ من حيثُ الاتِّساع.

واعلم يا عزيزي القارئ أنّ عُلماءَ عصرِنا بالرَّغمِ مِمَّا أجروهُ من تجارب وأبحاث ، سعَوا من خِلالِها جاهدينَ إلى مَعرفةِ الطَّريقةِ الّتي يُحَوِّلُ دماغُ الإنسانِ من خلالِها ما يملكُهُ من طاقةٍ كهربائيَّةٍ لا تزيدُ عن (١٠) واط ، أنْ يُحَوِّلَ ما اشتملَ عليهِ الدَّمُ الّذي يردهُ من الموادِّ الكيماويَّةِ المُركَّبِ منها إلى أفكارٍ وذكرياتٍ تتعلَّقُ بتَجاربهِ السَّابقةِ وبعملِيَّاتِهِ الفكريَّةِ الخلاّقة وإلى عواطِفَ ومَشاعِرَ وأحلامٍ، فلم يستطيعوا تفسيرَ حدوثِ ذلكَ كُلِّهِ تفسيراً عِلمِيّاً مَقبولاً ، ولا عَرفوا كيفَ يُساعدُ ذلك كلِّهِ هذا الإنسانَ على وعيٍ كامِلٍ بيئتِهِ الّتي تُحيطُ

بِهِ وهو يمْلِكُ هذا الدِّماغَ العجيبَ الفعَّاليَّةِ . علماً بأنْ تجاربَ هــؤلاءِ ما تزالُ تَجري على قَدَمٍ وساق وفي كلِّ أقطارِ العالمِ المُتقَدِّم .

ثمَّ إنَّكَ قد تَظُنُّ لأوَّلِ وَهلَةٍ أنَّ فُصَّيِّ دماغِ هــذا الإنســان يتَشابهان .والحقيقةُ هي أنَّ الأبحاثَ العلميَّةَ الحديثة قد أثبتَتْ عَــدَمَ تَشابُهِهما . كذلك أثبتَتْ اختِلافَ قُدُراتِهما أيضاً. فقد تبيّنَ للعلمـاء أنَّ لكُلِّ واحدٍ من هذينِ الفصَّين مُهمَّةٌ يؤدِّيها فَمِنْ تلــك المُــهمّاتِ الأساسيَّةِ الّتي يقومُ بها الفصُّ الأيسرُ هو إنتاجُهُ الأفكارَ الموضوعيَّــةَ والأفكارَ التَّحليليَّةَ لدى أغلَبِ النّاس .كذلكَ يُعدُّ هذا الفصُّ الأيســرُ من المراكزِ الأساسيَّةِ للنُّطقِ باللُّغةِ الّتي يتكلَّمُها هذا الإنســان . أمّــا الفصُّ الأيمَنُ فهو يُساعدُهُ بصورةٍ أساسيَّةٍ على التَّفكــيرِ الحدْســيِّ، وعلى تجريدٍ خلّاقٍ للمواضيعِ كمّا يُساعِدُهُ على تقديرِ أبعادِ المكــانِ الثّلاثةِ وعلى تقديرِ أشكالِ الأشياء ، وعلى القيامِ بمُطابقةِ نواحــي التَّشابُهِ بين مُختلَفِ الأمورِ والأشكال .

كذلكَ فقد ثبتَ للعُلماء أنَّ عمليّاتَ التَّعرُّف على الوجــوه تتِمُّ في الفصِّ الأيمنِ من الدِّماغ، ويتِمُّ فيهِ تقديرُ ترتيبِ وَضْعِ الأجسامِ في المكان .

أمَّا الظّاهرةُ الغريبةُ الّتي تبيَّنت لهُم ، فهي أنَّ كُلَّ واحدٍ من هذين الفُصَّينِ يتحكَّمُ في الآخر. وهيَ ظاهِرَةٌ تَصالُبٍ عَكْسيَّةٍ غريبة .

واعلَمْ يا صاحبي أنَّ الحقيقةَ المُهمَّةَ الّتي توصَّلَ إليها العلماءُ الباحثونَ هي أنَّ ما ذكرناهُ من تطوُّرٍ كانَ قد طرأَ على دماغِ هــذا الإنسانِ في تلكَ الحُقبةِ الغابرةِ من الزَّمان، إلى جانبِ تَخَصُّصاتِهِ الّــتي

ذكَرناها ، وقد عَمَلَ هذا كُلُّهُ وساعدَ على تَمْييزِ دماغِ هذا الإنسان نوعاً وكيفاً عن أدمِغَةِ جميعِ الكائنات الحيَّةِ المعروفةِ وخاصَّةً منها الحيوانات الفقريَّة. هذا بالرَّغمِ من أنَّ أدمغَتَهُم جميعَهُم كانَ الخالِقُ قد صمَّمها على نفسِ طِرازِ تَصْميمِ دماغِ هذا الإنسان من حيثُ الأصلِ والأساس. وهو أمرٌ يؤكِّدُ للباحثينَ أنَّ هذا كان قد حدثَ تأهيلاً من جانبهِ تعالى لفِطرَةِ هذا الإنسانِ وإعداداً لها لِتنْدَفِعَ وراءَ حُبِّ طَلَبِ العِلْمِ وطَلَبِ الثّقافةِ والمعرفة .

وهذه الحَقيقةُ العلميَّةُ الَّتي توصَّلَ إليها العلماءُ الباحثونَ هيَ نفسُ الحقيقةِ الّتي أشارَ إليها قولُ ربِّنا عزَّ وجلَّ قبلَ أربعةِ عشر قرناً من الزّمان وذلكَ في الآيةِ (٥٦) من سورةِ الذّاريات قولُهُ تعالى : **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(٥٦)﴾** أي لِيتَهذّبوا وليتثقّفوا بما كَشفتُهُ عليهم من عُلومِ أسمائِيَ الحُسنى على أيدي أنبيائي ورُسُلي ولِيتمكّنوا من جرَّاءِ ذلكَ من طَلَبِ التَّعرُّف عليّ . هذا الأمرُ الّذي يُمثّلُ مَقصَدَ وُجودهم في هذه الحَياة الدُّنيا الماديّةِ والّتي جَعلْتُها وسيلةَ تَحقيقِ ذلك كُلّه .

ثالثاً. طولُ مُدَّة حَضانَةِ المولود ودَلالتُها

فإنْ أنتَ قارنتَ يا عزيزي القارئ ما بين هذا الإنسانِ المخلوق وما بينَ بقيَّةِ الكائنات الحيَّةِ وخاصَّةً منها الثّدييَّات على صعيدِ المواليدِ تُلاحظُ أنَّهُ على حينِ أنَّ مولودَ الحيوانات الغريزيَّةِ لا يحتاجُ من أمِّهِ أن تحتَضِنَهُ مُدَّةً تزيدُ على أيّامٍ ، فإنَّ هذا المولودَ البشر لا تكفيهِ

حضانَةُ سنوات من قِبَلِ والِدَيه . وعليهِ فلا ينبغي أنْ يذهبَ ظنُّكَ إلى أنَّ هذا قد حدَثَ هكذا صُدفةً بل حدثَ لِضرورات قضى بها خالِقُهُ.

دونَكَ النسرُ على سبيلِ المِثالِ فهو يملِكُ قوَّةَ إبصارٍ تفـــوقُ قُوَّةَ إبصارِ هذا الإنسان أضعافَ قُوَّة إبصـــــاره. والأيـــلُ والغـــزالُ سُرعتُهُما أضعافُ سُرعَةِ هذا الإنسان. كذلكَ فإنَّ مَهارةَ الدّلفـــينِ في مَجالِ السِّباحةِ تفوقُ مَهارةَ الإنسانِ في مجالِ سِباحتِه. وإنَّ الفـــروقَ بينهُم كثيرةٌ يصعُبُ تَعدادُها وإحصاؤها على حسَبِ ما هو معـــروفٌ وما قد ثبتَ بصورةٍ عِلمِيَّة . وهذه القُوى تَظهَرُ لـــدى الحيوانـــات بصورة طبيعيَّةٍ وبدونِ تَدريب ولا تأهيلٍ وتُلاحظُ يا صاحبي كيـــفَ أَنَّ تلكَ القوى تُلبي حاجاتَ أصحابها من الحيوانـــاتِ وهـــي الّـــتي تُلاحِظُ كيفَ أنها لا تملكُ ثقافةً عِلمَيَّةً بل تتصرَّفُ بصورةٍ غريزيَّـــة . أمَّا هذا الإنسانُ صاحبُ الإرادة والعقلِ فهو بحاجَةٍ إلى رعايةِ والِدَيـــهِ مُدَّةً طويلةً لِيُحصِّلَ عن طريقهما جزءٍ من ثقافتِهما ولِيُضيفَهُ بعد سِـــنِّ رُشدِهِ إلى ما يُحَصِّلهُ من ثقافةٍ إضافيّةٍ تُنمّي وعيَهُ وإدراكهُ وتُوسِّـــعُ معرِفتَه. ولِيُساعدَهُ ذلكَ كُلِّهِ على استِغْلالِ ما سخَّرهُ لهُ خالقُه مـــن خيراتِ هذا الكونِ من حولِه . ولذلكَ لاحظَ العلماءُ المُختصُّون ميـــلَ هذا الإنسانِ المولودِ إلى تحصيلِ العِلمِ والثّقافةِ والإبداعِ الفنّي وبصورةٍ فِطريَّة . وهو بعدَ هذا التَّحصيلِ يُصبحُ مؤهَّلاً للتَّعرُّفِ على خالِقِـــهِ وطلبِ محبَّتِه وقُربِهِ أيضاً . أي أنَّ طولَ مُدَّة حضانةِ الإنسانِ لَمواليـــده ما وُجِدتْ صُدفةً ، بل كانت أُحْدِثتْ عن سابقِ تخطيطٍ من جـــانبِ

اللهِ الّذي خلقَ هذا الإنسانَ وأبدعه، ولِيُعينَهُ ذلكَ على تَحصيلِ مـــا يلزَمهُ من ثّقافةٍ وعلومٍ لازمةٍ لهُ وتُساعِدُهُ في هذه الحياة .

فالإنسانُ لا يَرِثُ عن والِدَيْهِ تقاسيمَ وجههِ ونسبَهُ الجَســدِيَّ وأجهزتَهُ ويكتفي بذلكَ، بلْ يظلُّ مُفتقِراً بعدَ ولادَتِهِ إلى ما هو أهــمُّ من جميعِ هذه الأشياءِ ألا وهو ضرورةُ تنميَةِ فِكرِه وزيــادةُ ثقافتــهِ ومَعرفتهِ ولِيُمكِّنُهُ ذلكَ كلِّهِ من وعيِ ما هو كائنٌ من حوله. كذلــك هو بحاجةٍ إلى لُغةٍ يتكلَّمُها وأن تكونَ هذه اللُّغةُ تتَّصِــفُ بالصِّفــةِ العلميَّةِ لِتُمكِّنَهُ من التَّعبيرِ عن أدَقِّ أحاسيسهِ وعواطِفــهِ الشــخصيَّةِ ومعلوماتِهِ ، وعمّا أفادتهُ بهِ تجاربهُ الذّاتيَّةُ من أفكارٍ ومعلومات .فــإنْ أنت عكسْتَ هذه المُعادلةَ يا صاحبي وحرمْتَ هذا المولودَ من عَطــفِ والدَيهِ ومن حنانِهما ورِعايتِهما مُدَّةً طويلةً هو بحاجةٍ إليها ستلاحِظُ أنَّ ذلكَ يُلقي بظلالِهِ على نفسيَّةِ هذا المولودِ وعلى تفكــيره وعلــى أحاسيسهِ وينتهي بهِ الأمرُ أخيراً ليُصبِحَ هذا المولودُ مُتَخَلِّفــاً عقليًّــا ومُتخلّفاً عاطفيّاً أيضاً كما ينتُجُ عن ذلك الأمرِ مُعدَّلُ وفِيَّات عـــالٍ، لذلكَ أنصحُكَ بمراجعة كِتاب (بنو الإنسان لبيتر فارب) بهذا الشــأنِ

والمُهمُّ يا عزيزي القارئ هو أن تُدركَ من خلالِ جميعِ هــذه الملاحظات الثّلاث الّتي أوردتُها لك أن تقتَنِعَ بأنَّ الخالقَ جلَّ شأنُهُ مـا أطالَ مُدَّةَ تواريخِ أدوارِ العصورِ الحجريَّةِ هذه التّي مرَّرَ هذا الإنســانَ مِن خلالها، عبثاً وبدونِ غايةٍ ومصلحةٍ مَرجُوَّة . بل فَعَلَ الخالِقُ ذلــكَ كُلِّهِ لاحتياجِ دِماغِ هذا الإنسانِ إلى هذه الملايــينِ مــن السَّــنواتِ

لِيكتمِلَ بناءُ دماغِهِ ولِيبلُغَ رُشدَهُ ولِيعودَ (سميعاً بصيراً) على حسبِ ما أخبرَتنا بِهِ سورةُ الدَّهر في هذا القُرآنِ العظيم .

الفصلُ الثَّالث

التقسيمُ التاريخيُّ المعاصرُ يوافِقُ التَّقسيمَ القُرآنيّ

ولرُبَّما تتساءلُ يا عزيزي القارئ بعد هـذا التَّوافـق بـين مُعطيات العِلمِ ومُعطيات آيات هذا القرآن الكريم والّـذي زوّدتُك بعلمهِ حتَّى الآن ، أقولُ لَربَّما تَتساءل: إنّ العلمـاءَ المؤرّخـينَ قـد قسَّموا تاريخَ البشرِ إلى قِسمينِ : تاريخُهُ العائدُ إلى ما قبـلَ التَّـاريخِ المعروف والعائدُ إلى عُصورِه الحجريَّةِ التي كُنَّا قد تكلّمنـا عنـها، وتاريخُهُ المعروفُ والّذي لا يتجاوزُ السِّتَّةَ آلاف عامٍ تقريبـاً . فـهل قسَّمَ القُرآنُ تاريخَ هذا الإنسانِ نفسَ التَّقسيمَ العلميَّ المذكورِ، وأيـنَ موقِعُ النَّبيِّ (آدم) مِنْ هذا التَّقسيم؟

أقولُ في الإجابةِ على سؤالِكَ الهامّ جدًّا في نظري أنْ أجَـلْ، فلم يفرِّطْ هذا الكتابُ المُقدَّسُ والمُباركُ بالإجابةِ على هذه الخـاطِرةِ الّتي خطرتْ لِذِهنكَ في هذا المقام، بل أجابَ عليها ابتداءً من الآيـةِ (٢٣) وما بعدها من سورةِ الحِجـر وبصياغـةٍ بلاغيَّـة مُدهِشَـةٍ أيضاً،وضمنَ تسلسُلٍ موضوعيٍّ واضحُ المعالِمِ لأعيُنِ المُتَدبِّرين، وقـد شرَدَ هذا المعنى عن أذهانِ المُفسِّرينَ القُدماء بسبَبِ أنَّـهُم أَلهَتْـهُمُ الرِّواياتُ المأثورةُ وغفِلوا عَن مَنهجيَّةِ وأُصول تفسيرِ هـذا (القُـرآنِ المُعجزُ العظيم) .ولمَّا كُنتُ بِصدَدِ الكلامِ عن تطوُّرِ هذا الإنسـان ،

وليس بصدَد التَّفسير، لذلكَ أختصِرُ وأقولُ: إنَّ سورةَ الحجر قد أجابت على السُّؤال المذكور من خلال قولِهِ تعالى ﴿ **وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ(٢٣)وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ(٢٤)** ﴾.

فإنْ أنتَ أخذتَ تتدبَّرُ هذا الكلامَ الواردَ في هذه الآيات الكريمةِ ومن مُنطلقِ أنَّه كلامٌ إلهيٌّ مُعجزٌ قد صيغَ بصياغةٍ بلاغيَّةٍ ، وليسَ على أنهُ كلامٌ عاديٌّ، تُلاحظُ أوَّلَ ما تُلاحِظهُ عمليَّةَ حَذْف مَفاعيلِ الكلِمات (نُحيي،نُميت،الوارثون)، فلم يُوضِّح جلَّ شأنهُ أهو يُحيي الأفرادَ أم يُحيي الأممَ وعلى شاكلَتِهِ كلمتي (نُميت والوارثون). فما هي دلالةُ هذا الحذفِ البلاغيِّ ؟ دلالتُهُ أنْ يُوسِّعَ المعنى وليشملَ معنى إحياءُ الأفرادِ والأممِ معاً وكمثلِهِ بقيّةُ الكلمات . والمعنى أنَّ اللهَ تعالى بيدهِ مقاليدُ كُلِّ شيءٍ ولا يغرُبُ عن نظرِهِ شيءٌ في السَّماءِ ولا في الأرضِ سواءَ أكانَ هذا في الزَّمنِ الماضي أو في الحاضر أو في الزَّمنِ المُستقبل .

وبما أنَّ موضوعَ السّورةِ والّتي قبلها مُتعلّقٌ بالكلامِ عن الأممِ الغربيَّةِ خاصَّةً ، وهو أمرٌ لا مجالَ للخوضِ فيهِ في هذا المقامِ ، فقد راحَ اللّهُ جلَّ شأنُهُ يُدلي لهؤلاءِ بدليلِ مِصداقيَّةِ ما ادّعاه، فطرحَ تقسيمَ تاريخِ البشرِ بنفسِ التَّقسيمِ الّذي قسَّمَهُ عُلماءُ تلكَ الأقوامِ المسيحيَّةِ وقبل أربعة عشر قرناً من تقسيمِ علمائِهم التَّقسيمَ التاريخيَّ المُشارُ إليه . فقسَّمَ تاريخَ البشرِ إلى ما سمَّاهُم (مُستقدمين)

و(مُستأخرين) . وقد أتى تعالى بالجار والمجرور (منكم) لِيؤكِّدَ أنَّ المستقدمينَ والمستأخرينَ هم بشرٌ ومن جنسٍ واحد .

وعليهِ فقد قصدَ تعالى هنا من (المُستقدمين) إنسانَ العُصورِ الحجريَّة . كما قصدَ من (المُستأخرينَ) إنسانَ التَّاريخِ المعروف، والّذي ابتدأ تاريخُهُ منذُ ما يُقاربُ ثمانية إلى عشْرَةِ آلاف عام . وبعد أن أدلى تعالى بهذه المعلومةِ تدليلاً على مِصداقيَّةِ ما كانَ قد ذكرَهُ فلاحِظْ يا صاحبي كيفَ أنَّهُ تعالى راحَ يُطَمئِنُ رسولَ أمَّتِهِ (ص) ومُخاطباً إيَّاهُ بعدَ الآيات الّتي ذكرناها ويقولُ له ﴿ **وإنَّ ربَّكَ هوَ يَحشُرُهُمْ إنَّهُ حكيمٌ عليمٌ** ﴾. وبمعنى لا تخشى على أُمَّتِكَ من مُؤامراتِ هذه الأممِ المسيحيَّةِ، فقد تقرَّرَ مصيرَهُمُ المحتوم. فهذا هو السببُ في أنَّ اللّه تعالى افتتحَ سورة الحجرِ هذه بقوله: ﴿ **رُبَّما يَودُّ الّذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذَرهُم يأكلوا ويتمتَّعوا ويُلهِهِمُ الأملُ فسوفَ يعلمون.** ﴾.

ولا تستغربْ هذا التَّقسيمَ القُرآنيَّ وألفاظَه . فكلمة (المُستقدمين) أشيرَ بها هنا إلى إنسانِ ما قبلَ التَّاريخ ، أولئك البَشرُ الّذين استعمل اللّٰه تعالى لهم في الآياتِ الواردة بعدها كلمتي (بشر والجانّ) . فكلمةُ (بشر) وعلى حسبِ ما أورده صاحبُ مِعجَمِ المقاييس هي كلمةٌ تدُلُّ على ظُهورِ شيءٍ معَ حُسنٍ وجمالٍ من حيثُ الشّكلِ ، وتستعملُ في مُقابلِ كلمةِ (إنس) المُعبَّرِ بها عنِ الشكلِ والمضمون معاً والدَّالَّةُ على كلِّ شيءٍ خالفَ طريقة التَّوحُّشِ . إشارةً إلى أنَّ البشَرَ كانَ في حالةٍ سلوكيَّةٍ هي أقربُ إلى التَّوحُّشِ منها إلى

الأنسنةِ وذلك خلالَ أزمنةِ عُصوره الحجريَّةِ القديمة . وكلمة (الجانُّ) استُعملتْ مُعرَّفةً بالألفِ واللاّمِ إشارةً إلى هذا البشرِ يوم كانَ يأوي إلى الكُهوفِ ولا يعرفُ بناءَ مساكنَ لهُ خارجَها وهو الّذي اصطلحَ علماءُ المستحاثّاتِ على تسميتِهِ (Cave man) أي (رجلُ الكهف). فالكلمةُ اشتُقّتْ من جُنَّ البشرُ بمعنى اختفى عنِ الأنظار . ولم تُستعمل كلمةُ (الجانُّ) في هذا الموضِعِ بالمعنى المُتداولِ في عصرِنا الحاضرِ على ألسنةِ عامَّةِ النَّاس . ولا محلَّ للتَّفصيلِ بأكثر ممّا ذكرناهُ في هذا المقام فأنا لستُ هنا بصدَدِ تفسيرِ هذه الآياتِ من سورةِ الحجر . ويكفيني أن أُذكِّركَ يا صاحبي في هذا المقامِ أنَّ المقصودَ من قولهِ تعالى هنا (من نارِ السَّموم) وَصفُ طبيعةِ ذاكَ الإنسان وليسَ الكلامُ عن تركيبهِ الجسديّ وبمعنى أنَّهُ كانَ لا يعرفُ التَّقيُّدَ بنظامٍ وقانون . ذلك أنَّ سِمومَ الإنسانِ هي فمُهُ ومِنخراهُ وأُذناهُ ، وهَذهِ هي أعضاءُ الجسدِ الّتي يستعمِلُها الإنسانُ البدائيُّ المُشتعِلُ غضباً(محيط المحيط). أمَّا عن موقِعِ زمانِ بعثَةِ النبيِّ (آدم) عليه السَّلام من هذا التَّقسيم فهو أمرٌ سيأتي بيانهُ على موضعِهِ من هذا البحثِ المُتعلِّقِ بتطوُّرِ الإنسان . ومن الضَّروريِّ أن تُحيطَ علماً قبلَ ذلكَ بأهمِّيَّةِ نُطقِ الإنسانِ بلُغةٍ قائمةٍ على أصولٍ وقواعدَ علميَّةٍ ولعلاقةِ هذا الموضوعِ بتَحديدِ زمنِ بعثةِ آدمَ عليهِ السَّلام.

٢ .تعلُّمُ النُّطقِ بلُغةٍ شيءٌ داخِلٌ في طبيعةِ الإنسان

وتذكُرُ يا صاحبي ما كنتُ قد ذكرتُهُ لكَ من قبلُ عن ارتباط شبكةِ الدِّماغِ العصبيَّةِ ونُمُوِّها بالوَعيِ والثَّقافة . وأنبِّهُكَ هنا إلى مَعلومةٍ هامَّةٍ وهيَ أنَّ الثقافة والمعرفةَ يرتبطان بالنُّطق بلُغَةٍ عِلميَّةٍ برابطةٍ جَدَليَّةٍ، ومن باب أنَّ الثَّقافَةَ لا تَنْمو إلاّ عن طَرَيقِ النُّطق بتِلْكَ اللُّغة . فقد ثبتَ بصورةٍ عِلمِيَّةٍ أنَّ مَيلَ الإنسانِ إلى تَعَلُّمِ والنُّطقِ بلُغةٍ هو شيءٌ داخلٌ في طَبيعتِهِ وبشكلٍ فِطريٍّ . وكأنَّ هذا الشيء محفورٌ في تركيبِ دماغِهِ أيضاً. وهو أمرٌ يأتي على عكسِ حالِ بقيَّةِ الكائنات الحيَّةِ المعروفةِ والغريزيَّةِ والّتي لا تتجاوزُ لُغاتُها مُجرَّدَ القيامِ بالإشارات ،أو القيام بإصدارِ صَيْحات ذات دلالات.

فإنْ شئتَ التّأكُّدَ من صحَّةِ قولي بشأنِ الحيوانات فَقُمْ بمُراقبةِ أنواعٍ من الكلابِ على سبيلِ المِثال وفي أيَّةِ القارّات تَواجدوا ،فلنْ تَعثَرَ على أيِّ كلْبٍ منها من نوعٍ مُعيَّنٍ يَنْبحُ نباحاً يُغايرُ نباحَ أفرادِ نوعِهِ ومَهما تباعَدَتِ المسافاتُ بينهم وقِسْ على ذلكَ حالَ بقيَّةِ الحيوانات. وعليهِ فَلِكُلِّ نوعٍ من أنواعِ الحيواناتِ لُغتُهُ الخاصَّةُ بهِ والّتي لا تَتعدَّى مجرَّدَ إجراءِ إشاراتٍ وإصدارِ صَيْحاتٍ معروفة، ويصْدُرُ ذلكَ كُلُّهُ عَنهم بصورةٍ غريزيَّةٍ وتَلقائيَّةٍ أيضًا ودونَ الحاجةِ إلى تَدْريبٍ وتَعليم . أي أنَّ الحيواناتِ تتَخاطَبُ حيثُما كانت بلُغاتِها المفطورةِ عليها وحسب .

فإنْ أنتَ توجَّهتَ نحوَ هذا الإنسان تُلاحظُ انعِدامَ الظَّاهرةَ الّتي ذكرناها . وبناءً على ما تقدَّمَ فقد اصطلَحَ العلماءُ المُختصُّونَ لِلُغاتِ الحيواناتِ اسمَ (أنظِمةٌ مُغلَقَةٌ) لانغِلاقِها على أنفُسِها ولعدمِ

استِعدادها للتَّطوُّر ولبُعدِ لُغات الحيوانات عن روحِ الإبداعِ والابتكارِ الخلاّق وبقاءُ ثقافتِها واحدةً على مرِّ الزَّمان . فهذه معلومةٌ أوصلتُها إليكَ بأسلوب المُلاحظَةِ العلميَّة .

وأرجو ألاّ يذهبُ ظنُّكَ إلى أنَّ القُرآنَ العظيمَ قد تَجاهلَ ذكرَ هذه الحقيقةِ ، بل إنَّهُ ذكرها ولكن بأسلوبهِ الخاصِّ والبلاغيِّ أيضاً . أفلا تتْلو الآيةَ التَّاسِعةَ من سورة (لُقمان) الَّتي يقولُ تعالى فيها: ﴿إنَّ أنكرَ الأصوات لَصوتُ الحمير﴾.؟ فلولا تبنِّي هذا القرآنُ المعلومةَ الَّتي أسلفتُ ذكرَها لَفَسَحَ ذلكَ الإهمالُ للنُّقّاد نقدَ مَضمونِ هذه الآيةِ الكريمةِ على أنَّها ذكرَتْ صوتاً يتغيَّرُ على مرِّ الزمان والمكان. وعليهِ فبإمكانكَ القولُ إنَّ هذا الكتابَ العزيزَ لم يَغْفَلْ عن ذكرِ هذه المعلومةِ العِلميَّة ولكنهُ ذكرَها إنَّما بأُسْلوبهِ الخاصِّ والبلاغيِّ .

ولرُبَّما يُواجهُكَ امرؤٌ رَسختْ في ذهنهِ نظريَّةُ (دارون) الَّتي سبقَ لكَ أنْ تبيَّنتَ جوانبَ خطَئِها، فيعترضُ على القُرآن ويزعُمُ أنَّ المعلومةَ المذكورةَ لا تنطبقُ على الشَّمبانزي المعدود من أجداده. فادْفَعْهُ يا صاحبي لِيُراقِبَ لُغةَ تَخاطُبِها. فبفرضِ أنَّ الشّمبانزي صدَفَ مُرورُهُ من جانبِ شجرةٍ مُثقَلةٍ بالثّمارِ فهل يُلاحظُهُ بعدَ أنْ فرِحَ وأُثيرَ لمنظرِها إلاَّ أنّه سيَعمدُ إلى إصدارِ سِلسلةٍ من الصَّيحات أطلقَ عليها العُلماءُ : (نداءُ الغذاء) ؟ بل سيُلاحظُ هذا الشَّخصُ أنَّ من المُمكِنِ أنْ يُطلِقَ هذا لشمبانزي نفسَ الإشارات والصَّيحات في أحوالٍ مُغايرةٍ للمَوقِفِ الّذي ذكرناه . وعليهِ فإنَّ صَيحاتَ هذا الحيوانَ الغريزيِّ لا تصلُحُ في نَظرِ الباحثِ لِتُشكّلَ أرضيَّةَ ثقافةٍ مُتَناميةٍ، فهيَ

لُغةٌ مُغلَقَةٌ وفقَ اصْطِلاحِ العُلماء المُختصِّين . وحالةُ الحيوانات هذه الّتي بيَّناها آنفاً تُساعِدكَ على تَبيُّنِ سببَ خُضوعِ الإنسانِ لِسُلطان الشَّرائعِ السَّماويَّةِ، وعدمَ خُضوعِ الحيوانِ لها بصورة عامَّة، وهذا الأمرُ يَدْعُمُ الفَلسفةَ القائلةَ أنَّ اللهَ الخالِقَ جعلَ الحيواناتِ غريزيَّةً ولِتكونَ مُسخَّرةً لِصالِحِ هذا الإنسان صاحبُ العقلِ والإرادةَ الحُرَّةَ من أجْلِ أن يَخضعَ لِسُلطانِ الشَّريعةِ السَّماويَّةِ فَيُمْتَحَنُ من خلال تعاليمِها أيَخضعُ لها بحُرِّيّتِهِ أمَ يرفضُها ويُعرضُ عنها . وهي الحقيقةُ الّتي أشارَ إليها قولُ اللّهِ تعالى في الآيةِ (١٣) من سورة الجاثية **﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**. فإن نحنُ تدبَّرنا نصَّ هذه الآيةِ الكريمةِ نُلاحظُ أنَّها نزلتْ مُوجَّهةً (لقومٍ يعقِلون) ولِيتفكَّروا بأُسلوب عِلميٍّ في موضوعِ الظَّاهرةِ السَّالفةِ الذِّكرِ وهي أنَّ كلَّ شيءٍ في هذا الكون جاءَ مُسخَّراً لصالحِ هذا الإنسانِ وحدهُ واختُصَّ وحدهُ أيضاً بتلقّي تعاليمَ السَّماءِ من دون جميعِ هذه المخلوقات .

وعليهِ فبإمكاننا أن نقولَ بألفاظ أُخرى إنَّ الحيوانَ قد فُطِرَ على مَنْحىً واحدٍ لذلكَ صارَ الحيوانُ غريزيًّا . وأنَّ الإنسانَ قد فُطِرَ على مَنْحَيَيْنِ لذلكَ صارَ هذا الإنسانُ حُرَّ الإرادةِ يفعَلُ ما يَشاء . فهو قد فُطِرَ على قِوىً مُتضادَّةً وفي آن واحدٍ. فهو يحملُ قُوَّتَي الشّجاعةَ والجُبنَ في آن واحدٍ وقوَّتي الكرَمَ والبُخلَ في آن واحدٍ وهذا هو حلُّ بقيَّةِ قُواه . وإنَّ هذا الفرقَ في التَّركيبِ الجِبِلّيِّ قد رافقهُ فارقٌ في تَركيبِ حُنجُرَةِ كُلٌّ من الحيوانِ والإنسان . فقد ثبتَ بِصورةٍ عِلميَّةٍ

أنَّ تَكْوينَ حُنجُرة الحيوان تخلو من الحِبالِ الصَّوتيَّةِ لذلكَ لا تُساعِدهُ على النُّطقِ بأحرُفِ العِلَّةِ المعروفةِ الرئيسيَّةِ الّتي لا تخلو منها لُغةٌ من اللُّغات. وهذا الفارقُ العُضويُّ الكائنُ ما بينَ تركيب جسميِّ الحيوانِ والإنسانِ هو من الفَوارقِ الّتي لا يَنْبَغي الاستهانةُ بها أيضاً ولا ينْبغي أن تَظُنَّ يا صاحِبي أنَّها فارقٌ ثانَويٌّ . بل إنَّكَ إنْ فكَّرتَ جيِّداً تصِلُ إلى إدْراكِ ما لهذا الفارقِ منْ أهمِّيَّة .

فهيَّا قارِنْ ما بينَ الحاسِبِ اليدويِّ وما بين الحاسبِ الألكترونيِّ العِملاقِ ، فكمْ بينهما من فوارِق ؟ فهُما يختلِفان من حيثُ سِعةِ مَخزونِ ذاكرةِ كُلٍّ منهما . كما يختلفانِ في قُدرة كُلٍّ منهُما على البرمجةِ وقُدرةِ كُلٍّ مِنهُما على القيامِ بالعَمليَّاتِ الحسابيَّةِ . ذلكَ أنَّ الحاسِبَ اليدويَّ يعجزُ عن القيامِ بحِساب ما يستطيعُ أن يَحسبَهُ الحاسِبُ الألكترونيُّ العِملاق . فإن أنتَ أحطتَ عِلماً بهذه الفوارِقِ الكائنةِ ما بينَ الحاسوبين ، يساعِدُكَ هذا العلمُ على تَقديرِ أهميَّةِ الفارقِ ما بينَ تكوينِ حُنجُرةِ الحيوان وما بينَ تكوينِ حُنجُرة هذا الإنسان. وهذا هو السَّبَبُ في أنَّهُ قد ثَبتَ بصورةٍ عِلميَّةٍ عجْزُ حُنْجُرةِ الحيوانِ عنِ النُّطقِ بكلامٍ مفهوم . على حين أنَّ حُنجُرةَ الإنسانِ تُساعِدُهُ على أن يُضارعَ ما يقومُ بهِ الحاسِبُ الألكترونيُّ العِملاقُ مِن عملِيَّات هائلةٍ تَصنيفاً وتخزيناً وربطاً لِمعلومات بمعلومات وإعطاءً لاستنتاجات . فمجاري أصواتُ حُنجُرَةِ الإنسانِ مؤهَّلةٌ بصورةٍ فِطريَّةٍ لِتنطُقَ بأحرُف الكلامِ وعلى المُستوى الّذي ذكرناهُ من المُهِمَّات . فبواسطةِ النُّطقِ بِكلامٍ مفهومٍ استطاعَ الإنسانُ

أن يُعبِّرَ عن عَواطِفهِ وأن ينقُلَ ما يشاءُ من معلومات عن البيئةِ الّتي يعيشُ في أحضانها سواءً أ كانت هذه المعلوماتُ من نوعِ المَرئيَّاتِ أو من نوعِ المسْموعاتِ أو من نوعِ التَّصوُّرات .

وإيَّاكَ أنْ تَظُنَّ بأنَّ هَذا الفارقَ بين حُنجُرتي الحيوانِ والإنسان قد حصلَ صُدفةً في وقتٍ من الأوقات ، بل إنَّ من واجبكَ الرَّبطُ ما بينَ ترك هذا الإنسانَ ملايينَ السنوات لإكمال بناء أجهزة جُمجُمتهِ خلالَ عصوره الحجريَّةِ وما بين تَكْوينِ الخَالقُ لِحُنجُرتهِ على صورَتِها المعروفةِ ذات الحبالِ الصَّوتيَّة وما بينَ نُطقِ الإنسان بلُغةٍ مفهومة، هذا إنْ كُنتَ من العُقلاءِ المُفكِّرين .ذلكَ أنَّهُ قد ثبتَ للعُلَماءِ المُعاصرينَ أنَّه من الصَّعب أنْ تَجتمعَ عِدَّةُ عناصرَ صُدفةً وفي آن واحد .

فلولا اجتماعُ العناصرِ الّتي ذكرناها ، لَكانَ قد عجزً هذا الإنسانُ عن إضفاء معانٍ اصطلاحيَّةٍ لِكُلِّ الأشياءِ الّتي هي من حولِهِ حتَّى ولكانَ قد عجزَ عنِ التَّعبيرِ عن أفكاره الشَّخصيَّة .وبهذه السِّمةِ يكونُ الإنسانُ قد تميَّزَ عنِ الحيوانِ الّذي ليس بإمكانهِ أن يقومَ إلاَّ بإصدارِ صَيْحات وإشارات.

ونخلُصُ إلى القولِ من جميعِ ما ذكرناه إلى أنَّ وجودَ عقلِ الإنسانِ وحدهُ لا يكفيهِ إنْ لَمْ يقترنْ بلُغةٍ ذات أحرُف هجاء تشتملُ على أحَرُفِ العلَّةِ المعروفة . ولذلكَ جَعلَ الخالَقُ تعلُّمَ لُغةٍ والنُّطقَ بها شيئاً داخلاً في طبيعةِ هذا الإنسان وجبلّتِه . لكنَّ الّذي ثبتَ تاريخيًّا هو أنَّ الإنسانَ بالرَّغمِ من أنَّهُ أمْضَى قُرابةَ أربعة ملايين ونصف من الأعوامِ خلالَ عُصوره الحجريَّةِ القديمةِ فهو ما استطاعَ أنْ ينطُقَ بلُغةٍ

معلومةٍ ولذلكَ لم يُنتِجْ ثقافةً ولا أسَّسَ حضارةً. أي أنَّهُ ظلّ طِـــوالَ تلك المُدَّة المذكورة أشبهَ بإنسانٍ أخرس .مع أنَّهُ كانَ يحمِلُ عقلاً وقـد جُبلَتْ طَبيعتُهُ على النُّطقِ بلُغة . ويُلِحُّ علينا بعدَ أن وَصَلنا إلى هـــذا الحدِّ من المعرفةِ حولَ جميعِ ما بحثناه حتَّى الآنَ من شؤون تاريخِ هـذا الإنسانِ، أقولُ يُلِحُّ علينا سؤالٌ وهو كيفَ نطَقَ الإنسانُ أخيراً بلُغة ؟ وهو سؤالٌ سيأتي جوابُهُ يا صاحبي في حينه . ومـــن واجبنـا قبـل الإجابةِ على السُّؤالِ المذكورِ أن نُحيطَ عِلماً بأبعاد مُـسهمَّات عقـلِ الإنسانِ نفسهِ ، وهي المُهماتُ التي تشكّلُ اللُّغةُ فيها عاملاً وسَـيطاً وحسب . فما هي مُهِمَّةُ العقلِ ؟

٣.مُهمَّةُ العقلِ قُدرتُهُ على الإبداعِ والتَّرميز

وهنا أُفاجئكَ بكلمةِ(تَرْميز)وتعودُ تتساءلُ عن معنى هذه الكلمـــة ؟ أقولُ: لو أنَّكَ راجعتَ معاجمَ اللُّغةِ العربيَّة لَكُنتَ لاحظتَ قولَـــهم : رَمَزَ إليهِ معناهُ أشارَ أو أنَّهُ أومأَ بشفتيهِ أو بعينيهِ أو بحاجبيهِ أو بفمـــهِ أو بيده أو بلسانه، فالرَّمزُ هو الإشارةُ أو الإيماءُ . ويقالُ لِلْمُشارِ إليـهِ مَرموزٌ إليه (محيط المحيط). ثمَّ إنْ أنتَ راجعتَ كِتابَ اللّـــه القُـرآن الكريم فستُلاحظُ أنَّهُ سبحانهُ وتعالى استعملَ هذا اللّفـــظَ في الآيـــة (٤١) من سورة آل عمران حيثُ قال **﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَـــةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّـــكَ كَثِـيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ(٤١)﴾**. وبعدَ أنْ شرحتُ لكَ معنى هـــذه

الكلمةِ لُغويّاً ونبَّهتُكَ إلى وُرودها في كتابِ اللّهِ العزيــز أُحــاولُ أنْ أزيدكَ معرفةً بدَلالتِها وذلك من خلال ما نلاحظهُ مـــن عمليّــات التَّرميزِ الّتي يقومُ بها الشُّعراءُ والأدباءُ في أشعارِهم ومُؤلّفاتِهم .

فمن المعلومِ أنَّ رأسَ الإنسانِ مُتوَّجٌ بشعرٍ كثيفٍ وظيفتهُ الأساسيَّة أنْ يحميَهُ من بردِ الشِّتاء. والحقيقة هي أنَّ الأُدباءَ ينظرونَ إلى شعرِ الرَّأسِ بمنظارِ التَّرميز بمعنى أنَّهم يُشيرونَ بواسطتِهِ إلى أشياءَ لا علاقــةَ لهــا بوظيفةِ هذا الشَّعر.وعلى سبيلِ المثالِ تسْمعُ يا صاحبي أحدَهُمْ يقــولُ لكَ: حضَرتُ عِندكَ بعددِ شَعرِ رأسِك. كذلكَ تسمعُ مـــن آخــرَ ينصحُكَ ويقولُ : لا تقطعْ شَعرةَ مُعاوية . كذلك تمُرُّ بجانبِ فــارسٍ يمتدِحُ سيفَهُ فيقول: إنَّ حَدَّهُ سُمْكُ شَعرةِ رأسِك. كذلــك يربــطُ الفنَّانونَ جماليًّا ما بينَ تكوينِ وَجهكَ وما بينَ تَصفيفِ شعرِك.وقد تمُرُّ بجانبِ شخصينِ يتنابَذانِ فيقولُ أحدُهما للآخر:وكأنَّكَ بهذا الشَّــعرِ تُشابهُ القرود . فهذه الأقوالُ جميعُها يستعمِلُها هؤلاء بمفهومِ التَّرمــيزِ الّذي وضَّحتُ لكَ معناهُ واستعمالاتُه . وهي عمليّاتٌ يملكُ دمــاغُ هذا الإنسانِ القُدرةَ على أدائها من دونِ سائرِ بقيَّةِ المخلوقات الحيَّة .

ولا تنْسَ يا صاحبي أنَّ جميعَ عمليَّاتِ التَّرميزِ الّتي ذَكرناهــا، إنَّما نَبعَتْ عن كلمةٍ واحدةٍ هي كلمةُ (شَعْرَة) . فتصوَّر الكمَّ الهــائلَ من عمليّاتِ التّرميزِ الّتي بإمكانِ هذا العقلِ أن يُؤدّيها استناداً لكلمات وكلمات!!! وتساءلْ في حديثِ نفسكَ: هلْ بإمكانِ دماغِ الغوريــلاَّ أو بإمكانِ دماغِ الشمبانزي القيامَ بمثلِ تلكَ العمليَّاتِ التَّرميزيَّة بحــالٍ من الأحوال ؟

من هذا عادَ بإمكانكَ أن تُدركَ الفارقَ الكبيرَ ما بينَ عطاءات دماغِ هذا الإنسانِ وما بينَ عطاءِ دماغِ أيِّ من الحيوان. علماً بأنَّ هذا الفارقَ الكبيرَ يستحيلُ أن يتحقَّقَ ما لمْ يتعلَّمُ الإنسانُ لُغةً تشتملُ أحرُفُ هِجائها على أحرُف العلَّةِ الرئيسيَّة . ولا شكَّ في أنَّنا إذا قُمنا بحِرمانِ هذا الإنسان من نعمةِ تعلُّمِ اللُّغةِ المذكورةِ نوقِعهُ في مُصيبةٍ وتعاسةٍ ما بعدها من تعاسة .

فإنْ أنتَ تذكَّرتَ الآنَ أنَّهُ قد ثبتَ لِعُلماء المستحاثَّات أنّ البشر، وخلالَ دَورِ عُصورِهِمُ الحجريَّةِ الأخير كانوا قد ترقُّوا عقليّاً نوعاً ما، وقد تبدَّى ذلك فيما تركوهُ في تلك الحُقبةِ الزَّمنيَّةِ من أدوات استعمالاتهمُ الشّخصيةُ اليوميَّةُ، ومن خلال ما كانوا يقومونَ به من دفنٍ لأمواتهم ومن خلالِ الزَّخارف الّتي زَخْرفوا بها جُدرانَ كُهوفهم تعبيراً عن مشاعِرهِمُ الفنيَّةِ . فإنْ تذكَّرتَ يا صاحبي ذلكَ كلَهُ ، تعودُ تُدْركُ أنَّ البشرَ في تلكَ الحُقبةِ الأخيرة من تاريخِهِمُ القديمُ عادوا لا ينقُصُهُم إلاَّ تعلُّمُ النُّطقَ بلُغةٍ ممّا سبق لنا أن ذكرناهُ لِيقومَوا من خلالها بالتَّعبيرِ عمَّا في ضمائرهم وبعمليَّةِ التَّرميزِ المطلوبة . وهنا كان من واجبكَ أن تتساءلَ : كيفَ نَطقَ هذا الإنسانُ باللُّغةِ المطلوبة ومن هو الّذي علَّمَهُ إيَّاها ؟ أقولُ: إنَّ تساؤلكَ المذكورَ قد حيَّرَ عُلماءَ مُختلفِ الاختِصاصات ، وراحوا يضعونَ نظريات ويقومون بمُختلفِ الافتراضات ، وبدونِ سندٍ موثوق ولا بدليلٍ قاطعٍ وإلى هذه اللَّحظةِ أيضا. وقد أثبتُّ لك حتى الآنَ من جانبي أنَّ جميعَ ما كشفَ عنهُ العلمُ الحديثُ ، كانَ قد أخبرَ عنهُ هذا القرآنُ العظيمُ قبل أربعة

عشر قرن من الزَّمان ، وهذا إعجازٌ ما بعدهُ من إعجــاز . أي أنَّ اللهَ تعالى وهو علاَّمُ الغيوبِ لم يفرِّطْ في هذا الكتابِ من شيءٍ . وهــذا يدفعُنا لنكونَ على ثقةٍ ويقينٍ تامَّينِ بأنَّ هذا الكتابَ العزيزَ قد أجابَ أيضاً على تَساؤلِكَ المذكورِ . وعليه ومن هذا المُنطلق أدعــوكَ يــا صاحبي لِتَستريحَ وتستجمعَ جأشكَ لتُصغي إلى ما سأكشفُ لكَ عنـهُ الغطاءَ ممّا فتحهُ اللّهُ تعالى عليَّ في هذا الباب . علــى أن تضـعَ في حِسابكَ أنَّ من خصائصِ هذا القرآنِ العظيمِ أنَّهُ لا يوردُ الموضــوعَ الواحدَ في مَوضعٍ واحدٍ من السُّورةِ ، بل يُوردُ عناصرَهُ مُوَزَّعةً علــى أكثر من سورةٍ من سوره ، وتأتي تلك العنــاصرُ وفــقَ مُناســباتِ التَّسلسُلِ الموضَوعيِّ أيضاً وهو بحثٌ يحتاجُ للكلامِ عنــهُ ولضــربِ الأمثلةِ عليهِ تخصيصَ كتابٍ مُستقِلٍّ لِبيانِ حقائقهِ المُدهشةِ ، ممَّــا لا محلَّ له الآن .

✿✿✿

الفصلُ الرَّابع

١. التَّرميزُ وأساسُهُ الموضوعيُّ في القُرآن

فاعلمْ يا عزيزي القارئ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قد أشارَ في أوَّلِ سورةٍ من سُوَرِ كتابهِ العزيزِ إلى عُنصُرِ عمليَّةِ التَّرميزِ الَّذي أتَينا على ذكرهِ آنفاً وذلك ضمنَ الآياتِ الَّتي تكلَّمتْ عن أحَدِ عناصرِ قِصَّةِ أوَّلِ نَبيٍّ من أنبياءِ اللَّهِ تعالى وهو آدمُ عليهِ السَّلام ، وفي مَعرِضِ التَّدليلِ على مِصداقيَّةِ سؤالِهِ تعالى الموجَّهِ إلى النَّاسِ كافَّةً وبأسلوبِ الاستفهامِ الاستنكاريِّ والَّذي عبَّرَ تعالى عنهُ بقولِهِ في الآيةِ :﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨)** ﴾.

فاللّهُ تعالى راح بعدها وفي الآيةِ٣١ خاصَّةً يُجيبُ على سؤالِ ملائكتهِ بشأنِ استخلافِهِ النبيِّ آدمَ وقال : ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١)** ﴾.ففي قولِهِ (وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها) قد أشارَ إلى عمليَّةِ التَّرميزِ هذهِ الَّتي ذكرناها ولكنْ بصياغةٍ بلاغيَّةٍ

مُعجزَةَ يتبادرُ منها غيرَ ما انطوَتْ عليهِ من حقيقةٍ ودلالات . لذلك تعالَ معي يا صاحبي لِنتدبَّرَ ألفاظَ هذه الآيةِ الكريمةِ على ضَوءِ مُعطياتِ مَعاجِمِ اللُّغويين :

أولاً– فأنتَ حينَ تقول: علَّمَهُ العِلمَ أو الصَّنعةَ أو الأسماءَ، يكون قصدُكَ أنَّه جَعلهُ يتعلَّمُ العِلمَ أو الصَّنعةَ أو الأسماء .وبهذا الأسلوب من التَّعبيرِ يكونُ تعالى قد نبَّهَ عُقولَنا من خلال أوَّلِ كلمةٍ إلى أنَّهُ تعالى لَمْ يُطلِع نبيَّهُ آدمَ على جميعِ أسماءِ الأشياءِ دَفعةً واحِدةً، بل علَّمهُ فِقْهَ مُسمَّياتِ الأشياءِ وأصولَ وقواعدَ وَضْعِها ، ونماذجَ تَطبيقيَّةً لها، وبالاستنادِ إلى مُعطياتِ النُّطقِ بكُلِّ حرف من أحرُف الهجاء التي تتركَّبُ منها مُسمَّياتُ هذه الأشياء . هذا من مُنطلقِ أنَّ فِقهَ وأُصولَ وقواعدَ ما نُريدُ تعليمَهُ، يكونُ موجوداً من قبلِ هذه الخُطوة التَّعليميَّة الّتي يستندُ التَّعليمُ المطلوبُ إليها. وعلى أساسِ من هذا التَّدبُّرِ لكلمةِ (علَّمَ) نكونُ قد فهمنا منها بأنَّ اللَّهَ تعالى كانَ قد علَّمَ آدمَ النُّطقَ أوَّلاً بأحرُف الهجاءِ المَطلوبةِ ومن ثمَّ علَّمهُ استعمالاتها وفقَ أُصولِ وقواعدَ مُحدَّدة كما يفعلُ المُعلِّمُ في المدارسِ الابتدائيَّةِ ، ولكنَّهُ تعالى علَّمَ آدمَ ذلكَ كُلَّهُ بطريقِ إعجازِ وَحيِهِ السَّماويِّ ، وبنفسِ الأسلوبِ الّذي علَّمَ بهِ نَبيَّهُ محمَّداً (ص) جَوامِعَ الكَلِم .وهي حقيقةٌ لا يُدركُ كُنهَها إلاّ صاحبُ تجرُبةٍ روحيَّةٍ في هذا المجال .

ثانياً– وتلاحظُ من جهةٍ ثانيةٍ أنَّ اللّه تعالى استعملَ في هذه الآيةِ الكريمةِ كلمةَ (اسم) بصيغةِ الجمعِ (أسماء). فإنْ أنتَ راجعتَ

مِعجم (محيط المحيط) تُلاحظهُ يقولُ: الاسمُ هو اللّفظُ الموضوعُ على الجوهر والعرَضِ لِتمييزِ هذا عن ذاكَ .. وجمعُهُ أسماء .. وتُحذفُ همزتُهُ في البسملةِ خطّاً نحو بسم اللّهِ الرحمنِ الرحيمِ ، وتُثبَّتُ في غيرِها نحوَ أقسمتُ باسمِ اللّهِ العظيم.

ثالثاً– والآنَ قد تتساءلُ عنْ سرِّ استعمالِهِ تعالى لكلمةِ (كلّها) بدلاً من قولهِ (جميعها) ؟ فإنْ أنتَ عُدتَ من جديدٍ فراجعتَ مِعجم (محيط المحيط) تُلاحظهُ وقد قال: الاسمُ (كلّ) للتكثيرِ والمبالغةِ ليسَ إلاّ ، ولا يُقصدُ بهِ جميعَ الأشياء . فهذا المعنى هو المقصودُ إذن في هذه الآيةِ الكريمةِ بالذّات.

رابعاً– ولابُدَّ أنّكَ قد لاحظتَ يا صاحبي أنَّ اللهَ تعالى استعملَ صيغةَ الجمع (أسماء) في هذه الآيةِ الكريمةِ مُعرَّفاً بالألفِ واللّامِ وحاذفاً في الوقتِ نفسهِ مُضافَ هذه الكلمة ، فهو تعالى لمْ يبيِّنْ لنا أسماءَ أيّةِ الأشياءِ يقصدُ في هذا المقام . أي أنَّهُ تعالى قامَ هنا بعمليَّةِ حذْف بلاغيَّة. والأصلُ في إجراءِ مثلِ هذا الحذفِ البلاغيِّ ليقومَ من خلالِهِ بتصريفِ اللفظِ إلى أكثرَ من معنى وعلى حسب ما نبَّهنا إلى ذلكَ صاحبُ (دلائل الإعجاز) للجرجانيّ . وعليهِ يكونُ تعالى قد قصدَ بالأسماءِ هنا عدَّةَ معانٍ وليسَ معنىً واحداً .

خامساً– والأهمُّ من جميعِ ما نبَّهتُكَ إليهِ حتّى الآن هو أنْ تعلمَ يا عزيزي القارئ أنَّ قصَّةَ (آدم) القُرآنيَّةَ قد صاغَها اللّهُ عزَّ وجلَّ في كتابهِ العزيزِ بمزيجٍ من الحقيقةِ والمجازِ ، وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ

وليسَ بما يتبادرُ للذّهنِ منها من معنى ، وبِلِسان الحالِ أيضاً وليـــسَ بلسانِ القال كما ظنَّ المفسِّرونَ القدماءُ رحمهُمُ اللّهُ تعالى . ويُدهِشُكَ

أن تسْمعَ هذا الطَّرحَ الجديدَ الّذي لم تسمعهُ من قبلُ ، فـلا تتعجَّلِ الأُمورَ وستأتي عمليَّةُ إثباتِهِ في الوقتِ المُناسب إن شـاءَ اللّـهُ تعالى .

وعلى هذه الصُّورةِ من تدبُّرِ قولهِ عزَّ وجـلَّ (وعلَّـمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها) فقد توصَّلنا إلى هذه الأمور الخمسةِ الآنفةِ الذِّكر. هـذه الأمورُ الّتي حملتْ للإنسان هذا الإعلانَ الكبيرَ ، وهو أنَّهُ جلَّ شـأنهُ وبعدَ أنْ أخرجَ البشرَ من سُكنى الكهوفِ إلى سُكنى الجبالِ والسُّهولِ وفي مساكنَ نظاميَّةٍ ، قد أنطقَ تعالى آدمَ ومن آمنَ معـهُ بحـروفِ الهجاءِ المطلوبةِ ، كما دفعهُ ليتعلَّمَ أسماءَ الأشياءِ وفقَ قواعدَ وأصـولٍ مُعيَّنةٍ وليُعينُهُ ذلكَ كُلِّهِ على التَّعبيرِ عمَّا في ضميره بالاستعانةِ بتلـكَ الأسماءِ التي يحصلُ عليها بالأسلوبِ المذكورِ ، ولِتعينُهُ تلكَ الأسمـاءُ على القيامِ بعمليَّةِ التَّرميزِ المطلوبةِ أيضاً .

وعليهِ فإنَّ اللّهَ تعالى لم يقُلْ هنا (وعلَّمَ آدمَ النُّطقَ بلُغةٍ) بـل قال: (وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها) وليفيدَ تعالى ، وبهذه الصِّياغةِ البلاغيَّةِ تلك الأمورَ الخمسةَ الّتي أتينا على ذكرها ، والتي لا يمكنُ التوصُّـلُ إليها إلاَّ بعدَ تدبُّرِ هذا التَّركيبَ البلاغيَّ بأصولِ تدبُّره . أضِـفْ إلى ذلكَ أنَّ هذا الطَّرحَ العظيمَ المتعلِّقَ بأوَّلِ عُنصرٍ من عناصرِ موضـوعِ الكلامِ عن إنطاقهِ تعالى هذا الإنسانَ بِأحَرُفِ لُغةٍ مُعيَّنةٍ فقـد أورده

تعالى في أوّل سورة من سُورِ كتابهِ العزيز ، وفي قِصَّةِ آدمَ بـــــالذّات هذا النَّبيُ الأوّلُ زماناً في سلسلةِ النُّبوات والّذي قدَّرَ الله تعالى لـــهُ أن يُنهي على يديهِ العصورَ الحجريَّةَ التي كانت قد دامت ما يقربُ مـــن أربعةِ ملايين سنةٍ تقريباً وليبدأ هذا البشـــرُ دورَ حياتِـــهِمُ الجديـــدُ لِيُعينَهُم ذلكَ على تحقيقِ المقصدِ من حياهم ولِتتَّضحَ بذلـــكَ معـــالمُ إنسانيَّتهم وليمتازوا بذلكَ عمَّا حولهُم من الكائنات الحيَّةِ الغريزيَّـــة . ولِيُثبتَ اللّهُ عزَّ وجلَّ من خلالِ بعثةِ هذا النبيِّ الأوّلَ أنَّهُ تعـــالى هـــو الذي خلقَ هذا الإنسانَ وطوَّرهُ بفيضِ صفتِهِ (الرَّحمن) هذه الصِّفـــةُ الّتي تُفيدُ أنَّ اللَّهَ تعالى هو مبدأُ كُلّ فيضٍ في هذا الكون . فـــهنا أنَّـــهُ أكملَ تكوينَ دماغِ هذا الإنسان ، فلمَّا اكتملَ أنطقهُ بحروفِ الهجـــاء وعلّمهُ قواعدَ تعلّمِ أسماءِ الأشياءِ لِيُعينُهُ ذلك علـــى تكويـــنِ ثقافـــةٍ تُساعدهُ على تكوينِ حضارةٍ وتقدُّمٍ مستمرَّين . وليتهذّبَ هذا البشـــرُ بتعاليمِ الرِّسالات السَّماويَّةِ المُترلةِ من عندِ اللّهِ تعالى لِصـــالحِ تهذيبـــهِ خاصَّة . وعليهِ فإنَّ هذا الأمرُ الذي بيَّنّاهُ هو في حدِّ ذاتـــهِ إعجـــازٌ مُدهِشٌ أيضاً .

وما دُمتُ قد نبَّهتُكَ يا عزيزي القارئُ إلى حذفـــهِ تعـــالى مُضافَ كلمةِ (الأسماء) وأنَّ هذا الحذفَ يُجريهِ الكاتِبُ العربيُّ أصـــلاً لِتَصريفِ الكلامَ إلى أكثرَ من معنى ، فلا بأسَ أنْ أدلُّكَ على بعـــضِ المعاني الأخرى المقصودةَ هنا من هذه الكلمةِ وحســـبَ اجتـــهادي الشَّخصيَّ ولكن باختصار .

فقد قصدَ تعالى من كلمةِ (الأسماء) مُعرَّفةً هنا أنَّ اللَّهَ تعالى أطلعَ نبيَّهُ آدمَ أيضاً على بعضِ أسمائهِ الحُسنى الّتي تُلائمُ تلكَ المرحلةِ من الزَّمانِ لِيتعرَّفَ إلى ربِّهِ عن طريقِ تلكَ الأسماء .

كذلكَ لِيُطلِعنا سبحانهُ وتعالى على أنَّهُ كانَ قد دفعَ آدمَ والّذينَ آمنوا معهُ لِيُتقِنوا فنَّ الاشتقاق اللُّغوي من تلكَ الأسماء لارتكازِ اللُّغةِ إلى هذا الفنِّ المذكور . كذلكَ قد يكونُ تعالى أطلعَ نبيَّهُ آدم على أسماء أشهرِ الأنبياء الذينَ سيأتونَ من بعدِهِ لإكمالِ مُهمَّةِ تهذيبِ هذا الإنسانَ وتطويره . وهي أمورٌ لا يهمُّنا الخوضُ في شرحِها هنا في هذا المقام. ويكفيكَ يا صاحبي أنْ تعلمَ أنَّ هذا المعنى الأخيرَ يقتضيهِ سؤالُ الملائكةِ عن المقصدِ من استخلاف آدم وهو سؤالُهُم الذي سألوهُ : (أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويسفِكُ الدِّماءَ ؟). وقد جاءَ إطلاعُهُ تعالى نبيَّهُ آدمَ على أسماء عُظماءِ الأنبياءِ الّذينَ سيأتونَ من بعده لِيشُدَّ من عزيمتهِ ولِيدفعَهُ لِيُؤدّي رسالتَهُ بهمَّةٍ ونشاط . وهذه ظاهرةٌ دأبَ اللّهُ عزَّ وجلَّ على العملِ عليها على الدَّوام . فقد باتَ معلوماً لدى أصحابِ الأديانِ أنَّ اللَّهَ تعالى يُطلِعُ كُلَّ نبيٍّ على النبيِّ الذي سيأتي من بعده زماناً . فهذه هي حكمةُ الأمرِ الإلهيِّ الّذي وجَّهَهُ تعالى إلى آدمَ وقالَ (أنبئهُمْ بأسمائهم). ولذلكَ أضافَ تعالى يقولُ بعد أن أنبأ آدمُ ملائكةَ اللّهِ عمَّا سيجري في المستقبلِ من تحوُّلات، قال تعالى حينئذٍ :(فلمَّا أنبأهمْ بأسمائهم قالَ ألمْ أقُلْ لكم إنِّي أعلمُ غيبَ السّماواتِ والأرضَ وأعلمُ ما تُبدونَ وما كنتم تكتمون)؟

فهذه هيَ بعضُ ما تضمَّنهُ قولُ ربِّنا عزَّ وجلَّ (وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها) والمُصاغُ بصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزة . هذا القولُ الّذي تضمَّنَ الإجابةَ على أسئلةِ الباحثينَ عن تاريخِ نُشوءِ هذا الإنسان، هؤلاء الّذينَ يتساءلونَ عن كيفيَّةِ نُطقِ البشرِ بأحرفِ هجاءِ لُغةٍ مُعيَّنةٍ وعمَّن قامَ بتعليمهِ لُغةَ البيان، هؤلاء الَّذينَ راحوا يضعونَ نظرياتٍ مُختلفةً لتفسيرِ هذه الظَّاهرةِ ورجماً بالغيب. ومن دون الرُّجوعِ إلى آياتِ هذا الكتابِ السَّماويِّ العظيمِ لِيتدبَّروها حقَّ تدبُّرها وبأُصولِ تفسيرِها ولِيهتدوا بمضامينها ، هذه الآياتُ التي أنزلها اللَّهُ علَّامُ الغُيوبِ ولِصالحِ هذا الإنسانِ نفسه .

١. مَنْ هو آدمُ عليهِ السّلام ؟

وما دُمتَ قد مرَرْتَ يا عزيزي القارئ على كلمةِ (آدم) ضمنَ الآيةِ الّتي أسلَفْنا ذكرَها آنفاً، فقد عادَ من واجبي أنْ أُصحِّحَ لكَ ما توارثَتَهُ يا صاحبي من مفهومٍ يتعلَّقُ بشخصيَّةِ آدم المذكورُ .

ذلكَ أنَّ المفهومَ للشائعَ في عصرنا بين أتباعِ الدِّيانات هو أنَّ آدمَ هو أوَّلُ مخلوق بشر. وهو مفهومٌ بثَّهُ كاتِبُ سفرِ التَّكوينِ التَّوراتيِّ الّذي أوهمَ قارئَ التَّوراةِ المُعاصرةِ هذه الّتي أثبتُّ لكَ في بدايةِ هذا الكتاب مُخالفةَ طرْحِها مُعطياتِ العلمِ الحديث وأنَّ طرحَها الّذي طرَحَتهُ بِشأنِ هذه القصَّةِ إنَّما يُعدُّ من قبيلِ الأساطيرِ المُسلّية .

وفي هذه المُناسبةِ بالذّات ، أرى وقبلَ تناولِي الإجابةَ على السُّؤالِ المطروحِ أنْ أُمهِّدَ لكَ فأُذكِّرَكَ بِأهمِّ ما توصَّلنا إليهِ حتَّى الآنَ

من حقائقَ ومعلومات . والقصدُ من هذا التَّمهيدِ أن أُساعدَكَ يا صاحبي على استرجاعِ هذهِ الحقائقَ والمعلومات بشكلٍ موضوعيٌ. لذلكَ عليكَ أن تتذكَّرَ الحقائقَ والمعلوماتِ التَّالية :

أوَّلاً: تذكَّرْ أنِّي كُنتُ أثبتُّ لكَ بصورة علميَّةٍ وتاريخيَّةٍ أنَّ صُنعَ ثقافةٍ تشتملُ على ترميزٍ وإبداعٍ ترتبطُ هذهِ العمليَّةُ ارتباطاً جذريًّا ووثيقاً معَ تعلُّمِ الإنسانِ النُّطقَ بلُغةٍ تشتملُ أحرُفها على أحرُفِ العلَّةِ وتستندُ إلى قواعدَ وأُصولٍ علميَّة .

ثانياً: كذلكَ أثبتُّ لكَ بنفسِ الأسلوبِ العلميِّ أنَّ هذا الإنسانَ مفطورٌ وبصورة فطريَّةٍ على حُبِّ تحصيلِ العلمِ والثَّقافة وليتمكَّنَ من اكتشاف أسرارِ هذا الكونِ من حوله. فهذا أمرٌ داخلٌ في طبيعتهِ وكأنَّهُ محفورٌ في دماغه .

ثالثاً: كما أثبتَ علميّاً أنَّ تجربةَ الإنسانِ الشَّخصيَّةِ لا تُساعِدُ وحدَها على تشكيلِ ثقافةٍ مُتعاظمةٍ ، بل لابُدَّ لهذا الإنسانِ من أن يختلطَ بسواهُ من النَّاسِ ، ولكونهِ كائناً اجتماعيًّا بالفطرة ، وليتعاونَ معَ غيرهِ في هذا المجال . وأنَّ الشّخصَ الّذي لا يختلِطُ بأبناءِ جنسهِ تتجمَّدُ أفكارُهُ وملكاتُهُ وينضُبُ عطاؤهُ ويفقدُ كثيراً من مُكوِّناتهِ الباطنيَّةِ حتّى ويفقد كثيراً من مُقوِّماتِ دماغه.

رابعاً: كذلكَ أطلعتُكَ على ما أفاده علمُ المستحاثّات من أنَّهُم قد توصَّلوا من خلالِ دراسةِ آثارِ الإنسانِ القديمِ إلى أنَّ بناءَ

دماغهِ كانَ قد اكتملَ منذُ ما يُقاربُ مائةَ ألفِ عام، حيثُ ابتدأَ مُنذُ التَّاريخِ المذكورِ يصنَعُ أدواتٍ مُتطوِّرةً بمقاييسِ ذاكَ الزَّمانِ لتأمينِ حاجاتِهِ اليوميَّة. فتفنَّنَ في استعمالِ النّارِ وتركَ وراءهُ منحوتاتٍ فنِّيَّةٍ ورسوماً على جُدرانِ الكهوفِ الّتي كانَ يقطُنُها . حتَّى وراحَ يدفُنُ موتاهُ في الألوفِ الأخيرةِ من تاريخِ عُصورهِ الحجريَّةِ القديمة . وبمعنى أنَّ هذا الإنسانَ كانَ قد تأهَّلَ في تلكَ الفترةِ الزمنيَّةِ الأخيرةِ من تاريخهِ القديمِ للنُّطقِ بأحرُفِ هجاءِ لُغةٍ قائمةٍ على قواعدَ وأُصولٍ علميَّةٍ ليصنعَ بعدَ

تعلُّمِها ثقافةً قائمةً على التَّرميزِ والإبداعِ ولِتُساعدَهُ تلكَ الثَّقافةَ على تأسيسِ مَدَنيَّاتٍ وحضارات .

خامساً:وأخيراً فقد استنبطتُ لكَ من الآيةِ (٢٩) من سورة البقرة أنَّ هذا القرآنَ العظيمَ قد أطلَعنا على حقيقةٍ تاريخيَّةٍ ، وهي أنَّ اللّهَ الَّذي خلقَ هذا الإنسانَ هو الّذي أشرفَ على تطْويرِ دماغهِ طوالَ أربعةِ ملايينٍ ونيِّفٍ من السَّنواتِ حتَّى أهَّلهُ للقيامِ بما ذكرناهُ .

ومن ثَمَّ بعثَ هذا الخالقُ من أجلِ نقلِ هذا الإنسانَ النَّقلةَ النَّوعيَّةَ المُبْتغاةَ ، أقولُ بعثَ أوَّلَ نبيٍّ من أنبيائهِ وهو هذا النَّبيُّ المُسمَّى في الآيةِ المذكورةِ باسم (آدم) عليه السَّلام . وقد أنطقهُ تعالى بأحرُفِ الهجاءِ المطلوبةِ وببعضِ أسماءِ الأشياءِ كما علَّمهُ قواعدَ وأصولَ اشتقاقِ كُلِّ اسمٍ يريدُ إطلاقَهُ على شَيءٍ يُريدُ وضْعَ اسمٍ له . وهو تعالى علَّمَ نبيَّهُ آدمَ ذلكَ كُلّهِ بنفسِ أسلوبِ الوحيِ الذي علَّمَ بهِ نبيَّهُ

محمَّداً هذا القرآن كذلك أنزلَ عليهِ التعاليمَ التي تُساعدهُ على القيــامِ بعمليَّةِ تهذيبِ هذا الإنسان .

وبعد أنْ لخَّصتُ لكَ يا عزيزي القارئ هذه الأمورَ الخمســةَ والّتِي كُنتُ أثبتُ لك سابقاً من خلالها عدمَ تَضارُب المُعطيات العلميَّةِ معَ المُعطياتِ القُرآنيَّةِ وأرحتُ بذلكَ ذهنكَ على هذه الصُّورةِ مِمَّـــا راودكَ حتَّى الآنَ من تساؤلات وأفكارٍ ظنّيَّةٍ شـــاعت بـــينَ أتبـــاعِ الدَّيانات . ولا أراكَ بعدَ هذا الشَّرحِ كُلِّهِ إلاَّ عُدتَ تعتقدُ أنَّ هـــذا الإنسانَ مخلوقٌ ، وغيرُ مُتطوِّرٍ عن مخلوق قبلهُ ، ومن خلال اقتنــاعِكَ بوجودِ فروق بين هذا الإنسانِ وبينَ غيرهِ من الكائنات الحيَّةِ والّـــتي يستحيلُ في حالِ وُجودها أن تُسلِّمَ بنُشوءِ الإنسانِ عن كائنٍ غريــزي قبله . ذلكَ أنَّكَ اطَّلعتَ على اختلافِ تركيبِ حُنجُرةِ الإنسانِ عـــن تركيبِ حُنجُرةِ الحيوان . وعلى اختلافِ فطرةِ الإنسانِ عن فِطـــرةِ الحيوانِ لاختلافِ تركيبِ نُطفةِ كُلٍّ منهما . خصوصاً وأنَّهُ قد ثبـــتَ لِعلماءِ العلومِ الحديثةِ أنَّ تعدُّديَّةَ العناصرُ تنفي حُدوثَ شيء بطريـــقِ الصُّدفَةِ أو بداعي الضَّرورة ، وهو الأمرُ الّذي وضَّحهُ مثالُ ســـكّينِ الجزَّار الذي ضربهُ لنا عالمٌ مشهور مُعاصر.

وبهذا التَّمهيدِ أكونُ قد أهَّلتُكَ يـــا صـــاحبي لِتُصغـــي إليَّ ولِتَعرفَ مَن هو النَّبيُّ آدم الّذي أخبرتنا عن بعثتهِ قبلَ ما يُقاربُ ثمانيــةَ إلى عشرةَ ألفِ عامٍ خلتْ، الآيةُ (٢٩) من ســـورةِ البقـــرةِ ســـابقةِ الذّكر. علماً بأنَّ قصَّةَ آدمُ المذكورة لا يخلو من ذكرها ديـــنٌ مـــن الأديانِ ، الأمرُ الّذي يؤكّدُ حقيقةَ وجودِ آدمَ المذكورَ قديماً ومن بابِ

أَنَّهُ يستحيلُ أن يُجمعَ جميعُ النَّاسِ على شيءٍ لاوُجودَ لهُ ، وعلى حدِّ قولِ مؤسِّسِ الإلحاد المعروف . فإنْ وقعَ اختلافٌ على هذا الصَّعيدِ فلم يقعْ في أصلِ القصَّةِ ، إنَّما وقعَ في تفاصيلِها وعليهِ فإنَّ وجودَ النبيِّ آدمُ قديماً لا يدخلُ في بابِ الأساطير بل يدخلُ في بابِ الحقائقِ الثَّابتة .

وبما أنَّ بعثةَ النبيِّ آدمَ لَمْ تتركْ وراءها شاهداً مادّياً ملموساً إلاَّ ما كانت أخبرت بهِ الأديانُ . وبما أنَّ اللَّهَ جلَّ شأنهُ كانَ قد حقّقَ على أيدي نبيِّهِ آدمُ المذكورُ نقلةً نوعيَّةً لهذا الإنسان ، فقد تفضَّلَ تعالى وأخبرنا في كتابِهِ العزيزِ الّذي أنزله قبل أربعةِ عشرَ قرناً من الزَّمان عمّا ينبغي أنْ نعرفهُ عن النَّبيِّ آدم وعن تعاليمِهِ ، لِعلاقةِ ذلكَ كُلِّهِ بحقائقِ حلقاتِ سلسلةِ الرسالاتِ السماويَّةِ الّتي عَمَلت على تهذيبِ وتطويرِ هذا الإنسان منذُ زمنِ إخراجهِ من كُهوفه ، وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزةٍ وردت مزيجاً من الحقيقةِ والمجازِ وبلسانِ الحالِ أيضاً .

وعليهِ تَعودُ تتساءلُ يا عزيزي بعدَ الّذي مهَّدناهُ : مَنْ يكونُ آدمُ المذكورُ ؟ وما هو تاريخُ بعثتهِ؟ وما هي المهامُ التَّاريخيَّةُ الّتي أنجزها ؟ فاعلم أنّي سأكشفُ لكَ عن جميعِ هذه الحقائقِ من داخلِ مُعطياتِ آياتِ هذا القرآن العظيم وفي الوقتِ المناسب أيضاً .

فأبتدئُ من عمليَّةِ تساؤلِ الباحثِ :أ كلمةُ (آدم) هي اسمٌ حقيقيٌّ كان يُنادى بهِ أوّلُ نبيٍّ من أنبياء اللّهِ الكرام ؟ أمْ أنَّهُ اسمٌ وصفيٌّ وردَ في القُرآنِ الكريمِ على سبيلِ وصفِ النَّبيِّ المذكور؟ ذلكَ

أنّ الباحثينَ لم يعثروا على أيّ أثرٍ ماديّ يحملُ هذا الاسمَ ويعودُ تاريخُهُ إلى ثمانية إلى عشرةِ آلافِ عامٍ . وهذه الحقيقةُ تدفعُنا إلى مُراجعةِ مِعجم (محيط المحيط) لنستطلِعَ منهُ معنى هذه الكلمة (آدم) .

فبالرُّجوعِ إلى المعجمِ المذكورِ تبيَّنَ لنا أنّ كلمةَ (آدم) اشتُقّتْ من فعلِ أَدَمَ ، وتحملُ معانيَ ثلاثة :

المعنى الأوّلُ جاءَ من قولكَ : أدمَ فُلانٌ بينَ النّاس بمعنى جمعَ ولأمَ شملهُم . وفي حالةِ أخذِنا بهذا المعنى المذكورِ نستدلُّ منهُ على أنّ هذه التَّسميةِ (آدم) ، كانَ القصدُ منها وصفَ النَّبيَّ المُشارُ إليهِ على أنَّهُ كانَ قد قامَ بتأسيسِ جماعةٍ من المؤمنينَ حولهُ فآخى بينهُم وألَّفَ بين قُلوبِهم. وهذه المهمَّةُ قد باتَ من المعلومِ أنّها لا يقومُ بها إلاّ أنبياءُ اللّهِ الكرام . فكلمةُ (آدم) وعلى أساسٍ من المعنى الّذي ذكرناه قد وردت على سبيلِ الوصفِ وليسَ على سبيلِ الحقيقة .

فإن نحنُ انطلقنا من أنّ القرآنَ الكريم يُفسِّر بعضُهُ بعضاً، وعُدنا إلى الآيةِ من سورةِ آلِ عمران الّتي قالَ تعالى فيها: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٣)**﴾نصلُ من ذلكَ إلى أنّ كلمةَ (آدم) استُعملتْ في هذه الآيةِ الكريمةِ على سبيلِ وصفِ أوّلِ نبيٍّ كريمٍ ولبيانِ مُهمَّته . وهو القيامُ بتأسيسِ جماعةٍ من المؤمنينَ ومحاولةُ المؤاخاةَ بينهم ، وبقصدِ إحداثِ نقلةٍ روحيَّةٍ في حياتهم. وهذا المعنى يحملُ لنا الإشارةَ إلى

النَّقلةِ النَّوعيَّةِ الّتي أحدثتها بعثةُ النبيِّ المذكورِ في حياةِ هـــذا البشـــر أواخرَ عُصورهمُ الحجريَّةِ القديمة.

ونتناولُ المعنى الثّاني لأَدَمَ .فلو أنَّكَ أردتَ يـــا صـــاحبي أنْ تُبيِّنَ أنَّ فُلاناً من النَّاسِ أصبحَ أُسوةً حسنةً لأهلِهِ وعشيرتِهِ ، فبوسعِكَ أن تعبِّرَ عن ذلكَ المعنى وتقولُ :أدمَ فلانٌ أهلهُ وعشيرتهُ (محيط المحيط)

فإنْ نحنُ أخذنا بهذا المعنى الثّاني لكلمةِ(آدم) ، نلاحـــظُ أنَّ هذا المعنى الاشتقاقيِّ الثّاني يُدعِّمُ المعنى الاشـــتقاقيَّ الأوَّلَ ويكملُـــه. ومن بابِ أنَّ كُلَّ نبيٌّ من أنبياءِ اللّهِ تعالى يكونُ أسوةً حسنةً لِجماعـــةِ المؤمنينَ برسالته. هذا وإنَّ قولَ ربِّنا بحقِّ محمَّدٍ (ص):(لقد كانَ لكـــمْ في رسولِ اللّهِ أُسوةٌ حسنةٌ) واضحُ الدَّلالةِ ولا لُبسَ فيه .

ونتناولُ المعنى الثّالث لكلمة(آدم) ، حسبما وردَ في مِعجـــم (مُحيط المُحيط) فنلاحظُ أنَّ الشَّخصَ أبيضَ اللّون إذا تعرَّضَ وجهُـــهُ لِنورِ الشَّمسِ ، يبدأُ لَونُهُ يميلُ إلى السُّمرةِ ويصحُّ حينئـــذٍ أن تصفـــهُ بقولِكَ : أصبحَ فلانٌ آدميَّ اللّون.

فإنْ نحنُ أخذنا بهذا المعنى الوصفيِّ الثـــالثِ لكلمـــةِ(آدم) ، نصلُ إلى أنَّ النَّبيَّ الأوَّلَ المذكورَ قد وُصِفَ بصِفةِ (آدم) من باب أنَّهُ

كانَ أبيض اللون ،وقد أُمرَ من قِبلِ ربِّهِ أنْ يُغادرَ الكـــهفَ الّذي كان يقطُنُ فيهِ ، وبرفقةِ الذينَ آمنوا برسالتهِ ، لِيقوموا باتِّخـــاذ مساكنَ لهم خارجَ الكهفِ وفي مَوقعٍ مُناسبٍ . وهو المعـــنى الـــذّي

يُفسِّرهُ قولُ ربِّنا عزَّ وجلَّ في مقامٍ آخرَ من كتابِهِ العزيزِ: ﴿ **وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ(٣٥)**﴾ وبمعنى اتَّخِذْ لِنفسكَ زوجةً ومسكناً تحتَ الشمس ، ودعْ عنكَ السَّكنَ في الكهفِ الذي أنت فيه . وهذا المعنى يُفسِّرُ للباحثينَ

كيفَ انتقلَ البشرُ من سُكنى الكُهوفِ إلى سُكنى السُّهولِ وغيرها ويُغنيهم عن كثيرٍ من التَّساؤلات .

وعلى هذه الصُّورة نكونُ يا صاحبي قد توصَّلنا إلى الجواب على تساؤلنا: هل أنَّ كلمةَ(آدم) هي اسمٌ حقيقيٌّ أمْ أنَّها اسمٌ وَصفيّ. وعادَ من حقِّنا أنْ نُعلنَ أنَّ (آدم) هو اسمٌ وصفيٌّ وصفَ القُرآنُ العظيمُ بهِ أوَّلَ نبيٍّ من أنبيائهِ، لاشتمال هذا الاسمِ الوصفيِّ على المعاني الثَّلاثةِ الَّتي ذكرناها . وهي حقيقةٌ لم ينتبهْ إليها أحدٌ من المفسِّرينَ القدماء رحمهُمُ اللَّه تعالى .

٣. القِصَّةُ صيغتْ بمَزيجٍ من الحقيقةِ والمجاز ولسان الحال

وأنتَ يا عزيزي القارئ وبعد أنْ علمتَ ما علِمْتَهُ من أمْرِ كلمةِ آدمَ ودلالاتها، وأنَّها اسمٌ وصفيٌّ، يحمِلُ للقارئ الباحثِ حقيقةً تاريخيَّةً ما كانَ لهُ أنْ يصلَ إليها بِدونه . أُحذِّرُكَ تحذيراً شديداً منْ أنْ

تقرأ الآياتَ القُرآنيَّةَ الّتي تضمَّنتها السُّورُ القرآنيَّةُ التّاليةُ وهي(البقـــرةُ والأعرافُ والحجرُ والإسراءُ والكهفُ وطَه وصَ) تلك السُّورُ الّـــتي تعرَّضتْ لِذكرِ قصَّةِ آدم فتذهبُ مذهبَ المفسِّرينَ القدماء رحمهمُ اللّـهُ الّذينَ فسَّروا آياتَها بما تبادرَ لأذهانِهم منها وبمعـــزلٍ عـــن ســـباقها وسياقها وتسلسُلها الموضوعيِّ وناظرينَ إليها على أنّهاً قد صيغـــت بِلسانِ شخصيّاتِها على وجهِ الحقيقةِ،حتّى لا تقعَ بالتّـــالي في نفـــسِ أَخطائِهمُ الّتي شوَّهتْ مضامين قصَّةِ آدمَ المذكورة . واعلم يا صـلحبي أنّ ربَّكَ قد صاغَ هذه القصَّةَ بمزيجٍ من الحقيقةِ والمجازِ ولسانِ الحـــال وعلى حسبِ ما توصَّلتُ إليهِ بعدَ تدبُّرٍ وأناة .

ولا تدهشْ بعدَ أنْ سمعتَ منِّي هذا الطَّرحَ الجديدَ كُلَّ الجِـدَّة ويكفي أنْ تتساءلَ في حديثِ نفسكَ عِدَّةَ تساؤلات لِتشُـــكَّ فيمـــا فهمهُ أجدادُنا القدماءُ رحمهُمُ اللّهُ من قِصَّةِ آدمَ بدلالاتِها الظاهريَّة:

أوّلاً: هلْ يقبلُ عقلُكَ أنْ يقفَ إبليسُ بينَ يَدَي ربِّ العـــزَّةِ وهو يَرى

ما يَرى من وهجِ أنوارِهِ ومن عظمةِ جبروتهِ ومن ثمَّ يملكُ من الجُرأةِ ما يمكِّنُهُ من رفضِ أوامرِ ربِّهِ الّذي هو خالقُه ؟؟؟

ثانياً: وهلْ يستسيغُ عقلُكَ أنْ يتناقضَ كلامُ اللّـــهِ المقـــدَّسُ فيوردُ من جهةٍ بحقِّ ملائكتهِ أنّهُم (يفعلونَ ما يُؤمرون)،لِيأتي ليقـــولَ من جهةٍ أُخرى أنّهُم اعترضوا عليهِ وقالوا (أتجعلُ فيها مَنْ يُفسدُ فيـــها ويسفِكُ الدِّماء؟) ؟؟؟

ثالثاً: وهلْ كانَ ربُّنا عزَّ وجلَّ قد نسيَ أنَّهُ خلقَ إبليسَ من نار وخلقَ آدمَ من طين، لِيأتي إبليسُ حينَ أمرهُ ربُّهُ أن يسجُدَ لآدمَ، أنْ يُذكِّرَ ربَّهُ ويقولُ له (أنا خيرٌ منهُ خلقتني من نارٍ وخلقتَهُ من طين)؟؟

رابعاً–وكيفَ تقبلُ أنْ يدَعَ (اللّهُ الهادي) إبليسَ المتمرِّدَ لِيُقسمَ وليقولَ مُتوعِّداً (فبعزَّتِكَ لأغوينَّهُم أجمعينَ.إلاّ عِبادكَ منهُمُ المُخلَصين) ومن ثمَّ يدعُهُ هذا الإلهُ (الهادي) لِينفِّذَ وعيدهُ وكأنَّ تحدِّياً قد جرى بين طرفينِ مُتكافئين ؟؟؟

فسبحان اللّهِ وتعالى اللّهُ عن أنْ يقعَ في هذه الأخطاء. أمّـا إن أنتَ ذهبتَ مذهبي الّذي ذكرتُهُ لكَ آنفاً ، وتابعتَ ما كشَفهُ اللّهُ تعالى على شخصيَ الضَّعيفِ من معانيَ مُرتبطةٍ بسباقِها وسياقِها،أراكَ ستتقبَّلُ طرحيَ المذكور .وتتجلّى لِعينيكَ بالتّالي عظمةُ هذهِ الصِّياغةِ

البلاغيَّةِ المُعجزة الّتي صيغَتْ بها آياتُ هذا القرآنِ العظيم وتُدركُ بالتالي أنَّ اللّهَ تعالى قد صاغَ هذه القصَّةَ بِمزيجٍ من الحقيقةِ والمجازِ ولسانِ حالِ (أبطالِ) القصّةِ المذكورة .

ولننْطلَقْ يا عزيزي القارئ مِنَ المُنطلَقِ الّذي سبقَ لي أنْ أطلعتُكَ عليهِ وهو أنَّ من خصائصِ هذا القرآنِ أنَّهُ لا يوردُ عناصرَ الموضوعِ الواحدِ في سورة واحدة بل يُوزِّعُ عناصرها على أكثرَ من سورةٍ،ولنبدأُ بدراسةِ ما أوردهُ اللّهُ تعالى من هذه القصَّةِ في الآياتِ

من سورةِ البقرةِ ومُراعينَ في ذلكَ سـباقَها وسـياقَها الموضوعـيُّ ومُتدبِّرينَ إيّاهُ مِن مُنطَلَقِنا الّذي ذكَرناه :

٤.قصَّةُ آدم في سورة البقرة

وقبلَ أنْ أعمدَ إلى القيامِ بذلكَ،أرى أنْ أُعطيكَ يا عزيـزي ولو فكرةً موجزةً عن الدَّاعي الهامِّ الّذي اقتضى التَّعرُّضَ لذكرِ قِصَّـةِ آدمَ في الآياتِ الأوائلِ من سورةِ البقرة وليسَ في الآياتِ الأواخرِ منها لِتطَّلعَ على حكمةِ هذا التَّصرُّفِ الإلهيِّ .

أوّلاً: مقدِّمةٌ تمهيديَّةٌ

فالّذي أوصلني إليهِ تدبُّري لهذه السّورة هو مُلاحظـتي أنَّ اللّهَ تعالى ما إن انتهى من بيانِ قصَّةِ آدمَ عليـهِ السَّـلامِ إلاَّ ولاحظناه وقد توجَّهَ بخطابهِ إلى دعوةِ بني إسرائيلَ مباشـرةً إلى الإيمانِ ومُحذِّراً إيّاهم (ولا تكونوا أوَّلَ كافرٍ به). الأمرُ الـذّي يعني وُجودَ علاقةٍ موضوعيَّةٍ ما بينَ دعوتهِ تعالى بني إسـرائيلَ إلى الإيمانِ بهذا القُرآن العظيم وما بينَ قصَّةِ آدمَ يقيناً .

فلمّا عاودتُ تدبُّرَ أوّلَ آيةٍ من سورة البقرة وهـي : ﴿ الم ، **ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(٢)**﴾ وفكّرتُ في حكمـةِ تعريفِ كلمةِ (كتاب) بأل التَّعريفِ الدَّالةِ على معهودٍ ذهنيٍّ، وربطتُ بينَ هذا المعهودِ الذّهنيِّ وبينَ المُخاطبةِ المذكورة ، ففهمتُ منهُ إشـارتهُ

تعالى من خلالِ التعريفِ المذكورِ إلى نُبوءة تضمَّنها سفرِ التَّثنيةِ من التَّوراةِ المعاصرةِ يتنبّأُ اللّهُ تعالى فيها عن بِعثةِ نبيٍّ مُشرِّعٍ في المُستقبلِ من بني إسماعيلَ وبشريعةٍ كاملةِ التَّعاليم وذلك في الإصحاح ١٨/١٥الّذي وردَ فيه:(يُقيمُ لكَ الرّبُّ إلهُكَ نبيّاً مِثلي من وسْطِكَ، من اخوتِكَ،فلهُ تسمعون..) فقولهُ- نبيّاً مِثلي-أي نبيّاً كاملَ الصِّفات ، ومصداقَ قولِهِ تعالى ﴿ وإنَّكَ لعلى خُلُق عظيم﴾ . وقوله -من وسْطِكَ من اخوتِكَ-فيهِ تصريحٌ بأنَّ النبيَّ المُنبأَ عنه يكون من بني إسماعيل .

وتُكمِلُ النُّبوءةُ وتقول:(سأقيمُ لهم نبيّاً من وسطِ اخوتِهم مِثلَكَ_ أي نبيّاً مُشرِّعاً وبكتاب سماويٍّ جديدٍ-وأجعلُ كلامي في فمِه-أي (وما ينطِقُ عنِ الهوى) فَيُخاطِبُهُم بكلّ ما آمرهُ به -أي مِصداقَ (وما على الرَّسولِ إلاّ البلاغ) وأيُّ رجُلٍ لمْ يسمعْ كلاميَ الّذي يتكلَّمُ بهِ باسمي فإنّي أحاسِبهُ عليه-بمعنى أنَّ بني إسرائيل وغيرَهم مُكلَّفونَ بالإيمان بالنبيِّ المذكورِ وتحتَ طائلةِ العقاب في حالةِ كُفرِهِم بالنبيِّ المذكورِ وفي حالةِ تكذيبهم إيّاه من أجلِ أنَّهُ نبيٌّ عالميٌّ وليس هو بنبيٍّ قوميٍّ كموسى عليه السَّلام .فلمّا راجعتُ التفسيرَ الكبيرَ للإمام الفخر الرّازي رحمهُ اللّه ، لاحظتُ اتِّفاقهُ معي في الرَّأي،فهو ذهبَ أيضاً إلى أنَّ تعريفَ كلمة (الكتاب) في قوله تعالى (ألم ذلك الكتاب..) ورد هذا التَّعريفُ ليعني أنَّ هذا القرآنَ هو (ذلكَ الكتابُ الموعودُ) بإنزالِهِ من السَّماءِ في التَّوراة .

وبألفاظ أخرى فقد راحَ اللّهُ تعالى يُمهِّدُ من أوّلِ آيةٍ من كتابهِ العزيزِ لِيَدعُوَ أوّلَ ما يدعو منَ النَّاسِ (بنو إسرائيلَ) وهم أهلُ كتاب كان قد أنبأ كتابهُمُ عن نزولِ هذا الكتابِ (القرآن) وبالصِّفات التي اشْتملت عليها نبوءةُ سِفْرِ التَّثنيةِ الّتي نَقلناها للقارئ حرفيًّا آنفاً.

ولا ينبغي للقارئ أن يعترِضَ ويقول لو صحَّ هذا الرَّأيُ وهذا الفهمُ لكانَ اللّهُ تعالى قد خاطبَ بني إسرائيلَ في السُّورِ الأولى الّتي أنزلها تعالى في مكَّةَ المكرمة . فالجوابُ هو أنَّ السُّورَ الأولى المترلة تتبعُ ترتيبَ النُّزولِ وليسَ ترتيبَ التِّلاوة ،كما هو معلومٌ تاريخيّاً.فترتيبُ التِّلاوةِ لهُ استمراريَّةُ بقائهِ، على حينِ أنَّ ترتيبَ النُّزولِ يتعلَّقُ بأسبابِ النُّزولِ الموضوعيةِ ولِمعالجةِ فترةٍ زمنيَّةٍ مُحدَّدة.
وقد استنتجتُ من خلالِ ذلكَ أنَّ جميعَ المواضيعِ الّتي بُحِثَتْ قبلَ أنْ يُخاطِبَ اللّهُ تعالى بني إسرائيلَ بقوله:(ولا تكونوا أوّلَ كافرٍ به) فقد كان القصدُ منها هو التَّمهيدُ لِتوجيهِ الخِطابَ المذكور.فبالتَّدبُّر تبيّنَ أنَّهُ سبحانهُ وتعالى اختصرَ تعاليمَ هذا الكتابَ النَّاسخِ لِتعاليمِ التَّوراةِ المُتداولة وذلكَ في الآيات(١-٥) ومن ثمَّ أنبأَ تعالى عمّا سيُسفرُ عنهُ إنزالُ هذا الكتابُ الموعودُ وذلكَ في الآياتِ (٦-٢٠) ثمَّ توجّهَ تعالى بخطابهِ إلى النّاسِ كافّةً يُعلِنُ عن وُجوده وعن الغايةِ من مقصدِ خلقهِ هذا الإنسانَ،وقدَّمَ الدَّليلَ العلميَّ الّذي يثْبُتُ منهُ مصداقيةُ ذلكَ الإعلان وعواقبَ الكُفرِ والإيمان المترتِّبةِ عليه وذلك في الآيات (٢١-٢٥). وبعد أن دعا تعالى النّاسَ كافّةً إلى

الإيمان ووضَّحَ لهمُ المقصدَ من وُجودهم في هذه الحياةِ الدّنيا توجَّـــهَ تعالى لِيُدلي في مواجهةِ اليهود بأعظمِ دليلٍ استقاهُ تعالى من التَّـــوراةِ المُعاصرةِ نفسها، وهو الدَّليلُ الّذي يثبُتُ منهُ أنَّ التَّوراةَ الّتي هي بـــين أيدي بني إسرائيلَ لم تعُد صالحةً بل وعادت أخبارُها مُشوَّهةً ولا تُمتُّ إلى الواقعِ بصلةٍ موضوعيَّةٍ . وهذا الدَّليلُ العظيمُ قد استقاهُ تعالى ممّـــا اشتملَ عليهِ سفرُ التَّكوينُ وبما يتعلّقُ (بقصَّةِ آدمَ) بالذّات . ومـــا إن انتهى اللّهُ جلَّ شأنهُ من عرضِ هذا الدَّليلِ بأسلوبهِ الخاصِّ بهِ، توجّـــهَ تعالى بعد ذلك لِيدعو بني إسرائيلَ إلى الإسلامِ ومن ثمَّ قالَ لهـــم (ولا تكونوا أوّلَ كافرٍ به..).وعلى هذه الصّورةِ يتجلّى للقارئِ من خـلالِ هذا التَّمهيدِ غيرِ المباشرِ الّذي تضمَّنتهُ الآياتُ الأوائلُ التي ذكرناهـــا ترتيبٌ منطقيٌّ للأفكارِ وتسلسُلٌ موضوعيٌّ وإحكامٌ في الطَّرحِ رفيـــعُ المستوى ومُعجزٌ حقّا .

ومن المعلومِ أنَّ الكاتبَ القديرَ لا يكتفـــي بتمـــهيدٍ عـــامٍّ لِموضوعهِ، بل ويعمدُ إلى القيامِ بتمهيدٍ خاصٍّ مُباشرٍ لِيُساعدَهُ هـــذا التَّمهيدُ المُباشرُ على تناوُلِ موضوعهِ الّذي يُريدُ تناولَهُ بأسلوبٍ يُولّـــدُ في نفْسِ قارئهِ إحساساً داخلياً بانسجامٍ حادثٍ في حديثِهِ وبتطـــوُّرٍ طبيعيٍّ . والحقيقةُ هي أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قد أتى أيضاً بهـــذا التَّمـــهيدِ الخاصِّ المُباشرِ الّذي مكّنهُ من تناوُلِ قصَّةِ آدمَ بالذّاتِ ، وذلكَ مـــن خلالِ الآياتِ الأربعِ من الآية(٢٦) وإلى الآية(٢٩) وبصياغةٍ بيانيَّـــةٍ مُعجزةٍ ، تبادرَ لأذهانِ المُفسِّرينَ القُدماءِ منها غيرَ ما تضمَّنتـــهُ مـــن تمهيد .

فهو تعالى نبَّهَ في الآيةِ الأولى من هذا التَّمهيدِ الخاصّ ذهنَ القارئ المُتدبِّر لهذا الكلامِ البلاغيِّ المُعجزِ إلى أسلوبِ الصِّياغةِ الَّذي سينتهجُهُ جلَّ شأنهُ في موضوعِ صياغةِ قصَّةِ آدمَ تلكَ الّتي هو مُقبلٌ على بيانِ حقائقِها . وهو أسلوبٌ يرتكزُ إلى وصفِ الوقائعِ ، وليسَ بيانها على صُورِها الحقيقيَّة . أي أنَّهُ تعالى سيطرحُ موضوعها بأسلوبٍ تمثيليٍّ على شاكلةِ ما يفعلهُ الكاتِبُ المسرحيُّ الذي يكتُبُ بمزيجٍ منَ الحقيقةِ والمجازِ ولِسانِ الحال . فهذا ما أشارَ تعالى إليهِ في هذه الآيةِ الأولى من تمهيده الخاصّ حيثُ قال:(إنَّ اللهَ لا يستحي أن يَّضرِبَ مَثلاً ما بعوضةً فما فوقها ..) . فأنتَ حينَ تقول يا عزيزي:ضربَ لنا فُلانٌ مَثلاً ، تعني أنَّ الّذي حدَّثَ لمْ يذكُرْ الواقعةَ على وجهِ الحقيقةِ ، بل إنَّهُ قد عمدَ حينَ بيانها إلى عمليَّةِ الوصفِ وضَرْبِ المَثَل. فهذا ما أفادَ بهِ مِعجمُ(محيط المحيط).فقد أوردَ يقول: المثلُ هو الشِّبهُ والنَّظيرُ وبيانُ الحُجَّةِ .يُقالُ أقامَ لهُ مثلاً أي وصفَ وبيَّنَ ما يُريدُ وَصفَهُ وبيانَهُ. وقالَ صاحبُ التَّعريفات: الوصفُ عبارةٌ عمّا دلَّ على الذّات، باعتبارِ معنى هو المقصودُ من جوهرِ حروفِهِ ، فهو يدُلُّ على الذّاتِ بصفةٍ مُعيَّنةٍ كأحمر، فإنَّهُ بجوهرِ حُروفهِ يدُلُّ على معنى مقصود وهو الحُمرةُ. فالوصفُ والصِّفةُ مَصدرانِ كالوعدِ والعِدَة .فالوصفُ يقومُ بالواصفِ والصِّفةُ تقومُ بالموصوفِ ويُجمعُ على أوصاف (محيط المحيط)

وعلى هذا الأساسِ من الفهمِ يكونُ تعالى قــد نبَّــهَ ذهــنَ القارئ في هذه الآيةِ لأولى كما سبقَ لي أنْ قُلتهُ من أنَّهُ تعالى سيتناولُ قِصَّةَ آدمَ بِأسلوبٍ تمثيليٍّ يتراوحُ ما بينَ الحقيقةِ والمجاز ولِسانِ الحال .

فهذا المعنى هو ما يقتضيهِ التَّسلسُلُ الموضوعيُّ لِدلالاتِ هــذه الآيات .

وبما أنَّ هذا الأسلوبَ البيانيَّ الّذي يشرحُ قِصَّةَ آدمَ قد يعسُـرُ فهمُهُ خُصوصاً إذا كانَ القارئُ يجهلُ الأسلوبَ المذكــورَ ولَمْ يعتــدْ مُطالعةَ أمْثالِهِ ، فقد راح تعالى يُكملُ قولهُ ويقو:﴿ **فأمَّا الّذينَ آمنوا فيعلمونَ أنَّهُ الحقُّ من ربِّهِمْ، وأمّا الذينَ كفروا فيقولونَ مــاذا أرادَ اللَّهُ بهذا مثلاً** ﴾ فليسَ المقصودُ هنا من كلمتي(آمنوا وكفروا) هــاتينِ الكُفرَ والإيمانَ المعروفينِ ، بلِ المُرادُ منهما إنكارُ وُجودِ هذا الأسلوبَ البيانيَّ التَّمثيليِّ في كلامِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ. وفي ذلكَ إشارةٌ إلى الّذيــــنَ يفهمونَ كلامَ اللَّهِ فقط بما يتبادرُ منهُ لأذهـــانِهم، ولا يغوصــونَ إلى أعماقِ دلالاتِهِ، ومُتناسينَ أنَّ كلامَ اللَّهِ هذا قد صيغَ صياغةً بلاغيَّـــةً مُعجزةً يتبادرُ منها غيرَ ما تضمَّنته . وهذه الحقيقةُ أشارَ تعالى إليــــها من خلالِ قولِهِ أوَّلَ هذه الآية(إنَّ اللَّهَ لا يستحي..) بمعــنى أنَّ هــذا الأسلوبَ البيانيَّ المذكورَ لا يتنافى معَ منزلةِ اللَّهِ جلَّ شـــأنُه . وهـــو تعالى حينَ ختمَ هذه الآيةَ الكريمةَ بقوله:(يُضلُّ بهِ كثيراً ويهدي بـــهِ كثيراً ،)قد أشارَ إلى الغايةِ من لُجوئهِ تعالى إلى هذا الأسلوبِ البيـــانيِّ في هذا الموْضعِ بالذّات . وأنَّ أسبابَ الإضلالِ والهدايةِ فبيدِ اللَّهِ عـــزَّ

وجلّ . وهو جلّ شأنُهُ حينَ أنهى هذه الآيةَ الكريمةَ بقولهِ :(وما يُضِلُّ بهِ إلاّ الفاسقين.) فهو تعالى قد استعملَ كلمةَ (فاسقينَ) بدلالتِها اللُّغويَّةِ . ففي (محيط المحيط):فسقَ الرَّجُلُ أي تركَ أمرَ اللّهِ وعصى وجارَ عن قصدِ السَّبيلِ وخرجَ عن طريقِ الحقِّ أو فَجَرَ . والمعنى أنّ اللّهَ تعالى يُحذِّرُ المؤمنَ المُتدبرَ أنْ يفهمَ قصَّةَ آدمَ الواردةَ في كتابِ اللّهِ العزيزِ بما يتبادرُ لِذهنِهِ منها وبما يُخالِفُ الأسلوبَ البيانيَّ التمثيليَّ المُشارُ إليه.

وبعدَ أنْ لفتَ تعالى ذهنَ القارئ إلى منهجيَّةِ هذا الطَّرحِ الآنفِ الذِّكرِ، نلاحظهُ وقد تناولَ تعالى في الآيةِ الثانيةِ من هذا التَّمهيدِ الخاصِّ المعنى الثّاني لكلمةِ الفُسقِ وهو الفجورُ، وجعلهُ مَدخلاً لِطرحِ مُسلَّمتينِ تُعدَّانِ من مُسلَّماتِ بنو إسرائيلَ ولِتُشكّلانِ أساساً للانتقالِ منهما إلى مُباشَرةِ البحثِ المَقصودِ ومن ثمّ دعوتُهم إلى الإيمانِ بالإسلامِ الحنيف .

فالمُسلَّمةُ الأولى هي أنَّ الفاسقينَ الفاجرينَ هم (الّذينَ ينقضونَ عهدَ اللّهِ من بعدِ ميثاقهِ، ويقطعونَ ما أمرَ اللّهُ بهِ أنْ يوصلَ،

ويُفسدونَ في الأرضِ،) فهذه مُسلَّمةٌ مُتَّفقٌ عليها بينَ النّاس. وقد راحَ تعالى يُعبِّرُ عن عاقبةِ الّذينَ تنطبقُ عليهم هذه المُسلَّمةُ بقولهِ في المقطعِ الأخيرِ من الآية: (أولئكَ همُ الخاسرون) . ومهَّدَ تعالى بتلكَ المُسلَّمةِ المذكورةِ لإسقاطِ حالِ بني إسرائيلَ على مضمونِها .

ومن ثمَّ أتى تعالى في الآيةِ الثالثةِ من هذا التَّمهيدِ الخاصّ بمُسلَّمةٍ ثانيةٍ عبَّرَ عنها بقولهِ تعالى:(كيفَ تكفرونَ باللّهِ وكُنتُم أمواتاً فَأحياكم ثمَّ يُميتُكمْ ثمَّ يُحييكُم ثُمَّ إليهِ تُرجعون .) .ويتلخَّصُ مضمونُ هذه المسلَّمةِ الثّانيةِ بأنَّ قُدُراتِ اللّهِ تعالى لاتُحدُّ من جهةٍ ومن جهةٍ ثانيةٍ أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ هو الرَّبُّ الّذي بيدهِ عمليَّةُ الإحياءِ وعمليَّةُ الإماتةِ والتَّطوير.

والمُلاحظُ هو أنَّهُ تعالى قد طرحَ هذه المسلَّمةَ الثّانيةَ بأُسلوبِ التَّعجُّبِ والاستفهامِ الاستنكاريّ ، كما دلَّ على ذلكَ كلمةُ(كيفَ) التي استهلَّ بها كلامه. ولم يكتفِ سبحانهُ وتعالى بهذا التَّمهيدِ المذكورِ، بل ولخَّصَ لِهؤلاءِ فلسفةَ هذه الحياةِ الدُّنيا الَّتي دارتْ حولها تعاليمُ الدّينِ، كُلِّ دينٍ، من أنَّ الغايةَ من وُجودِ كُلِّ شيءٍ مادّي في هذا الكونِ أن يُساعِدَ المؤمنَ على التَّعرُّفِ على ربِّهِ ولِنَيلِ قُربَهُ ومحبَّتَهُ ليسَ إلاَّ.وقد لخَّصَ تعالى هذه الفلسفةَ من خلالِ قولهِ تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩)** ﴾ . وأنهى هذه الآيةَ الكريمةَ بما يُفيدُ كمالَ علمِ اللّهِ تعالى في تصرُّفاتِهِ وقال:(وهو بِكُلِّ شيءٍ عليم.). وبهذا الأسلوبِ من الصِّياغةِ البلاغيَّةِ المُعجزة ، ومن خلالِ ما مهّدَ بهِ آنفاً ،يكونُ اللّهُ جلَّ شأنُهُ قد نبَّهَ عُقولَ هؤلاءِ الإسرائيليينَ إلى أنَّهُ تعالى يبحثُ ما يُريدُ بحثَهُ بأُسلوبٍ علميٍّ وليسَ استناداً إلى التَّخمينِ والظُنون ،كما هو حالُ معلوماتِ توراتهمُ المعاصرة، وبذلك يكونُ جلَّ شأنُهُ قد أتى في الوقتِ نفسهِ بمبرِّرٍ

يُجيزُ لهُ وبصورةٍ طبيعيَّةٍ ومنطقيَّةٍ الكلامَ عن (قصَّةِ آدمَ) محلِّ البحثِ وفي مُواجهةِ القصَّةِ ذاتها الواردةُ في سفرِ التَّكوينِ من التَّوراةِ المُعاصرةِ والَّتي شوَّهتْ حقيقةَ المضمونِ التَّاريخيِّ الَّذي اشتملتْ عليهِ هذه القصَّةُ المذكورة .

ثانياً – قِصَّةِ آدمَ تضمَّنت سبعَ حقائق

فإن انطلقتَ يا عزيزي القارئ ممَّا ختمَ اللَّهُ تعالى به آخرَ آيةٍ تكلَّمنا عنها وهو قولهُ تعالى (وهو بكُلِّ شيءٍ عليم) هذه الفقرةُ الَّتي تُوحي لكَ بأنَّ اللَّهَ تعالى يتكلَّمُ عن عِلمٍ وليسَ بالظُّنون، فإنَّ من واجبكَ أن تنظُرَ إلى قِصَّةِ آدمَ القُرآنيَّةَ على أنَّها تشتملُ على حقائقَ تاريخيَّةٍ ثابتةٍ عِلميّاً أيضاً . فإنْ أنتَ تذكَّرتَ أنَّني سبقَ لي أنْ أثبتُّ توافُقَ مُعطياتِ العلمِ معَ مُعطياتِ عُلومِ القرآنِ الكريمِ بما يتعلَّقُ بنَشْأةِ الإنسانِ وتطوُّرِه ما قبلَ بعثةِ أوَّلِ نبيٍّ وهو آدمُ عليه السَّلام، ومن ثمَّ أقبلتَ على تدبُّرِ هذه الآياتِ الَّتي تكلَّمتْ بعد الَّذي ذكرناهُ عن آدمَ النَّبيِّ وما تعلَّقَ بهِ من أمورٍ، وهي الَّتي صِيغت بمزيجٍ من الحقيقةِ والمجازِ ولسانِ الحالِ، فستتَملَّكُكَ الدَّهشةُ من عظمةِ ما انطوتْ عليهِ من حقائقَ تاريخيَّةٍ ثابتة سأختصرها لكَ بعدَ هذا الكلامِ وقبلَ الدُّخولِ في مُحاولةِ تفسيرِ آياتها .

فاعلم يا صاحبي أنَّ قِصَّةَ آدمَ القُرآنيَّةَ تُعتبرُ في نَظري وثيقةٌ تاريخيَّةٌ هامَّةٌ جدّاً على اعتبارِ أنَّ اللَّهَ جلَّ شأنُهُ قد كشفَ لِعُلماءِ

عصرِنا خاصَّةً ومن خِلالِها الغطاءَ عنْ حقائقَ تاريخيَّةٍ هُمْ بأشدِّ الحاجةِ إليها . وهذه الحقائقُ هيَ :

١-أنَّ البشرَ خلالَ عُصورهِمُ الحجريَّةُ القديمةُ كانوا لا يعرفون الاختلافَ فيما بينهمْ ، وكانوا في سلوكهمُ اليوميُّ يخضعونَ لِما يُعرفُ بشريعةِ الغاب ، فالكلمةُ الأخيرةُ للأقوى من بينهم ، كما هو الحالُ في المجتمعاتِ الحيوانيَّةِ الغريزيَّةِ على وجهِ التَّقريب . فهذه الحقيقةُ تضمَّنها قولَهُ تعالى: ﴿ **أتجعلُ فيها مَنْ يُفسدُ فيها ويسفِكُ الدِّماء**﴾ .

٢-والحقيقةُ الثانيةُ الّتي أطْلعنا عليها القرآنُ الكريمُ من خلالِ قصَّةِ آدمَ القرآنية هو أنَّ اللّه تعالى أشرفَ على تطويرِ عقلِ الإنسان . وما أن اكتملَ بناءُ هذا العقلُ وملكاتهُ الفكريَّةُ إلاّ وبعثَ تعالى أوَّلَ نبيٍّ من أنبيائهِ للقيامِ بمهمَّةِ تهذيبِ هذا الإنسانِ وتعريفهِ على خالِقهِ وتنظيمِ حياتهِ بنظامٍ وقانون . فهذا ما أشارَ إليهِ قولهُ تعالى (إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خليفة .) هذا الكلامُ المُبتدئُ بالظَّرفِ (إذ) الّذي هو اسمٌ للزَّمانِ الماضي ولِيُشارُ بهذا الظَّرفِ إلى حُقبةٍ تاريخيَّةٍ مُعيَّنةٍ من تاريخِ الإنسان أحدثتْ نقلةً نوعيَّةً في حياته .

٣-كما نبَّهتنا هذه القصَّةُ إلى جُذورِ لُغةِ الضّادِّ التي نتكلَّمها وكيفَ تحقّقَ ابتداؤها على أيدي آدمَ عليهِ السَّلام وبإلهام من ربِّهِ عزَّ وجلَّ لِتُساعدَهُ وجماعتَهُ على بناء ثقافةٍ وترميزٍ ، وهي الحقيقةُ الّتي تضمَّنها قولهُ تعالى (وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها) .

ثالثا–المقاصد الخمسة الكبرى المرجوة من قصة آدم

وإضافة إلى أن قصة آدم القرآنية تمثل وثيقة تاريخية ، فإن الله تعالى كان يرجو منها وهي على الحال الذي ذكرناه أن تحقق خمسة مقاصد كبرى هي في صالح هذا الإنسان. وهذه المقاصد :

أولا:أن تدفع الإنسان ليفكر بأسلوب تفكير روحاني، ومنطلقا من الاعتقاد بوجود خالقه، وملتزما بالتهذيب الذي تهذبه به تعاليم الدين. وهو الغرض من قوله تعالى : ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**﴾.

ثانياً:والغرضُ الثّاني أنْ يُحيطَ هذا المؤمنُ علماً بصورةٍ إجماليَّةٍ بما يجري في المملكةِ السَّماويةِ حينَ يشاءُ اللّهُ تعالى إحداثَ نقلةٍ نوعيَّةٍ في حياةِ هذا الإنسانِ من خلالِ خليفةِ اللّهِ الّذي يصطفيهِ تعالى لهذه المُهمَّةِ الشَّائكة. فهذا ما نبَّهَ إليهِ قولهُ تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ**﴾.

ثالثاً:والمقصدُ الثّالثُ العظيمُ هو تحذيرُ هذا الإنسانَ من اقتفاءِ خُطى إبليسَ وذُرّيتهِ من حيثُ أسلوبِهمُ الحياتيّ ونهجِ تفكيرهمُ الماديّ. من مُنطلقِ أنّ أسلوبَ ونهجَ تفكيرَ هؤلاءِ يحولُ دونَ المرءِ ودونَ الفوزِ بمحبَّةِ اللهِ تعالى وتحصيلِ قُربهِ ورضوانه . فإلى هذا

٤-كذلكَ دلّتنا قِصَّةُ آدمَ القُرآنيَّةُ على أنّ الصِّراعَ الدَّائرَ ما بينَ الكُفرُ بوجودِ اللّهِ والإيمانُ بوجوده يعودُ إلى حُقبةِ اصطفاء اللّهِ تعالى النبيَّ آدمَ المذكورَ وليسَ إلى زمانٍ سابقٍ لِبعثَتِهِ عليهِ السَّلام. كما وضَّحتْ لنا هذه القصَّةُ العوائقَ النَّفسيَّةَ الّتي تحولُ دونَ المرءِ ودونَ إقبالِهِ على تقبُّلِ الدِّين . فهذا ما تضمَّنهُ قولُهُ تعالى فيها (فسجدوا إلاّ إبليسَ أبى واستكبرَ وكانَ منَ الكافرين) .

٥-وقد نبَّهتْ قِصَّةُ آدمَ القرآنيَّةُ ذهنَ المؤمنِ إلى أنَّهُ مُباحٌ للإنسانِ استعمالُ كُلِّ شيءٍ من أشياءِ هذا العالمِ المادّيّ إلاّ ما وردَ

المقصدِ الثالثِ الكبيرِ أشارَ قولهُ تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** .

رابعاً:والمقصدُ الكبيرُ الرّابعُ المقصودُ تحقيقهُ من خلال قصّةِ آدمَ على الصّورةِ التي ذكرناها هو تنبيهُ عقلِ هذا الإنسان إلى أنَّ من واجبه ألاّ يظُنَّ أنَّ القوانينَ المادّيةَ الطبيعيَّةَ المُستندةَ إلى صراعِ الأضداد هي وحدها الموجودةُ في هذا الكونِ المادّيّ بلْ أن يعتقدَ بوجود نظامٍ مُوازٍ لهذا النِّظامِ المادّيّ وهو نظامٌ روحيٌّ قدريٌّ يعملُ وراءَ بعثاتِ الأنبياءِ والمُرسلينَ.فهذا ما أشارَ إليهِ قولهُ تعالى: **﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٨)﴾**.

خامساً: أنْ يُدركَ هذا الإنسانُ أنَّ خالقهُ (توّابٌ رحيمٌ) يحنُّ على مخلوقهِ ويرأفُ بحالهِ ويُعطيهِ أكثرَ من استحقاقه ولا يُكرهُهُ على شيءٍ خلافَ قناعتهِ وإرادته .

رابعاً- تفسيرُ الآياتِ الّتي تحكي قصَّةَ آدم

وأحاولُ الآنَ يا عزيزي القارئ استلهامَ معاني الآياتِ الّتي حَكَتْ لنا قِصَّةَ آدمَ كأوّلِ نبيٍّ عرفتهُ البشريَّة والّذي أحدثَ في تاريخ البشرِ في آخرِ سنواتِ عُصوره الحجريَّةِ القديمةِ نقلةً نوعيَّةً بارزةَ المعالمِ وميَّزتهُ عن باقي الكائناتِ الحيَّة . هذه القصَّةُ الّتي صاغها اللّهُ تعالى الّذي أنزلَ هذا القرآنَ العظيمَ صياغةً بلاغيَّةً مُعجزةً ،على نسقِ

أسلوبِ كُتّابِ القصصِ المسرحيَّةِ وبمزيجٍ من الحقيقةِ والمجازِ ولِسانِ الحالِ . وقد أتى تعالى بالقصَّةِ مؤلَّفةً من كُتلَتينِ من المعارفِ . آياتُ الكُتلةِ الأولى المحكيَّةِ بلسانِ الحقيقةِ مُستهلَّةً بحرفِ (إذ) الظَّرفيَّةِ وكاسمٍ للزَّمنِ الماضي. وقد استهلَّ أيضاً آياتَ الكُتلةِ الثّانيةِ بنفسِ الحرفِ (إذ) الَّتي تُفيدُ المُفاجأةَ وقد صاغَ تعالى آياتَ هذهِ الكُتلةِ الثّانيةِ بلسانِ الحالِ وبمعانيَ مجازيَّة .

وعليهِ أبدأُ بتدبُّرِ الآيةِ الأولى من هذه القصَّةِ القُرآنيَّةِ وهي قولهُ تعالى: : **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٣٠)﴾** .

أقولُ إنَّ المفسِّرينَ القُدماءَ دخلوا في محاولةِ تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ من دون أن يكونَ لديهمْ مُعطياتُ زمانِنا العلميَّةِ، إلى جانب أنَّهُم كانوا مُتأثِّرينَ بمؤثِّرات قصَّةِ سفر التّكوين، أمّا أنا فأنطلقُ من أنَّ وُجودَ البشرِ قديمٌ، وقد تطوَّرَ خلالَ أربعةِ ملايين ونصفٍ من الأعوامِ حتّى باتَ مؤهَّلاً للنُّطقِ بلُغةٍ علميَّةٍ ذاتِ قواعدَ وأصولٍ . ومن مُنطلقِ أنَّ اللَّهَ تعالى قد استهلَّ قصَّةَ آدمَ بحرفِ (إذ) ليدفعنا لِنتدبَّرَ هذه الآياتِ الكريمةِ على ضوءِ ما ذكرتُهُ من معلومات .

ولنُلاحظ كيفَ أنَّ اللَّهَ جلَّ شأنُهُ انطلقَ يروي القصَّةَ مُبتدئاً من الزّمنِ الّذي فرغَ فيهِ من تطويرِ هذا المخلوقِ البشرِ ووصلَ بهِ آخرَ مرحلةٍ من مراحلِ عُصورهِ الحجريَّةِ القديمةِ . وهناك قامَ تعالى

بإطلاع ملائكتهُ على مشيئتهِ وإرادتهِ الّتي اقتضتْ أنْ يُحدِثَ في حيـلة البشرِ المذكورِ نقلةً نوعيَّةً وذلكَ من خلالِ تأهيلِ أحدِ هؤلاءِ لِيجعلـهُ خليفةً لهُ من بينهمْ في الأرضِ بغايةِ تنفيذِ تلكَ المشيئة. فهذا هو معـنى قوله تعالى **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّـي جَـاعِلٌ فِـي الْـأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**.

فكلمةُ (قال) لمْ تُستعمل هنا بمعنى-كلّمَ-ولكنْ بمعنى بلّـغَ . بقرينةِ أنَّ الملائكةَ (يفعلونَ ما يؤمرون) .ثمَّ إنَّ كلمةَ-جـاعلٌ-هـي على شاكلةِ قولهِ تعالى في مقامٍ آخرَ **﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَـةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَـنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَـا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ(٢٦)﴾** فالجعلُ معناهُ الاصطفاءُ والتَّرقيةُ من حالٍ إلى حالٍ ولا يعني عمليَّةَ خَلْق . أمّا كلمةُ -خليفة- فقد اشتُقّتْ مـن قولِكَ : خلفَ اللّهُ النبيَّ في قومهِ، معناهُ جعلهُ خليفةً عليهم (محيـط المحيط) . وكلمةُ -الأرض- تعني كُرتّنا الأرضيَّةَ الّتي عاشَ على أديمـها هذا البشرُ المذكورُ وليسَ السّماء .

وليُصبحَ معنى قولهُ تعالى : **﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّـي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** أنَّهُ تعالى أطلعَ ملائكتهُ على أنَّ مشـيئتهُ اقتضتْ استخلافَ أحدَ أفرادِ البشَرِ لِيصيرَ خليفةً لهُ بينهُم . وليقـومَ بِحملِ تعاليمِهِ ومواعظِهِ إليهم .

ولنتدبَّرُ الشّطر الثّاني وهو قولهُ تعالى:(قالوا أتجعلُ فيها مــــن يُفسدُ فيها ويسفِكُ الدِّماءَ ونحنُ نسبِّحُ بحمدِكَ ونُقدِّسُ لك).

واستناداً إلى مُعطيات العلمِ أيضاً وأنَّ البشر كانوا يقطنـــونَ الكهوف ويعيشونَ حياةَ شريعةِ الغاب حيثُ يســـودهُمْ أقواهـــمْ . وكانت ملائكة اللّهِ تعالى مُطّلعةً على حال البشرِ كما ذكرناه . فمـــا أن سمعوا ما أبدتهُ إرادةُ اللّهِ ومشيئتهُ من أنّهُ سيجعلُ خليفةً لهُ من بـينِ هؤلاء البشرِ إلاَّ وتبادرَ لأذهانِهم من ذلكَ أنَّ معناهُ أنَّ أسلوبَ الحيـــاةَ الّذي سارَ عليهِ البشرُ طوالَ أربعة ملايينِ ونصفٍ من الأعوامِ ســيتغيَّرُ من حياةِ لا مُساءلَةٍ إلى حياةِ مُساءلةٍ للفردِ منهم وإلى محاسبةِ كُلِّ فــردٍ منهم علَى تصرُّفاتِهِ . وهذا الأمرُ سينتُجُ عنهُ إفسادٌ في الأرضِ وسفكٌ للّدماءِ وبصورةِ طبيعيَّةٍ . ولابُدَّ أنّهم قد تساءلوا حينئذٍ عن المقصـــدِ الأسمى للّهِ تعالىَ الّذي كانَ يهدُفُ إلى تحقيقهِ من وراءِ خُطوتهِ تلـــكَ والّتي تُقلّلُ من أهمِّيَّةِ تلكَ الآثارِ المُتوقَّعُ حدوثُها . وقد دَفَعهمْ ذلـــكَ كُلّهِ إلى الإقدام على الاستِفسارِ من ربِّهم عن حقيقةِ ما عجزَ علمُـهُمْ عن تفسيرهِ وتبيُّنِ حقيقتَهُ . وكانَتْ عمليَّـــةُ استفســارهم عمَّـــا لمْ يُساعدُهم علمهُمُ الذّاتيُّ على تفسيرهِ ممّا لا يتنافى معَ كونهم قد خُلقوا (يفعلونَ ما يؤمرون) ولا معَ تعظيمهم للّهِ سيِّدُ مملكتهمُ السّـــماويَّةُ ، فقد أتوا بواو العطف وأضافوا يقولون ﴿ **ونحن نســـبح بحمـــدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون(٣٠)** ﴾ ليشعروا ربهم أنـهم يستفسرون ولا يعترضون . وقدموا من خلال قولهم المذكور دليـــلا قاطعا معبرا عن خضوعهم لربهم جل شأنه . وقد ارتاح اللـــه جـــل

شأنهُ لِظاهرةِ الولاءِ الّتي أظهرتها ملائكتُه ، واكتفى بإجابتهِ عليهم قائلاً : (إنّي أعلمُ مالا تعلمون.). فلماذا اقتصرَ تعالى على الجواب المذكورِ ؟ فلأنَّهُ تعالى شاء أن يُخصِّصَ آيةً جديدةً ليشرحَ لملائكتهِ من خلالها وبصورةِ عمليَّةٍ ما شاءَ جلَّ شأنُهُ شرحهُ، وليُطلِعَ القارئَ في الوقتِ نفسهِ على حقيقةٍ تاريخيَّةٍ جديدة أيضاً .

لذلكَ ننتقلُ إلى الآيةِ الثَّانيةِ نتدبَّرها والَّتي قالَ تعالى فيها: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١)**﴾.

ابدأ بالشّطرِ الأوّل وهو:﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾. (وعلّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها) فأذكِّرُ القارئَ بهذه المناسبةِ إلى أنّي سبقَ لي أنْ شرحتُ هذا الشّطرَ من الآيةِ بإسهاب حينَ تكلّمتُ عن موضوعِ التَّرميزِ وذلكَ في الفقرةِ الأولى من هذا الفصلِ الرّابع بالذّات، وبإمكانهِ العودةَ إليه . ومعَ ذلكَ أحاولُ اختصارَ تلكَ المعلومات وأقول : قد أثبتُّ هُناكَ من خلالِ قولهِ تعالى ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ أنَّ هذه الفقرةَ تتضمَّنُ المعلومات التّالية :

أوّلاً: أنَّ اللَّهَ تعالى علَّمَ نبيَّهُ آدمَ النُّطقَ بأحرُف الهجاءِ بادئَ ذي بدء .

ثانياً: وبعدَ أن أنطقهُ بأحرُف الهجاء المطلوبةِ ، علَّمهَ فقهه تسميةِ الأشياءَ ، كما علَّمهُ ما احتاجَ إليهِ من أسماءِ أشياءٍ ضروريَّةٍ له كنماذجَ على هذا الطَّريق.

ثالثاً: ثمَّ إنَّ تعريفهُ تعالى لكلمةِ (الأسماء) وحذفـــهُ ذكـــرَ الأشياءِ الّتي علَّمهُ أسماءَها كانت لتلكَ العمليّـــات دلالاتُـــها أيضًـــا بالإمكانِ مراجعتها فيما ذكرتُهُ عندَ شرحيَ المُسهبِ لها.ولا ينبغـــي للقارئ أَنْ يدهشَ أنْ يكونَ اللّهُ قد علَّمَ نبيَّهُ آدمَ ما ذكرتُهُ من أشياءَ، ويكفيهِ أنْ يعلمَ بحدوثِ ذلكَ كُلِّهِ بنفسِ الطّريقةِ الّتي علَّمَ اللّهُ تعـــالى بها نبيَّهُ محمَّداً صلواتُ اللّهِ عليهِ (جوامعَ الكَلِمِ) وغيرَها مـــن علـــومٍ ومعارفَ بطريقِ الوحيِ الإلهيِّ.

وأنتقلُ فأتدبَّرُ الشّطرَ الثّاني وهو قولهُ تعالى فيه ﴿**ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَـــى الْمَلَائِكَـــةِ فَقَـــالَ أَنْبِئُونِـــي بِأَسْـــمَاءِ هَؤُلَـــاء إِنْ كُنتُـــمْ صَادِقِينَ(٣١)**﴾.

فالشيءُ المُلفتُ لنظرِ المؤمنِ المتدبِّرِ هو أنَّهُ جلَّ شأنُهُ اســـتهلَّ هذه الآيةَ الكريمةَ بحرفِ (ثمَّ) وليفيدَ معنى الابتداء . كذلكَ أتى تعـــالى بفعلَ (عرضهم) المُشتقُّ من عرضَ الشَّيءَ عليهِ معناهُ أراهُ ذاكَ الشَّيءَ (معجم محيط المحيط) . وبالتّالي : كيْفَ عرضَ تعالى (الأسماء) علـــى ملائكته؟ فالسماء كلمةٌ مؤنَّثةٌ ، فلو كانتِ المقصودُ هنا بذاتها لكانَ ينبغي القول (ثمَّ عرضها) . والحقيقةُ هي أنَّه ســـبقَ لي أن وضَّحـــتُ دلالةَ قولهِ تعالى ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ وبالتّالي فالعرضُ هـــو عرضُ ما أخبرتْ بهِ الأسماءُ ودلَّت عليه .

ونصلُ من هذه المحاكمةِ اللُّغويَّةِ بنتيجةٍ مفادُها وهـــو أنَّـــها مضتْ فترةٌ زمنيَّةٌ ما بينَ مضمونِ الآيةِ السَّابقةِ ومضمونِ هذه الآيـــةِ

كانت قد ظهرت خلالها نتائجُ النَّقلةِ النَّوعيَّةِ التي أحدثتها بعثـــةُ آدمَ عليهِ السَّلام وحينئذٍ شاءَ تعالى إطلاعَ ملائكتهُ عليها لِيوقنوا أنَّ مـــا ظنّوهُ استناداً إلى ما لديهم من علمٍ حتَّى تلكَ اللحظـــات لم يكـنْ لِيُساعدَهُمْ على استنتاجات حقيقيَّة . وهذا الأمرُ يُفسِّـــرُ حكمـــةَ استهلالِ هذه الآيةِ الكريمةِ بحرف الابتداء (ثُمَّ) . وبناءً على ما فـهمناهُ من قولهِ تعالى **﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**. أي إن كُنتم صادقينَ فيما ظننتُموه . فقد أفردَ اللّهُ تعالى آيةً جديدةً لِيُطلِعَ القارئَ على ما أجابتْ بهِ ملائكتُه وهو **﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَـا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢)﴾**. ويُدركُ القارئُ مـن خلالِ هذه الإجابةِ مصداقيَّةَ ما سبقَ للّهِ تعالى أنْ ردَّ بهِ على استفسار ملائكته وهو قولهُ تعالى هناك:**﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** .

و لم يكتفِ اللّهُ تعالى بما أطلعَ قارئَ كتابهِ العزيزِ عليهِ مـــن معلوماتٍ تتعلّقُ بفترةٍ ما بينَ انتهاءِ تاريخِ عصورِ البشرِ القديمةِ ومـــا بينَ فترةِ بدْءِ تاريخهِ الحديثِ وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزةٍ إلا ونُلاحظُ أنَّـهُ جلَّ شأنُهُ قد صوَّرَ وبنفسِ الصِّياغةِ البلاغيَّةِ وبتصويرٍ مسرحيٍّ فنّـــيٍّ رائعٍ ثِمارَ ما أنتجتهُ تلكَ النَّقلةُ النَّوعيّةُ الحادثةُ وذلكَ من خلال آيـــةٍ رابعةٍ جديدة أوردَ فيها:**﴿ قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَـأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْـأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣)﴾** .فقولهُ تعالى (بأسمائـهم) الضَّميرُ هنا لا يعودُ إلى الملائكةِ كما يتبادرُ منهُ لِذهنِ القارئ ، ولكنَّهُ يعودُ إلى (هؤلاء) الدّالَّةِ على ما أشارت إليهِ الأسماءُ الَّتي عَلَّمَ اللّـهُ آدمَ

إيّاها تلكَ الّتي كانَ اللّهُ تعالى قد سألَ ملائكتهُ عن معرفةِ حقيقتِها، وقد كانت تلكَ الأشياءُ في حقيقتِها من قبيلِ الأمورِ الغيبيَّةِ . وهذا هو الذي دعاهُ تعالى ليقولَ مُتباهياً ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣)** ﴾ .

وعلى هذه الصّورةِ يكونُ اللّهُ عزَّ وجلَّ قد أطلعَ القارئَ من خلالِ كُتلةِ الآياتِ الأربعةِ هذه على عدَّةِ حقائقَ تاريخيَّةٍ تتعلّقُ بما جرى في المملكةِ السّماويَّةِ حينَ شاءَ اللّهُ تعالى تحويلَ مجرى حياةِ هذا البشرِ من حياةٍ مُشابهةٍ لحياةِ بقيَّةِ الكائناتِ الحيَّةِ إلى حياةٍ مُتميِّزةٍ عنها بشكلٍ جذريٍّ تدخلُ في بابِ أنْسنتهِ وتفجيرِ طاقاتِهِ العقليَّةِ والرّوحيَّةِ وذلكَ من خلالِ إنطاقهِ بأحرفِ هجاءِ لُغةٍ علميَّةٍ وتهذيبِهِ على أيدي أوّلِ نبيٍّ بعثهُ تعالى لتحقيقِ هذه الغايةِ وهو (آدمُ) عليه السَّلام . وعليهِ يكونُ اللّهُ تعالى قد ربطَ من خلالِ مُعطياتِ هذه الحقائقِ الّتي استهلّها بحرفِ (إذ) ما بين تاريخِ البشرِ الّذي ثبتَ علميّاً أنّهُ كانَ قد أمضى قُرابةَ أربعةَ ملايين ونيِّفٍ من حياتِهِ يعيشُ في الكهوفِ حياةً شبهَ غريزيَّةٍ ، وما بينَ تاريخِ حياتهِ كإنسانٍ ما بعدَ بعثةِ آدمَ عليه السلام . وقد جاءت هذه الحقائقُ مُصاغةً بأسلوبِ الكاتبِ المسرحيِّ الّذي لا يُبارى . وهو أسلوبٌ مُعاصرٌ ذائعُ الصِّيتِ وشيّقٌ و لم يُخالطهُ في هذه الكُتلةِ الأولى من الآياتِ كلامٌ مجازي .

والآنَ أنتقلُ لأتدبَّرَ كُتلةَ الآيات الأربعةِ الثّانيةِ والّتي استهلّها اللّهُ جلَّ شأنُهُ بحرف (إذ) الّذي يُفيدُ هنا معنى المفاجأة . من باب أنْ يُفاجئَ القارئَ بإطلاعهِ على مُجرَيات ما جرى من أحداث بعد بعثةِ آدمَ تلكَ الّتي ما تزالُ البشريَّةُ تُعاني من آثارها حتّى يومنا هذا .

وليُلاحظِ القارئ كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى قد صاغَ هذه الآيات أيضاً صياغةً بلاغيَّةً مُعجزةً وبنفسِ أُسلوبِ الكاتبِ المسرحيِّ البارعِ ليسَ باللّسانِ الحقيقيِّ إنَّما بلسان الحالِ والمجازِ . ومن مُنطلق أنَّ مقام اللّهَ تعالى أسمى من أن يُجالِسَ بقيَّةَ الشّخصيَّات المذكورة في هذه الآيات الأربعةِ الجديدة . وعليهِ تعودُ كُلُّ آيةٍ منها تُشكِّلُ في حدِّ ذاتها مَشهداً مَسْرحيًّا تتكلَّمُ شخصيَّاتُهُ بالمجازِ ولسان الحال وتُفيدُنا بحقائقَ تاريخيَّةٍ، وليسَ كما كانَ الحالُ في الآياتِ الأربعةِ الماضية .

ولنحاول الآنَ أنْ نقومَ بتدبُّرِ الآيةِ الأولى الّتي قالَ تعالى فيها:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ(٣٤)﴾.

إنَّ مضمونَ هذه الآيةِ الكريمةِ قد صيغتْ بأسلوب يوحي لِقارئها من أوّلِ وهلةٍ بوُجود شخصيَّات تتحرَّكُ وتتخاطبُ فيها بلسان كُلٍّ منها على سبيلِ الحقيقة. على حينِ أنَّها تتكلَّمُ بلِسان حالِها وعلى حسب ما سبقَ لي أن ذكرتُ وأشارتْ إليه الآيةُ الّتي سبقَ للّهِ تعالى أنْ قالَ فيها : **﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾**. تلكَ الّتي شرحْتُها على حينه .

وعليه فضع في حسابك يا عزيزي القارئ أنك عندما تتدبر معاني قوله تعالى في هذه الآية الأولى﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**﴾. أنك تجاه منظر مسرحي يجسد لك وبلسان حال شخصياته حقائق تاريخية ثلاثة ، وكتبت بألفاظ ميسر تداولها على ألسنة الأدباء المعاصرين .

فإن أنت أمعنت نظرك في الفقرة الأولى وهي ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا**﴾ فإنه لا بد أن يلفت نظرك تبدل صيغة (قال) السابقة إلى (قلنا) في هذه الكتلة الثانية من الآيات الكريمة، مع أن المتكلم واحد في الحالتين، وهو الله جل شأنه،فما هي دلالة هذا التبديل الذي ذكرناه ؟ فإنك ستدرك حكمة هذا التبديل إذا تذكرت أن الملوك والرؤساء حيثما كانوا وأرادوا إصدار قرارات ومراسيم ، فهم يستهلونها بنفس الكلمة وبصيغة الجمع أيضا ، إشعارا من جانبهم المخاطبين بعظمة الجهة المصدرة للقرار أو المرسوم . وبكلمة أخرى أقول إن الله جل شأنه قد راح يطلع القارئ من خلال هذه الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة على حقيقة تاريخية حدثت ، وكان قد فاجأ تعالى بها ملائكته عندما دقت ساعة النقلة النوعية التي شرع الله عز وجل بإحداثها في تاريخ البشر عند نهاية عصوره الحجرية ووفق ما سبق له تعالى أن كان قد أخبر بها ملائكته. فهو تعالى قد راح ينبه أذهاننا من خلال صيغة الجمع (قلنا) إلى القرار الرباني الذي أشاعه تعالى على ملائكته ، والذي أمرهم فيه ، من بعد

اصطِفائِهِ (آدمَ)، أنْ يقوموا بتهيئةِ أسبابِ إنجاحِ مُهمَّتِه . فهذا هو المقصودُ منْ قولهِ تعالى (اسجدوا) من قولكَ: سجدَ لِفلانِ ومعناه خضعَ (محيط المحيط) . فقد استُعيرَ لفظُ السُّجودِ في هذا المَقامِ بمعنى المُساعدة وتيسيرِ الأسباب. وإلاّ فملائكةُ اللّهِ تعالى قد خُلقوا أصلاً لا يخضعونَ إلاّ للّهِ وحدهُ و (يفعلونَ ما يؤمرون)وهي الحقيقةُ الّتي تُشكّلُ في حدِّ ذاتِها قرينةً دالّةً على ما ذهبتُ إليهِ من معنى . ولتُلاحظْ يا صاحبي كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى وبعدَ أن أوحى إليكَ بما أوردناهُ من معانيَ ، أتى بفاءِ الاستئنافِ وقال:(فسجدوا) وبهذا الأسلوبِ من البيانِ أوحى تعالى لِمُشاهدِ هذه الفقرةِ أنّ ملائكته استجابوا فوراً للقرارِ الرَّبّانيِّ المذكورِ وشرعوا بتأييدِ (آدم) وبتهيئةِ أسبابِ إنجاحِ رِسالتِهِ السَّماويّةِ .

فإنْ نحنُ قُمنا بتدبُّرَ الفقرةِ الثّانيةِ وهي قولهُ تعالى فيها ﴿ **إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ** ﴾، فالّذي نُلاحظهُ يا عزيزي أنَّهُ تعالى أتى في بدايتها بحرف (إلاّ) الّذي تبادرَ منهُ لِذهنِ المُفسِّرينَ القُدماء رحمهمُ اللّه أنَّهُ حرفُ استثناء ، لاعتقادهم أنَّ المَشْهدَ الّذي صوَّرتهُ هذه الآيةُ الكريمةُ أنَّهُ جرى بالفعلِ ، وليسَ بلسان الحال . أمَّا وقد علمنا أنَّ هذه الفقرةَ تَنقُلُنا لِنُراقبَ الجانبَ الآخرَ الّذي يُمثّلُ رُدودَ فعلِ البشرِ وخاصَّةً منهُم الذينَ جُبِلَتْ نُفوسهُم على الاستكبار، فما عادَ بإمكاننا الأخذُ بمعنى الاستثناء هنا ، بل بمعنى الاستثناءُ المُنقطعُ ونعودُ نفهمُ منْ هذه الفقرةِ ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ**﴾. أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ يُجسِّدُ لنا من خِلالِها حقيقةَ الدَّواعي النَّفسيةِ الّتي إذا ما اتَّصفَ بها

فردٌ من البشرِ، تَحولُ بينهُ وبينَ تلبيةِ صوت السّماء الّـــذي تُجلّيـــهِ تعاليمُ الرِّسالات السَّماويَّة الّتي يأتي بها أنبياءُ اللّهِ الكَرام . وذلكَ مـــن خلالِ الموقفِ الّذي وقفهُ أوّلُ فردٍ من البشـــرِ ذاكَ الّـــذي رفـــضَ الاستجابةَ لآدمَ عليهِ السَّلام . وبسَبَبِ أنَّ مضمونَ هذه الفقـــرةِ وردَ مجازيّاً وَبلسانِ الحال .

وإنَّ ما يؤكّدُ صحَّةَ ما فهمناهُ من هذه الفقرةِ الثّانيةِ هو هـذه الفقرةُ الأخيرةُ من هذا المشهدِ المسرحيِّ والّذي وردَ فيهِ قولُهُ تعـــالى بحقِّ إبليسَ ﴿وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾. علماً بانَّ كلمةَ (إبليس) وردتْ كَإسمٍ وصفيٌّ لِيصِفَ تعالى بهِ تلكَ الدَّواعي النَّفسيَّةِ المذكورة ومـــن مُنطلَقِ أنَّ هذا الاسمُ قد اشتُقَّ من قولِكَ : أبلسَ الرَّجُلُ إذا انكســـرَ وحزنَ وقلَّ خيرُه (محيط المحيط) . وهذه حالةُ من قنطَ مـــن رحمـــةِ السَّماء . ولذلكَ راحَ تعالى يَصِفُهُ ويقولُ ﴿وَكَانَ مِنْ الْكَـــافِرِينَ﴾. وقد وردت كلمةُ (الكافرين) مُعرَّفةً بالألفِ واللاّم إشارةً من جانبـــهِ تعالى إلى أنَّ أوّلَ فردٍ من البشر والّذي أعرضَ عنِ الإيمان برســـالةِ آدمَ عليهِ السَّلام ، يُشكّلُ رأسَ الحربةِ من سلسلةِ جماعاتِ الكافرين. بمعنى أنَّ البشر قبلَ بعثةِ آدمَ ما كانوا يعرفونَ الكُفرَ والإيمانَ .

وعلى هذه الصُّورةِ يكونُ هذا المشهدُ الّذي صوَّرتهُ لنا هـــذه الآيةُ الكريمةُ والُمصاغةُ بأسلوبِ الكاتبِ المسرحيِّ البـــارعِ وبلِســـانِ الحالِ قد أطلَعنا اللّهُ جلَّ شأنُهُ من خلالَها علـــى حقيقتـــينِ هـــامَّتينِ تحْدُثانِ في السَّماءِ وعلى الأرضِ كُلّما شاءَ تعالى أن يبعثَ رسولاً .

فتصوَّر يا صاحبي أنَّكَ قد شاهدتَ مُعطياتِ هذه الآيةِ من خلال مَشهدٍ أُسدِلَتْ سِتارَةُ المسرحِ في نهايتِهِ . واستجمعتَ أنفاسكَ لاستقبالِ ورؤيةِ ما يأتي بهِ المشهدُ الثّاني، وتاقتْ نفسُكَ لِتعرفَ وتطَّلِعَ على ما أنزلَ اللَّهُ تعالى من تعاليمَ على خليفتهِ آدم، فستُلاحظُ أنَّ الآيةَ الثّانية الّتي تحملُ هذا المشهدَ الثّاني تفي بما تاقت إليهِ نفسُكَ من معرفةٍ ، ولذلكَ فتعالَ معي لنتدبَّرَ هذه الصِّياغةَ البلاغيَّةَ المُعجزةَ والّتي قالَ تعالى فيها :﴿ **وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ(٣٥)** ﴾.

فأنتَ يا عزيزي القارئ وقد اطَّلعتَ على ما ذكرناهُ من حقائقَ تجسَّمتْ صُورُها الفنيَّةُ تِجاهَ عينيكَ من خلالِ المشهدِ الأوَّلِ ،

فإنَّ نفسكَ تتوقُ، ومن باب حُبِّ الاطِّلاعِ، إلى معرفةِ التَّعاليمِ الّتي تضمَّنتها رسالةُ آدمَ وما أسفرت عنهُ من نقلةٍ نوعيَّةٍ في حياةِ البشر .

وستُلاحظُ يا صاحبي في هذا المشهدِ المسرحيِّ الجديدِ الّذي تضمَّنتهُ هذه الآيةُ الثَّانيةُ ما تاقت نفسُكَ إلى الاطِّلاعِ عليهِ بصورة طبيعيَّةٍ ، تجعلُكَ مُنسجماً كُلَّ الانسجامِ معَ هذه الصِّياغةِ البلاغيَّةِ المُعجزةِ الّتي صاغَ تعالى بها هذه الكُتلةَ الثّانيةَ من الآياتِ . وعليهِ تعالَ معي لِنقومَ بِتدبُّرِ فقراتِ هذه الآيةِ الثّانية .

فأوَّلُ ما نُلاحظُهُ هو أنَّ اللَّهَ تعالى قد استهلَّ هذه الآيةَ أيضاً بصيغةِ الجمعِ (قُلنا) ، ونستدلُّ منهُ أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ قد تضمَّنت أيضاً قرارات سماويَّةٍ . وتتوقُ نفسُكَ لِتطَّلِعَ على مَضامينها المُصاغةِ بأسلوب مسرحيٍّ مُعجزُ الصِّياغةِ . وتُرجِّحُ أن تحملَ هذه القراراتُ التَّعاليمَ الَّتي أنزلها تعالى على نبيِّهِ وخليفتِهِ (آدم) . وبدافعٍ من هذه الرَّغبةِ الجارفةِ ، نبدأُ بتدبُّرِ الفقرة الأولى والّتي قالَ تعالى فيها: ﴿**وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**﴾ وواضعينَ نَصبَ أعيُننا أنَّ التعاليمَ الّتي أنزلها تعالى على نبيِّهِ آدم كانَ الغرضُ منها هو إحداثُ نقلةً نوعيَّةً في حياةِ البشرِ الّذينَ كانوا يقطنونَ الكهوفَ خلالَ عُصورهمُ الحجريَّةُ القديمة .

ونسألُ أنفُسنا باديءَ ذي بدء : أ فما كانَ الأصحُّ أنْ يُقالَ يا آدمُ اسكُنْ وزوجُكَ الجنَّة ؟ هذا إذا كانَ المُرادُ من هذا الأمرِ أنَّ آدمَ وزوجُهُ سبقَ لهما أنْ كانا مُتزوِّجين . ثمَّ ما معنى أنْ يؤمرَ آدمُ وزوجُهُ بالسَّكنِ ، حسبما يُفهمُ من كلمةِ (اسكُنْ) ، فهلْ كانا يبيتانِ فيما كانَ لا يستحقُّ أنْ يُعدَّ مَسْكناً ؟ كذلكَ يُلفتُ نظرَنا قولهُ (في الجنَّة) مع أنَّهُ جلَّ شأنُهُ كانت مشيئتُهُ أنْ يجْعلَ (خليفةً في الأرض) فهلْ تكونُ هذه الجنَّةُ هي الجنَّةُ السماويَّةُ ، أم قُصِدَ بها منطقةً أرضيَّةً تستحقُّ أن يُطلقَ عليها اسمُ (جَنَّة) ولِمَ عُرِّفتْ هذه الكلمةُ بالألف واللام ؟ فهذهِ أسئلةٌ تُخالجُ صدْرَ الإنسانِ الَّذي يتلو هذه الفقرةَ الأولى من هذه الآيةِ الكريمة وكانَ من الضَّروريِّ جدّاً أن يُجابَ عليها بإجاباتٍ منطقيَّةٍ معقولةٍ تتّفقُ معَ أهمِّيَّةِ موضوعها وسباقها .

وبإمكاننا أنْ نُجيبَ على السُّؤالِ الأوّلِ المُتعلّقِ بالأمرِ الإلهـيِّ وهو (اسكُن) إذا انطلقنا من أنَّ البشرَ كـانوا قبلَ آدم يقطنـون الكهوفَ خلالَ تاريخِهِمُ القديم ، وهيَ الحقيقةُ التّي أثْبتَـها علمـاءُ المُستحاثّات، وعلى حسبِ ما سبقَ لنا أن بيّنّاهُ سابقاً . وهذه النتيجـةُ الّتي توصّلنا إليها ، تُشكّلُ في حدِّ ذاتها حقيقةً تاريخيَّةً كشفَ عنـها هذا الأمرُ الإلهيُّ ومن خلالِ كلمةٍ واحدةٍ هي (اسكُن) ، وتُفسِّـرُ في الوقتِ نفسهِ لِعلماءِ التّاريخِ سؤالَهُمُ الّذي طالما راحوا يطرحونهُ علـى أنفُسِهِمْ وهو كيفَ انتقلَ البشرُ هذه النَّقلةَ النَّوعيَّةَ وتعلّمـوا اتِّخـاذَ مساكنَ بعدَ أن كانوا يقطنونَ الكُهوفَ طوالَ أربعةِ ملايين ونيِّـفٍ من الأعوام ؟ فهذهِ معلومةٌ هامَّةٌ حصلنا عليها استناداً إلى المُعطيـاتِ العلميَّة الّتي أفادنا بها قولهُ تعالى (فاسألْ بهِ خبيراً) .

أمّا السّؤالُ الثّاني النّاشئ عن الأمرِ الإلهيِّ (أنتَ وزوجُـكَ) . فإنّنا نعثرُ على حلِّ إشكالِهِ بنَفْسِ الأسلوبِ السّالفِ الذِّكرِ ، وهـو أنْ نستَدلَّ مِنْ مُعطياتِ علمِ المُستحاثّات على أنَّ البشرَ قبـلَ بعثـةِ آدمَ وحينَ كانوا يقطنونَ الكهوفَ ، فما كانوا يعرفـونَ نظـامَ عقـدِ الزَّوجيَّةِ الّذي ابتدأهُ آدمُ عليهِ السّلام بأمرٍ من ربِّهِ عزَّ وجلَّ . ولذلكَ ورد أمر الله إلى آدم (اسكن أنت وزوجك) فمعناه أن عليك تـرك أسلوب حياة الكهف ، وأن تتخذ زوجة لك تقطن معك في بيـت الزوجية وبعقد شرعي أيضا ، فتصبح بذلك أسوة حسـنة لفريـق المؤمنين. وبهذا الحل المستند إلى المعطيات العلمية نكون يا صاحبي قـد

أطْلعنا ربُّنا وبهذا الأسلوبِ من الصِّياغةِ المسرحيَّةِ البليغةِ، على تاريخِ نُشوءِ عقدِ الزَّوجيَّةِ لدى الإنسان .

ثُمَّ إنَّ السُّؤالَ الأخيرَ المُتعلّقُ بحقيقةِ (الجنَّة) أكانت جنَّةً أرضيَّةً أمْ كانت جنَّةً سماويَّةً ، تُساعدُنا على حلِّهِ هذه الإجاباتِ الّتي حصَلنا عليها بِأسلوبٍ عِلميٍّ والمُتعلّقةُ بالسُّؤالَينِ السّابقين .

فالثَّابتُ علميًّا أيضاً هو أنَّ البشرَ خلالَ تاريخهمُ القديمُ حينَ كانوا يقطنونَ الكهوفَ ، فما كانوا يعرفونَ الزِّراعةَ ، بل كانوا يَقْتاتونَ بما كانوا يَصطادونه . وما دامَ النبيُّ (آدم) قد أمرهُ ربُّهُ بمُغادرة الكهفِ وبالقيام ببناءِ مَسكنٍ شرعيٍّ خارجَه ، وفي وقتٍ كانَ تعالى قد قالَ فيهِ (إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفة) ، فمعنى ذلكَ أنَّ هذا الأمرَ الإلهيَّ المُتعلّقُ بالسُّكنى في (الجنَّة) ، يُقصدُ منهُ أنَّهُ تعالى قد دلَّ نبيَّهُ على منطقةٍ أرضيَّةٍ تستحقُّ أن يُطلقَ عليها اسمُ (الجنَّة) . خُصوصاً وأنَّهُ تعالى قد أوردَ هذه الكلمةَ مُعرَّفةً بالألفِ واللاّم وإشارةً منهُ سُبحانهُ من خلالِ التَّعريفِ المذكورِ إلى مكانٍ معهودٍ في الذِّهن . فإن نحنُ راجعنا مِعجم (محيط المحيط) لِمعرفةِ دلالةِ هذه الكلمة ، نُلاحِظُ قوله :(الجنَّةُ هي الحديقةُ ذاتُ النَّخلِ، والشجر، والبُستان، قيلَ لها ذلكَ لِستْرها الأرضَ بظِلالِها . تُجمعُ على جنان وجنّات...وتُطلقُ الجنَّةُ على الفِردوسِ الأرضيِّ والسماويِّ أيضاً .) . فمن خلالِ هذا التَّعريفِ نستدلُّ على أنَّ اللّهَ تعالى كانَ قد أشارَ على نبيِّهِ أنْ يتَّخذَ مَسكناً وسطَ مَنطقةٍ يكثُرُ فيها النَّخيلُ وقد دلَّهُ عليها بِطريقِ الوحيِ السماويِّ أيضاً .

وعليهِ نكونُ يا صاحبي قد اطمأننّا إلى هذه المعاني والإجابات القائمةِ على أساسٍ علميٍّ ومنطقيٍّ مَعقول . وستُساعدُ الباحثينَ العلميّينَ أيضاً في المُستقبل على تقصّي آثار الحقائقِ الّتي توصَّلنا إليها من خِلال مُعطياتِ قولهِ تعالى : ﴿**وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**﴾.

لذلكَ ننتقلُ للقيام بتدبُّرِ الفقرةِ الثّانيةِ من هذه الآيةِ الكريمةِ ، وهي ﴿ **وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ**﴾.

فكلمةُ (رغداً) اشتُقّتْ من قولكَ أرغدَ القومُ وصاروا في رَغَدِ العيشِ، وتقولُ : رَغدَ عيشُهُ معناهُ طابَ واتَّسَع (محيط المحيط) فإذا أخذنا بعينِ اعتبارنا أنّ كلمةَ(رغداً) وردتْ مُنوَّنةً على آخرها ، فيكونُ هذا الأمرُ الإلهيُّ قد أوحى لآدمَ وإلى قارئِ هذا المشهدِ التّصويريِّ الفنّيِّ بمعنى الإباحةِ بما يتعلّقُ بتناوُلِ كُلِّ شيءٍ من أشياءِ هذه الأرضِ الّتي اتّخذَ آدمُ فيها مَسكناً له . فإذا أخذنا بعينِ اعتبارنا أنّ اللّهَ جلَّ شأنُهُ لا يروي لنا قِصّةً مُجرَّدةً عن مقاصِدَ مُعيَّنةٍ، بل وليَكشِفَ من خلالِها عن حقائقَ قد غابتْ عن عِلمِ العُلماءِ بسَببِ التّشويهِ الّذي لَحِقَ بحقائقِها على أيدي كُتّابِ التّوراةِ المعاصرة، نكونُ قد حصلنا من خلالِ هذا القولِ على تاريخِ المبدأ الفقهيِّ القائلِ بأنّ الأصلَ في التّحريمِ والتّحْليلِ الّذي أَتَتْ بهِ الأديانُ السَّماويَّةُ هو الإباحةُ وليسَ التَّحريمُ الّذي لا تُساوي نسبتُهُ نسبةَ شجرةٍ واحدةٍ من

أشجارِ بُستان كثيفِ الأشجارِ والرَّغيدة العَطاء . فإشارةً إلى هــــذه الحقيقةِ الشّرعيَّةِ ، نُلاحظُ كيفَ أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قد أتى بواوِ العطفِ وأضافَ يقول ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِــنْ الظَّــالِمِينَ﴾ .

إنَّ الّذي يتبادرُ لِلذّهنِ من هذه الفقرةَ ، وبهذا التَّصويرِ الفنّـيِّ هو أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ ينهى آدمَ من خلالِها منَ الدُّنوِّ من شجرةٍ مُعيَّنــةٍ من أشجار البُستانِ الّذي أطلقَ عليهِ اسمَ (جنَّة) . لكنَّ الّذي ينطلــقُ مُنطلقَنا من أنَّ هذاَ الكلام قد صيغَ بِمزيجٍ من الحقيقةِ والمجازِ ينظُرُ إلى كلمةِ (الشجرة) الواردةُ هنا على أنَّها استُعمِلَتْ بمعناها المجازيِّ وليسَ بمعناها الحقيقيِّ . لماذا ؟ لأنَّ الجنَّةَ المذكورةَ هي بُستانُ نخيلٍ ولا يُعقلُ أنْ ينهى اللّهُ تعالى آدمَ عن الدُّنوِّ من إحــــدى شــجرات البســتانِ المذكور، فالنَّخيلُ واحدٌ وتصلُحُ جميعُ ثمارِ النَّخيلِ للأكلِ، كما هــــو معروفٌ لِجميعِ النَّاس . وهذا الأمرُ يُعدُّ في حدِّ ذاتهِ قرينةً تنقلُ معــنى (الشّجرة) المذكورةِ من معناها الحقيقيِّ إلى معناها المجازيّ.

وتسألُني يا صاحبي عن المعنى المجازيِّ لكلمةِ شجرة . وأُجيبُ وأقولُ : إنَّ كلمةَ (شجرة) وردتْ في كتابِ اللّــهِ العزيـــزِ بمعناهـــا المجازيِّ، وَقُصِدَ بها كلمةُ الكُفرِ الخبيثة .وذلكَ في الآيـــة (٢٦) مـــن سورة إبراهيم حيثُ قال:﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَــةٍ كَشَــجَرَةٍ خَبِيثَــةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾. وبذلكَ يكونُ المُرادُ مـــن هذا النَّهيِ هنا ، هو الأمرُ باجتنابِ مُخالَطةِ إبليسَ ومن لفَّ لفَّــــهُ . ودليلُنا هو هذه الألفُ واللامُ المُعرِّفةُ بها كلمةُ (الشّـــجرة) في هـــذا المقام . بالإضافةِ إلى أنَّ كلمةَ (لا تقربـــا) تُفيـــدُ معـــنى الاعـــتزالِ

المطلوب. وكانَتْ حِكمةُ ذلكَ هو مُحاولةُ تَجنيبِ النبيِّ آدمَ وجماعتـهُ المُؤمنةُ أخطارَ تلكَ المُخالطة .

وإنَّ ما يُؤكِّدُ هذا المعنى الّذي توصَّلتُ إليهِ هو أنَّهُ تعالى ختمَ هذه الآيةَ الكريمةَ بقولهِ :(فتكونا من الظّالمين)، ولم يقُل من المُذنبين .

فقد أورد مِعجم (محيط المحيط) : الظُلْمُ معناهُ وَضعُ الشَّـيءِ في غير موضعِهِ وانتِقاصُ الحق . والمعنى أنكما تكونانِ قد تصرَّفتما بما لا يليق ،وإنَّهُ لَمشهدٌ رائعٌ مُفعمٌ بالمعاني والدَّلالات هذا الّذي أفادتنا بِهِ هذه الآيةُ الكريمة . وتَدفعُ المُشاهدَ لِيسأل: هل تَقيَّدَ آدمُ وجماعتُهُ بهذهِ التَّعاليم ؟

وما أن ينفتِحُ السِّتارُ عن مَشهدٍ جديدٍ تضمَّنتهُ الآيـةُ الّتي يقولُ تعالى فيها: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٣٦)**﴾ ، إلاّ ويجدُ هذا المُشاهدُ إجابتهُ المطلوبة . فما هي دلالاتُ هذه الصِّياغةِ البلاغيَّة ؟

فما دامَ النَّهيُ انحصرَ في ضرورةِ تجنُّبِ (هذه الشَّجرةَ) والتي فهمنا منها دلالتها على عدوِّ آدمَ الّذي (كانَ مَن الكافرين) وليسَ على شيءٍ آخرَ،ومن باب أنَّ لفظَ الشجرةَ يُطلقُ على رأسِ العائلةِ وعلى نسلِهِ . خصوصاً وأَنَّ اللّهَ جلَّ جلالُهُ فسَّر كلمةَ الشَّجرةَ بالمعنى الّذي ذهبتُ إليهِ وذلك في سورة (طه) حيثُ قال : : ﴿**فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ**

فَتَشْقَى(١١٧)﴾ فإنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ راحَ يُخبرُ ويقولُ في هذه الآيـــةِ الجديدة : **﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَـــا فِيـــهِ﴾**. فضميرُ (عنها) يعودُ إلى (الشَّجرةِ) وهو أقربُ الأسماءِ إليه . وحـــرفُ (عن) استُعمِلَ هنا للتَّعليلِ. وعلى شاكلةِ قولهِ تعـــالى (ومـــا كـــانَ استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلاَّ عن مَّوْعِدة (محيط المحيط) .ويكـــونُ معـــنى قولهِ تعالى (فأزلَّهُما الشَّيطانُ عنها) أي أنَّ عدُوَّ آدم حملهُ على الزَّلّـــةِ وأزلقهُ بسببِ أنَّهُ لَمْ يعتزلْهُ في الجنَّة على حينِ أنَّهُ كان قد أمرهُ ربُّهُ ألاَّ يقرَبهُ فيشقى . وقد تقرَّرَ من جرَّاءِ هذه المُخالَفةِ الّتي ارتكبها آدمُ مـــن دون قصدٍ منه . وقلتُ (من دون قصدٍ منـــه) بســـببِ أنَّ معجـــم (مفرداتُ الرَّاغب) قال:الزَّلَّةُ في الأصلِ استرسالُ الرِّجْلِ مـــن غـــيرِ قَصْدٍ. وبالتّالي فقد عادَ معنى قولُهُ تعالى بعد ذلك (فأخرَجَهُما مِمّـــا كانا فيه) أي مِمّا كانا فيهِ من الأمنِ والسِّعةِ ورَغدِ العَيشِ . فـالحذفُ يُفيدُ توسيعَ المعنى لِيشمَلَ جميعَ هذه الأمور. ولا تنسَ يا صـــاحبي أنَّ اللّهَ تعالى قد استبدلَ هنا الاسمَ الوصفيَّ (إبليس) الّذي كانَ تعالى قد أطلقهُ على عدُوِّ آدم باسمٍ وصفيٍّ آخر ,هو(الشّيطان) وهو الاســـمُ الّذي يُضرَبُ بهِ المثلُ في الخُبثِ والدَّهاء عندَ العرب والّذي يُطلقونـــهُ على كُلِّ عاتٍ مُتمرِّدٍ من إنسٍ أو جنٍّ أو دابَّةٍ (محيط المحيط) . فلمـاذا هذا الاستبدالُ؟ حكمَةُ ذلكَ أنَّ هذا العدوَّ أخرجَ بِخُبثهِ ودهائـــهِ آدمَ مِمّا كانَ فيه من نعماء .

ولتلاحظ يا عزيزي كيف أن الله تعالى أغضبته زلة قدم نبيـــه آدم . لذلك اتخذ قرارا جديدا وقال في هذا المشهد الثـــاني (وقلنـــا اهبطوا بعضكم لبعض عدو). فما هو مضمون هذا القرار الرباني؟

فلقد ذهبَ ذهنُ المفسّرينَ القدماءُ رحمهُمُ اللّه وبتأثيرِ الأفكار الإسرائيليَّةِ إلى أنَّ اللّهَ تعالى أهبطَ آدم وزوجهُ من جنَّةِ السّماء إلى الأرض. لكنَّني سبقَ لي أن أثبتُّ أنَّ جنَّةَ آدمَ كانت جنَّةً أرضيَّةً لذلك يعودُ معنى (اهبطوا) هنا بمعنى انتقلوا مع شيءٍ من التّأنيب. فـأنتَ إذا قُلتَ لِفلان من النَّاس: اهبط من موضعِكَ إلى موضعٍ آخر تعني أنَّك تأمُرُه بالانتقّال إليه (محيط المحيط). ثمَّ إنَّ مفهومَ التّأنيبِ استَقَيناهُ من قولهِ تعالى بحقِّ بني إسرائيلَ وهو يُوبِّخُهُم في الآية (٦١) من سورة البقرة : ﴿..**قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ** ..﴾فاهبطوا هنا بمعنى انتقلوا مع شيءٍ من التأنيب .

والّذي ينبغي علينا أن نُلاحظهُ هو أنَّ اللّهَ تعالى قالَ مُخاطباً آدمَ وزوجهُ (اهبطوا) وحسب فلمْ يدُلُّهُمْ على مكانٍ غير (الجنَّةِ) من أجلِ أن ينتقلوا إليه، فلماذا ؟ أرى أنَّ حِكمةَ ذلكَ بسببِ أنَّ اللَّهَ تعالى كانَ قد طلبَ من آدم أن لا يقربَ من عدُوّه إبليسَ وأَن يعتزلَه فلا يُخالطُه . وقد خالطهُ وذُرّيتهُ فاضطربتِ الأمورُ في (الجنَّة) من جرّاءِ تلك المُخالطةِ التي حدثت بِدهاءِ وخُبثِ العدوّ المذكور .

وهذه القرينةُ تنقلُ معنى كلمةَ (اهبطوا) مُجرَّدةً إلى معناها المجازيّ وهو معنى الانحطاط . أي أنّني قدَّرتُ لكم ألاَّ تعودوا في راحةٍ وأمنٍ بعد اليومِ، بل (بعضُكم لِبَعضٍ عدُوٌّ) . هذا وإنَّ ظاهرةَ العداوةِ المذكورةِ استمرَّتْ حتَّى يومنا هذاً. وانقلبَ النّاسُ إلى فريقين

تتصارعُ أفكارُهُما وعقائدهُما على مرِّ تاريخِ الإنسانِ من بعد بعثةِ آدمَ عليه السَّلام. فأصبحَ آدمُ أوَّلُ المؤمنين، كما أصبحَ عدوُّهُ إبليسُ أوَّلَ الكافرين. وعادَ بنو آدمَ يُفكّرونَ بأسلوبِ تفكيرٍ روحانيٍّ يدخُلُ في مُعادلَتِهِ وُجودُ خالقٍ لهذا الكون . وعادتْ ذُرِّيَّةُ إبليسَ يفكّرونَ بأسلوبِ تفكيرٍ ماديٍّ لا محلَ في مُعادلةِ تفكيرِهم لِوُجودِ خالقٍ لهذا الكون . فإنْ دَلَّ هذا الأمرُ على شيءٍ فإنّما يدلُّ على أنَّ الّذي يُسلّمُ أمورهُ لِمشيئةِ خالقهِ وتكتملُ معالمُ عُبوديَّتهُ ، لا يعودُ للشَّيطان من سُلطان عليهِ . كما يدُلُّ في الوقتِ نفسهِ على أنَّ مُجاوزةَ روحِ الأخوَّةِ والالتئامِ والميلَ نحو روحِ العداوةِ والعُنفِ لا تصدُرُ عن المؤمنِ الصَّادقِ في إيمانه، بل تصدُرُ عن ذُرِّيَّةِ إبليس . فبهذهِ المواعظِ وعظَ به هذا المشهد الّذي مثّلهُ هذا الشَّطرُ من هذه الآيةِ الكريمة .

ثمَّ أتى اللّهُ تعالى بواوِ العطفِ وأضافَ قائلاً ومُقرِّراً:(ولكُم في الأرضِ مُستقرٌّ، ومتاعٌ إلى حين .).فقرّرَ حقيقتين إضلفيَّتين:الأولى قولُهُ تعالى:(ولكُم في الأرضِ مُستقرٌّ) . فما هي دلالةُ هذه الصِّياغةِ البلاغيَّة ؟ إنَّ كلمةَ (مُستقرٌّ) تعني الثّباتَ والتَّمكُّنَ . واللّامِ في (لكُم) استُعملَتْ بمعنى التَّعليل . ولِيُصبحَ معنى هذه الفقرة أنَّ اللّهَ الّذي بعثَ آدمَ لإحداث هذه النَّقلةَ النَّوعيَّةَ في حياةِ البشرِ وهي إخراجُ هذا البشرَ من حياةِ السُّكنى في الكهوفِ إلى السُّكنى في الأرضِ الفسيحة، لم يتراجعُ عن قرارهِ المذكورِ بسببِ هذه الزَّلّةِ الّتي زلّت بها قدمُ آدم من أوّلِ طريقِ هذه المسيرة، بل يثبُتُ على قرارهِ المذكورِ ويثبِّتُ أقدامكم في هذه الأرضِ ويمكّنُكمْ من استغلالِ ما خلقَ لكم فيها من

خيرات . ليسَ هذا وحسب، بل (ومتاعٌ إلى حين). علماً بأنّ كلمةَ (مَتاعٌ) تعني كُلّ ما يُنتفعُ بهِ من الحوائجِ كالطّعامِ وأثاثِ البيتِ والأدواتِ والسِّلعِ وغيرها من الأشياءِ. وقال في الكُلّيّات:المَتاعُ والمُتعةُ ما يُنتفعُ بهِ انتفاعاً قليلاً غيرَ باق،بل ينقضي عن قريب. وأصلُ المتاعِ ما يُتبلَّغُ بهِ من الزّادِ.فالمتاعُ اسمٌ مُشتقٌّ من متَّعَ (محيطُ المحيط) . ثمَّ إنَّ كلمةَ (حين) معناها الدَّهر أو وقتٌ مُبهمٌ يصلُحُ لِجميعِ الأزمانِ ويعني المُدَّةَ، طالت أو قَصُرَت. وقد يُقصدُ بهِ يومَ القيامةِ أيضاً.ويؤكّدُ هذا المعنى الأخيرَ قولهُ تعالى في مقامٍ آخر:(فتولَّ عنهُم حتَّى حين) أي ابتعِد عنهُم حتّى تنقضي المُدَّةُ الّتي أُمهِلوها (محيط المحيط). وهكذا يصبحُ معنى قولهُ تعالى(ومتاعٌ إلى حين) أنّ اللّهَ تعالى يُنبِّهُ ذهنَ هذا الإنسانَ إلى أنَّ للحياةِ على سطحِ كوكبنا الأرضيِّ أجلٌ مُقدَّرٌ في السَّماء يزولُ عندَ انقضاءِ هذا الكونُ المادّيُّ .

وينتهي هذا المشهدُ الثّالثُ الّذي تضمّنتهُ هذه الآيةُ الكريمةُ وقد أطلعنا اللّهُ تعالى من خلالِهِ على حقائقَ ثلاثةٍ: الأولى منها هو وُجودُ قانونٍ من نوعِ قوانينِ صراعِ الأضدادِ ويبدو مفعولهُ من خلالِ هذا الصِّراعِ الدّائرِ ما بينَ فئةِ المؤمنينَ بوُجودِ اللّهِ وما بين فئةِ الّذينَ لا يؤمنونَ بوجودهِ . والحقيقةُ الثّانيةُ هي أنَّ الفئةَ الثّانيةَ هي الّتي تَعمدُ إلى زَعزعةِ السَّلامِ والأمنِ والوئامِ في العالمِ بوسيلةِ الخُبثِ والدَّهاءِ والعُنف. والحقيقةُ الثّالثةُ هي أنَّ هذا النِّظامَ الشمسيَّ لمْ يوجدُ من نفسهِ، بل أوجدهُ خالقُ هذا الإنسانِ بِحُسبانٍ ولمقصدٍ مُعيَّنٍ محدودِ الأجلِ أيضاً .

وهنا تتلهَّفُ نَفْسُكَ يا صاحبي أن تتطَّلِعَ على مـــا آلَ إليــهِ حالُ آدمَ وزوجهُ بعدَ أن أزلَّهُما الشَيطانُ وأخرجهما ممّا كانا فيــهِ . ويَطْلُعُ عليكَ هذا المشهدُ الفنِّيُّ الرّابعُ ، وقد تضمَّنهُ قولُ ربِّنـــا عـــزَّ وجلَّ:(فتلقّى آدمُ من ربِّهِ كَلِمات فتابَ عليهِ إنَّهُ هو التّوابُ الرّحيم).

نتساءلُ عن معنى ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْــهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(٣٧)** ﴾ إنَّ فعل تلقّى معناهُ استَقبلَ وهـــو اصطلاحٌ معاصرٌ يتعلّقُ بالموجاتِ الصَّوتيَّةِ.أي أنَّ آدمَ قد أسفَ علـى ما فرَّطَ في جنبِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ، فرثى اللَّهُ تعالى لِحالِ نبيِّهِ الّذي مـــا كانت لهُ تجاربٌ سابقةٌ تُعينُهُ على تداركِ ما فات فتجلّى عليــهِ مـــن جديدٍ وبدأت حالةُ استقبال جديدة لتلقّي وحيِ ربِّهِ تعالى. لكن مـــا الّذي تلقّاهُ آدمُ من ربِّه ؟ تلقّي.. (كُلمات) وهي جمعُ كلمة الّتي تعني كُلَّ ما ينطقُ الإنسانُ بهِ مُفرداً كانَ أو مُركّباً. فما هو مَضمونُ هـــذه الكلمات الرَّبّانيَّة ؟ مضمونُها هذا الدُّعاءُ الّذي علَّـــمَ تعـــالى آدمَ أنْ يدعوَهُ لِيغَفِرَ لهُ، فدعا ربَّهُ بالدُّعاء المَذكور . وقد نقلتهُ لنا الآيةُ (٢٣) من سورة الأعراف ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَـــمْ تَغْفِـــرْ لَنَـــا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ**﴾. فاستجابَ اللَّهُ تعالى دُعاءَ نبيِّـــهِ آدمَ ، ولاحظْ يا عزيزي كيفَ أنَّهُ تعالى أتى بفاءِ الاستئناف لِيُطلِعــكَ على ذلكَ وقال (فتابَ عليهِ). وقد قالَ صاحبُ الكُلّيّات:التَّوبـــةُ إذا استُعمِلَتْ بعلىَ، دلّتْ على معنى القُبول .(محيط المحيـــــط) . وقـــالَ صاحبُ مِعجَمْ (أقربُ الموارد):تابَ إليهِ وعليهِ معناهُ رَجـــعَ عليــهِ بفضلِه. ويُصبحُ معنى (فتابَ عليه) أنَّ اللَّهَ تعالى تقبَّلَ دُعاءَ نبيِّــهِ آدم وعاد عليهِ بفضلِهِ يُشرِّفهُ بِكلامهِ المُقدَّسِ وإرشادهِ .

ولاحِظ يا صاحبي كيفَ أنهى تعالى هـــذه الآيـــةَ الكريمـــةَ بقولِهِ:(إنَّهُ هو التَّوّابُ الرَّحيم.) . فما معنى أنْ يوردَ اللّهُ هنا في هـــذا المقامِ بالذّاتِ هاتينِ الصِّفتينِ وهما :التَّوّابُ والرّحيم ؟ ليـــسَ هـــذا وحسبُ بل وقد استهلَّ هذه الفقرةَ بحـــرف (إنَّ) الّـــذي يُســـتعملُ للتّأكيدِ من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرى عرَّفَ هاتينِ الصِّفَتَين بـــالألفِ واللّامِ أيضاً . وهل يُعقلُ أن يفعلَ اللّهُ ذلكَ كُلَّهِ، من دونَ أنْ تَكـــونَ هُنالكَ لِفعلِهِ المذكورِ حِكمةٌ بالغةٌ ومغزىً كبير ؟

أجلْ كانَ لِذكرِ هاتينِ الصِّفتينِ حكمةٌ بالغةٌ عظيمةٌ لا تُدركُ إلاّ بعد أنْ نتذكَّرَ التَّسلسُلَ الموضوعيَّ الَّذي استدعى الكلامَ عن قصَّةِ (آدم) في هذا الموضِعِ من سورةِ البقرة، وهو أمرٌ نوَّهتُ عنهُ من قبـــلُ، هو التَّمهيدُ لِدعوةِ من كان قد بقِيَ حيًّا من أتباعِ موسى زمن إنـــزالِ هذا الكتابَ العزيزَ، بسببِ النُّبوءةِ الّتي أنبأ بها موسى في سِفرِ التَّثنيـــةِ مُبشِّراً ببعثةِ صاحبِ شريعةٍ كاملةِ التَّعاليم، إشارةً إلى بعثةِ صـــاحبِ هذا الكتابِ الّذي راحَ يدعو أتباعَ موسى في أوَّلِ سورةٍ منهُ وبهـــذا الأسلوبِ البَلاغيِّ المُعجزِ الّذي تحدّى اللّهُ تعالى بِهِ الإنـــسَ والجـــنَّ أيضاً. فإنْ تذكّرتَ يا صاحبي ذلكَ كُلِّهِ تتذكَّرُ كيفَ أنَّ كُتَّابَ هـــذه التَّوراةِ المُعاصرةِ قد شوَّهوا تعاليمَ موسى وخاصَّةً منـــها مـــا أوردهُ كاتبُ سِفرِ التَّكوينِ حولَ قصَّةِ (آدمَ وزوجُهُ) من تُرَّهات مُضحِكةٍ . وكيفَ استغلَّ كُتّابُ الأناجيلِ من بعدِهِمْ ما أوردوهُ عنْ خطيئـــةِ آدمَ المذكورةِ في السِّفرِ المذكورِ لِيُصوِّروا المسيح النّاصريَّ وكأنَّ اللّهَ تعالى بعثَهُ (مُخلّصاً) لإزالةِ أثرِ تلكَ (الخطيئةِ المزعومةِ) من دمِ هذا الإنسانِ،

مَعَ أنَّ ما بدرَ عن آدمَ من مُخالَفةٍ تدخُلُ في بابِ الذّنب غيرِ المُتعمَّـدِ، حسبما أوردهُ هذا (القُرآنُ العظيمُ) آنفاً ، حتَّى وأنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ قد (تابَ عليه) في حينِه .

فاستعِدْ يا عزيزي القارئ جميعَ ما ذكرتُهُ لـكَ آنفـاً مـن معلوماتٍ لِتُعينُكَ على إدراكِ حِكمةِ التّأكيدِ هنا بحرف (إنّ) والدّاعي الّذي دعَاهُ تعالى لِيوردَ صِفتَي (التّوّابُ الرَّحيمُ) بعدَ أنْ أعلمنا عن أنّـهُ كانَ قد تابَ على نبيِّهِ آدم الّذي (نسيَ ولم نجِدْ لهُ عزماً) .

ألا إنَّ اللّهَ تعالى وضَّحَ من خلالِ قصَّةِ آدمَ القُرآنيَّةَ السّـالفةِ الذِّكرِ عِدَّةَ أُمورٍ بشأنِ هذه القصَّةِ في هذا المقامِ :فقـد وضَّـحَ أوّلاً عظمةَ الإلهِ الّذي بعثَ آدمَ كأوّلِ نبيٍّ لِيُحدِثَ قفزةً نوعيَّةً في حيـاةِ البشرِ الّذي استوطنَ الكُهوفَ قُرابةَ أربعـةِ ملايـين ونيِّـفٍ مـن السَّنوات. كما وضَّحَ كيفَ أنطقَ اللّهُ تعالى هذا النَّبيَّ بأحرُفِ هِجـاءِ لُغةٍ عِلميَّةٍ وقواعدَ الاشتقاق، لِيشتقَّ أسماءَ الأشياء ، وعلى شاكلةِ هذا النَّبيِّ اليتيمِ الّذي علَّمهُ (جَوامِعَ الكَلِمِ) من لَدُنهُ وبذريعةِ الوحيِ ليـسَ إلاّ ثانياً. كما وضَّحَتْ قِصَّةُ آدمَ القرآنيَّةُ الحقائقَ الّتي غابت عن علـمِ عُلماءِ مُختلَفِ الفُنون بما يتعلّقُ بكيفَ تعلَّمَ هذا الإنسـانُ السَّـكنَ خارجَ الكُهوفِ وكيفَ تعلَّمَ الزِّراعةَ وغيرَها من أمورٍ راحوا يضعـونَ مُختلفَ النَّظريّاتِ لِحلِّ ألغازها ثالثاً . كما وضَّحَ تعالى من خـلالِ هذه القِصَّةِ أنَّ المكرَ والخِداعَ والإخلالَ بالأمنِ شيمةُ الّذينَ يُعـادونَ أنبياءَ اللّهِ الّذينَ لم يتّخذوا العُنفَ سلاحاً في يومٍ من الأيّامِ إلاّ دفاعـاً عنِ النَّفسِ والمُقدَّساتِ رابعاً . والأهمُّ من جميعِ ما مرَّ ذكرُهُ فقد شـاءَ

اللّهُ تعالى أنْ يُصحِّحَ ما شوَّهَهُ كُتّابُ التَّوراةِ والأناجيلِ المُعاصرونَ من حقائقَ تَخُصُّ الذّاتَ الإلهيَّةَ وما تتّصِفُ بِهِ هذه الذّاتُ من صفات ساميةٍ وخاصَّةً منها أنَّ اللّهَ تعالى (هو التَّوّابُ الرَّحيمُ) الَّذي يقبلُ توبةَ عبدِهِ الخطّاءِ والّذي وَسِعتْ رحمتُهُ كُلَّ شيءٍ أيضاً . فهذه هي حِكمةُ إنهاءِ المشهدِ الأخيرِ من هذه الآيةِ الرّابعةِ من الكُتلةِ الثّانيةِ المُبتدئةِ بحرفِ(إذ) بمعنى المُفاجأة، والمُصاغةِ صياغةً مَجازيَّةً وبلِسانِ الحالِ وبأُسلوبِ الكاتبِ المسرحيِّ الفذّ، إنهاءه بقولِهِ تعالى:(إنَّهُ هُوَ التّوابُ الرَّحيم) .

ولاحِظ يا عزيزي القارئ كيفَ راحَ تعالى بعد ذلكَ يُعيدُ إلى أذهانِ بني إسرائيلَ كيفَ كانَ اللّهُ تعالى قد نبّهَ النّاسَ مُنذُ زمنِ بعثةِ آدمَ أَنَّ تهذيبَ البشرِ وتطويرَ حياتِهِم النَّفسيَّةُ والرّوحيَّةُ يستحيلُ أن يتحقَّقَانِ إلاّ على أيدي أنبياءِ اللّهِ عزَّ وجلَّ . لذلك راح يقولُ بعدَ أن فرغَ من قِصَّةِ آدمَ :(قُلنا اهبطوا منها جميعاً، فإمّا يأتِيَنَّكُم مِنّي هُدىً ، فمَنْ تَبِعَ هُدايَ فلا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزنون . والّذينَ كَفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحابُ النّارِ هُمْ فيها خالِدون.) . ومن ثُمَّ توجَّهَ تعالى لِيدعو (بنو إسرائيلَ) وقال:(يا بني إسرائيلَ اذكروا نعمتيَ الّتي أنعَمتُ عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدِكُمْ وإيّايَ فارْهَبون. وآمنوا بما أنزلتُ مُصدِّقاً لِما مَعكُمْ ولا تكَونوا أوّلَ كافِرٍ بِهِ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإيّايَ فاتَّقون.).

الفصلُ الخامِس

ما هيَ اللُّغةُ الّتي تعلَّمَ آدمُ أحرفَها وقواعدَها؟

أوّلاً– كلمةٌ تمهيديَّةٌ:

وما دُمتَ يا عزيزي القارئ قد اقتنعتَ بضرورةِ نُطقِ الإنسانِ بلُغةٍ علميَّةٍ لِتُساعدَهُ على التَّرميزِ وبناءِ ثقافةٍ . وعلِمتَ بصورةٍ يقينيَّةٍ مَن هو (آدم) ، وما هيَ (قِصَّتِهِ التّاريخيَّةِ الحقيقيَّةِ) وما الّذي تحقّقَ على يديهِ من إنجازاتٍ حَضاريَّةٍ، شكّلتْ أساسَ وبدءَ التّاريخِ المعروفِ لهذا الإنسانِ المُعاصرِ . يبقى عليكَ أنْ تتَساءلَ عن اللُّغةِ الّتي علّمَ اللّهُ جلَّ شأنُهُ أحرُفها الهِجائيَّةِ وقواعدَ اشتقاقِ كَلماتها وأُصولِها.

وهي الحقيقةُ الّتي تضمَّنها قولُهُ تعالى:(وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها)وهو القولُ الّذي سبقَ لي أن فسَّرتُهُ على مَحلِّه .

وقبلَ أنْ أُجيبَكَ على السُّؤالِ المذكورِ، أرى أن تتذكَّر كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى الّذي بعثَ مُحمَّداً خاتمَ النَّبيِّينَ ، ما بَعثهُ إلاّ بعدَ تأهيلِهِ إيّاهُ لحملِ الرِّسالةِ الّتي شاءَ تعالى أن يُكلِّفهُ بها . وعلى شاكِلةِ ما فعلَ معَ نبيِّهِ موسى من قبلُ والّذي قالَ بحقِّهِ في الآيةِ ٤٠ من سورة (طَهَ) **﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى(٤٠)وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي(٤١)﴾** . فهلْ يُعقلُ أنْ يصطفي اللّهُ عزَّ وجلَّ أوّلَ أنبيائهِ وهو آدمُ عليهِ السَّلام مِن دونِ أنْ يُؤهِّلَهُ

لحملِ رسالتِهِ ليقومَ بإخراجِ البشرِ من سُكنى الكُهوف ولِيقومَ بتهذيبِهِم والتّأليفِ بينَ قُلوبهم ؟ وكيفَ يُؤدّي هذه الأمانةَ الثّقيلةَ بدون وجود لُغةَ تفاهُمٍ بينهُ وبينَ سِواهُ منَ البشرِ؟ أمّا كيفَ علّمَ اللّهُ تعالى آدمَ اللّغةَ وبأيَّةِ وسيلةٍ، فهي أسئلةٌ تردُ أجوبتها فيما بعد . ويكفيكَ أن تتذكّرَ أيضاً أنَّ القرآنَ مُصحِّحٌ لِكُلِّ تَحريفٍ وتشويهٍ أصابَ الحقائقَ التّاريخيَّة، وعلى حسب ما أثبتُّهُ لكَ من خِلال مُعطيات قِصَّةِ آدمَ القُرآنيَّة . وإنَّ هذه الحقيقةَ المُتعلّقةَ بنُطقِ النبيِّ آدمَ بلُغةٍ بتعليمٍ من اللّهِ تعالى مُباشرةً ، تُعدُّ من جملةِ الحقائقِ الّتي شوَّهها كُتّابُ التّوراةِ والأناجيلِ وسواهُم من المُستشرقين .

ألا إنَّ عمليَّةَ التَّشويهِ المذكورة باتتْ مَكشوفةً ، فإنْ شئتَ الدَّليلَ، فبإمكانكَ مُطالعةَ ما اعترفَ وصرَّحَ بهِ كُتّابٌ مسيحيّونَ مِن بينهمْ أمثال الكُتّاب المشهورين : فكتور برنار، جوزيف كامبل،بيير روسي،جان غومليه،سيغرد هونيكه، ول ديورانت،وجيمس بريستِد، وكثيرونَ أمثالُهم. فهؤلاءِ كُتّابٌ توَخّوا الحقيقةَ العلميَّةَ الموضوعيَّةَ وبعيداً عن التّعصُّبِ العرقيِّ أو السّياسيِّ أو الدّينيِّ .

وما رَأيُكَ يا عزيزي القارئ أنْ تُصغي معي إلى ما كَتبهُ الباحثُ الفرنسيُّ الشَّهيرُ وهو (بيير روسي) وذلكَ في مُؤلّفِهِ (مَدينةُ إيزيس التّاريخُ الحقيقيُّ للعرَب) وقد قامَ بتَرجَمَتِهِ السّيِّد فريد جحا ، وطبعتهُ مؤسَّسةُ الوحدة في دمشق عام ١٩٨٠/م .

إنَّ الباحثَ المذكورَ قد قامَ بتفنيدِ ما عَمدتْ إليهِ الكنيسةُ الغربيَّةُ مِن حقائقَ تاريخيَّةٍ. وقد كتبَ على الصَّفحةِ ١٨ يقولُ

بالحرف الواحد:(إننا باختصار في جهل مطبق، جهل علمي متفق عليه). كما كتب على الصفحة ٣٤ يقول:(وإذا ما أنعمنا الفكر كي نرى بوضوح، وليس من أجل أن نكتف بالأفكار المتوارثة، وإذا كنا عازمين على ألا نستعير شيئا من أحلامنا، فيجب علينا عندئذ أن نعرف العروبة كما هي-الثقافة الوحيدة للشرق-وأن نشرع في إبواز أنوار هذه الثقافة . وذلك بإعادة النظر فيما كانوا قد علموه إياه ...

ولن نصل إلى ذلك إلا بشرط إبعاد النظرة غير المناسبةوالجزئية للشرق، تلك النظرة التي تلقيناها عن أساتذتنا.).

فاعتراف هذا الباحث الفاضل صريح وهو أن أصحاب كنائس العصور الوسطى المظلمة التي مرت على أوربة قد قاموا في ذاك الحين بتزوير ما نقلوه من ثقافة أمتنا العربية ونسبوه إلى أنفسهم ظلما وزورا. وأن ما يدرسونه اليوم في مدارسهم، في أمريكة وأوربة مسروق أصلا من بلادنا.

وأنقل لك يا صاحبي أقوال باحث أوروبي آخر اسمه (ول ديورانت) وصاحب مؤلف مشهور متعدد الأجزاء عنوانه (قصة الحضارة). فقد كتب في الجزء الأول الباب السابع وعلى الصفحة (٩) منه يقول:(لقد انقضى منذ بداية التاريخ المكتوب إلى الآن ما لا يقل عن ستة آلاف عام. وفي خلال نصف هذا العهد كان الشرق الأدنى مركز الشؤون البشرية التي وصل إلينا علمها ...على هذا المسرح غير الدقيق التحديد، الآهل بالسكان وبالثقافات، نشأت الزراعة والتجارة والخيل المستأنسة والمركبات، وسكت النقود

وكتبت خطابات الاعتماد ونشأت الحرف والصناعات والشرائع والحكومات وعلم الرياضيات والطب وطرق صرف المياه والهندسة والفلك والتقويم والساعات وصورت دائرة البروج وعرفت حروف الهجاء والكتابة واخترع الورق والحبر وألفت الكتب وشيدت المدارس والمكتبات ونشأت الآداب والموسيقى والنحت الدقيق الجميل ونشأت عقيدة التوحيد ووحدة الزواج واستخدمت أدوات التجميل والحلي وعرف النرد والداما وفرضت ضريبة الدخل واستخدمت المرضعات وشربت الخمور ... عرفت هذه الأشياء كلها واستمدت منها أوروبة وأمريكة ثقافتهما على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان. وقصارى القول:إن الآريين — وقصد هذا الكاتب من كلمة الآريين جميع بلاد آسيا الجنوبية الغربية الممتدة جنوب روسيا والبحر الأسود وغرب الهند وأفغانستان وهو الأمر الذي يبدو من خلال معطيات كتابه نفسه—قال:إن الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة، بل أخذوها عن بابل ومصر. وإن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء، لأن ما ورثوه منها كان أكثر مما ابتدعوه. وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم كان مضى عليهما ثلاثة آلاف من السنين.فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا شأنه فإننا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية، وهو دين كان يجب أن يؤدى من زمان بعيد).

وعلى هذه الصورة تكون قد اطلعت يا صاحبي على اعتراف هذا الباحث الفاضل الذي أقر بأن صرح حضارتي أوروبة وأمريكة

قد قامَ على أساسِ ما قدَّمنهُ لهما حضارتا مصر وبابلَ وهما أوَّلَ من أسَّسَ كُلَّ شيء.

وأظُنُّكَ ستكتفي بما نقلتُهُ لكَ من اعترافاتِ هذينِ الباحثينِ المشهورينِ ، وإلاّ فهناك عددٌ لا بأسَ بهِ قد انتهجوا نفسَ النَّهجِ من البحثِ ووصلوا إلى نفسِ النتائجِ المذكورة .

وعليهِ ومن خلالِ هذه الاعترافاتِ لابدَّ أن تكونَ قد أدركتَ يا صاحبي أنَّ التَّاريخَ الّذي يُدرِّسونَهُ في المدارسِ الأوربيّة والأمريكيَّةِ حاليّاً والّذي ينقُلُهُ إلينا بعضُ مَن يكتبونَ التّاريخَ بغضِّ النَّظرِ عن ذكرِ أسمائهمْ يكتبونهُ وفيهِ الغثُّ والثَّمينُ والصَّحيحُ والخطأُ وخصوصاً الّذي يرجعُ تاريخُهُ إلى ستَّةِ آلافِ عامٍ تقريباً. فما بالُكَ بما قبلهُ الّذي يعودُ إلى زمنِ بعثةِ آدمَ عليهِ السَّلامُ. وهي الّتي حدثتْ قبلَ ذلكَ بما يُقاربُ ألفينِ إلى أربعةِ آلافِ عامٍ تقريباً ؟

فهذا التّشويهُ والضَّياعُ الحادثُ يستدعي من جانبنا أن نُحقّقَ بأسلوبٍ علميٍّ وموضوعيٍّ لِنصلَ إلى معرفةِ مِصداقيَّةِ ما أخبرَنا بهِ هذا الكتَّابُ السّماويُّ المُعجزُ الصِّياغةِ والّذي وصلنا سالماً كما نزل.

ثانياً–خيوطٌ معرفيَّةٌ تُشيرُ إلى موطِنِ لُغةِ آدم

١. وما دامَ الباحثُ الفاضل الأستاذ (بيير روسي) قد وضَّحَ بأنَّ الكنيسةَ الغربيَّةَ قد شوَّهتِ الحقائقَ التّاريخيَّةَ كما اعترفَ بأنَّ

العروبةَ هي الثّقافةُ الوحيدةُ للشّرق. فمعنى ذلكَ أنّ أوّلَ لُغةٍ عرفــــها الشّرقُ قد نبَعتْ من الشّرقِ العربيِّ يقيناً. وهو أوّلُ خَيطٍ نُمسِكُ بـــهِ لِيدُلّنا على موطنِ لُغةِ آدمَ عليهِ السّلام .

وما دامَ الباحثُ الفاضلُ الأستاذ (وِلْ ديورانت) صــــاحبُ مؤلّف (قصّةُ الحضارة) قد اعترفَ أيضاً بأنّ الشّرقَ الأدنى كانَ مركزُ الشّؤونِ البشريَّةِ وكانَ آهلاً بالسُّكّان والثّقافــــات ، وأنّ الشّـــرائعَ وعقيدةَ التّوحيدِ قد نشأت منهُ، وأنّ منطقَتهُ قد عرفتْ أحرُف الهجاء والزِّراعةِ وغيرِها من الأمورِ وانطِلاقاً من بابلَ ومِصر، فهذا الإقــــرارُ يعني بألفاظ أخرى أنّ أقدمَ حُروفِ هجاءٍ قد نبعتْ عن أحد هذيــنِ البلَدَينِ يقيناً .

واستِناداً إلى هذه المُعطَيات السّالفةِ الذّكرِ نكونُ قد عثَرنــا على أوّلِ خيطٍ موصلٍ ودالٍّ على أنّ الأبحاثَ وَجّهتنا نحوَ المَنطِقةِ الّتي بعثَ اللّهُ تعالى فيها آدمَ وحيثُ علّمهُ ربُّهُ أحرُفَ هجاءِ لُغةٍ عِلميَّـــةٍ ذاتِ أُصولِ اشتقاقٍ للأسماءِ النّاشئةِ عنها .

والآنَ ، والتِزاماً بقَولِ ربِّنا (فاسألْ بهِ خبيراً) عادَ من واجبنا استعراضَ ما توصَّلَ إليهِ (عُلماءُ اللّسانيّاتِ) في هذا الموضوعِ لَعلّنا من خلالِ مُعطياتِ أبحاثِهمْ نعثرُ على خيطٍ آخــرَ يوصِلُنــا إلى منْزِلِنــا المقصودِ . وعليهِ تراني يا صاحبي أقومُ الآنَ بتَلخيصِ ما توصَّلَ إليـــهِ المُستشرقونَ من عُلماءِ اللّسانيّاتِ الّذينَ قاموا بهذا التَّحقيقِ المطلوب .

٢-من المعلومِ أنَّهُ راجَتْ على ألسنةِ علماء اللّسانيّات من المُستشرقينَ مُصطلحُ (اللُّغاتُ السَّاميَّة) هذا المُصطلَحُ الّذي يُشيرونَ بهِ إلى ما نشأَ في مَنطِقتِنا العربيَّةِ من لُغات ولَهجات. فمِن أينَ نشأ هذا الاصطلاحُ ولماذا؟ الجوابُ هو أنَّ القرنَ التّاسعَ عشر في أوروبَّةَ ، حيثُ كانت أفكارُ التَّوراةِ المُعاصرةِ المُزوَّرةِ رائجةً فيها آنذاكَ، ظهرَ عالِمٌ كتبَ في تاريخِ اللُّغاتِ واسمُهُ (شلوستِر) فكانَ العالِمُ المذكورُ هو أوّلُ مَن وردَ في كِتاباتهِ الاصطلاحُ المذكورُ، حدثَ ذلكَ عام ١٧٨١/م وضِمنَ مؤلَّفِهِ صاحبُ عُنوان (Eichhorns Repertorum Bd) وفي الفصلِ الثّامنِ منهُ صفحة (١٦١) .

لقد ظنَّ الكاتبُ المذكورُ أنَّ جميعَ سُكّانِ مَنطقتنا العربيَّةِ كانوا مِن ذُرِّيَّةِ (سام بن نوح) واستناداً إلى مُعطَيات كِتابهِ المُقدَّسِ . أي أنَّ ذرِّيَّةَ نوحٍ كانوا على حدِّ زعمِهِ هم الّذينَ ابتَدعوا جميعَ لُغات مَنطِقتنا العربيَّةِ . وهذا ما دفعهُ لِتسمِيةِ هذه اللُّغات باسم اللُّغات السّاميَّة. و لم يظهر من بعدِهِ عالِمٌ ناقشَ هذا المُصطلَحَ، بل المُلاحظُ هو أنَّهُم تبنّوهُ وراحوا يورِدونهُ في مؤلّفاتهم. فلم ينتبهْ أحدٌ من هؤلاءِ العلماءِ إلى أنَّ التَّوراةَ نفسها أخبرتْ أنَّ نوحاً كانَ قد أنجبَ ثلاثةَ أبناءٍ وليسَ ابناً واحداً ، وهم سام وحام ويا فَث ، وأنَّهُ كانَ لِكُلِّ واحدٍ منهم ذُرِّيَّته أيضاً . فأينَ عاشَتْ تلكَ الذُّرّيات ؟ فهذا سؤالٌ لم يُجب عنهُ العالِمُ المذكورُ ولا مَنْ جاءَ من بعده مُقلِّداً .

وأستثني من بينِ عُلماءِ التَّقليدِ العالِمَ الفاضلَ (بروكلمان) لأنَّ هذا العالم لمْ يثقْ بالمَصدرِ الّذي استقى منهُ (شلوستر) مَعلومَتهُ .

وإن هذا العالم الفاضل قد اتهم (بنو إسرائيل) بأنهم قاموا بتزوير تواريخ وأسماء ذرية نوح عليه السلام. وكان دليله هو أنهم أقصوا الكنعانيين من بين ذريته لأسباب سياسية ودينية. وفي وقت كانوا يعلمون فيه حق العلم ما كان بينهم وما بين الكنعانيين من صلات لغوية وغيرها من صلات متينة. فالعالم الذكور أورد اتهامه المشار إليه في مؤلفه الذي عنوانه (Eichhorns Reperlorum Bd 8 P161) وذلك على الصفحة الخامسة عشرة من الكتاب المذكور .

أي أن مصطلح (اللغات السامية) مهتز الأصول لأسباب أهمها:

أولا: أن هذا المصطلح قد أخذ بعين اعتباره (سام) بن نوح وحده من بين ثلاثة أبناء كانت لنوح حسب تقرير التوراة المعاصرة المشوهة المزورة. وهو مصطلح مهتز الأصول ثانيا، بسبب أن معلومات هذه التوراة المعاصرة تتنافى مع معطيات العلم. فهي تصور للقارئ أن البشرية ابتدأت من زمن آدم على اعتباره أول إنسان خلقه الخالق جل شأنه، على حين أثبتت المعطيات العلمية وجود البشر منذ قرابة أربعة ملايين ونصف من الأعوام، وأن آدم كان أول نبي في منطقتنا بالذات . لذلك ينظر إلى مصطلح (اللغات السامية) على أنه اصطلاح ملوث بلوثة يهودية مقيتة .

٣-والذي يلاحظه الباحث المدقق أن علماء اللسانيات من المستشرقين الغربيين، لم ينساقوا وراء المصطلح المشار إليه وحسب، بل

وإنهم اعتقدوا بأن جميع اللغات التي يشملها هذا المصطلح قد تفرعت عن لغة واحدة كانت منتشرة في منطقة واسعة الأرجاء . وأن اللغات المتفرعة عنها تولدت على أيدي القبائل التي كانت تتكلم تلك اللغة الأصلية، والتي كانت قد هاجرت من موطنها الأصلي إلى مواطن جديدة. فهذه القبائل المهاجرة تأثرت بعوامل البيئة الجديدة، وظهرت من جراء ذلك لهجات تبدو في ظاهرها مغايرة للغة الأصلية الأم حتى وكأنها لغات مستقلة عنها .

فإن أنت راجعت (تاريخ اللغات السامية) لمؤلفه عالم اللسانيات (أ.ولفنسون)، تلاحظه يقول على الصفحة الرابعة من هذا المؤلف المذكور: (من العسير أن نتخيل ما كانت عليه اللغة السامية الأصلية ومقدار كلماتها. بل من العبث إطالة البحث في أمر غامض مجهول نشأ ونما في عصور سبقت العصور التاريخية. لكن مع ذلك يوجد في اللغات السامية الحالية عدد من الكلمات المشتركة، يمكننا أن نرجح أنها قديمة جدا وأنها كانت مستعملة في أقدم اللغات السامية، ليس لدينا ما يثبت أنها من مادة اللغة السامية الأصلية.) .

وهذا خيط ثالث جديد نعثر عليه للتدليل على مصداقية قوله تعالى في سورة البقرة: (وعلم آدم الأسماء كلها). فها هو عالم اللسانيات المذكور يعترف صراحة بوجود لغة سامية أصلية ما تزال بعض كلماتها تسرح وتمرح ضمن اللغات السامية المعروفة. وهذا القول إن دل على شيء فإنما يدل على أن أحرف هجاء اللغة السامية الأصلية لا تغاير في حقيقتها أحرف هجاء هذه اللغات

المتفرعة عنها . وبألفاظ أخرى فإن أحرف هجاء لغـــة (آدم) هـــي أحرف لغات الأقوام التي هاجرت من موطنها الأصلي . ولكن أين ؟

إن عالم اللسانيات المذكور يجيب على هذا السؤال ويقـــول على الصفحة الرابعة نفسها (الحق إن هذه مشكلة دقيقة جدا ، بـــذل فيها العلماء المستشرقون جهدا كبيرا ، ولكنهم لم يتفقوا على حل لها حتى الآن.بل تشعبت فيها آراؤهم واختلفـــت أقوالـــهم اختلافـــا عظيما.) .

وهكذا فلابد أن تكون قد عدت تدرك يا صاحبي من خلال هذا الاعتراف الذي أدلى به عالم اللســـانيات المذكـــور أن علمـــاء اللسانيات لم يتوصلوا حتى الآن إلى معرفة الموطـــن الأصلـــي للغـــة السامية الأصلية، فإذا حاولوا معرفة ذلك فيحاولون رجما بالغيب .أي أن موضوع معرفة ذلك ما يزال من قبيل الأمور الغيبية بالرغم مـــن هذا التقدم العلمي الهائل على جميع الأصعدة ومنها صعيد علم تـــاريخ اللغات المعروفة في العالم واللسانيات. فإن أنت تذكـــرت أن هـــذا القرآن العظيم قد أنزله الله علام الغيوب ، وتذكرت كيف أن اللـــه تعالى كشف لنا فيه عن حقيقة قصة نبيه (آدم) الغيبية وصحح عـــن طريقها ما تضمنته الحقائق التي شوهها كتاب التوراة المعاصرة . فقـــد كان لزاما عليك أن تقر أيضا بما أنبأك عنه هذا الكتاب الســـماوي المقدس بشأن اللغة السامية الأصلية وعن الإنسان الأول الذي أنطقـــه ربه عز وجل بأحرفها الهجائية وعلمه أصـــول اشـــتقاق ألفاظـــها

وقواعدها بوسيلة الوحي ، وعلى شاكلة تعليمه نبيه العـــربي الأمـــي (جوامع الكلم) وعلوم هذا القرآن المجيد .

وبكلمة مختصرة أقول: لقد أثبت لك يا عزيـــزي القـــارئ حتى الآن أن تاريخنا وتاريخ ثقافتنا العربية وتاريخ لغتنا العربية أيضـــا مشوه فيما نطالعه من معلومات منقولة عن مؤلفات الأوربيين. ثم إن هؤلاء الغربيين لم تتجاوز معارفهم مدة ســـتة آلاف عـــام مضـــت باعتراف صاحب مؤلف (قصة الحضـــــارة) وبحجـــة عـــدم توفـــر المخطوطات والآثار الضرورية لاستكمال المعرفة التي تتجاوز التـــاريخ المذكور . كذلك نقلت لك اعتراف أحد علماء اللسانيات بأن جميـــع اللغات السامية في منطقتنا الغربية قد تفرعت عن لغة سامية أصليـــة لم يتفقوا على موطنها الأصلي، وأن اللغات السامية الحاضرة تشـــــتمل على بعض كلمات اللغة السامية الأصلية وبالتـــالي فـــإن حـــروف هجائها هي واحدة في الأصل جميعها .

فأنا أوصلتك يا صاحبي إلى هذا الحد من المعرفة وبالأسـلوب العلمي الموضوعي، لتشكل هذه المعرفة لديك عتبة للدخول منـــها في بحث معرفة اللغة التي تكلمها النبي (آدم) عليه السلام . لذلك أناشدك أن تصغي جيدا إلى ما ستسمعه مني بعد هذا في هذا المجال .

ثالثا– ما هي اللغة التي تعلم آدم أحرف هجائها ؟

ألا لقد بات معروفا بأن من إحدى خصائص هذا (القـــرآن العظيم) أن الله العظيم الذي أنزل هذا الكتاب المقدس لا يـــورد في

سورة واحدة موضوعا يريد بيانه ، بل يوزع عناصر هذا الموضوع الواحد على آيات عديد من سور كتابه العزيز. كذلك تلاحظه تعالى يورد كل عنصر في آية يتناسب مضمونها مع تسلسل الآيات الموضوعي .

واستنادا إلى هذه الخصوصية التي ذكرتها لك يا صاحبي فإن معرفة موضوع اللغة السامية الأصلية التي أنطق الله عز وجل نبيه آدم بأحرف هجائها ، لا ينحصر في مضمون الآية من سورة البقرة التي قال تعالى فيها (وعلم آدم الأسماء كلها) فتلك آية اشتملت على عنصر واحد من هذا الموضوع . لذلك كان من واجبنا أن نبحث في بقية سور هذا القرآن العظيم عن بقية عناصر الموضوع المشار إليه .

فمن هذا المنطلق آخذ بيدك لتشنف أذنيك بموسيقى تلك الآية التي راحت تتردد بين آيات سورة (الرحمن) بصيغة واحدة وهي (فبأي آلاء ربكما تكذبان). أ فما سألت نفسك يوما عن دلالة الآية المذكورة وعن سر وحكمة تكرارها أكثر من ٣٠ مرة في سورة (الرحمن) ؟

فاعلم أن الله العظيم يخاطب من خلال قوله تعالى (فبأي آلاء ربكما تكذبان) يخاطب الجن والإنس مجتمعين أن اسمعوا أيها الغافلون عن هذه النعماء التي نبهت أذهانكم إليها في الآيات التي تسبق هذا التنبيه ، وسفيه هو الإنسان الذي يحاول التقليل من عظمة تلك النعماء . علما بأن كلمة (آلاء) صيغة جمع وتعني نعماء .

وما دام هذا التنبيه الرباني الذي تضمنه قوله تعالى (فبأي آلاء ربك تكذبان) على هذه المكانة من الأهمية، فقد أصبح لزاما على المؤمن بعظمة ومصداقية هذا الكتاب المقدس أن يتبصر في مضامين تلك الحقائق الملفتة للأذهان بعناية فائقة تليق بأهمية التنبيه الرباني الذي يحمله قول ربنا عز وجل : ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾.

وما دام هذا القرآن العظيم قد صيغ صياغة بلاغية معجزة قد تحدى الله تعالى بها الإنس والجن، فمعنى ذلك أن القيام بعملية تدبر كل آية قرآنية منه ووفق أصول التفسير ومنهجيته هو واجب إيماني أيضا .

والآن، ومن هذا المنطلق والفهم الذي ذكرناه آنفا أقول لك يا عزيزي القارئ إن الله تعالى قد أتى في الآيات الأوائل من سورة الرحمان هذه بعنصر آخر يخص موضوع اللغة التي تكلم بها آدم وجماعته المؤمنة . وقد قدم تعالى بصدد إثبات مصداقية ما تضمنه هذا العنصر الثاني دليلين فلسفيين، وذلك لأهميته .

وما دام الله تعالى قد افتتح سورة الرحمان هذه بالكلام عن أعظم ما أنعم به على هذا الإنسان من نعماء ، فإن هذا يزيد في أهمية هذا العنصر يقينا.

وبعد هذا التقديم الذي قدمته لك فتعال نتلو الآيات الأربعة الأوائل من سورة الرحمان. هذه الآيات التي قال تعالى فيها:

﴿الرَّحْمَانُ(١)عَلَّمَ الْقُرْآنَ(٢)خَلَقَ الْإِنسَانَ(٣)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(٤)﴾.أنْ نتلوَ هذه الآياتِ ومُعتقدينَ أنَّ ربَّنا (المليكُ المُقتدِرُ) قد راحَ يُطلِعنا من عالمِ غيبهِ على أعظمِ نعمةٍ أنعمها على هذا الإنسان، وبفضلٍ خاصٍ من جانبهِ عزَّ وجلّ . وهي الحقيقةُ الّتي أشارتْ إليها كلمةُ (الرحمن) . تتساءلُ عن معنى هذه الكلمةِ بادئَ ذي بدءٍ فأقول: إنَّ صِفةَ (الرحمن) لا توصَفُ بها إلاّ ذاتُ اللّهِ جلَّ شأنُهُ، وقد صيغت على وَزْنِ-فَعلان-الدّالُّ على الامتلاءِ والغَلبة (بحر المحيط صفحة٢٧). وتعني كلمةُ (رحمن) الإشارةَ إلى أنَّ كُلَّ ما في هذا الكونِ الماديّ من أشياءَ فهيَ من عطاءاتِ هذا الإلهِ الرحمان الّذي وهبَ كُلَّ شيءٍ منها دونَ مُقابلٍ من هذا الإنسانِ وبِسبَبِ غلَبةِ رحمتهِ تعالى الّتي وسِعتْ كُلَّ شيءٍ صدرَ عنه .

فبهذا الإيمان بواسعِ عطاءاتِ اللّهِ الرّحمانِ المُستهلّةُ بها هذه السّورةُ ننطَلِقُ معاً لِنتدبَّرَ قولَهُ تعالى في الآيةِ الثّانيةِ (علَّمَ القُرآن) .

فأنتَ تذكُرُ يا صاحبي أنّهُ تعالى كانَ قد قالَ من قبلُ (وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها). وأتى يقولُ هنا (علَّمَ القُرآن) . فما هي حِكمةُ أن ذكرَ في الأولى اسمَ آدم. وقد حذفَ هنا في الثّانيةِ اسمَ محمّدٍ سيِّدِ الأنبياءِ جميعهم ؟ الحكمةُ من ذلك في رأيي أن يشُدَّ ذهنَكَ إلى كلمةِ (علّمَ) بالذّاتِ وليسَ إلى أسماءِ الأشخاص. فهو تعالى يدفَعُكَ لِتُمعِنَ نظَركَ في كيفَ والوسيلةِ الّتي مكّنت ربَّك من القيامِ بتعليمِ فَرد من البشرِ لهُ شخصيَّةٌ ماديَّةٌ تختِلفُ عن شخصيَّةِ ذاتِ اللّهِ عزَّ وجلَّ .

وقبلَ أنْ أتقدَّمَ بكَ خُطوةً إلى الأمامِ، أقولُ لكَ : لا تحْسبْ يا صاحبي أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ يتفاخرُ في أقوالِهِ هذه من دون أن يكونَ مُخاطِباً جهةً مُعيَّنةً مقصودةً يُوجِّهُ إليها كلامه . كلاّ فإنَّهُ يُخاطِبُ عُلماءَ اللّسانيّات بالذّات هؤلاءِ الّذينَ هُم من أحفادِ الّذينَ شوَّهوا تاريخَ أُمَّتنا العربيَّةِ وراحوا يُعتِّمونَ على ذاتِ اللّهِ تعالى الّذي (علَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها) بسبَبِ تكذيبهم محمّداً (ص) والكتابَ الّذي أُنزِلَ عليهِ وفي وقتٍ يعتمدونَ فيه على مُعطياتِ التّوراةِ المُنافيةِ تعاليمُها للعلمِ والمُزوّرةُ والمُشوَّهة.

وقد يُدهِشُكَ هذا الادّعاءُ ، وتسألُني عن الدَّليلِ . فلا أبخلُ عليكَ بذكرِ هذا الدَّليلِ، فأقول:يكمُنُ الدَّليلُ المطلوبُ في هذه العلاقةِ الّتي تَربَطُ سورةَ الرّحمانِ بسابقتِها سورةُ (القمر) . تلكَ السّورةُ الّتي وبعدَ أنْ أنبأتْ في الآياتِ الأواخرِ منها عن هزيمةِ المُشركينَ من قومِ محمَّدٍ (ص) في موقِعةِ الأحزابِ المعروفةِ . أتى تعالى بحرف (بل) لينتقلَ من ذلكَ لِيُحدِّثَنا عن مُشركيّ عصرنا وهم هؤلاء الأحزابُ الّذين شوَّهوا تاريخَ أُمّتنا العربيَّةَ وراحوا يُعتِّمونَ على ما أنبأَ بهِ اللّهُ الخالقُ في كِتابِهِ العزيزِ وهو اللّهُ الّذي لا شريكَ لهُ في مُلكِهِ ولم يتَّخِذْ (ولداً) . وقد راحَ تعالى يُنبئُ ويقولُ بعدَ أن أتى بحرف (بل) المذكور ، يُنبئُ عن هؤلاءِ المُشركينَ الّذينَ نُعاصِرُهم جميعُنا ويقول:
﴿ بل السّاعةُ مَوعِدُهُمْ والسَّاعَةُ أدهى وأمرُّ. إنَّ المُجرمينَ في ضلالٍ وسُعُر. يومَ يُسحبونَ في النَّارِ على وُجوهِهِم، ذوقوا مسَّ سَقَر. إنّا كُلَّ شيءٍ خلقناهُ بقَدَر. وما أمرُنا إلاّ واحدةٌ كَلَمْحِ بالبصَرِ. ولقد أهلكْنا أشياعَكُمْ فهلْ منْ مُدَّكِرٍ. وكُلُّ شيءٍ فعَلوه

في الزُّبُرِ. وكُلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾. فإنْ شِئتَ يا عزيزي الاستزادةَ من المعلوماتِ بشأنِ هذا الدَّليلِ فراجع مُؤلَّفي (فنُّ الاختزال في القُرآنِ الكريم) حَولَ هذه العلاقةِ الموضوعيَّةِ الّتي ذكرناها لذلكَ أعودُ إلى صُلبِ الموضوعِ الّذي نتكلَّمُ عنه.

فلاحظْ يا عزيزي كيفَ أنَّ اللّهَ جلَّ شأنُهُ ، وهو يُخاطِبُ جُموعَ وطوائفَ هؤلاءِ الأحزابِ مِمَّن ينسبونَ أنفُسهُم إلى المسيحِ النّاصريّ ، ومُذكّراً عُلَماءهم، وعُلماء اللّسانيّات بالذّات، بكونِهِ هو الّذي خلقهُم من دونِ مُقابلٍ وخلقَ هذا الكونَ أجمعَ من حولِهِم من عطاءات صفةِ (الرّحمن) الّتي تتَّصِفُ بها ذاتُهُ عزَّ وجلَّ، والّذي تَملِكُ ذاتُهُ المُقدَّسةُ قُدرات مَكّنتهُ من القيامِ بجميعِ ما ذُكِر. فهو الّذي (علَّمَ القُرآنَ) الّذي كفرتُم بهِ وبالّذي أنزلتُهُ عليه. وفي وقتٍ تؤمنونَ بما هو واردٌ في كتابكمُ التَّوراةُ من أنَّ اللّهَ تعالى كانَ علَّمَ موسى الوصايا العشر وغيرها قبلَ أكثر من ثلاثةِ آلافِ عام. فكيفَ علَّمَ اللّهُ موسى ذلكَ وما هي الوسيلةُ ، إلاّ أنْ تكونَ هذه الوسيلةُ هي وحيُ اللّهِ تعالى الّتي لا تُشابهُها أيَّةُ وسيلةٍ مادّيةٍ ؟ فبوسيلةِ الوحيِ من لَدُنّ اللّهِ تعالى بالإمكانِ أنْ يتعلَّمَ الإنسانُ في ساعاتٍ وأقلَّ منها ما تعجزُ وسائلُ التَّعليمِ المادّيَّةِ عن القيامِ بهِ في سَنواتٍ ، بل في عشراتِ السَّنوات . فهذه هي الحقيقةُ المقصودُ بيانُها من خلالِ قولهِ تعالى (علَّمَ القُرآن) ومحذوفاً منهُ اسمَ سيِّدِ المُرسلين. وكأنَّهُ تعالى قد قالَ بألفاظ أُخرى:تذكَّروا بأنَّ اللّهَ الرّحمان هو الّذي علَّمَ مُحمَّداً القُرآن. ولِيتساءلُ المُدقِّقُ المُتدَبِّرُ بعدَ ذلكَ: ولِمَ هذا التَّقديمُ كُلِّهِ ؟

وقد أجابَ اللّـــهُ تعــالى علـــى ذلــكَ وقـــال: ﴿خَلَــقَ الْإِنسَانَ(٣)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(٤)﴾.ولْتُلاحظْ يا صــــاحبي بــأنَّ كلمــةَ (الإنسان) وردتْ مُعرَّفةً . فما هو المقصودُ من هذا التَّعريف ؟ أقــولُ: لو كانَ المقصودُ بهَ الإنسانَ بصـــورة عامَّـــةٍ ، لاعــترضَ عُلمـــاءُ المُستحاثّات وقالوا: إنَّهُ ثبتَ بصورةٍ علميَّةٍ أنَّ البشــرَ أمضــوا مـــن عُمرِهِم قُرابةَ أربعةِ ملايين ونَيِّفٍ من السّنوات فلم يتعلّم منهُم أحـــدٌ النُّطقَ والبَيان . بدليلِ أنَّ البشرَ طِوالَ تلكَ المُدَّة لم يـــتركوا ثقافــةً وحضارة .والثّقافةُ والحضاراتُ عُرِفتْ بعدَ أنْ غادرَ البشر السُّكنى في الكهوفِ . وهذا الأمرُ لا يتجاوزُ عُمُرهُ ثماني إلى عشرةِ آلافِ عام .

لذلكَ أرى أنَّ هذا المعهودَ الذِّهنيَّ الّذي دلَّ عليـــه تعريـــفُ كلمة (الإنسان) هنا ، ما أُشيرَ بهِ إلى البشرِ جميعِهم ، بل أُشيرَ بــهِ إلى النَّبيِّ (آدم) بالذّات في هذا المقام فهو المعهودُ ذهنيّاً وهوَ أوَّلُ إنســـان نطقَ بلُغةٍ بيانيَّة . ولِيُصبحَ المعنى أن اعلموا يا عُلماءَ اللِسانيّات مــــنَ الأوربيّين أنَّ (الرّحمن) الّذي (علَّمَ القُرآنَ) هو الّذي علَّمَ نبيَّهُ آدم مــن قبلُ البيان . وهل يستطيعُ الإنسانُ أنْ يُبيِّنَ ما في نفسهِ إلاّ إذا كـــانَ ينطِقُ بلُغةٍ مُعيَّنةٍ ولها أحرُفُ هِجائها أيضاً ؟ وعليهِ يكونُ اللّهُ جــــلَّ شأنُهُ قد أعلنَ من خلالِ قولهِ تعالى(علّمهُ البيان) أنّه تعالى هو الّـــذي أنطقَ نبيَّهُ آدم بلُغةٍ ذاتِ أحرُفِ هجاء وتستحِقُّ تسميتُها (لُغةَ البيــان) وليشكِّلَ هذا القولُ المذكورُ لعنصُرَ الثّاني من هذا الموضوع . ولْيُنبِّـــهَ تعالى بصورةٍ عامَّةٍ إلى أنَّ أعظمَ نعمةٍ قد أنعمها الخالِقُ علــــى هـــذا الإنسانِ ، هيَ قِيامُهُ تعالى بإنطاقِ آدمَ بأحرُفِ هجاءِ لُغةِ البيان. فلولا

أنْ فعلَ ذلكَ في الوقتِ المُناسب لظلّ البشرُ يعيشونَ في الكُهوف،ولا يعرفونَ السَّكنَ ولا نظامَ الزَّوجيَّةَ ولا الزّراعةَ ولا النِّظامَ ولا القانونَ، ولظلّوا بعيدينَ عن معرفةِ وُجودِ خالِقِهم وبعيدين عن معرفةِ المقصدِ من حياهم ، ولا كانوا قد أسَّسوا ثقافات وحضارات . فهذه أعظمُ نَعماءَ قد مَنَّ اللّهُ تعالى بها على هذا الإنسانِ (فبِأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبان ؟) يا معشر عُلماءِ اللِّسانيّات .

وأرى أنْ نَتوقّفَ معاً يا صاحبي لِنَتبصَّرَ في دلالاتِ كلمةِ (البَيان) الواردةُ في قولِهِ تعالى (علّمهُ البَيان) ومن مُنطلَقِ أنَّ اللّهَ الحكيمَ الخبيرَ لابُدَّ أن يكونَ قد استعملَ كلمةَ (البَيان) بواسعِ دلالاتها أيضاً . فلُغةُ البَيانِ الّتي تعلّمها آدمُ عليهِ السّلام في حينِهِ . كانت بمَثابةِ البذرةِ اللُّغويّةِ الّتي نَمتْ من بعدِ آدمَ وترعرعَتْ حتّى اكتسبتْ كَمالَ تطوُّرِها على أيدي حمَلَتِها العربُ وذلكَ قُبيلَ بعثةِ مُحمَّدٍ (خاتَمَ النَّبيّين) عليهِ الصّلاةُ والسّلام . وهذه الحقيقةُ تُوضِّحُ دلالةَ قولِ محمَّدٍ (ص) الواردُ في أحاديثِهِ (أوتيتُ جَوامِعَ الكَلِم). فلاحِظْ يا عزيزي أنّهُ تعالى في الوقتِ الّذي وصفَ فيهِ لُغةَ آدمَ بأنّها لُغةُ (البيان) فهو وصفَ لُغةَ القُرآن الكريمَ الّتي هي لُغةُ العرَب كُلّهم بأنّها هي أيضاً لُغةُ (البيان). ففي الآيةِ ١٩٥ من سورةِ الشُّعراء قال تعالى **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ(١٩٣)عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ(١٩٤)بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(١٩٥)﴾**. أي أنّ الّذي علّمَ آدمَ هو نفسُهُ الّذي علّمَ مُحمَّداً ولُغةُ النَّبيَّينِ واحدةٌ وليستا بلُغتَين .

وهكذا تَكونُ الآياتُ المذكورةُ من سورة الرّحمان قد وَضعتْ بينَ أيدي المُحقّقينَ الباحثينَ مِفتاحَ اللُّغزِ الّذي استعصى حلُّهُ على المُستشرقينَ الغربيّينَ من عُلماءِ اللّسانيّات . وتكونُ لُغةُ آدمَ هي اللُّغةَ الأمُّ الّتي سمّاها المُستشرقونَ باسمِ (اللُّغةُ السّاميَّةُ الأصليَّةُ) والّتي اشتُقّتْ مِنها بَقيَّةُ لُغات ولهجات مَنطِقتِنا العربيَّة . وهيَ اللُّغةُ الّتي طوَّرها أهلُها العربُ إلى أن بلغتْ أوجَ تطوُّرها زمنَ بعثةِ محمَّدٍ العربيّ (ص)، والّتي أُنزلَ بها هذا القُرآنُ العظيمُ الّذي أمسى مَرجعاً أيضاً لها، وَليثبُتَ من خلالِ ذلكَ أنّ المُعلّمَ كانَ واحداً أوّلاً وأخيراً، وهو اللّهُ الّذي خَلقَ الإنسانَ وعلّمَهُ البيان وكأعظمِ نعمةٍ منَّ بها عليه. ذلكَ مِنْ مُنطَلَقِ أنَّ الطِّفلَ الّذي لا يُعلِّمُهُ أبواهُ النُّطقَ بلُغةٍ مُعيَّنةٍ وبأحرُف هجائها، يعودُ منَ المُستحيلِ عليهِ النُّطقُ بلُغةٍ في بَقيَّةِ حياتِهِ. فهذا ما توصَّلَ إليهِ العلماءُ الباحثونَ في هذا المجالِ، ويضربونَ على مِصداقيَّةِ رأيِهِمْ أمثلَةً واقعيَّةً أيضاً.

وسبَقَ لي أن قُلتُ أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قدَّمَ دليلينِ لإثباتِ مِصداقيَّةِ ما ادّعاه. لهذا أختصِرُ لكَ يا صاحبي مَضمونَ الدَّليلِ الأوّلِ لِتُقدِّرَ عظَمته.

أفلا تُلاحظُ كيفَ أنّهُ جلَّ شأنُهُ راحَ يقولُ بعدَ الآيات الّتي أوردناها: ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(٥)وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ(٦)** ﴾.

فقد حملتْ هاتان الآيتانِ دليلاً كَونيّاً فَلسفيّاً . خُلاصتُهُ أنَّ هذا النِّظامَ الشَّمسيّ ما وُجِدَ من نَفسِهِ، بل بِحُسبان. وكانتِ الغايةُ

منهُ أن يُشكِّلَ هذا النِّظامُ الشَّمسيُّ مَصدرَ حَياة لِصِغـــارِ النَّباتــات وَكِبارِ الأشجار. وعلى هذه الصّورةِ فَلولا أنْ أَنْطقَ اللّــهُ آدمَ بلُغــةِ البيانِ ولولا تعليمُهُ مُحمَّداً (ص) هذا القُرآن، لَظلّتِ البشريَّةُ تقطُـــنُ الكُهوفَ ولَبقيتْ أشبهَ شيءٍ ببقيَّةِ الكائناتِ الحيَّةِ الّتي لا تبني ثقافـــةً ولا حضارات.

رابعاً–دلائلُ قِدم (لُغةُ القُرآن)

إنَّ كُلَّ من طالعَ ما توصَّلَ إليهِ عُلماءُ اللُّغات، يُلاحظُ أنَّـــهم اتَّفقوا على أنَّ مُفردات كُلِّ لُغةٍ من لُغات العالمِ يســـبقُ وُجودُهـــا مُركَّباتَ تلكَ اللُّغة. وهذه الحقيقةُ تُفسِّرُ لَنا حكمةَ تعليمِ اللّهُ تعـــالى نبيَّهُ آدمَ الأسماءَ أوّلاً، ومن ثمَّ تعليمهُ إيّاهُ البَيانَ ثانياً .

وأزيدُكَ علماً بهذه المسألةِ فأقول:إنَّ الّذينَ درســـوا اللُّغـــةَ العربيَّةَ دِراسةً موضوعيَّةً قد تبيَّنَ لَهُم أنَّ هذه اللُّغةَ تضُمُّ مجموعات من الكلمات. وقد اشتُقّتْ كُلُّ مَجموعةٍ منها عن مصدرٍ ثُلاثيٍّ مُحـدَّد . وأنَّ كُلَّ مجموعةٍ من تلكَ المجموعات قد حافظتْ للسَّبَبِ المذكـــور على نَسبِها المُتَّصِلِ بمصدَرها الثُّلاثيِّ الّذي اشتُقّت منه. وهيَ مزيَّـــةٌ اعترفَ بوُجودها عُلماءُ اللُّسانيّات أيضاً.وتتفرَّدُ بهذه المزيَّةِ من بـــين جميعِ لُغاتِ العالمِ قاطبةً. فالكلماتُ في اللُّغاتِ غيرِ العربيَّةِ نادراً مـــا تُعْرَفُ أنسابُها.

وقد تسألُني يا صاحبي :وماذا أفادتْها هذه الصِّفةُ المذكـــورةُ ؟ أقولُ في الجوابِ على سؤالِكَ وبِكلمةٍ موجزةٍ إنَّ هذه الصِّفةَ دَلّتنـــا

على أنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ قديمةٌ جدّاً ويَرجِعُ زمنُ نُشوئها إلى زمـــنِ بعثـــةِ النّبيِّ آدمَ عليهِ السّلام، أي يرجِعُ تاريخُ نُشوئها إلى ما قبلَ ما يزيـــــدُ عن ثمانيةِ آلافِ سنةٍ مَضتْ.

ستسألُني:وكيفَ استنتجتَ هذه المُحصِّلةَ من تلكَ الصِّفةِ الّتي شَرحتَها لي آنفاً ؟ أقول: ألا ترى معي يا عزيزي القـــارئ أنَّ هـــذه الصِّفةَ تعني بألفاظٍ أُخرى أنَّ اللُّغة العربيَّةَ هي في حقيقتها لُغةٌ علميَّـــةٌ وليست كَغيرِها مِن اللُّغاتِ ارتجاليَّةً عشوائيَّة ؟ فهي لُغةٌ عِلميَّةٌ لِكَونهـا قد قامت على قواعدِ اشتقاق وأصولِ اشتقاق كلمـــــات جديـــدة. فوجودُ هذه القواعدُ والأصولُ في اللُّغَةِ العربيَّةَ يُشكِّلُ في حَدِّ ذاتـــــهِ دليلاً على أنَّها لُغةٌ عِلميَّة. وبالإضافةِ إلى تلكَ القواعدِ والأصولِ فـإنَّ كُلَّ حرْفٍ من أحرُفِ هِجائها يرتبطُ بمخرَجٍ حَلقيٍّ مخصوص. كمـا يرتبطُ اسمُ الشَّيءِ بما لهُ من صِفةٍ بارزةٍ فيه. وهذه الحقيقةُ تزيـــدُ في مكانةِ لُغةِ الضّادِ العلميَّة.

والآنَ فكِّرْ معي يا صاحبي: هل يستسيغُ عقلُـــكَ أنْ كـــانَ باستطاعةِ البشرِ القديمِ البدائيِّ أنْ يتمكّنَ من وَضعِ لُغةٍ علـــى هـــذه الصّورةِ من الحقيقةِ العلميَّةِ الّتي وضّحناها، وفي وقتٍ كانوا فيـــهِ في بدايةِ تاريخهمُ المعروف؟ إلاّ أنْ تُسلِّمَ معي بأنَّ لُغتنا العربيَّةَ الشَّـــريفة هي لُغةٌ سَماويَّةٌ وقديمةٌ جدًّا، وهي اللُّغةُ الّتي علَّمَ اللّهُ الخالِقُ نبيَّـــهُ آدمَ مَبادئها ؟ ولذلكَ تميَّزتْ هذه اللُّغةُ على بقيَّةِ لُغاتِ العالَمِ الّتي أتصـــوَّرُ أنّها تولّدتْ على مرِّ الأيّامِ منها واتَّخذتْ بعدَ ذلكَ أشكالَها وكلماتهـا المعروفةِ بعد أن انسلختْ عن أُمِّها وفقدت معالمها وما كانَ لها مــــن

ميِّزات . فلو دقَّقَ الباحثُ في جميعِ ما هو معروفٌ في مَنطِقتنا من لُغات ساميَّةٍ غير العربيَّةِ لتَبيَّنَ لهُ وجودُ كلِمات عربيَّةِ الأصلِ فيها يقيناً. ويثبتُ بذلكَ قولُ عالمِ اللّسانيّاتِ (إ.ولفنسون) الّذي سبقَ لي أن نقلتُ كلامه. وهو الّذي قالَ فيهِ : (من العسيرِ أنْ نتخيَّلَ ما كانت عليهِ اللُّغةُ السّاميَّةُ الأصليَّةُ ومقدار كلماتها. بل من العبثِ إطالة البحثِ في أمرٍ غامضٍ مجهولٍ نشأ ونما في عُصورٍ سبقتْ العصورَ التّاريخيَّةَ. لكن مع ذلكَ يوجدُ في اللُّغات السّاميَّةِ الحاليَّةِ عددٌ من الكلمات المُشترَكةِ يمكننا أن نُرجِّحَ أنّها قديمةٌ جدّاً وأنّها كانتْ مُستعملةً في أقدمِ اللُّغاتِ السّاميَّةِ ..).

فهذا دليلٌ ضِمنيٌّ استقيتُهُ لكَ يا صاحبي من ضمنِ مُعطَيات لُغتِنا العربيَّةِ أثبتُّ لكَ من خلالِهِ كونها قديمةَ النُّشوءِ وقديمةٌ جدّاً ، ويرجعُ زمنَ نُشوئها إلى زمنِ بعثةِ آدمَ عليهِ السّلامُ الّذي قدَّرَ الخالقُ الّذي بعثهُ أن يُخرجَ البشرَ من سُكنى الكهوفِ ولِيُحدِثَ بذلكَ قفزةً نوعيَّةً في تاريخهمُ الطّويلُ، وقد منَّ الخالِقُ عليهِم فوقَ ذلكَ بأنْ أنطقَهُم بلُغةِ البيان أيضاً. هذه اللُّغةُ الّتي طوَّرَها أهلُها العربُ في صحراءِ شبهِ جزيرتهم إلى أن اكتملَتْ عمليَّةُ تطويرِها، ومن ثمَّ نزلَ بها هذا القُرآنُ العظيمُ الّذي أخبرنا تعالى فيه بجميعِ ما ذكرناه.

ثمَّ إنَّ العالِمَ المذكورَ وضَّحَ في مؤلَّفهِ بأنَّ المُستشرقَ الألمانيَّ العالم (نولدكِه) قد جزمَ في مؤلّفاتهِ بأنَّ أكثرَ الهجرات السّاميَّةِ المعروفةِ قد نزحتْ أصلاً من شبهِ جزيرةِ العرب، من تلكَ الأرضُ الّتي شَهدَ عُلماءُ الجيولوجيا والمناخ على أنَّ التَّغيُّرات الجيولوجيَّةِ والمناخيَّةِ

الّتي طرأتْ على العالمِ عَبْرَ تاريخهِ الطّويلِ، ما مسّتْ مَناطِقَ وشُعوبَ خطِّ الاستواءِ بِسوءٍ يُذكر، ومن تلكَ المناطقِ شبهُ جزيرةِ العرب .

كذلكَ أخبرَنا بأنَّ عالم اللّسانيّات (أولسهوزن) وافقَ رأيُهُ رأيَ المستشرق العالمِ (نولدكه) وأكّدَ بأنَّ اللّغةَ العربيَّةَ هي أقربُ اللّغات السّاميَّةِ إلى اللّغةِ السّاميَّةِ الأصليَّةِ القديمة. كما دَعَّمَ رأيهُ بِأدلّةٍ ارتاحَ لها علماءُ اللّسانيّاتِ الغربيّون.

فعلى هذه الصّورةِ يتَّضِحُ من أقوالِ المُستشرِقينَ ومن أقوالِ عُلماءِ اللّسانيّات ومن أقوالِ عُلماءِ الجيولوجيا والمناخ أنَّ أبحاثَهُمْ وتحقيقاتهم دلّتهُم على قِدَمِ لُغتنا العَربيَّةِ وأنَّ مَنشأها من شبهِ جزيرةِ العرب . فإنْ عُدتَ إلى سفرِ التّكوينِ من التَّوراةِ المُعاصرةِ المُشوَّهةِ ، تلاحظُ أنَّ كاتبَ هذا السِّفرِ المذكورِ لم يستطِعِ إخفاءَ مَوطِنِ آدم، بالرَّغمِ من تعصُّبِهِ العُنصُريّ. فهو وضَّحَ بأنَّ آدمَ عليهِ السّلام لم يكُن مَوطِنُهُ فلسطين، بل في شبهِ جزيرةِ العرب الّتي يُمرُّ منها نهرُ الفُرات.

ودعْ عنكَ يا صاحبي جميعَ أقوالِ الّذينَ ذكرتُهُم لكَ وتعالَ إلى ما ذكرهُ أحدُ علماءِ بلدنا الدكتور أحمد داود، فهو كتبَ يقولُ في مؤلّفِهِ (تاريخ سوريّا الحضاري القديم) وعلى الصّفحة ٢٢٧:(ولمّا كانت الأبجديَّةُ العربيَّةُ هي الأبجديَّةُ الأولى في التّاريخِ البشريّ على الأرض، وقد عُلِّمَها آدمُ، الإنسانُ الأوّلُ، فقد وُجدتْ منذُ البدايةِ مُقترنةً بالسّماء، وذات مضمونٍ رقميٍّ فَلكيٍّ كَونيٍّ، ولو أنَّ مُدوّناتها لمْ تُكتشفْ إلاّ منذُ ستَّةِ آلافِ عام. فقد كانت لُغةً شفويَّةً تُحفظ ،

ويجري تناقلها بكل مضامينها الرقمية الفلكية الكونية قبـــل مرحلـــة التدوين لعشرات الآلاف من السنين ...).

وعلى هذه الصورة أكون قد قدمت لك يا صـــاحبي أدلـــة ضمنية من داخل القرآن العظيم، وأدلة من خارجه مما استقيته لك من شهادات المستشرقين المنصفين ومن شهادة أحد علمائنا البارزين. وقد تضافرت جميع هذه الأدلة والشهادات والأقوال، وأجمعت على أمـــر واحد وهو قدم لغة القرآن، قدما زمنيا يمتد إلى زمن بعثة آدم عليـــه السلام. وهو الأمر الذي يؤكد مصداقية ما تضمنته سورة (الرحمـــان) من إخبار أنبأنا به قول ربنا عز وجل فيها:(الرحمان. علم القـــرآن. خلق الإنسان. علمه البيان.). وهو الكلام المصاغ بصياغـــة بلاغيـــة معجزة أتيت على شرحها من قبل .

الفصل السادس

ماهي تعاليم شريعة آدم عليه السلام

فاعلم يا عزيزي القارئ أن الله تعالى اختصر لنـــا في هـــذا القرآن العظيم التعاليم التي أتت بها شريعة آدم عليه السلام. حيـــث قدم تعالى من خلال ما أطلعنا عليه حلولا للألغاز التي طالما اســتعصى حلها على علماء عصرنا والذين اضطروا من جراء ذلك إلى وضــــع مختلف الفرضيات والحلول. وبألفاظ أخرى فــإني ســأطلعك يــا صاحبي على العنصر الثالث من عناصر قصة آدم القرآنيـــة . وهـــو العنصر الذي تضمنته سورة (طه) من كتاب الله العزيز .

١-أول تعاونية في تاريخ الإنسان: الذي ثبت لدى علمـــاء المستحاثات هو أن البشر عندما كانوا يقطنـــون الكـــهوف كـــانوا يخضعون لشريعة الغاب فلم يعرفوا حياة تعاونية استندت إلى نظـــام وقانون . فقد كان يتصرف الأقوى من رجالهم بشـــؤونهم وعلـــى حسب ما يحلو له . لذلك لم يعثر العلماء المنقبون على مــــا يشـــعر بوجود قانون ونظام ينظم حياة البشر في الكهوف. خصوصا وأنـــهم لم يكونوا ينطقون بلغة من اللغات. وإن كل ما كانوا قد تواضعـــوا عليه من لغة تفاهم هو لجوءهم إلى ما فطروا عليه مـــن حركـــات الضحك والابتسام وذرف الدموع وخفض الرأس للتحية وإطـــلاق صيحات الفرح أو صيحات الحزن. فهذا ما خمنه العلماء وافترضوه.

فلما بعث الله تعالى نبيه آدم ، وأمره ربه أن يغادر ومن آمن معه الكهوف، ليتخذوا لهم مساكن في (الجنة) التي فهمنا أنها كانت بستان نخيل وتجري فيها عيون من الماء، وأن يبدؤوا نظام الزوجية في تلك المساكن، فقد أمرهم الله تعالى أن ينظموا حياتهم هناك ويتعاونوا على تأمين حاجياتهم الضرورية . فهذه الحقيقة تضمنتها الآيتان من سورة (طه) اللتان قال تعالى فيهما، ومخاطبا آدم عليه السلام :﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى(١١٨)وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى(١١٩)**﴾. وبهذا التعليم يكون الله تعالى قد وضع للبشر لبنة أول نظام تعاوني في بدء تاريخهم المعروف . وليس الأمر كما خيل لكارل ماركس والذي أطلق عليها مصطلح (المشاعة البدائية) .

٢-مضمون تعاونية آدم:

وقد تسألني يا عزيزي عما تضمنته مبادئ تعاونية آدم المذكورة .فأقول:أو لم تر كيف اختصر الله جل شأنه مبادئ تلك التعاونية من خلال الآيتين سالفتي الذكر واللتين صاغهما ربنا صياغة بلاغية لا تضارع ويتبادر منهما لذهن القارئ غير ما تضمنته ؟ فإليك شرح هاتين الآيتين المذكورتين.

قال الله تعالى:﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى**﴾فإن دققت نظرك في صياغته تعالى لقوله (إن لك ألا) تدرك أنه قد ضمنها تأكيدين على نبيه آدم وليس تأكيدا واحدا . وحكمة ذلك أن آدم كان أول الأنبياء و لم تكن لديه تجارب أنبياء سابقين ليستفيد من تلك التجارب السابقة. ولذلك احتاج من طرف ربه إلى أكثر من تأكيد.

فالله تعالى عندما أتى بحرف (إن) المشبه بـالفعل وأدخله على حرف (لا) الناهية. فقد نهى به آدم نهيا مؤكدا بها. وهو تعالى عندما أتى بحرف (أن) من ضمن قوله (ألا) فقد أبطل عمل الحرف (إن) هنا وليعود يفيد التأكيد به فقط . وعلى هذه الصورة من الصياغة يكون الله تعالى قد استهل أمره الموجه إلى نبيه آدم بتأكيدين كما قلت ليزيد في جذب انتباه نبيه إلى ضرورة وعي مضمون أمر ربه وعيا لا ينساه . ومع ذلك فهل استفاد آدم من هذا التأكيد المزدوج ؟ أجاب الله تعالى نفسه في الآية(١١٥) من هذه السورة من قبل وقال مقدما:﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما(١١٥)**﴾. وليوضح تعالى للقارئ من خلال ذلك بأن نبيه آدم كان معذورا لكونه بدائيا وكان أول من حمل مسؤوليات هامة في هذه الحياة. وإلا فلم يكن له عزم على مخالفة أمر ربه عز وجل.

والسؤال الآن: على أي شيء راح تعالى يؤكد تأكيدين على نبيه آدم ؟ فقد أتى الجواب على ذلك من خلال قوله تعالى ﴿**إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى**﴾ وهو بيت القصيد .

فالذي يسمع هذه الألفاظ يتبادر لذهنه أن الله تعالى نهى آدم أن يبق جائعا أو عريانا . لكن الحقيقة هي غير ذلك . فلم يكن آدم قبل أن يصطفيه ربه يبيت جوعانا ولا عريانا وإلا لكان هلك من قبل بعد أن يقع في الأمراض. فهذه قرينة في حد ذاتها تمنعنا من أخذ المعنى المتبادر لأذهاننا. ويعود مضمون هذا الأمر الإلهي يعني بألفاظ

أخرى أن الله تعالى قد أكد على نبيه آدم أن يتعاون مع الذين آمنوا معه لاتخاذ التدابير الضرورية التي تساعدهم جميعهم غير معرضين في المستقبل للمجاعة أو العري. خصوصا وأنهم بدلوا حياة الكهف بأسلوب حياة جديد وتعاوني. فتدبير أمور الغذاء واللباس يقتضيهما هذا الطرز الجديد من الحياة.

ولم يكتف الله تعالى بالتأكيد على هذين البندين وحسب. بل وأضاف بندين آخرين على نفس الأهمية وقال: ﴿ **وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى.** ﴾ فهو تعالى حث فيهما أيضا على تأمين السقاية والمسكن لكل فرد من أفراد هذه الجماعة المؤمنة. أي أنه تعالى فرض على نبيه آدم أن يتم تأمين الغذاء والكساء والماء والمسكن لكل فرد آمن معه وفق نظام تعاوني مدروس.

وعلى هذه الصورة يكون الله عز وجل قد أطلعنا، ومن خلال هذه الصياغة البلاغية المعجزة، التي صاغ بها هاتين الآيتين على مضمون التعاليم التي تضمنتها رسالة أول نبي وهو آدم عليه السلام.

٣-حقوق الإنسان الأساسية

فإن نحن انطلقنا من أن الله تعالى حكيم خبير، فلا يتصرف تصرفا قائما على غير حكمة وخبرة. ومن ثم أمعنا نظرنا فيما أخبرنا جل شأنه به في الآيتين سالفتي الذكر، نصل من ذلك إلى

أنه تعالى قد دلنا من خلال هذه المعلومة على حقوق الإنسان الأساسية التي كشفها على نبيه آدم وكلفه بالأخذ بها وتطبيقها في المجتمع الإنساني التعاوني المكلف بإقامته بعد أن حرر البشر من حيلة الكهوف وأنطقه بلغة علمية . تلك الحقوق التي لا تتحقق إلا وفق نظام تعاوني مدروس ومستند إلى أرضية الإيمان بوجود الله الذي كرم هذا المخلوق الإنسان وميزه عن بقية سائر مخلوقاته.

فلماذا تدخل هذه الأمور المذكورة في إطار حقوق الإنسان؟ الجواب نعثر عليه فيما نصت عليه الآية (٢٩) من سورة البقرة التي قال تعالى فيها: ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم**﴾. فقوله تعالى(خلق لكم ما في الأرض جميعا) اللام من قوله (لكم) تفيد التعليل. أي خلق الله ما في الأرض لصالحكم وخيركم. ثم إن قوله (جميعا) يعني أن كل فرد من أفراد البشر له حق متساو مع غيره من الأفراد فيما خلق الله تعالى في هذه الأرض من أشياء لصالح هذا الإنسان وخيره. وبهذا المنطلق يكون الله تعالى قد أرسى حجر الأساس في موضوع حقوق الإنسان الأساسية. وهو المنطلق الاقتصادي الذي شرعه الدين الإسلامي الحنيف. والذي كانت قد نزلت به تعاليم شريعة آدم عليه السلام.

وخلاصة مفهوم هذا المنطلق هو أنه لما كان من العسير أن تتقاسم البشرية كل شيء من أشياء هذا العالم. فالحل المبدئي هو أن

تقوم حكومة كل قطر من أقطار العالم بتأمين المأكل والملبس ومياه الشرب والمسكن لكل فرد من أفراد شعبها، وبأسلوب تعاوني.

وكأن الله جل شأنه قد راح، ومن خلال إطلاعنا على ما أمر به نبيه آدم قد غمز جانب جميع الأنظمة السياسية التي تخالف هذا المنطلق الاقتصادي المذكور. وليس معنى هذا المنطلق أن الإسلام أبطل الجهد والعمل والأخذ بالأسباب. بل معناه أن يعمل كل فرد من الأفراد، وأن تقوم الحكومات بتأمين هذه الأشياء الأربعة لكل فرد من أفراد شعبها، وتسترجع نفقات ما أمنته بأقساط تتناسب ودخل كل فرد من الأفراد. وبذلك ينال الفرد في المجتمع الواحد حقوقه الإنسانية الأساسية.

ولاحظ يا عزيزي القارئ كلمة (الجوع) الواردة في مستهل الآية الأولى، فهي ملفتة لذهن المفكرين المهتمين بشؤون الإنسان. فهي كلمة تتردد كثيرا في في وسائل الإعلام. على اعتبار أن الفقر والجوع منتشر في بقاع كثيرة من عالمنا المعاصر، بينما كانت خيرات كل شيء متوفرة في كل مكان وبصورة طبيعية أيضا، ومع ذلك فقد أمر الله نبيه آدم بتأمين كل الحاجيات التي تحول دون جوع أي فرد آمن معه. الأمر الذي يوضح بكل جلاء أن صيانة كل فرد من أفراد البشر من الجوع يدخل في باب حقوقه الإنسانية. ونستنتج من هذه المعلومة التي زودتنا بها هاتان الآيتان أن جنة الإنسان الأرضية لا تتحقق إلا بتأمين هذه الحقوق الأربعة الإنسانية الأربعة لكل فرد من أفراد الجنس البشري. ولا يستتب أمن ولا سلام في

العالم يدون تحقيقهما. وهو الأمر الذي يفسر قول محمد رسول اللـــه (ص) الوارد عنه:(كاد الفقر أن يكون كفرا) .

كذلك نستنتج من معطيات هذا التعليم الذي تلقاه أبونا آدم عليه السلام أن حقي الاعتقاد والتعبير لا معـــنى لهمـــا ولا جـــدوى حقيقية منهما من دون تأمين هذه الحقوق الأربعة السالفة الذكر.

وعلى هذه الصورة يكون هذا العنصر الثالث من قصــــة آدم عليه السلام قد منح أعيننا الضوء لنتبين كيف نطق الإنســـان بلغـــة علمية وكيف عرف التنظيم التعاوني وكيف بدأ حياة حضارية قائمــة على معرفة الزراعة والصناعة والري ومعرفة بناء المسكن الملائم لعائلة مكونة من أسرة مؤلفة من زوجين وما ينجبانه من أولاد .

ولربما يشرد ذهنك فتظن أنني حملت ألفاظ هاتين الآيتــين أكثر مما تحملانه من معاني. لذلك أرى أن أعطيك فكرة ولو موجـزة عن موضع هاتين الآيتين الكريمتين من تسلسل سورة (طه)الموضوعي.

فاعلم يا صاحبي أن الله تعالى استهل هذه السورة بمخاطبـــة رسوله الكريم بلقب (طه) وهو كلمة تعظيم وإجلال . ومن ثم وضـع تعالى في الآيات التسع الأولى عظمة تعاليم الإسلام الحنيف وملاءمتها للفطرة البشرية، وتلبيتها لحاجات الناس في كل زمان ومكان. وقـــد شاء ربنا التشهير بعدها باليهود وبالمسيحيين من أتباع موسى والذيــن انحرفوا عن صراط تعاليم التوحيد الذي جاء به عليه الســـلام. وقـــد صرح جل شأنه خلال ذلك بالإنباء عن عاقبتهم قائلا:﴿ **إن الساعة**

آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى. فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾.وبعد أن انتهى من الكلام عن قصة موسى هذه وعن تعاليمه التوحيدية حتى الآية (٩٩) انبرى يخاطب هؤلاء المذكورين ويقول:﴿ **إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما﴾**. ومن ثم خاطب رسوله الكريم وقال له: ﴿**كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا﴾**. وقد راح تعالى يهدد المذكورين ويتوعدهم في الآية(١٠٠) ويقول:﴿ **من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا.﴾** . وقد قصد جل شأنه من يوم (القيامة) هنا (الساعة) التي قدر أن تحل لإهلاكهم وليس يوم القيامة المعروف فهذا هو ما يفرضه التسلسل الموضوعي من معنى . وقد زادنا تعالى توضيحا فوصفهم بوصف خاص في الآية (١٠٢) وقال:﴿ **يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا.﴾** . و(زرقا) هي علامة مميزة يتميز بها قوم هؤلاء المجرمين إشارة من جانبه تعالى إلى أنهم زرق العيون. ومن ثم أخبر الله جل شأنه عما سيحدث بعد النفخ في الصور، إلى أن قال في الآية (١١٣):﴿ **وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا.﴾** . وبعد هذا التقديم كله أتى تعالى بهذا العنصر الثالث من قصة آدم عليه السلام هذا الذي وضح تعالى فيه الحقوق الإنسانية الأساسية لهذا الإنسان ، تذكيرا لهؤلاء المجرمين الذين يتباهون بالكلام عن حقوق الإنسان وهم أبعد الناس عن العمل على هذه الحقوق الأربعة السالفة الذكر والتي اشتملت

عليها تعاليم آدم التي كان تعالى قد أنزلها قبل ثمانية آلاف عام تقريبا فهذا هو سباق هذه القصة وتسلسل آياتها الموضوعي، وباختصار شديد.

فسورة (طه) وضحت جمال تعاليم الإسلام وملاءمتها لكل زمان ومكان. كما وضحت مخالفة تعاليم هذه الأمم الغربية المعاصرة لتعاليم الأنبياء ابتداء من آدم ومرورا بموسى وانتهاء بمحمد سيد المرسلين (ص) . كما أنبأت عن هلاك هؤلاء المجرمين وعن وسائل نجاة المؤمنين ب (الداعي) خاصة الذي (لاعوج له) والمقصود به إمام آخر الزمان الذي يأتي بالمفاهيم الحقيقية الإسلامية، فلا عوج له. علما بأن كلمة الداعي ليست غريبة الاستعمال، أ فلم يقل الله عز وجل بحق محمد (ص) وذلك في الآية (٤٦) من سورة الأحزاب: **﴿وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾**؟ وقال في الآية (٣١) من سورة الأحقاف: **﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض.﴾** .
ولا تنس يا صاحبي أن كلمة (الداعي) الواردة في سورة (طه) وردت معرفة ليشير تعالى بهذا التعريف إلى مثيل المسيح الذي يظهر أيام تحقق هذه الأنباء. وعلى هذه الصورة تكون كلمتا (زرقا) و (الداعي) تحملان نبوءتين عظيمتين ومدهشتين أيضا. ويزيد في عظمتهما كونهما وردتا في سورة (طه) التي أنزلها ربنا عز وجل في مكة المكرمة خاصة وقبل أربعة عشر قرنا من الزمان.

الفصل السابع

ماهي حقوق الإنسان في الإسلام

وعليهِ تكونُ قد أحطتَ عِلماً يا عزيزي القارئ بأنَّ اللَّهَ جلَّ شأنُهُ قد كانَ قدْ أطلعَ أوَّلَ نبيٍّ من أنبيائهِ الكرامِ على الحقوق الأساسيَّةِ لهذا الإنسانِ وهي أنَّ من واجبِ كُلِّ حكومةٍ في عالمِنا أنْ تهتمَّ بتأمينِ المأكلِ والملبَسِ والسِّقايةِ والمسكنِ لِكُلِّ فرد من أفرادِ شعبها الَّذي تحكُمُهُ، ولِتُشجِّعَ الأفرادَ لِيعملوا عُقولَهم فيفكِّروا ويتعرّفوا إلى خالِقهم وإلى ما أنزلَ لِصالِحهم من تعاليمَ تُساعدُهُم في هذا المجال وهم في كاملِ الإرادة وحُرِّيَّةِ الاختيارِ، لِينظُرَ خالِقُهُم وربُّهمْ أيُّهُم أحسنُ عملاً.

فلمَّا أصلُ بكَ يا صاحبي إلى هذه النُّقطةِ تميلُ نفسُكَ إلى مَعرفةِ ما جاءَ به الدّينُ الإسلاميُّ الحنيفُ من زياداتٍ على حقوقِ الإنسانِ الأساسيَّةِ الّتي جاءت بها شريعةُ آدمَ، وعلى اعتبارِ أنَّ هذا الدّينَ هو آخرُ الأديانِ ورسولُهُ خاتمَ النَّبيّين .

المنطلقات النظرية لحقوق الإنسان في الإسلام

أقول: إنَّ الإسلامَ قد وضعَ مُنطلقاتٍ لهذا البحثِ في الآيتَينِ الّلتَينِ سبقتا الكلامَ عنِ العُنصُرِ الأوَّلِ من قِصَّةِ آدمَ في سورةِ البقرةِ

فهو قالَ هناكَ : ﴿**كيفَ تَكفرونَ باللَّهِ، وكُنتُم أمواتاً فأحياكُم، ثمَّ يُميتُكُم، ثمَّ يُحييكُم، ثُمَّ إليهِ تُرجَعون. هو الّذي خلقَ لكُم ما في الأرضِ جميعاً، ثُمَّ استوى إلى السَّماءِ فسوّاهُنَّ سبعَ سماواتٍ، وهو بكُلِّ شيءٍ عليم.**﴾ .

وتذكُرُ يا صاحبي بأنّي كُنتُ قد حدَّثتُكَ بعضَ الشّيءِ عن مضمونِ هذه الآيةِ الأخيرةِ من قبل، ووفقاً لِمُتطلّبات البحثِ. وإنّي الآنَ بصدَدِ التَّوسُّعِ في شرحِ مَضمونها. فهي قد تضمَّنتْ في الأصلِ المنطلقاتِ لِبحثِ حقوقِ الإنسان. وإليكَ هذا المُنطلقات:

أوَّلاً: تختلف حقوق الإنسان عن حقوق الحيوان

إنَّهُ سبحانهُ وتعالى عندما قالَ أنَّهُ (خلقَ لكُم) فقد أجملَ قولهُ هذا جميعَ ما في هذه الأرضِ من كائنات حيَّةٍ بأنواعها. فهي جميعُها خُلِقَتْ مُسخَّرةً لِصالِحِ هذا الإنسان. وبالتّالي فقد حصرَ اللَّهُ جلَّ شأنُهُ موضوعَ الكلامِ عن بحثِ الحقوقِ في ذات هذا الإنسان. ويكونُ قد فرَّقَ في الوقتِ نفسهِ ما بينَ حقوقِ هذا الإنسانِ وما بينَ حُقوقِ سواهُ من الكائنات الحَيَّة. وبهذا التَّفريقِ فقد جعلَ الإنسانَ على مقامِ السَّيدِ، وجعلَ بقيَّةَ الكائناتِ الحَيَّةِ على مقامِ الخادمِ لهذا الإنسان. ويكونُ في الوقتِ نفسهِ قد غمزَ جانبَ الشُّعوبِ الّتي تُعطي أيَّ كائنٍ حيٍّ شيئاً من القداسة وهلْ يُقدِّسُ السَّيِّدُ خادمَه؟ ويكونُ اللَّهُ تعالى ومن خلال هذا المُنطَلَقِ قد حرَّرَ عقلَ البشرِ من نوعٍ من أنواعِ الشِّرك. كما يكونُ قد قدَّمَ لنا المُنطلَقَ الأوَّلَ لِبحثنا .

ثانياً : الناس متساوون في حقوق الإستفادة من خيرات الأرض

والمُنطلقُ الثّاني دلّ عليهِ كلمةُ (جميعاً) الواردةُ في نصِّ هذه الآيةِ الكريمة. وتفصيلُ ذلكَ هو أنَّ اللّهَ تعالى قد خلقَ ما خلقَهُ من كائنات حيَّةٍ وغيرِها لِيتساوى النّاسُ في حقِّ استغلالِها والاستفادةِ منها وليسَ لِيَحْتكِرَ طرفٌ شيئاً منها دونَ الآخرين.

وبما أنَّ هذه المُساواةَ مُستحيلةُ التَّطبيقِ إلاَّ بأسلوب تعاونيٍّ مُنظَّمٍ، لذلكَ جاءت الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ تُقنِّنُ ذلكَ عن طريقِ فرضِ ما أوجبتهُ من فروضٍ ماليَّةٍ كالزَّكاة والصَّدقات وغيرِها، ولِتُوزِّعَ هذه الأموالُ على مُستحقّيها وفقَ النُّصوصِ القُرآنيَّة.

ثالثاً: جميع أشياء عالمنا في كل منها جانب خير وجانب شر

وما دامَ اللّهُ جلَّ شأنُهُ قد قالَ (خلقَ لكُم) ومورداً حرفَ الّلامِ من (لكُم) للتَّعليلِ أيْ لِخيرِكُم ولِصالِحِكم. يكونُ جلَّ شأنُهُ قد وضَّحَ لنا مُنطَلقاً ثالثاً، وهو أنَّ على الإنسانِ أنْ ينظُرَ إلى كُلِّ شيءٍ من أشياء هذا العالَمِ على أنَّ فيهِ طرفُ خيرٍ ونفعٍ لهذا الإنسان. فلا يجوزُ أنْ نعتبرَ شيئاً من الأشياء شرّاً محضاً. فالسَّمُّ يُنظَرُ إليهِ بينَ عوامِ النَّاسِ على أنَّهُ مادَّةٌ قاتلةٌ. لكنَّ هذا المُنطلقَ الثّالثَ دلَّنا على أنَّهُ لابُدَّ أن يكونَ في السَّمِّ خيرٌ وفائدةٌ للإنسانيَّةِ، ويدفعُ بالعلماءِ لِمُحاولةِ تبيُّنِ عُنصرِ هذا الخيرِ للاستفادةِ منهُ لِصالحِ الإنسان. وبذلكَ يكونُ

الإسلامُ قد انفردَ بطَرحِ هذا المُنطلقِ المذكور. ولذلكَ لاحظنا أنَّ المُسلِمَ لا يحتقرُ شيئاً من أشياءِ هذا العالم.

رابعاً: لايجوز استعمال وجهي هذه الأشياء إلا لصالح الإنسان :

وينتُجُ عن المُنطَلَقِ الثّالثِ مُنطلَقٌ رابعٌ بِصورةٍ آليَّةٍ وهو أنَّ الإسلامَ يُحرِّمُ على الأنظِمةِ السّياسيَّةِ أينما وجِدَتْ وفي أيِّ زمانٍ تَواجدَتْ، يُحرِّمُ عليها أن تستعمِلَ مُفرداتِ أو مُركّباتِ الأشياءِ في غيرِ صالحِ هذا الإنسان، فإنْ فعلَ ذلكَ نظامٌ من تلكَ الأَنظمةِ يكونُ قد انتهكَ حقوقَ هذا الإنسان، وعصى الخالقَ عزَّ وجلَّ، وبالتّالي فقد استحقَّ من جرّاءِ فعلِهِ المذكورِ أن يُحاكَمَ ويُنزَلَ بهِ العقابَ المُناسب. ولنأخذَ أمريكةَ وأوربَّةَ على سبيلِ المِثال، فإنَّ عُلماءَ تلكَ البُلدانِ قد اكتشفوا الذَّرةَ وما فيها من طاقات. لكنَّ حُكّامَ تلكَ البُلدانِ استغلُّوا ذاكَ الاكتشافَ لِصُنعِ الأسلِحةِ الفتّاكةِ المُدمِّرة. فهذه الخُطوةُ الّتي خَطَوها تُعدُّ في ميزانِ هذا المُنطلقِ الرّابعِ الإسلاميِّ خُطوةٌ إجراميَّةٌ انتهكوا بها حقوقَ الإنسان، وعادوا في نظرِ خالِقهمْ مُجرمينَ وستأتي الأيّامُ الّتي يُنزِلُ خالقُهُمْ بِهِم العقابَ الّذي يستحقّونَهُ يقيناً. فالذّرةُ ينبغي استغلالُ اكتشافاتها للبناءِ والتَّعميرِ وليسَ استعمالُها للإرهابِ والتَّدمير.

خامساً: الإنسان وصيٌّ على أشياء الطبيعة وليس بمالك لها

ويترتَّبُ على معنى النَّصِّ بصورتِهِ الكاملةِ التَّسليمَ بأنَّ مالكَ هذا الكونِ وما فيهِ هو خالقنا اللّهُ جَلَّ شأنُهُ وأنَّنا لا نَملك شيئاً على سبيلِ الأصالةِ بل على سبيلِ الولايةِ ولا يحقُّ لنا التَّصرُّفَ بشيءٍ إلاّ وِفقاً لأوامرِ اللَّهِ تعالى المنصوصِ عليها في كِتابهِ العزيز.

وعلى هذه الصّورةِ تكونُ هذه المُنطلقاتُ الخمسةُ قد شكَّلتْ الحلقةَ الأولى من حلقاتِ بحثِ حقوقِ الإنسان الواردةِ في آيِ الذِّكرِ الحكيم. وقد أوردها تعالى في أوَّلِ سورةٍ من سُوَرِ كتابهِ العزيزِ وفي مَعرضِ تقديمِ أوَّلِ حلقةٍ من حلقاتِ قِصَّةِ آدمَ وفي مُواجهةِ أهلِ الكتابِ من اليهودِ والمسيحيِّين. وتذكيراً لَهُمْ بأنَّ ما يطرحونَهُ من حقوقِ الإنسانِ ما أنزلَ اللَّهُ بهِ من سُلطان. ذلكَ أنَّ الباحثَ المُدقِّقَ تتراءى لِعينيهِ مُخالفةَ أدعياءِ حقوقِ الإنسانِ لهذه المُنطلقاتِ التّي أتينا على ذكرها وتعدادها بصورة جلية. ذلك أنهم يحاولون جمع ثروات الأرض في أيديهم ليستعبدوا عن طريقها شعوب الأرض. واستغلوا اكتشافات الذرة لصنع الأسلحة الفتاكة لاستعمار وإخضاع شعوب الأرض أيضا. ويتصرفون بالأشياء المخلوقة وكأنهم مالكوها الحقيقيون. هذا وإن حالهم هذا يتنافى مع ما أنزل الله تعالى على أول أنبيائه من تعاليم ومع ما علم موسى قومه ومع ما وعظ به المسيح الناصري قومه من مواعظ منصوص عيها فيما هو بين أيديهم من أناجيل.

وتذكر يا عزيزي القارئ كيف حدثتك عن حقوق الإنسان الأساسية التي جاء بها آدم عليه السلام. والتي تضمنها قوله تعالى في سورة (طه) ومخاطبا نبيه آدم: : ﴿**إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى.**﴾ . فاعلم يا صاحبي أن الله تعالى لم يورد تلك الحقوق على أنها تختص بآدم وجماعته المؤمنة وحسب. فالقرآن الكريم ما هو بكتاب كاتب قصصي، بل هو كتاب مواعظ وتعاليم وعلوم ومعارف هي في صالح الناس أجمعين. لذلك علينا كمسلمين أن ننظر إلى تلك الحقوق الإنسانية الأساسية على أنها تشكل الحلقة الثانية من حلقات بحث حقوق الإنسان الإسلامي. وهي تفرض على الحكومات الإسلامية تأمين الغذاء والكساء وماء الشرب والمسكن لكل فرد يعيش في ظل أنظمتها، وبالاستعانة بما فرضه القرآن الكريم على المواطنين من فرائض وواجبات مالية ليفسحوا لمواطنيهم فرصة محاولة استعمال عقولهم للتفكير والتعرف على ربهم والفوز بمحبته ورضوانه.

الإسلام أضاف حقوقا أساسية ثلاثة :

وإن شئت الإطلاع على الحلقة الثالثة من بحث حقوق الإنسان التي بحثها القرآن العظيم. فاعلم يا صاحبي أن الله جل شأنه قد زاد على حقوق الإنسان الأساسية التي جاء بها نبيه آدم ثلاثة حقوق تأتي من حيث الأهمية على المرتبة الثانية من تلك الحقوق. وقد طرح هذه الحقوق الثلاثة الإضافية في سورة صغيرة كان تعالى قد

أنزلها في مكة المكرمة ومصاغة صياغة بلاغية معجزة لا يـــدرك مـــا تضمنته من علوم إلا الذي يتدبرها بأصول تفسيرها. وهي الســـورة التي دفعت محمدا رسول الله (ص) ليعلن أن الأسير الذي يعلم عشـــرة من أصحابه القراءة والكتابة يطلق سراحه من دون أن يدفع أهله فدية لإطلاق سراحه.

وتتوق نفسك لمعرفة اسم هذه السورة، ومن منطلق أنـــك كنت قد راجعت التفاسير القديمة فلم تطالع تفسيرا لإحدى الســـور المكية قد تضمن المعلومة التي ذكرتها لك.

أقول:هذه السورة اسمها المعروف هو (سورة الضحى) وهـــي من السور الأوائل التي أنزلها ربنا في مكة المكرمة ولا يتجاوز عـــدد آياتها إحدى عشرة آية. وقد ضمنها الله تعالى ثلاثة حقوق إضافيـــة على حقوق الإنسان الأساسية بالنظر إلى مقتضيات المراحـــل الـــتي ستمر منها الدعوة الإسلامية وما سيطرأ على العالم مـــن متغـــيرات هامة. وقد اختزل الله جل شأنه في هذه السورة الأمور التالية:

١-فقد تضمنت سورة الضحى ثلاثة مواضيع.

٢-الموضوع الأول أنها أنبأت عن بعثتين للإسلام .

٣- والثاني أنها تضمنت أدلة مقنعة على مصداقية نبئه تعالى.

٤-والثالث أنها أضافت ثلاثة حقوق إنسانية زيـــادة علـــى حقوق الإنسان الأساسية، ومصاغة جميعها صياغة بلاغية معجـــزة،

ومطروحة جميعها طرحا فريدا في نوعه وفي مضمونه، وبموسيقية تشنف آذان السامعين تلاوتها . وإليك التفاصيل:

ألا تلاحظ معي أن الله تعالى استهل سورة الضحى بقسمين اثنين ؟ فمن المعلوم أن الإنسان إذا أقسم، فهو يقدم ربه شاهدا على ما ادعاه وزعمه. أما الله جل شأنه إذا أقسم فإنه يقدم ما أقسم به من مخلوقاته شهادة على ما ادعاه. وهذه حقيقة يعلمها العارفون.

فإن نحن أردنا أن نحدد الموضوع الذي أقسم الله تعالى على مصداقيته، نلاحظ أن الله تعالى حدده من خلال قوله : ﴿**ما ودعك ربك وما قلى**﴾ .

إن المفسرين الذين فسروا الآيات القرآنية بالروايات وأسباب النزول، أوردوا سببا يتعلق بفترة نزول قوله تعالى ﴿**ما ودعك ربك وما قلى**﴾ نحن بغنى عن نقله ومناقشته في هذا المقام، من منطلق أن كتاب الله تعالى ما هو كتاب مناسبات، ولا تفسر آياته وهو بترتيب تلاوته الحالية بالروايات وأسباب النزول. بل تفسر بأصول التفسير التي اشتمل عليها كتاب الله العزيز نفسه والتي اشتمل عليها مؤلفي : (أصول تفسير آيات القرآن العظيم) والذي سيترل إلى الأسواق عما قريب إن شاء الله العزيز.

فالذي توصلت إليه باختصار شديد، هو أن قوله تعالى الذي أشرنا إليه وهو ﴿**ما ودعك ربك وما قلى**﴾ يتعلق بحال

الأمة الإسلامية الحاضر. أفلا تلاحظ يا صاحبي كيف أن جميع أنواع المصائب قد نزلت بالأقطار الإسلامية الحاضرة، وكيف تكالبت عليها الأمم الغربية، وتخلفت شعوبها إلى حد مخز، حتى عاد ضعفاء الإيمان يقولون بلسان حالهم أن رب الإسلام ودع دين نبيه وقلاه.

فإن سلمت معي يا عزيزي القارئ بهذه الحقيقة، تعود هذه الحقيقة تشكل قرينة تنقل الكلمتين اللتين أقسم الله تعالى بهما وهما: ﴿**والضحى. والليل إذا سجى** ﴾ من معناهما المتبادر إلى ذهنك إلى معناهما المجازي. وبذلك يكون الله تعالى قد قدم من خلال قسمه المذكور زمني (ضحى الإسلام، وعصر انحطاط الأمة المعاصر الذي هو بمثابة (ليل سجى) قد قدمهما لتشهدا على أن رب الإسلام ما ودع دين نبيه وما قلاه.

والآن لاحظ معي يا صاحبي كيف أنه تعالى ما إن فرغ من هذا التقديم، إلا وتلاحظه راح يقول: ﴿**وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾. فهو سبحانه وتعالى أتى بكلمتين، كل كلمة منهما تقابل الأخرى وهما كلمتا (الأولى والآخرة).فما هو المقصود من هاتين الكلمتين ؟

والذي أراه هو أن الله عز وجل قد جاء هنا بتقابل كلامي وهو أحد أساليب البلاغة. فهو جل شأنه أتى بكلمة (الأولى) في مقابل كلمة (الضحى). كما أتى بكلمة (الآخرة) في مقابل قوله (والليل إذا سجى). ولتعني كلمة (الأولى) بعثة الإسلام الأولى.

ولتعني جملة (والليل إذا سجى) بعثة الإسلام الثانية والـــتي يكـــون زمنها هو زمن تخلف الأمة الإسلامية وابتعادها عـــن روح تعـــاليم القرآن الكريم، وتهافت أعداء الإسلام عليها تهافتهم على قصعة ثريد. والذي يؤكد أن المقصود من كلمة (الآخرة) هنا هذا المعنى الأخـــير الذي أوردناه هو أن هاتين الكلمتين وردتا معرفتين بالألف والـــلام. كذلك فالملاحظ هو أنه تعالى استعمل هنا كلمة (خير مـــن) وهـــي كلمة تستعمل في مقابل كلمة (شر من) حســـبما ورد في معجـــم (محيط المحيط)، وليصبح المعنى أن خيرات البعثة الآخرة أعظم عطاء .

وعليه فإن الله تعالى ووفقا للمعاني التي توصلنا إليها، يكـــون قد بشر نبيه محمدا (ص) ببعثة ثانية تؤدي إلى بعث دينه من جديـــد تبعث زمن انحطاط أمته وتحمل من الخير للإسلام أعظم مما أتت بـــه بعثة الإسلام الأولى من خيرات. علما بأن وحي هذه البشارة قد نـــزل في السنوات الأولى في مكة وكان القصد منه التخفيف مما كان يعانيـــه محمد (ص) في مكة المكرمة هو وأصحابه من مهانة واضطهاد .

وليلاحظ القارئ كيف أن الله عز وجل لم يبشر رسوله هذه البشارة العظيمة هكذا ومن دون التدليل على مصداقية ما بشره بـــل راح يقدم له هذا الدليل من معطيات ماضيه والذي يثبت من خلالـــه توجه ربه نحوه بشكل خاص. ولنلاحظ معالم ذلك الدليل مما قالـــه تعالى بعد ذلك : **﴿ألم يجدك يتيما فآوى. ووجدك ضالا فـــهدى. ووجدك عائلا فأغنى ﴾**. فما معنى هذا الكلام البلاغي ؟

فالذي يتبادر لذهن القارئ من الكلمات الواردة في هذه الآيات (يتيما، ضالا، عائلا) أنها استعملت بمعانيها المتبادرة لذهنه. وهو ما فعله المفسرون القدماء. والتي إن أخذنا بها فلا تبدي لأعيننا امتيازا وفضلا كبيرا . على حين أننا لو أخذنا لكلمة (يتيما) معناها المجازي، وعلى شاكلة ما فعلناه سابقا، أي أن محمدا كان يتيم دهره فريدا في شخصيته وفيما كان يتصف به من صفات، فآواه ربه ووضعه في المترلة التي كان يستحقها بين الناس، يبرز من جراء ذلك معنى هو في غاية الأهمية ويبرز هذا المعنى عظمة فضل الله تعالى على نبيه الكريم. ثم إن الذي يدعونا لنأخذ بالمعنى المجازي لكلمة (يتيما) هنا، هو فعل (يجدك) نفسه. فهذا الفعل أحد أفعال القلوب، ويعني ألم يعلم ربك بحالك ويظفر بك على أن شخصيتك الفريدة تصلح لحمل أعظم رسالة سماوية في الوجود ؟ فهذا المعنى تضمنه (محيط المحيط) وهو معنى ينافي المعنى الحقيقي لكلمة (يتيما) .

وكمثلها كلمة (ضالا) فلم يقصد بها معناها الحقيقي. وهل يكون (ضالا) من عرف بين قومه بالصادق الأمين ومن انتسب إلى حلف الفضول دفاعا عن المظلومين، وتحنث في غار حراء سنوات وهو منقطع عما حوله من الناس ؟ هذا وإن فعل (وجدك) نفسه يشكل قرينة تنقل كلمة (ضالا) من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي . ويعني الإنسان المندفع بكليته بحثا عن حقائق الأشياء وعن موجدها. وهو المعنى الذي يصف حال محمد (ص) الذي كان عليه قبل أن يؤتى رسالة الإسلام الحنيف.

ثم إن كلمة (عائلا) قصد بها معناها المجازي أيضا لنفس السبب الذي أوردناه آنفا. ومعناه أنك عدت مرجع الناس في شتى العلوم. وليس أغنى الناس مالا ماديا، لأن من المعروف أن محمدا (ص) لم يورث أحدا مالا .

وعليه فبالإمكان اختصار معنى هذا الدليل الذي قدمه الله تعالى لنبيه الكريم من خلال قوله: **﴿ألم يجدك يتيما فآوى. ووجدك ضالا فهدى. ووجدك عائلا فأغنى﴾**أنه تعالى يذكر نبيه محمدا (ص) كيف أنه كان يعلم بأنه جوهرة زمانه وفريد عصره مؤهلات وسلوكا لذلك اصطفاه لحمل رسالته السماوية وآواه. كذلك كان يعلم تفرده بالبحث عن الحقيقة ومندفعا في ذلك بكليته لذلك هداه وعرفه على ربه عز وجل. كذلك كان يعلم بأنه كان يحاول الإطلاع على ما لدى الناس من علوم ومعارف، فأغناه عن ذلك وجعله مرجعا معرفيا لجميع الناس وفي كل زمان ومكان.

فلما انتهى الله جل شأنه من بيان ذلك كله، جعله مناسبة صالحة ليزيد على حقوق الإنسان الأربعة الأساسية التي جاء بها آدم عليه السلام، حقوقا ثلاثة جديدة استدعتها المتغيرات الزمنية ولتعمل أمة محمد (ص) بموجب معطياتها عملا غير منقوص.

فما هي هذه الحقوق الجديدة التي استحوذ عليها الإنسان بمقدم هذا الدين الإسلامي الحنيف ؟ لقد عبر الله تعالى عنها من

خلال قوله تعالى في الآيات الأخيرة من سورة الضحى بقوله تعالى : **﴿فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدث﴾**. ويكون الله عز وجل قد أتى بكلمات (اليتيم، السائل،النعمة) بمعانيها المجازية أيضا.

فالمقصود من كلمة (اليتيم) هنا هو الإنسان المناسب ليحتل مركزا بعينه، فإن أغفل المسؤولون تعيين هذا الإنسان في المكان المناسب لكفاءته. فسيظل هذا الإنسان مقهورا ومغلوبا على أمره وفي حالة جبر واضطرار للبقاء بغير تكميل لدراسته، وتحرم الأمة بالتالي من مؤهلاته . وليس المقصود هنا من كلمة اليتيم يتيم الأبوين.

والمقصود من كلمة (السائل) هنا هو الطالب المتفوق في دراسته. فهو في مأساة إذا سد في وجهه باب التحصيل العالي لعجزه عن تحقيق ذلك لأسباب مادية . فمن واجب الدولة وأرباب الخير أن يقدموا إليه يد العون المادي. كيلا يحطموا ما يحمله من قدرات فطرية موهوبة لديه، ويبقى بذلك منهورا. حيث تقول: نهر السائل إذا زجره و لم يلب طلبه (محيط المحيط). وليس المراد من كلمة (السائل) هنا المتسول المحتاج .

وأما قوله تعالى: **﴿ وأما بنعمة ربك فحدث﴾**وبمعناها المجازي، كونها تتضمن حقا ثالثا من حقوق الإنسان التي أتى بها هذا الدين الحنيف، وهو ضرورة جعل العلم مجانيا في مدارس الدولة لإفشاء العلم بين الناس، وليس قصره على أصحاب الإمكانيات

المادية. فهذا هو المعنى المقصود من قوله تعالى في آخر آية من آيات سورة (الضحى)، وليس إفشاء المال المادي .

وهذه المعاني توجهنا لنفهم كثيرا من أقوال محمد (ص) المروية لنا. أ فلم يبلغ مسامعنا قوله (ص) :(أفشوا العلم بينكم). وقوله مخاطبا أسراه: كل من يعلم عشرا من صحابتي لا يحتاج إلى فدية تفديه من الأسر. وأمثالها من الأقوال ؟

فأعظم يا عزيزي القارئ بمعطيات هذه الحقوق الإنسانية التي أكسبتك إياها تعاليم هذا الدين الحنيف، والمصاغة صياغة بلاغية معجزة يتبادر منها غير ما تضمنته. خصوصا وأنها مستهلة بحرف التوكيد (أما) للتأكيد على أولي الأمر بالعمل على هذه الحقوق. وقد فصل الله عز وجل أيضا بين كل واحد من تلك الحقوق الثلاثة بفاء استئناف، إشعارا من جانبه تعالى للقارئ باستقلالية كل حق من تلك الحقوق الإنسانية .

وعلى هذه الصورة نكون قد أدركنا الحكمة التي استدعت تضمين سورة الضحى هذه الحقوق الإنسانية الثلاثة التي ذكرناها. فقد كان في علم الله الغيبي أن أعداء الإسلام سيتغنون بموضوع حقوق الإنسان يوم تترل المسلمين وانحطاطهم وتخلفهم. وقد قدر الله تعالى أن يكشف عن وجه حقوق الإنسان التي جاءت بها الأديان السماوية على أيدي رجالات البعثة الثانية للإسلام يومئذ ليثبت من خلال ذلك كون الله هو المختص بعلم الغيب.

وهكذا أكون يا صاحبي قد كشفت لقارئي العزيز عن الحلقة الثالثة من حلقات بحث (حقوق الإنسان) الواردة في هذا الكتاب المقدس والمبارك والمتصف بالدوام والنماء على مر الأيام .

وعلى هذه الصورة تتبين حلقة بعد أخرى كلما أمعنا نظرنا وتدبرنا آيات هذا القرآن العظيم . وبإمكان الباحث أن يؤلف بعدها كتابا مستقلا موضوعه (حقوق الإنسان في الإسلام) .

فالقرآن الكريم بحث هذا الموضوع من جميع جوانبه وعلى ضوء منطلقاته التي أسلفنا ذكرها سابقا. ويكفي قوله تعالى الوارد في الآية (١١٨) من سورة هود : ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين** ﴾ والمعنى هو أن الله عز وجل ما شاء أن يخلق الإنسان غريزيا كبقية الكائنات الحية التي يشكل كل مخلوق منها أمة واحدة. بل شاء أن يميز الإنسان بهبة العقل والإرادة وحرية الاختيار، أملا أن يستعمل هذا الإنسان عقله وإرادته وحريته الشخصية التي تساعده على التعرف على خالقه والعمل على تعاليمه واحترام حرية سواه من الناس، لكن الذي حدث هو أن هذا الإنسان لم يستفد مما ميزه خالقه به على سواه من المخلوقات، وراح يستعمل ما آتاه ربه من قوى في غير ما خلقت من أجل تحقيقه. وأخذ الناس يستعبد بعضهم بعضا وما يزالون مختلفين .

هذا وإن الإنسان الذي يطالع آيات هذا القرآن العظيم يلاحظ يقينا أن ربنا عز وجل ما ترك زاوية من زوايا حياة هذا

الإنسان إلا ونبهه هناك إلى ما للإنسان من حقوق على ذاك الصعيد. أي أن الله تعالى قد نبه في كتابه العزيز إلى أن حقوق الإنسان تصنف على درجتين: أن يوفر بادئ ذي بدء لهذا الإنسان ما يسد رمقه ويغنيه عن الاستجداء. وأن يوفر له دخل يعينه على الحياة. وأن يوفر له ما يحتاج من الشرب. وأن يوفر له مسكنا يأويه. وفي المرحلة الثانية أن يعطى هذا الإنسان المطمئن على حياته حق التعبير عن رأيه فيما يطرح عليه ويواجهه من مشاكل وأمور. وأن تترك له حرية الاعتقاد كما يشاء. فقد قال ربنا جل شأنه بكل صراحة على صعيد العقيدة (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وقال بكل صراحة أيضا (لا إكراه في الدين) . وكمثل ذلك على جميع الأصعدة، مما لا مجال لتعداده في هذا المقام، فموضوع بحثي هو نشوء الإنسان وليس حقوق الإنسان الذي هو بحاجة إلى كتاب مستقل . وإن ما ذكرته من هذا الموضوع فلتعلقه ببعثة آدم عليه السلام .

حقوق الإنسان ما بين الوضعية والدينية

لقد وضح لنا القرآن الكريم أن البشر انقسموا ببعثة آدم عليه السلام إلى فريقين: مؤمن وكافر. فالفريق الكافر اختلف أفراده دوما مع ما كانت تأتي به الأديان. بسبب أن المؤمن يفكر بأسلوب تفكير روحاني. على حين أن الإنسان البعيد عن الدين يفكر بأسلوب تفكير مادي محض، فهو لا يقر بوجود شيء خارج هذا الكون المادي، ولا

ينطلق إلا من قوانين الكون المادية المعروفة. من هنا حدث اختلاف الفريقين في موضوع حقوق الإنسان.

فلهذا السبب عاد من الطبيعي جدا أن يختلف مضمون بحث ما للإنسان من حقوق لدى المتدينين المؤمنين بالشرائع السماوية المترلة عنه لدى الفريق الآخر من غير المؤمنين.

فهذه حقيقة نشاهد معالم آثارها في وقتنا الحاضر. فمن هو الشخص الذي لا يسمع صوت مؤسسات تدعو إلى إعطاء الإنسان حقوقه التي هي بالمفهوم الذي تفهمه الدول الغربية والأمريكية المعاصرة ؟ هذه المؤسسات التي أصبح لها فروع في أغلب الدول العربية والإسلامية أيضا، من دون أن يبرز إلى مسرح الأحداث عالم مسلم يطرح موضوع حقوق الإنسان الذي جاء به الدين الإسلامي الحنيف وبشكل موضوعي.

فهذه الهجمة المدروسة والمخطط لها في العالم الغربي (العلماني)، لا تستند إلى معطيات الفريق المؤمن المتدين الذي ذكرناه، بل هي تمثل مجتمعا علمانيا غربيا قائما على نظام رأسمالي قائل بحرية السوق الاقتصادية، وبعد أن استعمر سابقا أكثر بقاع الأرض فاستغل ثرواتها وساقها إلى بلاده ظلما وعدوانا وبخلاف رغبات أهل تلك البلاد. وبعد أن جمعت طائفة رأسمالية معدودة الأفراد تلك الأموال في أيديها، حتى باتت تتحكم في مقدرات دول العالم قاطبة بما جمعته من أموال بطرق غير شرعية وخلاف ما تعلنه من حقوق

هذا الإنسان الذي بات يخشى تهديدها بما اخترعته من أسلحة فتاكة تستعملها حين تشاء ومن غير ضابط من شرعية دولية ولا وازع من دين سماوي. ثم إن هذه الأمم الغربية، ما عاد في العالم شعب لا يعرف أن زعماء تلك الأمم الغربية يزنون الأمور بميزانين وخلافا لما يدعونه من حقوق الإنسان. فالمفكر المحايد يتساءل: ومن أعطى هؤلاء الحق أن يفرضوا على العالم نظامهم الاقتصادي وما يدعونه من حقوق الإنسان التي يعلنون ؟

فهذا هو حال الفريق غير المؤمن والعلماني الذي يعاصرنا، وصاحب الأنظمة الوضعية، والمخطط للهجمة الشرسة سالفة الذكر والذي يحاول بسط هيمنته على العالم أجمع. والظان أن خالق هذا الكون لا سلطان له عليهم، ولا ضرورة تستدعي إعادة النظر فيما يعملونه ويخططون له .

أقول: يا عزيزي القارئ لن يستقيم أمر الناس ولن يستتب الأمن في عالمنا إذا لم نربط موضوع حقوق الإنسان بالدين. خصوصا وأني كنت أثبت لك في كتابي هذا أن الإنسان هو كائن حي من جملة هذه الكائنات الحية ومخلوق، لكنه امتاز عنها بما وهبه خالقه إياه من هبة العقل الذي هو خارج هذا الدماغ، والذي أثبت العلم والنقل أنه جوهر خالد خلود نفس الإنسان نفسها، وأنه لن يموت ولن يتفسخ كما يموت هذا الجسد الترابي ويتفسخ مع مرور الزمن. وعليه فقد كان من الضروري جدا ربط موضوع حقوق الإنسان بما

أتت به الأديان وخصوصا ما أتى به هذا الدين الإسلامي الحنيف الذي هو آخرها وخاتمها.

فأنت يا صاحبي لابد أن تكون قد أحطت علما بما أتت به شريعة آدم عليه السلام من حقوق أساسية لهذا الإنسان على حكوماته القائمة في أي زمان ومكان من العالم. كذلك لابد أن تكون قد أحطت علما بما أتى به الدين الإسلامي من حقوق إضافية على تلك الحقوق الأساسية، وهو الامر الذي اقتضته المتغيرات الحادثة في عالمنا المعاصر، بالإصافة إلى ما وضحته تعاليم هذا الدين على مختلف المستويات ما للإنسان من حقوق.

فهذه الحقوق الإنسانية التي بينها الدين الإسلامي وتلك الحقائق العائدة إلى زمن آدم عليه السلام، قد أنزل خالقنا معلوماتها منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، وليس في هذه الأيام التي تسمع فيها أصداء المناداة بالعمل على حقوق الإنسان، ومن جهة عادت شعوب العالم تئن وتتوجع من ظلمها وهيمنتها بما لديها من أسلحة فتاكة مدمرة استعملتها لإخضاع كثير من الحكومات المعاصرة وخلافا لقوانين الشرعية الدولية، وبلا وازع من دين سماوي أيضا.

فإن سلمت معي يا صاحبي بكوننا مخلوقين، وبكون تعاليم الدين الإسلامي هي خاتمة التعاليم السماوية، كان من الواجب عليك حينئذ أن تستجيب لصوت ربك وتربط موضوع حقوق الإنسان بمعطيات دينك الإسلامي الحنيف. وأنت تعلم أنك إذا لم تفعل ذلك

فقد أشركت بالله شركا خفيا ومنحت عبادا مثلك حق التشـريع في هذا المجال، وتكون قد اتخذت لله أندادا من دون الله عز وجل. هـذا ما أفتى به قول خالقك وربك في الآية (٢١) من سورة البقرة: ﴿**يـا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم، والذين من قبلكم، لعلكـم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء، وأنزل مـن السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون.**﴾ .

فلاحظ يا عزيزي القارئ كيف استهل خالقك الآيـة الأولى بقوله تعالى:(يا أيها الناس اعبدوا ربكم...) ومستعملا فعل الأمـر (اعبدوا). هذا اللفظ الذي يعني حسـبما ورد في معجـم (محيـط المحيط):عبد الله معناه أطاع أوامره وخضع وذل بين يديه وخدم دينـه والتزم ما شرعه له وكان من الذين يوحدونه فلا يتخذ معه أندادا له.

وليس معنى (اعبدوا) أنها كلمة تعني الركوع والسجود بـين يديه عز وجل. فعملية الركوع والسجود مرتبطة بمفهوم (الصـلاة) ليس إلا. ومن ظواهر إطاعة الله الخالق، عملية الالتزام بما صرح بـه هذا الدين من حقوق لهذا الإنسان المخلوق.

ولاحظ معي أيضا كيف دلل خالقنا على أنه الخالق الـذي لا يستحق أحد من مخلوقاته أن يطاع وخلافا لأوامره المنصوص عليـها فيما أنزله من تعاليم في كتابه المقدس قائلا: ﴿ **الذي جعـل لكـم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به مـن**

الثمرات رزقا لكم.﴾. فهذا الكلام يشكل في حقيقته دليلا علميـــا متعدد العناصر يثبت من خلاله وجود خالق لهذا الكون وما فيه مـــن كائنات حية مخلوقة .ومن ثم أنهى الله تعالى آية هذا الدليل، فأتى بفاء الاستئناف وقال آمرا إيانا كمسلمين: ﴿ **فلا تجعلوا للـــه أنـــدادا، وأنتم تعلمون** ﴾. فهو تعالى أتى بكلمة (أندادا)، وهي جمع (نـــــد) والند في لغتنا العربية هو: النظير (محيط المحيط). وليصبح المعـــــنى: أن الأخذ بما يطرحه هؤلاء الغربيين من حقوق إنســـان، ليســـت هـــي حقوق الإنسان التي نص عليها هذا الدين الإسلامي الحنيف، والـــتي شرعها الله الخالق لعباده المتقين. تلك الحقوق التي أسسها ربنا عـــز وجل على منطلقات نظرية، سبق لي أن عددتها مـــن قبـــل، والـــتي اشتمل عليها قول ربنا جل شأنه في الآية (٢٩) من نفس الســـورة، والتي استهلها تعالى بقوله: ﴿ **هو الذي خلق لكـــم مـــا في الأرض جميعا...** ﴾ . على حين أن هؤلاء العربيين لا ينطلقون فيما يعرضونـه من حقوق للإنسان معلنة، من هذه المنطلقات الـــتي بينـــها القـــرآن العظيم. بل يستقونها مما تفتقت عنه عقول فلاسفة الرومان.

فعلى هذه الصورة أكون يا صاحبي قد أثبت لك كمؤمـــن بهذا الكتاب السماوي الأخير، ضرورة ربط موضوع حقوق الإنســان بالدين. وخاصة بما نصت عليه تعاليم هذا الدين الإسلامي الحنيـــف. فإن لم تفعل، فقد اتخذت لخالقك (أندادا)، وتكون بالتـــالي قـــد

أشركت به شركا خفيا أيضا، وأبعدت نفسك عن زمرة المؤمنين المتقين. وبهذا تحرم نفسك من الفوز بمحبة ربك وقربه ورضوانه. فهذا أولا.

وثانيا-وأنت ترى وتسمع كل يوم بأن أمريكة فرضت على الدولة كذا (عقوبات اقتصادية). فتجوع شعبا بأكمله، من أجل أن تخضع حكومته. وتدعم ذلك بتحريض ذاك الشعب على حكومته بل وتمد المناهضين لتلك الحكومة بالمال والسلاح علنا، وخلافا لما تفرضه عليها القوانين الدولية المرعية والمتفق عليها دوليا. فمن منح هذه الدول الغربية حق تجويع شعوب بأكملها، ومن الذي منحها حق التدخل في شؤون دول غير دولها؟ إلا أن تكون تقدم على ما تقدم عليه على غير أساس من دين، وعلى منطلقات ما أنزل الله ربنا بها من سلطان ؟

فهذه (العقوبات الاقتصادية) التي تستعملها الدول الغربية كما هو معروف في أيامنا هذه، لا يقرها هذا الدين الإسلامي الحنيف. فأنت لابد أن أحطت علما بالحقوق الأساسية للإنسان التي كان قد أمر الله تعالى بها آدم والتي ابتدأ بها مسيرة الأديان. فلا يجوز لأي كان من الحكومات فرض عقوبات اقتصادية على أخرى ولتؤدي تلك العقوبات إلى حرمان شعب تلك الحكومة من تأمين الغذاء اللازم لغذاء أطفاله وأبنائه. أفلا تلاحظ يا صاحبي كيف أن هذا الخالق قد هيأ لكل دابة تدب على الأرض طعامها ومستقرها ولوازم حياتها ؟ وهل يعقل أن يأمر بخلاف ذلك بحق أشرف

مخلوقاته وهو هذا الإنسان ؟ أما هذه الدول الغربية من (زرق العيون) المنذرين بالعذاب في نهاية المطاف في هذا القرآن العظيم، فيخالفون، أبسط هذه المسلمات، لابتعادهم عن الدين ومعطياته .

ثالثا–وبهذه المناسبة أرى أن أطلعك يا صاحبي على ما يؤكد لك مصداقية ما ذكرته لك آنفا من موضوع ابتعاد الأمم الغربية وخصوصا أمريكة عن كل ما هو إنساني وابتعادهم عن تعاليم الأديان السماوية السامية، وأن كل ما يدعونه ويفعلونه إنما القصد منه بسط هيمنتهم على العالم أجمع ومتجاوزين في ذلك كل منطق طبيعي .

وهذا الدليل المشار إليه ينحصر في أن الرئيس الأمريكي الحالي ألقى عام ١٩٩٨م خطبة في حضور كبار الضباط الأمنيين في وزارة الدفاع (البتاغون). وقد أعلن في خطبته المذكورة صراحة بأن سيادة الحضارة الأميركية ستعم العالم بأسره في القرن الواحد والعشرون، ولن يبق في الكرة الأرضية من سيتحدى زعامتها. وقد حث أولئك الضباط الأمنيين على السعي للحفاظ على أسرار التكنولوجيات العسكرية المتطورة، ومن منطلق أن العالم لم يعد يعرف الحدود الجغرافية ولا العرقية. وأن الدولة التي تحصل على ما لدى أمريكة من تكنولوجيات عسكرية متطورة ستعرض أمن أمريكا لخطر كبير. (علما بأن وزارة الخارجية الأمريكية قامت بترجمة الخطبة المذكورة ووزعتها على جميع الدبلوماسيين وعلى أصحاب الصحف والمجلات، ومنها مجلة فلسطين العدد السابع، السنة ١٦تموز ١٩٩٨م)

ألا إن مضمون الكلمة المذكورة، تلك التي ألقاها الرئيس الأمريكي قبل عام مما جرى ويجري في عالمنا من أحداث، إن دل على شيء، فإنما يدل صراحة على أنه (يتنبأ) بما يخطط للوصول إليه في الخفاء هو وبقية الزعماء الغربيين من زرق العيون. وبمعنى أن ما يجري في عالمنا من اضطرابات ومآسي، يحدث ذلك كله بتحريك من تخطيط الزعماء المذكورين. ولا يحدث ما يحدث من باب الصدف كما يبدو ذلك ظاهرا للعيان. على حين أني أرى أن هذا القرآن الكريم (ينبئ) عن هلاك المذكورين في بداية القرن الواحد والعشرون.وكل ما هو آت قريب. فمالك هذا العالم هو الله العزيز الجبار. هذه وإني أسست اجتهادي المذكور على معطيات قول ربنا عز وجل في الآيات الأواخر من سورة الفتح: ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا. محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا، يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه، فآزره، فاستغلظ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما**﴾. والله يفعل ما يشاء.

وخلاصة القول هو أن من واجب المؤمن أن يربط موضوع حقوق الإنسان بالدين وبمعطياته التي تفرق ما بين حقوق هذا الكائن

الإنسان وما بين حقوق سائر الكائنات الحية الأخرى التي خلقها الله عز وجل ومسخرة له. كذلك أن ننطلق في تقسيم ثروات هذه الأرض من منطلق أن لكل فرد من البشر حقوقا متساوية في مجال الانتفاع من عطاءاتها. فلا يجوز قيام أحد من البشر باحتكار شي من أشيائها. كما لا يجوز لأحد أن يقوم بتكديس الأموال بين يديه. ولا أن يرفض تشريعا سنه الخالق على هذا الصعيد. كما أن من واجبنا الاعتقاد بوجود جانب خير وجانب شر في كل شيء من أشياء هذه الأرض. وأن يقوم العلماء بدراسة كل شيء منها دراسة علمية وموضوعية، والقيام بوضع حصيلة دراساتهم التي يتوصلون إليها في خدمة الإنسانية، وليس لاستعباد هذا الإنسان. وأن نضع نصب أعيننا بأننا مجرد أوصياء على الأشياء التي هي بين أيدينا، وأما المالك الحقيقي لهذا الكون كله فهو الله عز وجل الذي أبدعه وهدانا إليه.

فهذه هي أهم المنطلقات التي نبعت منها حقوق الإنسان التي شرعها الدين الإسلامي الحنيف. على حين أن حقوق الإنسان التي تنادي بها هذه الأمم الغربية، فهي حقوق وضعية تجاهلت وجود خالق لهذا الكون، وانطلقت فيها الأمم المذكورة من منطلق تفكير مادي محض ليس إلا، فاستحلت وحرمت في وقت قد انتحلت فيه حقا لا تملكه أصلا. لذلك فإن المتجول في ديار تلك الأقوام، باحثا ومدققا، يلاحظ أن حكومات تلك الدول تنفق على رعاية الحيوانات أكثر مما تنفقه على المعوزين هناك. وتثبت بذلك الفعل أنها لم تنطلق في موضوع حقوق الإنسان من المنطلق الذي انطلقت منه أحكام

حقوق الإنسان الإسلامية. كذلك يلاحظ هذا الباحث أن تلك الشعوب كانت قد استعمرت أكثر بقاع الأرض بغير حق واستولت على أموال الأقطار التي استعمرهّا وبطرق غير مشروعة فجمعتها في أيدي أشخاص معدودين بغاية استعمار شعوب الأرض اقتصاديا. وهي ظاهرة تئن منها شعوب تلك المستعمرات السابقة وفي مختلف قارات هذا الكوكب الأرضي. وهو تصرف غير شرعي في تعاليم حقوق الإنسان التي نادت بها شريعة السماء. كذلك فقد استغلت الأمم الغربية معطيات اكتشافات العلوم التي حصلت عليها لصنع أسلحة الدمار الشامل ولإرهاب بقية شعوب العالم ولفرض سيادهّا عليهم في كل مكان من عالمنا الأرضي .

وعليه فواقع الأمم من أصحاب (العيون الزرقاء) الحالي يتنافى كلية مع الإعلان الذي أعلنه الله جل شأنه في الآية (١٣) من سورة الحجرات، والذي قال تعالى فيه: ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾.

لاحظ يا عزيزي القارئ كيف أن هذا الخطاب الإلهي المقدس قد وضع مقصدا وغاية لتباين البشر ما بين ذكر وأنثى، وما بين القوميات المختلفة. وقد عبر تعالى عن هذا المقصد الأسمى بكلمة (لتعارفوا) وبمعنى ليتعرف بعضكم على بعضكم الآخر ولتتعايشوا فيما بينكم وعلى قدم المساواة فلا تستعمر قومية قومية أخرى غيرها، واضعين نصب أعينكم أن أكرمكم عند الله أتقاكم.

ولتلاحظ يا صاحبي أن الله جل شأنه كان وعظ قبل إعلانه المذكور وقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون**﴾. وكيف تظن الأقوام الغربية نفسها غير ظالمة وأنها عاملة على مبادئ حقوق الإنسان، وفي وقت يخالف زعماؤها وشعوبها مضمون هذه الموعظة الربانية بكل وضوح وغرور ؟

٥-الغرب مقلد ومستغل لمبادئ حقوق الإنسان

وإن الشخص الذي يسمع في أيامنا هذه أصوات المنادين بحقوق الإنسان، يذهب ذهنه إلى أن الدول الغربية المعاصرة هي التي ابتدعت هذه المبادئ منذ انتصارها في الحرب العالمية. لكن الحقيقة هي أن الأمم المذكورة مقلدة الرومان في ذلك، ومستغلة لتلك المبادئ في أيامنا هذه، بغاية إثبات أنها متحضرة، وأن بقية شعوب الأرض متخلفة في هذا المجال.

على حين أن القرآن المجيد حين بلغنا خطاب ربنا الموجه إلى الناس كافة في الآيات الأوائل من سورة البقرة، والذي قال تعالى فيه: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ..) فقد أنهى تعالى خطابه المذكور بقوله تعالى (لعلكم تتقون) و لم ينهه بقوله (لعلكم تتحضرون)، ولا لتصبحوا أسياد الشعوب الأخرى. أي أنه

جل شأنه قد ربط مضمون خطابه المذكور بنتائج أعمال الإنسان وبيوم الحساب القادم بعد موت جميع الناس.

فالذي ينبغي عليك أن تسأل نفسك به يا صاحبي: هل فكرت شعوب الأمم الغربية يوما هذا التفكير الذي دعانا إليه خطاب ربنا السالف الذكر، وهو (لعلكم تتقون) ؟ أم أنهم يسخرون المناداة بمبادئ حقوق الإنسان من أجل تحقيق مصالحهم الشخصية ولفرض سيادتهم على بقية شعوب الأرض ؟ ودون وجل أو حياء من خالقهم الذي استبدلوه بمخلوق إنسان ؟

وإليك يا صاحبي إحصائيات تقشعر لها الأبدان، وتصور لك مبلغ التفاوت الكبير الذي تسببت به سياسات الدول الغربية المعاصرة والحادث ما بين شعوبها وما بين شعوب بقية العالم المعاصر.

أولا–لقد أدى النظام الاقتصادي الرأسمالي الذي تلتزم به شعوب أوروبة وأمريكة إلى استقطاب رؤوس الأموال في أيدي نفر معدود في بلادهم. وقد أثبتت إحصائيات عام ١٩٩٦م أن عدد النفر القليل المشار إليه لا يتجاوز (٣٥٨) شخصا مليارديرا . وأن هذا العدد القليل يملك أفراده (٤٥) بالمائة مما يملكه بقية سكان العالم، فهم بذلك قد أصبحوا أغنى أغنياء عالمنا المعاصر.

والنتيجة الرهيبة التي أسفر عنها نظامهم الاقتصادي الرأسمالي المذكور أن الفقر ازدادت نسبته في بقية دول الأرض إلى درجة تزلزلت معها اقتصاديات (٨٩) دولة من بقية دول الأرض، فتدهورت بذلك أحوال معيشة ما يزيد عن مليار وستمائة ألف نسمة

من سُكّان الأرض. وعلى هذه الصورّة فقد تأتّى عن النِّظامِ الاقتصاديِّ الرّأسماليّ ظهورُ فجوة ما بينَ الدُّولِ الغنيَّةِ وما بينَ الدُّول الفقيرةِ يستحيلُ إمكانيَّةُ ردمها إلاّ بالقضاء على النِّظام الاقتصاديِّ المذكورِ وأهلِهِ من أساسه، علماً بأنَّ عددَ سُكّان أوروبّةَ وأمريكةَ لا يتجاوزُ (٢١) بالمائةِ من سُكّانِ كُرتنا الأرضيَّة .

ثانياً–لابُدَّ أن تكونَ يا صاحبي قد سمِعتَ عن وُجودِ طبقةِ الأوزون المُحيطةُ بالكُرةِ الأرضيَّةِ فهيَ بمثابةِ سقفٍ لها تَحمي أهلَ الكرةِ الأرضيَّةِ من أخطارِ تأثيرات أشعَّةِ الشَّمسِ فوق البنفسجيَّةِ والّتي ثبتَ أنَّها تتسبَّبُ للّذي يُعرِّضُ جسمَهُ إليها دقائقَ طويلةً بنُشوءِ ما سمّاهُ العلماءُ بسرطان الجلد. فتصوَّر يا صاحبي أن تبقى طبقةُ الأوزونُ هذه مليارات السَّنوات سالمةً ومن ثمّ يتسبَّبُ نظامُ العالمِ الغربيِّ الاقتصاديّ الرَّأسماليِّ بحُدوث ثُقبٍ في طبقةِ الأوزون المذكورة ومن جرّاءِ هذه الآلات الّتي اخترعوها وتعملُ على الطّاقةِ أيضاً. علماً بأنَّهُ أثبتتِ الإحصائيّاتُ بأنَّ نسبةَ (٢٨) بالمائةِ من استهلاك الطّاقةِ العالميِّ يحدُثُ في أمريكةَ وكندا وحدهُما من دونِ بقيَّةِ العالم.

واعلم يا صاحبي أنَّ القُرآنَ العظيمَ نبَّهنا منذُ أربعة قرنٍ من الزّمانِ إلى وُجودِ طبقةِ الأوزون السّالفةِ الذّكرِ وذلكَ في الآيةِ (٣٢) من سورةِ الأنبياءِ والّتي قال تعالى فيها : ﴿ **وجعلنا السّماءَ سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها مُعرضون**﴾ . فالمقصودُ من (سقفاً محفوظاً) الإشارةِ إلى طبقةِ الأوزون المذكورةِ بدليلِ أنَّ رجلاً سألَ رسولَ اللّهِ (ص) عن السَّقفِ المحفوظِ الواردِ في هذه الآيةِ الكريمةِ. فأجابهُ رسولُ

اللّهِ (ص) بكلمات مُفعمةٍ بالحقيقةِ العلميَّةِ وتتناسبُ معَ عقلِ السّائلِ وإدراكِهِ وفهمِهِ وقال:(هيَ مَوْجٌ مَكفوفٌ عنكُم.) –تفسير ابن كثير. ومعلومٌ أنَّ كلمةَ (مَوج) تستعملُ في زماننا تعبيراً عن حُزمِ الأشعَّةِ من أيِّ نوعٍ كان. فهي بذلكَ تدخُلُ في بابِ الاصطلاحات العلميَّة وبمعنى أنَّ رسولَ اللّهِ (ص) قد قصدَ بكلمةِ (موج) الأشعَّةَ فوق البنفسجيَّةَ القادمةَ من جهةِ الشّمس. فالسَّقفُ المحفوظُ يحولُ دونَ وُصولِ تلكَ الأشعَّةِ إلى الأرضِ لِصيانةِ الإنسانِ من أخطاره.

ثالثاً–لقد دلَّتِ الاحصائيّاتُ على أنَّ دَخلَ الشَّخصِ في العالمِ الغربيِّ ما بينَ عامَي ١٨٧٠–١٩٦٠م كانَ يُساوي (٣٨) ضعفاً أزيدَ من دَخلِ الشَّخصِ من سُكانِ بقيَّةِ العالم. فكشفتْ تلكَ الإحصائيّاتِ عن مدى الفارقِ الكبيرِ ما بينَ الأحوالِ الاقتصاديَّةِ لدى الطَّرفين. وتعالَ يا صديقي إلى إحصائيّاتِ عام (١٩٨٥)م فستُلاحظُ أنَّ فارقَ (٣٨) ضعفاً قد ارتفعَ إلى (٥٢) ضعفاً وأزيدَ بقليل. فماذا يحملُ هذا المؤشِّرُ لِعالَمِ اليومِ من احتمالات ؟

إنَّما يدُلُّ هذا المؤشِّرُ صراحةً على أنَّ أصحابَ نظامِ الاقتصاد الحُرّ الرأسماليِّ الّذي اختطَّتهُ دُولُ (زرقِ العيون) يخفي وراءهُ تخطيطاً جهنَّميّاً لاستعمارِ العالمِ بأجمعِه على الصَّعيدِ الاقتصاديِّ وهو مُخطَّط قد لاحتْ بوادرُهُ في أيّامنا هذه، حيثُ نسمعُ عن (نادي باريس) وعن (صُندوقِ النَّقدِ الدُّوليّ) وعن الأدوارِ التي يلعبُها (النَّفرُ القليلُ) من أثريائهم بِمُقدَّراتِ شعوبِ العالمِ كُلِّه.

رابعاً—وقد دلّتِ الإحصائيّاتُ أيضاً على أنّ الدُّولَ الغربيَّةَ قد بلغَ ما صدَّرَتهُ ما بينَ عامي (١٩٥٠–١٩٥٥)م من أسلحةٍ إلى بقيَّةِ الدُّولِ خارجَ عالَمها، ما قدَّروهُ بثمانيةِ مليارات من الدّولارات، وقد تجمَّعتْ هذه المبالغُ الكبيرةُ بينَ أيدي نفرٍ قليلٍ مِن أصحابِ مصانعِ السِّلاحِ في الغرب. كما دلّتِ الإحصائيّاتُ اللاحقةُ على أنّ هذا الرَّقمَ من الأموالِ قد ارتفعَ عام (١٩٩٠)م إلى (١٣١) مليار دولار تكدَّستْ بينَ أيدي (النَّفر القليل) المُشارُ إليهم أعلاه. علماً بأنّ دُولَ سوقِ السّلاحِ الغربيَّةِ هي خمسةُ دُول، ولها خمسةُ مقاعدَ في مَجلِسِ الأمنِ الدُّوليّ، ويُحرِّكُ هذه الدُّولِ الخَمسةُ (النَّفرُ القليلُ) من أصحابِ الأموالِ المُكدَّسةِ في حَوزَتِهم .

فمن خلالِ تلكَ الإحصائيّاتِ الّتي أطلعتُكَ عليها، عُدتَ تُدركُ يا عزيزي القارئ ماذا تخفي صيحاتُ مؤسَّساتِ حقوقِ الإنسان المُتعاليةُ في هذه الأيّام. وماذا تُخفي الدَّعواتُ الصّادرةُ من هناكَ للعملِ بنظامِ الاقتصاد الحرِّ الرأسمالي. والدَّعواتُ إلى مَنعِ صُنعِ أسلِحةِ الدَّمارِ الشّاملِ خارجَ إطارِ الدُّولِ الّتي تملكُ في أيّامنا الأسلحة الذَّرية. كما تكونُ يا صاحبي قد أدركتَ المعاني المُخيفةَ الّتي انطوتْ عليها خُطواتُ أمريكةَ وحلف الأطلَسيّ حينَ استهترتْ وتستهتِرُ في أيّامنا هذه بقوانينِ الشَّرعيَّةِ الدُّوليَّة.

ومن واجبي أن أُطلِعكَ في هذه المُناسبةِ على ما أنبأَتْ بهِ آياتُ هذا القُرآن المقدَّس والمبارك والمُتَّصفُ بالدَّوامِ والنَّماء بما يتعلَّقُ بشعوبِ ودولِ (زرقُ العيون) المذكورين وباختصارٍ شديد. فاعلم يا

صاحبي أنَّ القرآنَ الكريمَ أشارَ إليهم باسمٍ (يأجوج ومأجوج) كما أشارَ إليهم باسم (أبو لَهب) . وهي أسماءُ تجدُ تفسيرَها فيما أيَّدَني بهِ ربّي من مؤلَّفات زادت اليومَ على ثلاثة عشرَ مؤلَّفاً والحمدُ للّه على ذلكَ الفضلِ الّذي أسبغهُ عليّ.

فهذه هي النَّتائجُ المُنتظرةُ من وراءِ الإعراضِ عن صوتِ السَّماءِ للإصغاءِ لِصوت ذُرِّيَّةِ إبليس. فالغربُ مُستغِلٌّ لِمبادئ حقوقَ الإنسانَ الّتي كانَ قد ابتدَعها الرّومانُ، والّتي ما أنزلَ اللّهُ تعالَى بها من سُلطان. فإنْ شاءَ البشرُ البحثَ والعملَ على مبادئِ حقوقِ الإنسان. فلا سبيلَ أمامهُم إلاّ ما أتى بهِ كتابُ اللّهِ العزيز .

❁❁❁

البابُ الثالث

الفصل الأوّل: تطوُّرُ الإنسان بعدَ زمنِ آدم

فقد تَتوقُ نفسُكَ يا عزيزي القارئ بعد أن أطلَعتُكَ على ما أتى بهِ آدمُ عليهِ السَّلامُ من شريعةٍ هي أقربُ منها إلى تعاونيَّةٍ صغيرةٍ، منها إلى شريعةٍ ذاتِ تعاليمَ وأحكامَ شرعيَّة. وعلى ما أحدثتهُ تلكَ التَّعاونيَّةِ من نقلَةٍ جذَريَّةٍ في حياة هذا البشرِ الّذي أمضى قبلَ ذلكَ قُرابةَ أربعة ملايينِ ونصفٍ تقريباً من الأعوام.

فتتوقُ نفسُكَ إلى معرفةِ ما أحدثتهُ يدُ الخالقِ بعد زمنِ آدمَ المذكور. خصوصاً وأنَّ المعلومَ من تاريخِ هذا الإنسانِ على حسبِ ما دلَّتْ عليهِ شواهدُ التَّاريخ الّذي نُطالِعهُ في المدارسِ لا يتجاوزُ فترةً بحدود ستَّةِ آلاف من الأعوام.

لذلكَ فإنَّكَ ستُلاحظُ من خلالِ ما سأُطلِعُكَ عليهِ من معلوماتٍ أنّي أستقي معلوماتي ممّا أطلَعنا عليهِ كتابُ اللَّهِ العزيز، والّذي اعتقدنا بأنَّهُ تنزيلُ ربِّ العالَمين. فهي معلوماتٌ تُعدُّ من قبيلِ علمِ الغيبِ مادامَ الإنسانُ لم يعثر على آثارٍ دالَّةٍ على تلكَ المعلومات .

أوّلاً- ماذا حدثَ بعدَ زمنِ توبةِ آدم؟

تَذكَّرُ يا عزيزي القارئ كيفَ أنّي أطلَعتُكَ على مُعطياتِ قِصَّةِ آدمَ عليهِ السّلام المذكورةِ في سورةِ البقرة. وانتهيتُ من ذلكَ

عندَ قولِهِ تعالى: **﴿فتلقّى آدمُ من ربِّهِ كلمات فتابَ عليه إنَّهُ هو التَّوابُ الرَّحيم﴾**. تتساءلُ: وماذا حدثَ بعدَ أن تابَ اللّهُ تعالى على نبيِّهِ آدم ؟

أقولُ : أ فلم تقرأ يا صاحبي ما قالهُ ربُّنا عزَّ وجلَّ بعدَ ذلكَ: **﴿قُلنا اهبطوا منها جميعاً، فإمّا يأتينَّكُمْ منّي هدىً فمَن تبِعَ هُداي، فلا خوفٌ عليهِم ولا هُم يحزنون. والّذينَ كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئكَ أصحابُ النّارِ هم فيها خالدون﴾**.

إنَّ هاتينِ الآيتينِ تُشعِرانكَ بما حدثَ بعد أنْ تابَ اللّهُ تعالى على نبيِّهِ آدمَ عليه السلام. فقد أدّى الذّنبُ غيرُ المُتعمَّدُ الّذي ارتكبهُ آدمُ إلى حِرمانهِ ممّا كانَ فيه، ولكنْ إلى أينَ انتقلَ آدمُ وجماعتُهُ المؤمِنةُ في تلك الفترةِ الزَّمنيَّة ؟ دلَّنا على ذلكَ قولهُ تعالى (اهبطوا) أي ارتحلوا إلى مكانٍ آخرَ بعيداً عن هذا المكان الّذي تسبَّبَ خطؤكَ يا آدمُ بهذه المحنةِ وبهذا الابتلاء لكَ ولِجماعَتِكَ المؤمنة. (محيط المحيط)

وهنا فقد تركَ اللّهُ العزيزُ لنا أن نجتهدَ لِمعرفةِ موقِعَ المكانِ الجديد الّذي انتقلَ إليهِ آدمُ عليه السلام. والاجتهادُ في هذه المسألةِ لابدَّ أن نبنيهِ على مُعطيات قرآنيَّةٍ أيضاً ونسنُدُها بما أفادنا به العلمُ المُختصُّ واستناداً إلى الأصلِ التَّفسيريّ الّذي سبقَ لي أن تكلّمتُ عنهُ سابقاً والّذي أفادنا بهِ أمرُ ربِّنا عزَّ وجلَّ:(فاسألْ بهِ خبيراً.) .

فمن حيثُ خبرةِ العُلماء، فقد كتبَ مؤلّف (تاريخ سوريّا الحضاريّ القديم)، وهو الدّكتور أحمد داوود على الصّفحةِ (٤٠) من مؤلّفهِ يقول: (تمكّنَ العلماءُ من تحديدِ البقعةِ الّتي ظلّتْ في مَنآى عن

طُغيان الجليد. إنَّها البُقعةُ المُمتدَّةُ من وسَطِ شبهِ جزيرة العرب لِتَشمَلَ سوريَّةَ الطَّبيعيَّة كُلَّها، والبحرَ الأبيضَ المُتوسِّط بشاطئَيْهِ: الشَّمالي والجنوبيّ، مُروراً بجَنوبِ فرنسا وجنوبِ بريطانيا وُصولاً إلى الشَّواطئ الأمريكيّة الوسطى وأعلى الجنوبيَّة. وقد أُطلِقَ على هذا الشَّريط اسم الحزامُ الحيويُّ، أي الصّالِحُ للحَياة.) . وهذه الحقيقةُ حدَّدتْ لنا الإطارَ الجغرافيَّ للمنطقةِ الّتي وُجدَ آدمُ فيها، والّتي هاجرَ ضمنَها أيضاً وبذلكَ نكونُ قد حصرنا منطقةَ آدم عليهِ السّلام على وجه التَّقريب.

وقد ثبتَ من خلال مُعطَيات عِلمِ المُستحاثّات أنَّ البشرَ ظلّوا يقطنونَ الكهوفَ طِوالَ أربعة ملايين ونصف من الأعوامِ على وجهِ التَّقريب. وهو أمرٌ سبقَ لي عرضُهُ وبحثُهُ بشكلٍ مُبسَّطٍ سابقاً أيضاً أي أنَّ من غيرِ المنطقيِّ القول في مجالِ وجودِ هاتين المعلومتين العلميَّتَين بأنَّ آدمَ عليه السّلام قد هاجرَ إلى شمالِ مَنطقةِ سواد العراق بل إلى جَنوبهِ وبعيداً عنه وباتِّجاه أرضِ الحجاز، تلكَ الأرضُ الّتي كانت منذ قُرابةِ عشرةِ آلاف من السّنينَ مُخضرَّةً ومُشجَّرةً وتجري ينابيعُها وأنهارها أيضاً. فلم تكُنْ في تلكَ الأيّامُ على شاكلَةِ ما هيَ عليهِ اليوم. فهذا هو ما تحدَّثَ عنهُ الكشفُ العلميّ. وبهذا الأسلوب العلميِّ نكونُ قد وَضعنا أساساً مُحدَّدَ الإطارِ، لنستندَ إليهِ عند محاولةِ استدلالنا القُرآني على المَوطِنِ الّذي هاجرَ إليهِ آدمُ بعد تلقّيهِ أمرَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ وهو قولهُ تعالى (اهبطوا منها جميعا).

وأوّلُ دليلٍ قُرآنيٍّ أستشِفُّهُ من فعلِ الأمر (اهبطوا) الآنفِ الذّكر. هو استشفافي من هذه الكلمةِ الأمرَ بالهجرةِ إلى جنوبِ سوادِ

العراقِ وليس إلى شمالهِ الّذي لو كانَ هو المقصودُ لكانت كلمةُ (اصعدوا) أنسبَ لهُ من حيثُ الدّلالة.

والدّليلُ الثّاني أستقيهِ من مُعطياتِ الآيةِ (٩٦) من سورة آل عِمران الّتي قال تعالى فيها: **﴿ إنَّ أوّلَ بَيتٍ وُضِعَ للنّاسِ لَلّذي بِبَكّةَ مُباركاً وهُدىً للعالَمين.﴾** .

فإنْ نحنُ دقّقنا في كلمةِ (وُضِعَ) فالوضعُ يردُ بمعنى الموضعِ أيضاً. حيثُ يُقالُ: ضعِ اللّبنةَ غيرَ هذه الوضعةَ بمعنى أنّكَ تأمرُ بوضعِها في مركزها المُناسبِ لها. (محيط المحيط)

وعليهِ يُصبحُ معنى قوله تعالى: **﴿ إنَّ أوّلَ بيتٍ وُضعَ للنّاسِ لَلّذي ببكّةَ.﴾** أنّ الموضِعَ الجغرافيّ لأوّلِ مكانٍ أُقيمَ لعبادة اللّهِ خلوجَ الكُهوفِ هو بيتُ عبادةِ اللّهِ لَلّذي بِبَكّةَ الّتي هيَ مكّة المُكرَّمة. فهذا هو معنى هذه الآيةِ المُصاغةِ صياغةً بلاغيّةً مُعجزة. ومكّةُ تقعُ جنوبَ منطقةِ سواد العراق. الأمرُ الّذي يؤكّدُ أنّ اللّهَ تعالى كانَ قد أمرَ آدمَ لِيُهاجرَ إلى منطقةِ مكّةَ بالذات. كما كانَ قد فعلَ معَ إبراهيمَ عليهِ السّلامُ فيما بعدُ، فقد أمرهُ أن يرحلَ برفقةِ هاجرَ وابنها إسماعيل إلى نفسِ المكان، ولِيُجدِّدَ تعميرَ هذا البيتَ الّذي بناهُ آدمُ من قبلُ، ولِيتحقّقَ صدقُ ما وصفَ تعالى به هذا البيتَ وهو:(مُباركاً وهدىً للعالمين.).

ففي هذا الشّطرِ الأخير من هذه الآيةِ الكريمة أي:(..مُباركاً، وهُدىً للعالَمين.) إشارةٌ واضحةٌ إلى أنّ اللّهَ تعالى هو الّذي أمرَ نبيّهُ آدم أن يُهاجرَ إلى المكانِ المذكورِ، بداعي أنّهُ كانَ في عِلمِ اللّهِ الغيبيّ

أنَّ مكانَ العبادةِ المذكورَ سيكونُ في المُستقبلِ (مُباركاً وهدىً للعالَمين.) وليسَ هُدىً لِقومٍ مُعيَّنٍ من الأقوام . وبألفاظ أُخرى فإنَّ اللَّهَ تعالى قد جعلَ بيتهُ العتيقَ المذكورَ شاهداً مُبيناً على أنَّ اللَّهَ تعالى هو نفسُهُ الّذي كشفَ للنَّاسِ الغطاءَ عن وُجودِ ذاتِهِ جلَّ شأنُهُ مُنذُ أن بعثَ نبيَّهُ آدم. فتَوحيدُ اللَّهِ تعالى ابتَدأهُ النبيُّ آدمُ، وليسَ بصحيحٍ زَعمُ فلاسفةِ الغربِ بأنَّ فكرةَ عبادةِ اللَّهِ تولَّدتْ لدى البشر بالتَّدريج.

فعلى هذه الصّورة نكونُ يا صاحبي قد حدَّدنا المكانَ الّذي هاجرَ إليهِ آدمُ بعدَ قبولِ اللَّهِ تعالى توبتَه. وما دامَ اللَّهُ تعالى كانَ قد أنطقَ نبيَّهُ آدم بأحرُفِ هجاءِ لُغةِ الضّاد تلك الّتي شكّلت أساسَ لُغةِ القُرآنِ التّي نتكلّمُها، وهو الأمرُ الّذي سبقَ لنا أن أثبتنا مِصداقيَّتهُ، فمعنى ذلكَ أنَّ البشرَ الّذينَ عاصروا آدمَ واحتكّوا بهِ قد تعلّموا هذه اللُّغةُ أيضاً وتخاطبوا فيما بينهُم بها يقيناً. حتّى أنَّ بإمكاننا القولُ بأنَّ لُغةَ الخطابِ والتَّفاهُمِ هذه أمست مشغلةَ النّاسِ في تلكَ الحُقبةِ من الزَّمان، إلى جانبِ مُحاولاتٍ جرتْ لِتقليدِ تعاونيَّةِ آدمَ ونظامِها. جرى هذا كُلُّهُ في حُدودِ المنطقةِ العربيَّةِ الّتي أثبتَ العلمُ أنَّها كانت آنذاكَ مُخضرَّةً جميعُها وتجري فيها أنهارُها وينابيعُها، ومن جُملَتِها النَّبعُ الّذي سُمِّيَ فيما بعد باسم (نبع زمزم). فهذا ما توصَّلَ إليهِ اجتهادي في هذا الموضوعِ المُتعلّق بفترةِ زمنٍ ما بعدَ توبةِ آدم عليهِ السّلام.

ثانياً–الأممُ الّتي ظهرتْ بعد أمَّةِ آدم

والسُّؤالُ الّذي يطرحُ نفسهُ هنا: كيفَ تطوَّرتِ الأحوالُ بعدَ زمنِ آدم عليه السّلام وما هو دليلُنا القُرآني؟

نعثرُ على جوابِ هذا السّؤالِ من خلالِ مُعطياتِ الآيةِ (٦٩) من سورةِ التَّوبةِ الّتي صنَّفتْ وبتسلسُلٍ تاريخيٍّ علميٍّ أسماءَ الأممِ الّتي أعقبَ ظهورُها ظهورُ بعثةِ آدمَ عليه السّلام وهي قولُهُ تعالى بأُسلوب الاستفهام ﴿ **ألم يأتِهم نبأُ الّذينَ من قبلِهم قومُ:نوحٍ وعادٌ وثمودُ وقومُ إبراهيمَ وأصحاب مِدينَ والمؤتفكات، أتتْهُم رسلهم بالبيِّنات، فما كانَ اللّهُ ليظلِمَهم ولكنْ كانوا أنفُسهُم يظلِمون.** ﴾.

فهذه هي أسماءُ الأممِ الّتي ظهرَت إلى الوُجود بعدَ بعثةِ آدمَ وبالتَّرتيبِ الزَّمنيِّ أيضاً. وهي الأممُ الّتي لم يتعرَّفُ المؤرِّخونَ الباحثونَ على أسمائها وتواريخها، بسبب عدم اعتقادهم بمصداقيَّةِ هذا القُرآنَ العظيمِ الّذي أثبتَتْ القرونُ الأربعةَ عشرَ الماضيةَ مصداقيَّةِ جميع أنبائه فلأممُ الّتي أتت على ذكرها هذه الآيةُ الكريمةُ، غطَّتْ تواريخُها زمنَ ما بينَ بعثةِ آدمَ وما بين ما هو معروفٌ من تاريخِ مَنطِقتنا العربيَّة .

هذا وإنَّ ما يؤكِّدُ صحَّةَ ما ذكرتُهُ، هو مضمونُ الآيةِ (٣٣) من سورةِ آلِ عِمران الّذي صنَّفَ بعثةَ النَّبيِّ (نوح) بعد بعثةِ النبيِّ (آدم)، حيثُ جاء: ﴿ **إنَّ اللّهَ اصطفى آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمرانَ ....** ﴾ الأمرُ الّذي يُستفادُ منهُ أنَّ أمَّةَ نوحٍ أتتْ بعدَ أمَّةِ آدم مُباشرةً . كذلكَ يُؤكِّدُ وجودَ هذا التَّرتيبَ الزّمنيَّ قولُ النبيّ هود في الآية (٦٥) من سورةِ الأعرافِ وهو يُخاطِبُ قومه: ﴿ **واذكروا**

إذ جعلكم خُلفاءَ من بعدِ قومِ نوح.﴾ . كذلكَ يؤكّدُهُ قولُ النَّبيّ صالحُ في الآية (٧٤) من سورةِ الأعراف نفسها، وهو يُخاطِبُ قومهُ: **﴿واذكروا إذ جعلكم خُلفاءً من بعدِ قومِ نوح.﴾** وأمثالُ هذه الآيات التي ثبتَ منها جميعِها ذكرُ أسماء الأممِ الّتي توالت ما قبلَ ستَّةِ آلافِ عامٍ وما بعد بعثةِ آدمَ عليه السلام.

ثالثاً–محورُ دياناتِهم وُجودُ اللَّهِ ووحدانيَّتِه

ولقد نبَّهنا كتابُ اللَّهِ العزيز إلى أنَّ محورَ الدّيانات الّتي نادى بها أنبياءُ الأممِ الّتي ظهرتْ بعد أمَّةِ آدم، دارَ حولَ وجودِ ذاتِ اللَّهِ تعالى وأنَّ اللَّهَ أحدٌ لا شريكَ لهُ وأنَّ الغايةَ من خلقِهِ هذا الإنسان هو أن يدفعهُ لِيتعرَّفَ على ربِّهِ ولِيفوزَ بمحبَّتِهِ وقُربهِ ورضاه. وهو نفسُ المحورِ الّذي تدورُ حولهُ تعاليمُ الإسلامِ الحنيف، والّذي استهلّتهُ الآيةُ العشرون من سورةِ البقرةِ بخطابهِ تعالى: **﴿ يا أيُّها النّاسُ اعبدوا ربَّكُمُ الّذي خلقكُم والّذينَ من قبلكُمْ لعلّكُم تتَّقون.﴾** .

فها أنَّ القرآنَ العظيمَ يُخبرُنا في الآية (٥٩) من سورةِ الأعراف موجزَ ما خاطبَ بهِ (نوحٌ) قومه، والّتي وردَ فيها: **﴿ ولقدَ أرسلنا نوحاً إلى قومهِ، فقالَ: يا قومِ اعبدوا اللَّهَ، مالكُم من إلهٍ غيرُهُ، إنّي أخافُ عليكُم عذابَ يومٍ عظيم.﴾** . فقد ركّزَ هذا الخطابُ على وُجودِ اللَّهِ تعالى، وعلى أنَّهُ أحدٌ لا شريكَ لهُ في مُلكِهِ، وعلى أنَّ المقصدَ من حياةِ البشر هو ضرورةُ سعيهم للتَّعرُّف على ربِّهم وعبادته، وأنَّ مَن لا يستجيبُ لهذا الصَّوتِ الإلهيِّ ينتظرهُ (عذابُ يومٍ

عظيم) . وقد أخذ الطّوفانُ المعروفُ بطوفانِ نوحٍ كُـــلَّ الّذيـــنَ لم يستجيبوا للتَّحذيرِ الذي حذَّرَ بهِ نوحٌ قومه.

كذلكَ فإنَّ الآية (٦٥) من سورةِ الأعرافِ أوجزتْ ما دعـا إليهِ النبيُّ هودٌ قومه والّتي وردَ فيها: ﴿ **وإلى عاد أخاهُم هوداً، قـــالَ يا قومي اعبدوا اللَّهَ، مالكُمْ مِن إلهٍ غيرُه، أفلا تتَّقون.** ﴾ . وقد ركّزَ خطابُ هودٍ أيضاً على وجودِ اللّهِ تعالى، وعلى أنَّهُ أحدٌ لا شريكَ لـهُ في مُلكِهِ، وعلى دعوةِ قومهِ إلى التَّعرُّفِ على ربِّهم وعلـــى السَّـعيِ لِلفوزِ بمحبَّتِهِ وقُربهِ ورضاه.

كذلكَ فإنَّ الآيةَ (٧٣) من سورةِ الأعرافِ أوجزتْ للقـارئ ما دعا به النبيُّ صالحٌ قومَه، والّتي وردَ فيها: ﴿**وإلى ثمـــود أخـــاهُم صالحاً، قالَ: يا قومِ اعبدوا اللَّهَ، ما لكُم من إلهٍ غيرُه، قد جـاءتكُم بيِّنَةٌ من ربِّكُم، هذه ناقةُ اللَّهِ لَكُم آية فذروها تأكُلْ في أرضِ اللَّـهِ، ولا تمسُّوها بسوء، فيأخذكم عذابٌ أليم. واذكـــروا إذ جعلكُـم خُلفاءَ من بعدِ عادٍ وبوّأكُم في الأرضِ تتَّخذونَ مِن سُهولِها قُصـوراً وتنحتونَ الجبالَ بيوتاً، فاذكروا آلاءَ اللَّـــهِ ولا تعثَـوا في الأرضِ مُفسدين.**﴾ وقد ركّزَ هذا الخطابُ على وُجودِ اللّهِ تعالى وعلى أنَّــهُ أحدٌ لا شريكَ لهُ في مُلكِهِ وعلى أنَّ المقصدَ من خلـــقِ اللّـــهِ لهـذا الإنسان هو للتّعرُّفِ عليهِ وعبادته.

فهذه الخطاباتُ الّتي خاطبَ بها من جاءَ بعدَ آدمَ من أنبيـــاء، واحدةٌ في مضامينها، ممّا يدلُّ على وِحدةِ مَصدرها وهو الخالقُ عـــزَّ

وجلَّ الّذي خلقَ الإنسانَ وراحَ يُطوِّرهُ منذُ نُشوئهِ مروراً بنبيِّـــــهِ آدم وانتهاءً بسيِّدِ رُسُلِ اللّهِ أجمعين.

وهذه الحقيقةُ تضمّنتها مُعطَياتُ الآية (٣٦) من سورةِ النَّحلِ الّتي صرَّحَ تعالى فيها وبصورةٍ عامَّةٍ: ﴿**ولقد بعثنا في كُلِّ أُمَّةٍ رسولاً أن اعبُدوا اللّهَ واجتنبوا الطّاغوتَ، فمنهُم مَن هدى اللّهُ، ومنـــهُم مَن حقَّتْ عليهِ الضّلالةُ، فسيروا في الأرضِ فانظُروا كيفَ كـــانَ عاقبةُ المُكذّبين.**﴾ . وقد أشارَ تعالى في تصريحِهِ العامِّ هذا نفسَ مـــا تضَّمنتهُ جميعُ خطاباتِ أنبياءِ اللّهِ الّتي أوردناها آنفاً. من وجودِ خـــالقٍ إلى وُجودِ هذا المخلوقِ ولِغرَضٍ أسمى. وأنَّ المكذّبينَ لهـــذهِ الحقـــائقِ تسوءُ عاقبتُهُم ويستحقّونَ العذابَ.

ولا ينبغي أن يمُرَّ القارئُ على الفقرةِ الأخيرةِ من الآيةِ الآنفـــةِ الذّكرِ وهي قولهُ تعالى فيها: (..فانظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ المُكذّبـــين.) مُرورَ الكرام. كلاّ، فإنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قد قدَّمَ في هذه الفقرَةِ دليـــــلاً لِيُثبتَ من خلالِهِ مِصداقيَّةَ ما صرَّحَ بهِ وأخبرَ عنـــهُ .فـــهذه الفقـــرةُ اشتملَتْ على دليلٍ اصطُلِحَ على تسمِيتهِ بمُصطَلح (دليلٌ من مَنطِـــقِ التّاريخ). ففِعلُ الأمرُ (انظُروا) اشتُقَّ من قولِكَ: نظرَ في الأمرِ بمعـــنى تدبَّرهُ وفكَّرَ فيه لِيُقدِّرهُ ويقيسُه (محيط المحيط). فمضمونُ هذا الدَّليـــلِ يبرُزُ في أنَّ اللّهَ تعالى، ومن خلالِ قولِهِ (انظروا) يكونُ قدْ قدَّمَ مَنطِقَ مصيرِ الأممِ الغابرةِ دليلاً حيّاً يشهدُ على وُجودِ خالقٍ خلـــقَ هـــذا الإنسانَ ودأبَ على تَطويرِهِ وِفقَ مقصدٍ أسمى مرسومٍ. وإنَّ كُلَّ مَـــنْ

يتناسى هذا المقصدَ من حياتهِ تسوءُ عاقبتُهُ ويستحِقُّ العقاب. وهو المصيرُ الّذي آلَ إليهِ جميعُ الّذينَ كذّبوا رُسُلَ اللّهِ الكرام.

فهذه الدَّليلُ التّاريخيُّ الّذي لَفتَ ربُّنا أنظارنا إليهِ يؤكِّدُ لكَ يا صاحبي بانَّ دمارَ حضارةِ أممِ (زُرقِ العيون) آت على أبوابِ القرن الواحد والعشرون ووفقَ ما أنبأتْ بهِ الآياتُ الأواخرُ من سورةِ هود الّتي انتهيتُ من تفسيرها في هذه الأيّام. فهذه الأممُ الغربيَّةُ قد شابهَ حالُ أهلِها حالَ تلكَ الأممُ الّتي شكّلت مصائرُها منطِقاً تاريخيّاً.

رابعاً–الأديانُ وسائلُها سلميَّةٌ وبعيدةٌ عن العُنف

وإيّاكَ أنْ تظُنَّ يا عزيزي القارئ، بعدَ أن سمعتَ عن عواقبِ المُتناسينَ للمقصدِ من حياتهم، أنَّ الدّينَ يتجنَّبُ الوسائلَ السَّلميَّةَ ويعمد إلى العُنفِ والإكراه في الدّين. كلاّ، فالّذي يُطالِعُ هذا القرآنَ من أوّلِهِ إلى آخره، لا يعثرُ على آيةٍ واحدة تُشعِركَ بأنَّ اللّهَ كانَ يأمرُ أنبياءهُ الكرام أن يستعملوا العُنفَ والإكراهَ في نشرِ ما يُنزلُ عليهم من تعاليم سماويَّة. بل على العكسِ من ذلكَ تعثرُ على آياتٍ وآياتٍ يُخبرنا اللّهُ عزَّ وجلَّ فيها عمّا كانَ يتحمَّلهُ أنبياؤهُ من أذىً واضطهادٍ من قبلِ أقوامهم، وكيفَ كانوا يتحمَّلونَ ذلكَ بصبرٍ ورضى أيضاً. وما كانوا يفعلونَ إلاّ القيامَ بالثبات على ما يدعونَ أقوامهُم إليهِ .

ويكفيكَ يا صاحبي أنْ تتذكَّرَ قصَّةَ آدمَ لِتُدرِكَ مدى التَّسامُحَ الذّي لقّنتكَ إيّاهُ تلكَ القصَّةَ الّتي وردت بمزيجٍ من الحقيقةِ والمجازِ ولسانِ الحالِ، كما سبقَ لنا أن أثبتناه. فإبليسُ كانَ أوّلَ الكافرين فلم

تُلاحظ أنَّ اللّهَ تعالى أمرَ ملائكتهُ أو آدمَ لِيقتلوا إبليسَ المذكور. بل إنَّ ربَّكَ قبلَ رجاءهُ واستمهلهُ إلى يومِ الدّين. وهلْ أوردَ اللَّهُ جلَّ شأنهُ هذه المعلومةَ إلاّ لِيوحي إليكَ أنَّ تعاليمَ الدّينِ لا تُعلِّمُ أن تُكرِهِ أحداً في الدّين؟ هذا **أوّلاً**.

وثانياً-فإنَّ تعاليمَ الإسلامِ التي أذنتْ للمؤمنينَ بعد أن أمضوا ثلاثةَ عشر سنةً يتحمَّلونَ خلالها أذى واضطهاد قومهم لهم حتّى أنَّ بعضهُم قد اضطُرَّ للهجرةِ من مسقطِ رأسهم أيضاً. أقولُ: إنَّ تعاليمَ الإسلامِ الّتي أذنَ فيها ربُّ الإسلامِ لهؤلاءِ المؤمنينَ المُهاجرينَ أن يُقاتلوا الّذينَ يُقاتلونهم. وفي وقتٍ قالَ تعالى فيهِ ﴿**كُتِبَ عليكُمُ القتالُ وهو كُرهٌ لكم.**﴾ . فإنَّكَ تُلاحظُ من طرف آخرَ نُصحَ اللّهِ تعالى هؤلاءِ المؤمنين ويقولهِ لهم: ﴿**فإنْ جنحوا للّسلمِ فاجنحْ لها وتوكَّل على اللّه.**﴾ . وهل تعني هذه التّعاليمُ والآياتُ إلاّ أنْ تكونَ الحربُ الّتي خاضها المؤمنونَ في صدرِ الإسلامِ إلاّ حربٌ هي من قبيلِ الدّفاعِ عن النّفس؟

ثالثاً-الفطرةُ البشريَّة مجبولةٌ على الاختيار: والّذي يُطالِعُ مؤلِّفي (نظريَّةُ جذورِ الأخلاق) يتَّضحُ لهُ من خلالِهِ أنَّ الإنسانَ فُطِرَ على قوى مُتضادّة ومُتوازنةٍ كقوَّتَي البُخلِ والكرَمِ، وقوَّتَي الجُبن والشّجاعةِ، وقوَّتَي الحُبِّ والكُرهِ وأمثالِها من القوى. هذه الصِّفاتُ الطَّبيعيَّةُ الّتي هي أساسُ جميعِ ما يصدُرُ عن الإنسانِ من أفعالٍ وأعمال.

هذا، وإنّ هذه الفطرةَ، وهي على شكلها الّذي ذكرناهُ، قــد مَنحتِ الإنسانَ حُرِّيَّةَ الاختيار، بينَ أن يستجيبَ لِصــوت السّــماء وبينَ أن يستجيبَ لِدواعي مُيولِهِ وأهوائهِ وشهواتِهِ السُّــفليَّة. هــي الحقيقةُ الّتي أعلَنها قولُهُ تعالى في كِتابِهِ العزيزِ: **﴿ونَفسٍ وما سوّاها، فألهمها فُجورَها وتَقواها. قد أفلَحَ مَن زكّاها. وقــد خــابَ مَــن دسّاها.﴾** . وقد عبَّرَ تعالى عنِ الحقيقةِ المذكورةِ من زاويــةٍ أُخــرى وقال: **﴿إنّا هَديناهُ السَّبيلَ إمّا شاكراً وإمّا كفــوراً.﴾** . فــهاتانِ الآيتان قد صرَّحتا بكُلِّ جلاء أنّ اللّهَ تعالى منحَ هذا الإنسانَ وبصورةٍ فطريَّةٍ حُرِّيَّةَ الاختيارِ ولا سُلطانَ لأحدٍ من النّاسِ سواءَ أكانوا أنبيــاءً أو غيرهم، فلا يملكونَ حقَ إكراه هذا الإنسانَ على الاعتقاد خــلافَ قناعتِهِ الشَّخصيَّة. ولذلكَ خاطبَ اللّهُ رسولهُ محمَّداً (ص) وقالَ لــهُ : **﴿إنَّكَ لنْ تهدي مَن أحببْتَ ولكنَّ اللّهَ يهدي مَن يشاء.﴾** . وقــالَ لهُ في مقامٍ آخر: **﴿ أفأنتَ تُكرهُ النّاسَ أن يكونوا مؤمنــين؟.﴾** . وهذا كُلُّهُ فيهِ كُلُّ الدَّلالةِ على أنَّ الإسلامَ يكتفي لِنشــرِ مُعتقَداتِــهِ بالوسائلِ السِّلميَّة.

رابعاً–صلاحيّاتُ الأنبياء لا تتجاوزُ عمليَّةَ تبليغِ الرّسالة:

ثمّ إنّ الّذي يتدبَّرُ آيات كتاب اللّهِ العزيز يُلاحظُ أنّهُ تعــالى قد حدَّدَ الصَّلاحيّات الممنوحةِ لِرُسُلِهِ الكرام، وبمــا لا يتنــافى مــعَ مُعطيات البنودِ الثّلاثةِ التي أوردناها آنفاً. فاللّهُ جلّ شأنُهُ قد صــاغَ هذا النَّهجَ صياغةً بلاغيَّةً، وذلكَ في الآية (٤٨) من سورةِ الأنعام الّتي

قالَ تعالى فيها: ﴿**وما نُرسِلُ المُرسلينَ إلاّ مُبشِّرينَ ومُنذِرين، فمن آمنَ وأصلَحَ فلا خَوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون. والّذينَ كذَّبوا بآياتنا يمسُّهُمُ العذابُ بما كانوا يفسقون..**﴾.

فهذه الآيةُ الّتي لا يتجاوزُ عَدَدُ كلماها خمسةَ عشرةَ كلمة، استوفَتْ بيانَ النَّهجِ المُشارِ إليهِ. وإليكَ يا صاحبي توضيحَ ما زعَمتُهُ لك آنفاً:

١-فتعالَ تدبَّرْ معي دلالةَ قولِهِ تعالى (وما نُرسِلُ المُرسلينَ إلاّ). فهي صيغةُ حصرٍ من جهة. وإنَّ كلمةَ (المُرسلين) وردتْ مُعرَّفةً بالألفِ واللاّم لِتشملَ جميعَ الأنبياءِ والمُرسلينَ المعهودينَ ذهنيّاً.

٢-وإنَّ عمليَّةَ الحصرِ تلكَ حصرها تعالى في كلمةِ (مُبشِّرين) وقد قامَ تعالى بحَذفِ مفعولِ مُبشِّرين بغايةِ أنْ يُساعدنا على تصريفِ هذه الكلمةِ إلى أكثر من دلالة، وهي خُطوةٌ بلاغيَّةٌ عظيمة.ولِتعودَ مُهمَّةُ هؤلاءِ تنحصرُ في عمليَّةِ التَّبشيرِ بالجنَّةِ وبعمليَّةِ التَّبشيرِ بقيامِ نظامٍ جديد.

٣-وقد أتى تعالى بِواوِ العطفِ وأضافَ كلمةَ (مُنذرين) وقد حذفَ مفعولَها لِنفسِ الغايةِ البلاغيَّةِ ولِيعود معناها أنَّ من مهمّات المرسلينَ أن يُنذروا المُكذِّبينَ من عواقبِ أمورِهم. ويُنذروا أصحابَ الأنظمةِ القائمةِ في عُصورِهم بالزَّوال.

٤-ولاحظ يا صاحبي كيفَ أنَّ اللّهَ جلَّ شأنُهُ ما إن انتهى من تحديدِ أُطُرِ صلاحيّات أنبيائهِ ورسلهِ الكرام. إلاّ وأتى بفاءِ الاستئنافِ وراحَ يقولُ بلَهجةٍ مُفعمةٍ بالمحبَّةِ والموعظةِ، قال: (فمَنْ

آمنَ وأصلَحَ) و لم يقل- فمن آمنَ وعملَ الصّالحات- لِيوحـــي بـــأنّ مُهمّات أنبيائهِ ورُسلهِ الكرام هي مُهمّاتٌ إصلاحيَّةٌ وليست انقلابيَّـــةً تعسُّفيَّةً لذلكَ تقومُ عمليّاتُ التبشيرِ بها بوسائلَ سلميَّةً وليسَ بالعُنف.

٥-ولاحظْ يا عزيزي كيفَ أنَّهُ تعالى قد أتى بفاء الاستئناف للمرَّة الثّانيةِ وراحَ يهمسُ في أُذنيكَ معلومةً سيتميَّزُ بها كُلُّ منْ- آمَـنَ وأصلحَ-وقال: (فلا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحزنون.) وبمعنى أنَّ هـــذه الفئةَ المؤمنةَ ستخضعُ أحوالُها إلى التَّقاديرِ الإلهيَّةِ الخاصَّة. والسَّــببُ في ذلكَ أنها أصلحتْ أحوالها وأمستْ تُفكّرُ بأُسلوب تفكيرٍ روحـــانيٍّ، وعادَ جُلُّ همِّها أن تتعرَّفَ إلى ربِّها الّذي أَرسلَ رَسلَهُ لِيُشّعِرَ النـــّاسَ بوُجوده عزَّ وجلَّ .

ثمَّ إنَّهُ تعالى عندما استعملَ كلمةَ النَّفيِ (لا خوفٌ عليـــهم)، فالخوفُ يعتري الإنسانَ أصلاً ممّا يُخبِّئهُ لهُ المُستقبل. فالتّلميذُ يخشـــى أن يسقُطَ في الامتحان. والتّاجرُ يخشى خسارةَ تِجارَتِهِ. والسِّياســـيُّ يخافُ من تراجُعِ شعبيَّتِه. وقس على ذلكَ جميعُ المجالات. أمّا الّـــذي آمنَ وأصلحَ فإنَّ ربَّهُ يُبشِّرهُ بمُستقبلٍ زاهرٍ في جميعِ مجالات حياتِـــهِ، ولا يُطالبْهُ ربُّهُ إلاّ بالمُثابرةِ على السَّعيِ مع التَّوكُّلِ عليهِ عزَّ وجلَّ.

كذلكَ فإنَّ اللّهَ تعالى عندما استعملَ كلمة النَّفيِ (ولا هُـــم يحزنون). فمنَ المعلومِ أنَّ الإنسانَ يحزنُ على ما فاته. لكنَّ الّذي آمـــنَ وأصلحَ فلا يحزنُ على ما فاتهُ، لاعتقاده أنَّ الخيرةَ فيما اختارهُ له ربُّهُ، فهو في حالةِ رضىً في جميعِ أحوالِ حياته.

٦-ولاحظْ يا صاحبي كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى أتى بعد ذلكَ بواو العطفِ الّتي تُفيدُ هنا معنى الحالِ وأضافَ يقول: ﴿**والّذينَ كذّبوا بآياتنا يَمَسُّهُمُ العذابُ بما كانوا يفسقون.**﴾.فهو تعالى لم يقُل-بما كانوا يكذّبون-بل (يفسقون) إشعاراً للقارئ من جانبِهِ تعالى أنَّ مُجرَّدَ التّكذيب لا يستدعي العذاب. لكنَّ الرِّياحَ لا تعودُ تجري لِصالحه. ذلكَ أنَّ كلمةَ (يفسقون) اشتُقّتْ من قولِكَ: فسقَ الرَّجُلُ بمعنى أنّهُ تركَ أمرَ ربِّهِ وعصى ربَّهُ وجارَ عن قصدِ السَّبيلِ وخرجَ عن طريقِ الحقِّ وفجر (محيط المحيط).

وعليهِ يكونُ اللّه تعالى قد حدَّدَ صلاحيّاتِ أنبيائه ورُسُلِهِ الكرامِ في هذه الآيةِ من سورةِ الأنعام. وضمَّنَ الآيةَ بجميعِ هذه المعلومات الّتي أتيتُ على ذكرِها واستنبطتُها منها. والّتي يثبتُ منها جميعها أنَّ وسائلَ نشر الدَّعوة الدينيَّةِ تكونُ سلميَّةٌ وتبتعدُ عن وسائلِ العُنفِ كلَّ الابتعاد. خُصوصاً وأنَّ كلمةَ (مُبشّرين) تحملُ راياتِ البشائرِ، ولا تحملُ راياتِ اليأسِ والقنوطِ والاغتمام. والّذي يُراجعُ صفحاتِ تاريخِ جميعِ الأنبياءِ والمُرسلينَ، يُطالعُ فيها مِصداقيَّةَ ما أتتْ به هذه الآيةُ من سورةِ الأنعامِ من معلومات. وهو الدَّليلُ الّذي سُمِّيَ في عُرفِ الباحثينَ المحقّقينَ باسم (منطقُ التّاريخ).

وهذا المنطقُ التّاريخيُّ قد تجلىّ في النَّقلةِ النَّوعيَّةِ الّتي أحدَثَتها بعثةُ آدمَ في حياةِ البشرِ، وفيما أحدثتهُ بعثاتُ الأنبياءِ من بعده. فكانَ كلّما احتاجَ البشَرُ إلى نقلاتٍ نوعيَّةٍ جديدة نتيجةً للمُتغيِّرات الزمنيَّةِ الحاصلةِ، كلّما أرسلَ اللّهُ تعالى رسولاً بنظامٍ وتعاليمَ مُناسبةٍ فيُحدِثُ

في حياةِ البشرِ التَّغييرَ المناسبَ لِتَهذيبِهِ ولِتقدُّمِهِ ولِدفعِهِ إلى الأمام. فينسخُ اللّهُ تعالى التَّعاليمَ الّتي ما عادتْ تصلُحُ ويأتِ بتعاليمَ خيراً منها ومُناسبةً. فهذا ما أشارتْ إليهِ الآيةُ (١٠٧) من سورةِ البقرةِ من خلالِ قولِهِ تعالى: **﴿ما ننْسخْ من آيةٍ أو نُنْسها، نأتِ بخيرٍ منها أو بمثلِها، ألمْ تعلَمْ أنَّ اللّهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ. ألم تعلمْ أنَّ اللّهَ لهُ مُلكُ السّماواتِ والأرضِ، وما لكُمْ من دونِ اللّهِ من وليٍّ ولا نصيرٍ أفأنتَ تُكرِهُ النّاسَ أن يكونوا مؤمنين؟.﴾** . إلى أنْ أنزلَ اللّهُ تعالى القُرآنَ العظيمَ المُعجزَ صياغةً ومضموناً والصالحةُ تعاليمُهُ لِكُلِّ زمانٍ ومكانٍ والّذي تتَّصفُ تعاليمُهُ بالمرونةِ والتّسامُحِ وبما يُوافقُ جميعَ المُتغيِّراتِ وفقَ قانونِ الصَّيرورة. لذلكَ لم يبقَ من النُّبوَّةِ والرِّسالةِ إلاّ مُهمّاتُ تجديدِ هذه التَّعاليمَ الإسلاميَّةَ الخلاّقة.

إنَّ المنطِقَ التّاريخيَّ المذكورَ يؤكِّدُ لكَ يا عزيزي القارئ وُجودَ الإله الّذي لا شريكَ لهُ في مُلكِهِ والّذي هو ربُّ العالمين. لذا فإنَّ الّذي يتجاهلُ هذا الدّليلَ التّاريخيَ لابُدَّ أن تسوءَ عاقبتُهُ ويقعُ أخيراً تحتَ طائلةِ العقابِ وتحلُّ به النَّدامة.

❁❁❁

الفصلُ الثّاني

ما هي الشّرائعُ الرَّئيسيَّةُ المُنزلَة ؟

هذا سؤالٌ جوهريٌ تأتي أهمّيتُهُ من ناحيةِ كونِ هذه الشّرائعَ تُمثّلُ مشاعلَ نورٍ على طريقِ تطويرِ اللّهِ تعالى لِهذا الإنسانِ المخلوق.

ألا إنَّ اللَّهَ تعالى نفسُهُ قد أجابَ على هذا السُّؤالِ وبأسلوبِ الكاتبِ البارعِ وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزة وقبلَ اليومِ بأربعةَ عشرَ قرناً من الزَّمان. وهذا الجوابُ قد اشتملَتْ عليهِ سورةُ التّينِ ومن خلالِ قولهِ تعالى فيها:﴿ **والتّينِ والزَّيتونِ. وطورِ سينينَ. وهذا البلدِ الأمينِ. لقد خلقنا الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ. ثمَّ ردَدْناهُ أسفلَ سافلينَ. إلاّ الّذينَ آمنوا وعملوا الصّالحاتِ فلهُمْ أجرٌ غيرُ ممنونٍ.فما يُكذّبُكَ بعدُ بالدّينِ. أليسَ اللّهُ بأحكَمِ الحاكمين** ﴾ .

فمنَ المعروف أنَّ ورقَ التّينِ أصبحَ رمزاً عالميّاً يرمزُ الأدباءُ بهِ إلى زمنِ آدمَ عليهِ السّلام. وأنَّ غُصنَ الزَّيتونِ أصبحَ رمزاً عالميّاً أيضاً ويرمزُ الأدباءُ بهِ إلى زمنِ نوحٍ عليهِ السّلام. وأنَّ طورَ سيناءَ يرمزُ إلى مُناجاةِ موسى ربَّهُ هناك. وأنَّ البلدَ الأمينَ هو مكّةَ المكرَّمةَ الّتي ائتمنَت على بيتِ اللّهِ وكعبتِهِ ومسقطُ رأسِ محمَّدٍ العظيم (ص).

وقد استعملَ اللّهُ تعالى هذه الرُّموزَ الأدبيَّةَ المعروفةَ والمُتداولةَ بينَ الأدباءِ من أجلِ التَّعبيرِ بواسطتِها عن هذه الشَّرائعِ الأربعةِ وهي

شرائعُ الأنبياءِ: آدمُ ونوحٌ وموسى ومحمَّدٌ صلواتُ اللّهِ تعالى عليهم أجمعين. هذه الشَّرائعُ الأربعةُ الّتي لعبتْ أدواراً رئيسيَّةً في تطويرِ البشر الذينَ أخرجهُم النبيُّ آدمُ من الكهوفِ منذُ قرابة ثمانيةِ ألفِ عام.

فالمُلاحظُ هو أنَّ اللّهَ تعالى أقسَمَ بهذه الرُّموزِ الأربعةِ. فإذا علمنا بأنَّ اللّهَ تعالى إذا أقسمَ، فإنَّهُ يُقسمُ بأشياءَ من مخلوقاتِهِ، ويُعتبرُ قسمُهُ داخلٌ في باب تقديمِ شهادات من مُعطَيات ما أقسمَ به. وعليهِ يكونُ اللّهُ تعالى من خلالِ قسمِهِ بهذه الرُّموزِ الأربعةِ قد قدَّمَ هذه الشّرائعَ الأربعةَ شهادات على أنَّ تطويرَ هذا البشر لم يستلزمَ من جانبِ اللّهِ تعالى إنزالَ شرائعَ أزيدَ منها لإحداث التَّطويرِ المطلوب خلالَ هذه الثّمانيةِ آلاف عام. فإنْ قُلتَ: إنَّ القُرآنَ الكريمَ قد أخبرنا عن أسماءِ أنبياءَ كثيرينَ وليسَ عن أربعةٍ فقط. قُلتُ: الأنبياءُ قسمان منهما المُشرِّعونَ، ومنهُمُ المُجدِّدونَ التّابعونَ لِصاحبِ شريعةٍ سابق. وعليهِ تُعتبرُ بقيَّةُ ما أخبرنا القرآنُ الكريمُ من أسماءِ أنبياء هم من قبيلِ القسمِ الثّاني المذكور. وهم الأنبياءُ الّذينَ كانت تقتصِرُ مُهمَّتُهُم على تجديدِ تعاليمَ شريعةِ نبيٍّ سابقٍ في أمَّتِهِم.

ما معنى تعدُّدُ الشَّرائعُ السَّماويَّة؟

وهناكَ سؤالٌ يطرحهُ كثيرٌ من الباحثينَ وهو: لِمَ لَمْ يُنزل اللّهُ تعالى شريعةً واحدةً في البدء، وما معنى تعدُّدُ الشَّرائعُ السَّماويَّة؟

ألا إن شاءَ الباحثُ المُفكِّرُ أن يُحيطَ علماً بجوابِ السؤال المذكورِ، فما عليهِ إلاّ أن يفكِّرَ فيما سأطرحهُ عليهِ. أسألُ: لو أنَّكَ

أردتَ أن تُقدِّمَ هديَّةً علميَّةً لابنكَ الصَّغير أو لِحفيدٍ أصبحَ طفلاً فهل تَهديهِ كتاباً يبحثُ في الفلسفةِ أم تَهديهِ قصَّةً مُسلِّية؟ فأنتَ ستهديهِ قِصَّةً مُسلِّيةً حتماً بالنَّظرِ إلى صِغرِ سنِّهِ من جهةٍ ولعدمِ اكتمالِ عقلِهِ من جهةٍ ثانية. أنْ أنَّكَ ستتعاملُ معهُ على حسبِ ما يملكهُ من عقل. خُصوصاً وأنَّهُ لا يدري بعدُ ما الفلسفةُ ومن همُ المُتفلسفون. وعليهِ فلو أنَّ اللَّهَ تعالى كانَ قد أنزلَ شريعةً على المُستوى المطلوبِ في بدءِ تاريخِ البشرِ، لكانَ اتُّهِمَ بأنَّهُ قد خاطبَ البشرَ بما لا يفهمونهُ وبما لا يقدرونَ العملَ على تعاليمه. ولا يصحُّ بالتّالي أنْ يوصفَ اللَّهُ تعالى بكونهِ (حكيمٌ عليم) . فهذه هي حكمةُ التَّدرُّجِ في عمليَّةِ إنزالِ التّعاليمِ السَّماويَّة.

فالإلهُ الخالقُ الّذي طوَّرَ هذا الإنسانَ أحدٌ لا شريكَ لهُ في مُلكِهِ. والدِّياناتُ السَّماويَّةُ المعروفةُ واحدةٌ في الأصلِ ومُترلةٌ من جانبهِ تعالى. وهي في حقيقةِ أمرها بمثابةِ معاهدَ روحيَّةٍ ذاتِ مناهجَ واحدةٍ أيضاً لكنَّها لا تُعطي نفسَ الشّهادة بل تمنحُ شهاداتٍ كُلاً منها على قَدَرِ ما تُعلِّمهُ من عُلوم. فالأصولُ الّتي قامت عليها هذه المعاهدُ الرّوحيَّةُ هي واحدةٌ في جَوهَرِها، ولا تختلِفُ إلاّ في التَّفاصيلِ الّتي تتلاءمُ معَ مرحلةِ المُتغيِّرات الزمنيَّةِ وضروراتها. هذا وإنَّ الصُّحُفَ الدينيَّةَ المُقدَّسةَ الّتي يرجِعُ إليها أتباعُ تلكَ الدّياناتِ في عصرنا، لم تسلَمْ من العبثِ والتَّشويهِ على مرِّ الأيّام. وهو أمرٌ لا مجالَ لِبحثِهِ في هذا المقام. فجميعُ هذه الدّياناتِ تقولُ بِجودِ إلهٍ خالقٍ وبوجودِ ملائكةٍ في مملكتهِ وتُنذِرُ النّاسَ بِجودِ يومِ الحساب. وتقومُ تعاليمُها

على ضرورةِ الصّلاةِ والصَّومِ والتَّضحيةِ بالمال. وإن اختلفت هذه الأوامرُ من دينٍ إلى آخر. هذا وإنّ طبقات الكُهّان قد لعبتْ دوراً أساسيّاً في جميعِ هذه الاختلافات الصّوريَّة على مرِّ الأيّام. كذلكَ فإنّ نوعيَّةَ هذا العبث والتَّشويهِ الّذي أحدثتهُ طبقاتُ الكُهّان في تعاليمِ أديانهم، تعدَّدتْ أشكالُهُ ونوعيّاتُه أيضاً. أمّا هذا القرآنُ العظيمُ فقد سبقَ لي أنْ أثبتُّ مصداقيتهُ في أوائلِ هذا الكتاب.

أنبياءُ اللَّهِ مِثاليّونَ على الصَّعيدِ الخُلُقيِّ

ولا ينبغي أنْ يذهبَ ذهنُكَ إلى أنّ اللّهَ تعالى كانَ يصطفي لِرسالَتِهِ أحدَ الوُجهاءِ أو الأغنياءِ أو العلماء . كلاّ فما كانَ تعالى يلتفِتُ إلى هذه الشَّرائحِ من النّاس، من مُنطلقِ أنّ الوجاهةَ والغنى والمنزلةَ العلميَّةَ ما كانت تصلُحُ كمؤهِّلات لحملِ رسالةِ السَّماء. بل إنَّ الصِّدقَ والأمانةَ والخُلُقَ العظيمَ كانَ يُشكِّلُ شرطاً أساسيّاً لِعمليَّةِ الاصطفاءِ المذكورة. وأن تكونَ هذه الصِّفاتُ أيضاً بشهادةٍ من أهلِ ذاكَ الزَّمان. فهذا هو الأمرُ الّذي تقتضيهِ الزّعامةُ الدّينيَّة.

ثمّ إنَّ الزّعامةَ السّياسيّةَ تتطلّبُ من طالبها أن يتفهَّمَ مصالحَ الجماهير ومُطالباتِها، ليوحي إليهم أنَّهُ المؤهَّلُ لِتحقيقِ تلكَ المصالحِ والمُطالبات. أمّا الشَّخصُ الّذي يصطفيهِ اللّهُ تعالى لِرسالَتِهِ فالّذي تتطلَّبهُ مُهمَّتُهُ المذكورةُ هو أن يكونَ مِشعلَ هدايةٍ روحيَّةٍ، لذلكَ نُطالِعُ في كتابِ اللّهِ العزيزِ كيفَ أنّ اللّهَ تعالى كانَ يقومُ بتقويمِ هذا

الشخصِ قبلَ أن يوسِدَ إليهِ مهمَّةَ رسالته. ألم نُطالعْ قولَ اللّهِ تعالى بحقِّ موسى عليهِ السّلام وذلكَ في الآيةِ (٤٠) من سورةِ (طه) (فلبثتَ سنينَ في أهلِ مدين ثمَّ جئتَ على قدرٍ يا موسى) وقالَ تعالى قبلها: (وألقيتُ عليكَ محبَّةً منّي ولِتُصنَعَ على عيني.)؟

فمنْ لا يعلمُ أنَّ محمّداً قد اشتُهرَ في قومه قبلَ أن يؤتى رسالةَ ربِّهِ أنّه (الصّادقُ الأمين) ؟ ثمَّ إنَّ اللّهَ تعالى قد وثَّقَ ذلكَ من خلالِ الآية (١٦) من سورة يونس حيثُ قالَتعالى على لِسان مُحمَّدٍ (ص) نفسُه: **﴿فقد لَبثتُ فيكُم عُمُراً من قبلِهِ أفلا تعقلون؟﴾** . ثمَّ أ فلم نُطالِع قولهُ تعالى بحقِّ النبيِّ (صالح) وعلى لِسانِ قومِهِ، وذلكَ في الآيـة (٦٢) من سورةِ هود: **﴿ يا صالِحُ قد كُنتَ مَرجُوًّا قبلَ هذا، أتنهانا أن نعبُدَ ما يعبُدُ آباؤنا؟ ﴾** فقولُهُم (كنتَ مرجُوّاً قبلَ هذا) فالرَّجاءُ معناهُ الأملُ وتوقُّعُ الخيرِ منه (محيط المحيط) وهذه الشَّهادةُ تعني بألفاظ أُخرى طهارةَ شخصيَّةِ النبيِّ صالح قبلَ تلقّيهِ رسالةَ ربِّهِ عزَّ وجلّ. ثمَّ أفلم نُطالِع قولهُ تعالى بحقِّ النبيِّ (شُعيب) وعلى لِسانِ قومِهِ، وذلكَ في الآية (٨٧) من سورةِ هود نفسها: **﴿ يا شُعيبُ أ صلاتُكَ تأمرُكَ أن نترُكَ ما يعبُدُ آباؤنا، أو نفعلَ في أموالِنا ما نشاءُ، إنَّكَ لأنتَ الحليمُ الرَّشيد﴾** . فقولُهُم (إنَّكَ لأنتَ الحليمُ الرَّشيد) إقرارٌ منهم باتِّصاف شخصيَّةِ النبيِّ شُعيب بالحلمِ والرَّشاد، وبمُحافظتِهِ على صلواتِهِ وتقواه. وهذه الشَّهادةُ تعني بألفاظ أُخرى طهارةَ شخصيَّةِ النَّبيِّ شُعيب قبلَ أن يؤتى رِسالةَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ. وهذا الّذي أوردتُهُ لكَ جميعهُ يُؤكّدُ لكَ يا صاحبي مِصداقيَّةَ ما أخبرتُكَ بِهِ سابقاً من أنَّ

اللّهَ تعالى يصطفي لأداءِ رسالَتِهِ السَّماويَّةِ أنقى النّاسِ سيرةً وأعظمُهُم أخلاقاً وبشادةِ أقوامِهِم أيضاً. ولِيصحَّ أن يكونوا (مُبشِّرينَ ومُنذرينَ) ولِتأتِ الأيّامُ ولِيتحقَّقَ ما أنذروا بِهِ أقوامهم بِهِ ولِيثبُتَ أنَّهُم كانوا مُرسلينَ من قبلِ ربِّ العالمين.

وإنَّ الباحثَ الّذي يُراجِعُ سِيَرَ (جنكيز خان ونابليون وهتلر) وغيرهم من مشاهيرِ القادة، ويدقِّقُ في الوقتِ نفسهِ فيما حقّقوهُ من انتصارات، يتبيَّنُ لهُ الفرقُ جليّاً بينهُم وبينَ رُسُلِ اللّهِ الكرام. فالقادةُ المُشارُ إليهِم لم يُقدِّموا للعالمِ تعاليمَ روحيَّةً، ولا تنبَّؤوا بشيءٍ عن لِسانِ اللّهِ عزَّ وجلَّ. بل وإنَّ الفتوحاتِ الّتي تحقَّقت على أيديهم قد ألحقَت بعالَمهم مآسي وويلات، من جرّاءِ أنَّهُ كانوا يريدونَ تحقيق أمانيهم لَيسَ بالوسائلِ السِّلميَّةِ والإقناعِ، كما كانَ يفعلُ رسُلُ اللّهِ الكرام، بل عمدوا إلى تحقيقِ ذلكَ بوَسائلِ العُنفِ والإكراه. لذلكَ فإنَّكَ ترى مئاتِ الملايين من أتباعِ الأنبياء، ولا ترى عُشْرَ مِعشارِ هذا العدد من أتباعِ القادةِ المذكورين. ثُمَّ إنَّ أُصولَ التَّعاليمِ الّتي أتى بها رُسُلُ اللّهِ تعالى كانت واحدةً، حال أنَّ مَبادئَ القادة المذكورينَ كانت لا تتلاقى بِشكلٍ من الأشكال. أجل كانَ يُبعثُ كُلُّ رسولٍ إلى قومِهِ، إلى أن بَعثَ اللّهُ تعالى محمَّداً (ص) إلى النّاسِ أجمعين. وعلَّمَ أتباعَهُ أن يدعو في صلواتهم (الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين) وليسَ (ربِّ المُسلمين).

وبإمكاننا تلخيصَ ما أحدثهُ ربُّنا من خلال هؤلاءِ المُرسلين، وهو تشبيههُ تعالى بالّذي فجَّرَ قَنواتً وجداولَ مائيَّةً هنا وهناكَ من بحرٍ عظيمٍ . ومن ثمَّ جمَّعَ هذه القنواتَ والجداولَ المائيَّةَ من جديدٍ

لِتُشكِّلَ نهراً عظيماً أشبهَ بالبحرِ، وهو هذا القُرآنُ العظيم، وليكـــونَ منهلاً لِجميعِ النّاس. وقد شبَّهتُ الأديانَ القوميَّةَ الّتي كانت تظهرُ هنا وهناكَ بالقنواتِ والجداول. كما شبَّهتُ تعاليمَ هذا الكتاب القـــرآن العظيمِ بالنَّهرِ الهادرِ العظيمِ الّذي جمعَ صفوةَ مياهها، وليصلُحَ لكـــلِّ زمانٍ ومكان.

وبإمكاننا تلخيصَ جميعَ ما أوردناهُ في هذا الفصلِ فنقـــول: لقد أنزلَ ربُّنا جلَّ شأنُهُ لتَطويرِ هذا البشرِ أربعةَ شرائعَ رئيسيَّةً حملـــها إلى النّاسِ آدمُ ونوحٌ وموسى ومحمَّدٌ العظيم. وكانَ مَصـــدرُ هـــذه الشَّرائعَ واحدٌ هو اللّهُ ربُّ العالَمين. وقد تعرَّضت هـــذه الشَّـــرائعُ للعبثِ بتعاليمها على مرِّ الأيّامِ من جانبِ سَدنتِها البدائيّـــين الّذيـــنَ كانوا مُصابونَ بضيقِ الأفقِ والتَّعصُّبِ الأعمى، فيزعُمُ الزَّردشـــتيُّ أنَّ نورَ اللّهِ اختصَّ بقومه الإيرانيّين. ويزعمُ اليهوديُّ أنَّ اللّهُ هـــو إلـــهُ إسرائيل من دونِ النّاسِ أجمعين. وهكذا دوالَيك. إلى أنْ بعثَ اللّـــهُ تعالى محمّداً الصّادقَ الأمينَ بالحقِّ كُلِّهِ الّذي تضمَّنـــهُ هـــذا القـــرآنُ العظيم. بهذا الكتابِ المُقدَّسِ الّذي شهدَ مُنصفوا المُستشرقينَ بأنَّهُ قـــد وصلنا سالماً من العبثِ به، أمثال (نولدكه) وغيره، بهذا الكتابِ العزيزِ الّذي أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّهُ الأمين أن يُخاطبَ النّاسَ جميعـــاً وذلـــكَ في الآية (١٥٨) من سورة الأعراف ويقول: ﴿ **قل يا أيُّها النّاسُ إنّـــي رسولُ اللّهِ إليكم جميعاً الّذي لهُ مُلكُ السّماوات والأرضِ، لا إلـــهَ إلاّ هوَ، يُحيي ويُميتُ، فآمنوا باللّهِ ورسولِهِ الأمّيِّ الّذي يؤمنُ باللّهِ**

وكلماتِهِ، واتَّبعوهُ لعلَّكُم تهتدون.﴾ وقد قصدَ من قولِهِ (يُحيي ويُميتُ) ليسَ عمليَّةَ الإحياء والإماتة المعروفةَ وحسب، بل وإحياء الأممِ وإنهاءها أيضاً بدلالةِ حذف مفعولِ الفعلينِ المذكورين.

وعليهِ فلو حذفَ باحثٌ هذا القُرآنَ العظيمَ من قاموسِهِ، وتناسى وجودَ الدّينِ الإسلاميِّ الحنيفِ، فلا يعودُ في أيديهِ دليلاً قاطعاً على وُجودِ خالقٍ لهذا الكونِ اللانهائي. بلْ ولا يعودُ يفهمُ مقصداً أسمى لِوجوده. فبالقُرآنِ وبتعاليمهِ توحَّدتِ الآلهةُ وتوحَّدتِ الأديان، وتوفَّرت لهذا الإنسانِ التَّعاليمُ الّتي ستُساعدهُ على تطويرِ نفسهِ بالعملِ عليها على مدى كرِّ الأيّام. أمّا هذه المسيحيَّةُ الغربيَّةُ الّتي عبدَ أهلُها إنساناً كانَ وأمُّهُ يأكُلُ ويشربُ ويمشي في الأسواق، وتناسوا حقوقَ ربِّ العالمينَ عليهِم، فسيقضي اللهُ تعالى عليهِم في الأيّامِ القادمةِ حسبما أنبأ في كتابهِ العزيزِ إن شاءَ اللّه، وكلُّ آتٍ قريب.

الأديانُ لِتهذيب الإنسان ولتطوير عقله

والآنَ، وبعدَ جميعِ ما ذكرناه، تعالَ معي يا عزيزي لأُطلِعكَ على الدَّورِ الّذي لعبهُ أنبياءُ اللّهِ ورسُلهِ في مجالِ تطويرِ هذا الإنسانِ وتطويرِ عقلِه أيضاً.

فأنتَ أصبحتَ تعلمُ أنَّ الّذي خلَّصَ البشرَ من سُكنى الكهوفِ ومن حياةِ شريعةِ الغابِ الّتي كانَ يحياها الأفرادُ فيها هو آدمُ عليهِ

السَّلام. وأنتَ عُدتَ تعلمُ أنَّ الّذي أكملَ مُهمَّـــةَ آدمَ وغـــيرَه مـــن الأنبياءِ هو محمّدٌ العربيُّ (ص) الّذي جاءَ بأكملِ التَّعاليم.

فالسُّؤالُ الّذي ينبغي لكَ أن تسألَهُ هو: ما هو الدَّورُ الرَّئيســيُّ الّذي لعبهُ أنبياءُ اللّهِ تعالى في حياةِ هذا الإنسان ؟ وأُجيبكَ وأقـــولُ : لولا بعثاتُ الأنبياءِ لظلَّ الإنسانُ يَعيشُ عيشةَ البهائمِ ولظلَّ عقلُهُ حتى وقتنا الحاضرِ أقربَ إلى عُقولِ الأطفال.

فأنتَ لاحظتَ ما قامت بهِ تعاليمُ شريعةِ آدمَ من دورٍ فعّـــالٍ في هذا المجال. كما أنّكَ لاحظتَ أيضاً ظاهرةَ كمالِ التَّعـــاليمِ الّـــتي اتَّسمتْ بها شريعةُ خاتَمِ النَّبيّين (ص) . فهذا جميعُـــــهُ قـــد أدّى إلى تهذيبِ البشر وتطويرِ عقلِهِ يقيناً.

فتعليمُ آدمَ أحرُفَ هجاءٍ لُغةٍ علميَّةٍ قائمـــــةٍ علـــى قواعـــدَ وأُصولٍ ساعدت في البدايةِ هذا الإنسانَ على التَّعبيرِ عمّا في نفســـــهِ ومن ثمَّ على التَّرميزِ فيما بعد، الأمرُ الّذي ساعدَ على تجميـــعِ هـــذه المعلومات الّتي أمسى البشرُ يُحيطُ بها علماً في عصرنا الحاضرُ. فلـــولا الخطوةُ الأَولى الّتي تَخطوها، فإنَّكَ لاتصلُ إلى آخرِ طريقٍ من الطُّرق. وعليهِ فإنَّ التَّعاليمَ الّتي أتى بها جميعُ أنبياءِ اللّهِ تعـــالى قـــد شـــكّلَتْ منارات هُدىً وخُطوات على هذا الطَّريقِ الّذي قطعتهُ البشريَّةُ منذُ ما يُقاربُ ثمانية ألفِ سنةٍ أو يزيد في مجالِ تطويرِ عقلِ الإنسانِ وتهذيبِه.

وإنَّكَ قد لا تفهمُ ماذا قصَدْتُ من كلمةِ (تهذيبه) لذلكَ أجدُ لزاماً عليَّ أن أتوسَّعَ في شرحِ ما قصدتُهُ من كلمةِ تهذيبٍ فأقول:

إذا سلّمتَ معي أنّهُ لا يوجدُ في هذا الكونِ شيءٌ إلاّ ولهُ جسدٌ وروحٌ وهو أمرٌ سبقَ لنا أن بحثناهُ من قبل. فاعلم يا صاحبي أنّ التّهذيبَ هو بمثابةِ الرّوحِ للحَضارة.

فما هو مفهومُ الحضارةِ في لُغةِ الضّادّ؟ قالَ صاحبُ مِعجم (محيط المحيط) أنّ كلمةَ الحاضر والحضارة تُستعملان في اللُّغةِ العربيّةِ خلافَ كلمةِ (البادية). لذلكَ تشملُ سُكّانَ المُدُنِ والقُرى والرّيف. أمّا في عصرنا فقد باتَ الأدباءُ يستعملونَ كلمةَ (حضارة) بمعنًى زائدٍ يشملُ حصيلةَ الرُّقيِّ المادّيِّ الذي بلغَ الإنسانُ ساحله.

أمّا كلمة (تهذيب) فتُفيدُ شيئاً آخر. فهي مُشتقّةٌ من الهذَب الّذي يعني الصّفاءَ والخُلوص. فالمُهذّبُ هو الإنسانُ الخلوقُ والنّقيُّ من العيوب. (محيط المحيط). وعليهِ كُنتُ قلتُ إنّ التّهذيبَ بالنّسبةِ للحضارةِ هو بمثابةِ الرّوح. لذلكَ فلا قيمةَ لحضارةٍ يخلو أصحابُها من معالِمِ التّهذيب.

خذ يا صاحبي الحضارةَ الغربيّةَ المُعاصرة مثالاً يُوضّحُ لكَ ما ذكرتُهُ لك. إنها حضارةٌ قد قامت على أساسٍ من النّهضةِ الصّناعيةِ الّتي أنتَجت ما نُلاحظهُ من رُقيٍّ مادّي مُستندٍ إلى وحدة العملِ وإلى مقدارِ الإنتاجِ وإلى ما اكتُشِفَ من وسائلِ النّقل. ورافقَ ذلكَ أنظمةٌ ماليّةٌ نظّمت موضوعَ تَداوُلِ العمُلات. وقد أدّى كُلُّ ذلكَ إلى نُشوءِ حِرفٍ وصناعاتٍ ونقاباتٍ عُمّاليّة. ورافقَ ذلكَ كُلّهِ وضعُ دساتيرَ وقوانينَ تتناسبُ وهذه البيئة الجديدة. كما نَمَتْ علومٌ معروفة ورافقها

نُشوءُ علومٍ جديدة. وأُقيمتْ للمحافظةِ على هذه المُكتسباتِ جيوشٌ جرّارةٌ وحفاظاً على أمنِ المنطقةِ الّتي نشأتْ فيها تلك الحضارَة .

فهلْ بإمكانكَ يا صاحبي أنْ تتصوَّرَ، والحالُ هذه، أنْ يبقَ سلوكَ الإنسانِ الغربيِّ بمَعزلٍ عن جميعِ ما حدثَ في العالمِ الغربيّ؟

أجلْ لَقد تأثَّرَ الفردُ هناكَ في جميعِ نواحي سلوكِهِ اليوميِّ. فتأثَّرَ فيما يتناولهُ من غذاء، وفيما يزرعهُ في مَزارعه، وفيما يتداوى بهِ من دواء، وفيما يرتديهِ من لِباس، وفيما يتَّخِذهُ من مسكنٍ وأثاث.

وانظُر الآنَ إلى المناطقِ من عالَمِنا الّتي لم تعرفْ أقطارُها النَّهضةَ الصِّناعيَّةَ الّتي أتينا على ذكرها، تلك الأقطارُ الّتي يستعملونَ لها مُصطلحَ (دُولٌ مُتخلِّفة) قياساً على ما هو حادثٌ في العالمِ الغربيِّ.

والآنَ إن قُمتَ بمُقارنَةٍ ما بينَ الحضارةِ الغربيَّةِ المُعاصرةِ وما بين الضاراتِ المُنقرضةِ كحضارةِ الفراعنةِ وحضارةِ البابليّين على سبيلِ المِثال، لا الحصر. فلا تجدُ ما بين هذه الحضاراتِ المذكورةِ من فُروقٍ إلاّ فيما تسبَّبتْ بهِ عواملُ الصِّناعةِ والزِّراعةِ والحِرفِ والعلومِ وأساليبِ التَّعليمِ . فتلكَ الأشياءُ جميعها كانت وراءَ جميعِ ما نشأ من أوضاعِ حربٍ وأوضاعِ سلام.

وبعدً أن استعرضنا ذلكَ كُلّهِ سويَّةً، عاد بإمكاننا أن نستنتجَ من ذلكَ كُلّهِ أنَّ الحضاراتِ وظواهرها المادّيَّةَ لا علاقةَ لها بمفهومِ التَّهذيبِ الّذي بيّنّاه آنفاً ووضَّحناه، لا من قريبٍ ولا من بعيد. ونستثني من تلكَ النَّتيجةِ الّتي توصَّلنا إليها كُلَّ حضارةٍ كانَ أهلُها قد هُذِّبوا أصلاً بتعاليمِ دينٍ من الأديانِ السّماويَّةِ المعروفة.

والآنَ خذ المسألةَ من وجهها الآخر. وافرضْ أنّكَ عــاصرتَ ظهورَ دينٍ جديدٍ في أيّةِ منطقةٍ من العالم، وانتظرتَ حتّى كُتبَ لــهُ القبولُ في نفوسِ النّاسِ، وراقبتَ، فإنّكَ لن ترى ظهورَ هذه الظّواهــرَ التّي رافقت ظهورَ الحضارة الغربيّة. بل الّذي ستلاحظُ ظهورُهُ هـــو بروزُ قواعدَ فكريّةٍ وتجلّي مُثُلٍ عُليا وأخلاق. وهذه كُلُّها تدخــلُ في موضوعٍ ما سمَّيتُهُ (تهذيب) و(تطويرٌ عقليّ). لكــنَّ نفــسَ هــؤلاء المؤمنونَ الجُدُد إذا تحضَّروا معَ مرورِ الزَّمن قد يُشــكّلونَ حضــارةً مُختلفَةً عن الحضارات الّتي كانَ مَنشَؤها ماديّ. والسّببُ في ذلكَ هو هذه المُثُلُ العُليا وتلكَ الأخلاقُ الّتي انصهروا في بَوتَقَتِها منذ البداية.

وإنَّها لنتائجُ مُستخلصَةٌ بأسلوبٍ علميٍ، لا ينبغـــي نُســيانَ طرفَي مُعادلَتها بشكلٍ من الأشكال. فبحفظِ هذه النتيجةِ ومعادلَتِــها، تكونُ يا صاحبي قد حفِظتَ للأديانِ فَضْلها على الإنسانيَّةِ وإحسـانَها عليها وما قامت بهِ من تطويرٍ لِعقلِ هذا الإنسان.

فأهمُّ ما قامَ بهِ الدّينُ لِتهذيبِ هذا البشر، هو أنَّهُ أطلعهُ علــى وُجودِ خالِقهِ ومن ثَمَّ دفعهُ للتَّعرُّف عليهِ جلَّ وعلا. كذلكَ نبَّهَ الدّيــنُ هذا الإنسانَ إلى أنَّهُ لم يُخلق عبثاً بل خلقهُ خالقُهُ لِيَعملَ على تحقيــقِ المقصدِ المرسومِ لِحياته. كذلكَ فقد دفعَ الدّينُ الإنسانَ لِيستعمِلَ عقلهُ فيفكِّرُ في خَلقِ السّماواتِ والأرض. ومنبِّهاً إيّاهُ إلى أنَّ كُلَّ شــيءٍ في هذا الكون مُسخَّرٌ من أجلِهِ ولِصالِحه. وأنطقهُ بلُغةٍ علميَّةٍ تُســاعدهُ على التَّفاهُمِ وعلى تجميعِ العلومِ لِبناءِ مُجتمعاتٍ مُتحضِّرة. كما هذَبهُ بآدابِ السّلوكِ والتَّعامُلِ معَ سواهُ من بني نوعِ الإنســان. وبذلــكَ

يكونُ الدّينُ قد خلّصَ عقلَ الإنسانِ من حالات التَّشتُّتِ التي كانَ عليها قبلَ بعثةِ آدمَ عليهِ السّلام. كما أنقذهُ من أن يظلَّ يحيا حياةَ شريعةِ الغاب حيثُ لا قانون ينظُمُ الحياةَ ولا نظام. فهذه أبرزُ ما هذَّبَتْ بهِ الأديانُ هذا الإنسان، وما قامتْ بهِ من تطويرِ عقلِه. ولا أظُنُّكَ يا صاحبي ، وبعدَ هذا التَّوضيحِ الّذي قُمتُ بهِ من أجلِكَ، إلاّ أن تكونَ قد تبيَّنتَ الفرقَ ما بينَ الحضارةِ وما بينَ عمليَّةِ التَّهذيب.

والآنَ أدعوكَ لِتُدقِّقَ نظركَ في معالمِ الحضارةِ الرّومانيّةِ الّتي يستمِدُّ الغربُ بعضَ مُعطَياتها ومنها حقوقُ الإنسان. فنحنُ لا نُنكِرُ أنَّ الرّومانَ أسّسوا حضارة. لكَّ الّذي نُنكِرهُ هو أنَّ حضارةَ روما لم يُرافقها عمليَّةُ تهذيب لهذا الإنسان. أجلْ إنَّهُم أتَوا بفُنون وفلسفات. لكنَّ فنونُهم وفلسفتُهُم لم تستند إلى قواعدَ فكريَّةٍ، ولا إلى مُثُلٍ عُليا وأخلاق. هذا وإنَّ مُناداتهم بحُرِّيَّةِ الفرد وبحُقوقهِ ووفقَ تصوُّراتِهم، قد تركَ كُلُّ ذلكَ آثارهُ على مُجتَمعهم الرّومانيّ. حتّى عادَ الإنسانُ الرّومانيُّ يفكِّرُ ويعملُ وفقَ ما تُمليهِ عليهِ حُرِّيتهُ وأهواؤه. وهذه الظّواهرُ الّتي أتيتُ على ذكرها، فإنَّكَ تتبيَّنُ معالمَها يا صاحبي في المُجتمعات الغربيَّة الصّناعيَّةِ المُعاصرة واضحةً للعيان. أي أنَّ القوانينَ المادّيَّةَ، وليسَ التّعاليمَ الرّوحيَّةَ، هي الّتي كانت تعملُ وراءَ سلوكِ أفرادِ مُجتمَعَيِّ الحضارتين المذكورتين.

فالرّوملنُ كانوا وثنيّينَ في بدءِ تحضُّرهم. أمّا وقد تقبَّلوا المسيحيَّةَ ديناً على عهدِ القيصر (قسطنطين)، فقد مزجوا بعدئذٍ ما بين الحضارةِ والتَّهذيب. وإنْ كانوا لم يتقبَّلوا المسيحيَّةَ بوجهها

الوضّاء الّذي أتى بهِ المسيحُ النّاصري والّذي كانَ قد استندَ أصلاً إلى عقيدةِ وُجودِ اللّهِ الأحد، والّذي شوَّهَ ذاكَ الوجهَ بولُسُ الرّسول.

وهذه الحقيقةُ دعَتْ لِيبرُزَ التَّهذيبُ في الحضارةِ الرّومانيَّةِ تابعاً، وليسَ أساسَ حضارَتها. بينما كانَ ينبغي أن يحدُثَ عكسَ ما حدث. ونفسُ هذه الظّاهرةِ تبدو جليَّةً للعيانِ في الحضارةِ الأوربّيَّةِ المُعاصرةِ الّتي قامتْ على الثّورةِ الصِّناعيَّةِ وليسَ على تهذيبٍ من تعاليمِ المسيحيَّة.

من هذا تُدركُ يا عزيزي أنَّ آدمَ هو الّذي بدأ بتهذيبِ البشرِ وبتَطويرِ عقلِهِ، وأنَّ محمّداً (ص) قد أكملَ هذا المشوار.

فهذه حقيقةٌ أُلاحظُ غيابَها عن أذهانِ أكثرِ أُناسِ عصرنا. فإنَّ الحضارةَ الّتي لا تقومُ على أساسِ تهذيبِ الّدينِ تجُرُّ على البشريَّةِ بلوى وويلات. فها أنَّ الحضارةَ الغربيَّةَ المُعاصرَةَ الّتي لم يلتزم أصحابُها بتهذيبِ المسيحيَّةِ الّتي تنتسبُ شعوبُهم إليها، فقد أمسوا مغرورين مُتكبِّرين. وقد دفعهُم غرورُهم وكبرياؤهم لِيسلكوا سلوكَ فرعونَ موسى ولِيلقوا عاقبتهُ الّتي آلَ إليها في نهايةِ حياته. ولم يُصغوا ولم يستفيدوا ممّا دلّتْ عليهِ علومُ علماءِ أمَّتِهم وهو أنَّ هذا العالم ما هو بعالمٍ قديمٍ كما ظنَّ علماءُ القرنِ التّاسعِ عشر، بل هو كونٌ لا يتجاوزُ عُمرُه ما بين (١٢-٢٠) مليار عام، حسبما أثبتَتْ نظريَّةُ (الانفجارُ العظيم).

وأُلخِّصُ لكَ يا صاحبي ما تضمَّنهُ هذا الفصلُ من الكتاب، لارتباطِ عناوينهِ بتسلسُلٍ موضوعيٍّ، فأقول: إنَّ اللّهَ تعالى الّذي أنشأَ

هذا الإنسانَ منذُ قُرابة أربعة ملايين من الأعوام على وجه التَّقريب لم يرعهُ ويُطوِّرهُ طوالَ تلكَ المُدَّة الطّويلةِ، وعلى حسب ما سبقَ أن بيَّنّاهُ من قبل. بل وإنَّ رأفةَ اللّهِ بعبادِه اقتضت أن يرأفَ بهذا البشرِ ويُخرجهُ من كُهوفِهِ ويشرعُ بتهذيبِهِ، من أجلِ أن يُميِّزهُ عن باقي الكائنات الحيَّةِ إلى جانبِ تطويرِ عقله. فهذا هو العاملُ الأساسيُّ في أنَّهُ تعالى أنزلَ هذه التّعاليمَ الّتي تضمَّنتها الشّرائعُ الأربعةُ الّتي أنزلها ربُّنا منذُ بعثةِ آدم وحتّى بعثة سيّدِ المُرسلين (ص)، والّتي أتتْ على ذكرها سورةُ (التّين). فلم يكُنْ هناكَ تعدُّدُ شرائعَ بالمعنى المُطلق، ولكنَّ تلكَ الشّرائع كانت تأتي بنفسِ الأصولِ الدينيَّةِ وبتفاصيلَ تتناسبُ والمُتغيِّرات الحادثةُ زمنيّاً ومكانيّاً.

وكانَ اللّهُ الخالقُ يوسدُ مهمّاتِ رسالاتِهِ إلى صفوةِ خلقِ اللّهِ سيرةً وخُلُقاً ومن أضعفِ خَلقِهِ، المُبرَّئينَ من المُتراكمِ من مؤثِّراتِ مُجتمعاتِهم والعارفينَ بربِّهم. فكانَ يُكلِّفُهُم بتبليغِ رسالاته السّماويَّةِ، وبالقيامِ بتهذيبِ المؤمنينَ بما حملوهُ من تعاليمٍ ولِتطويرِ عُقولِهم أيضاً. ومُبتعدينَ خلالَ أداءِ ذلكَ عن اللُّجوءِ إلى وسائلِ العُنفِ والإكراه في الدّين. وأن لا تتجاوزَ وسيلتُهُمُ السَّلميَّةُ حدودَ الحوارِ بالحجَّةِ والبرهانِ ومحاولةِ الإقناعِ. ولولا ذلكَ كُلِّهِ ما امتازَ الإنسانُ عن سواه. فلم يصل الإنسانُ إلى ما وصلَ إليهِ إلاّ بفضلِ هذه الأديان. فهذه حقائقُ قد توصَّلنا إليها بِالأسلوبِ العلميِّ وبشكلٍ موضوعي.

خاتمةُ الكِتاب

من المعلومِ أنَّ قصَّةَ (آدمُ وحوّاء) الّتي تضمَّنتها التَّوراةُ المعاصرةُ قد شوَّشتْ أذهانَ البشريَّةِ بما تضمَّنتهُ من مزاعمَ تهافتَتْ بالمعاييرِ العلميَّةِ الحديثة. ومن سوءِ الطّالِع أنْ تأثَّرَ المُفسِّرونَ القدماءُ بتلكَ الأفكارِ التَّوراتيَّةِ، الّذينَ فسَّروا الآياتِ القُرآنيَّةَ بما يوحي أنَّها تحملُ نفسَ المُعطَيات. فلم يتدبَّروا الآياتِ بأصولِ تفسيرِها، وعاد الباحثونَ ينظرونَ إلى القُرآنِ الكريمِ بنفسِ ما ينظُرونَ بهِ إلى المزاعمِ الّتي أتتْ بها مزاعمُ كُتّابِ التّوراة المعاصرة. وظانّينَ أنَّ القُرآنَ يقولُ أيضاً أنَّ (آدمَ وحوّاء) كانا أوّلَ خَلقِ اللّهِ .

فأنا اكتشفتُ هذه المُلابسات والمُغالطات المنسوبةَ إلى هذا القُرآن العظيم، والّتي تبيَّنَ لي، وبنتيجةِ إعادة النَّظر فيما تَوارثناه، أنَّ هذا الكتابَ المُقدَّسَ الّذي وصلنا سالماً من كُلِّ عبثٍ، لا تؤيِّدُ آياتُهُ مزاعمَ سفرِ التَّكوين من التَّوراةِ المُعاصرةِ بشكلٍ من الأشكال. بل على العكسِ من ذلكَ فإنَّ آياتِ القرآنِ شرحتْ قصَّةَ آدم وبما يتوافقُ مع المُعطياتِ العلميَّةِ وبما لا يُخالفُ المنطقَ والعقل السَّليم.

والّذي يُراجعُ صفحاتِ التّاريخِ يتبيَّنُ لهُ أنَّ قصَّةَ (آدمُ وحوّاء) الّتي أوردها سفرُ التَّكوين من العهدِ القديمِ، قد سقطتْ في موازينِ ومعاييرِ علماءِ القرن التّاسعِ عشر في الوسطِ المسيحيِّ وفي أوروبَّةَ نفسها. وذلكَ منذُ أنْ بدأ العُلماء يُنقِّبونَ عن آثارِ الإنسانِ القديم في

مُختلَفِ المناطقِ وبتأثيرٍ من مُعطياتِ النَّظريَّة الدّاروينيَّة على الخُصوص والّتي طَرحها صاحبُها في منتصفِ القَرنِ المذكور.

فالمهَّمَةُ الّتي حاولتُ أن أقومَ بها يا صاحبي كـــانت شـــاقّةً وعسيرةً، خصوصاً وأنَّ المراجعَ الّتي أحتاجُها غيرُ موجودةٍ أصــلاً، إلاّ ما نبَّهنا إليهِ مُجدِّدُ هذا القرنِ الماضي، وبِنُتَفٍ من الإشـــاراتِ هنـــا وهناك.

والّذي يُطالِع ما كتبتُهُ في أوّلِ مؤلّفي هـــذا يُـــدركُ مـــدى اهتمامي ببَيانِ ما يوجدُ من فروقٍ جوهريَّةٍ ما بين قصَّةِ سفرِ التّكويـــنِ وما بينَ قصَّةِ هذا القُرآنِ العظيم. ومن خلالِ بيان تلـــكَ الفـــروقِ الجوهريَّةِ، حسمتُ أمرَ ما توارثناهُ عن المُفسّرينَ القُدماء.

ولّما كانَ علمُ المُستحاثّات هو العلمُ المُختـــصُّ بـــالبحثِ في موضوعِ الكلامِ عن تاريخِ نُشوءِ الإنسان. فقد اضطـــرَّني ذلـــكَ إلى دراسةِ العلم المذكورِ دراسةً موضوعيَّةً ولبيانِ ما توصَّلَ إليهِ عُلمـــاؤهُ من حقائقَ منذُ نُشوئهِ قريباً من مُنتصفِ القرنِ التّاسعِ عشر وإلى أيّامنا هذه. وقد كانَ جُلُّ همّي هو أنْ أقومَ بذلكَ، لأُحيطَ علماً بالحقـــائقِ الّتي كشفَ عنها هذا العلمُ المذكور. ولِيُساعدني ذلكَ علـــى فـــهمِ المعطياتِ القُرآنيَّة. ومن باب أنَّ الدّينَ والعلمَ يستحيلُ أن تصطـــدمَ حقائقهُمَا. ذلكَ أنَّ الوحيَ القُرآنيَّ يمثّلُ اللّهَ تعالى الّذي أنزله. وأنَّ مـــا يكشِفُ عنهُ العلمُ هو من صُنعِ وإبداعِ اللّهِ تعالى نفسهِ، فهو صـــاحبُ هذا الكلامِ الرّبّانيّ. وبديهيٌّ ألاّ يختلفَ القـــولُ والصُّنـــعُ إذا كـــانَ مَصدرهما واحداً في الأصل. حتّى أنّهُ بفَرضِ أن يختلِفَ القولُ والصُّنـــعُ

فالأحرى أن يؤخذَ بما كشفَ عنهُ العلم، وأنْ يُعادَ النَّظرُ فيما فـهمناهُ من القول. وليسَ العكسُ بصحيح. وهذا الّذي طرحتُهُ هـو المنـهجُ الّذي دلّنا عليهِ قولُ ربِّنا في كتابِهِ العزيز من ضمنِ الآية (٥٩) مـن سورةِ الفرقان: (.. فاسألْ بهِ خبيراً.).

فعلمُ المُستحاثّات أثبتَ علميًّا أنَّ وُجودَ الإنسـان في هـذه الكُرةِ الأرضيَّةِ قديمٌ جدًّا. فلو أنّنا قُمنا بالتَّسليمِ بما زعمهُ كاتبُ سـفر التَّكوين، وفسَّرنا آياتِ هذا القُرآنِ على ضوءِ مُعطَياتِهِ، يعود القـرآنُ، والحالُ هذه، مُخالفاً لِمَعطيات العلَم، وبذلكَ نكونُ قد أثبتنـا مـن حيثُ لا نريدُ أنَّ كلامَ هذا القَرآن العظيمُ ما هو بكلامِ اللّهِ، أعاذنـا اللّهُ من ذلك .

لكنَّهُ اتَّضحَ لي من خلالِ مُعطيات سورة الدَّهرِ تلكَ المُصاغـةَ بصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزة أنَّ اللّهَ تعالَى يقولُ هُناكَ إنَّ زمنَ نُشوءَ البشـر قَديمٌ وعلى حسب ما ثبتَ لِعلماءِ المُستحاثّات. وهكذا تلاقى العلـمُ والدّينُ الإسلاميُّ الّذي ندينُ بهِ، وثبتَ بالتّالي أنَّهُ كلامُ ربِّ العالمين.

ولم أنسَ أن أُعرِّجَ على النَّظريَّةِ الدّاروينيَّةِ وحاولتُ إنصافـها وليسَ السَّيرَ في ركابِ مُهاجميها. وقد نقدتُـها بأسـلوب علمـيٍّ وموضوعيٍّ أيضاً. كما كشفتُ عمّا أجرى أهلُها فيها من تحوُّلات.

ومن ثمَّ أدليتُ بالأدلَّةِ القرآنيَّةِ العلميَّةِ الّتي ثبتَ من خلالِـها أنَّ خلقَ الإنسانِ جرى بشكلٍ مُستقلٍّ عن خَلقِ اللّهِ تعـالى لِبقيَّـةِ المخلوقات الحيَّة، وبما لا يدعُ مجالاً للشّك. وذلكَ من خلالِ توضيـحِ الفوارقَ الجوهريَّةَ الكائنةَ ما بينَ تكوينِ جسمِ الإنسانِ وفِطرتِهِ الّـتي

فطَرهُ تعالى عليها, وما بينَ تكوينِ جسمٍ وفطــرة بقيَّــةِ الكائنــات الغريزيَّةِ التّكوين. و لم أقفْ عندَ هذا الحدِّ بل أثبتُّ من خــلالِ مُعطيات العلمِ الحديثِ خُلودَ عقلِ هذا الإنسـان وخُلـودَ تكوينـهِ الباطنيِّ النَّفسيّ. وأنَّ عقلَ الإنسانِ وقوامُهُ النَّفسيُّ لن يأتي عليـهما الفناءُ بعد فناء جسدهما التُّرابيّ. وانتقلتُ من ذلكَ كُلِّهِ فاستعرضتُ نظريَّةَ المادّيّةِ المَنهجيَّةِ ومُبيِّناً حقيقتها وبنفسِ الأسـلوب العلمـيِّ، وسعيتُ بعدَ ذلكَ لتنظيفِ ما علِقَ بذهنِ القرّاءِ من منشوراتها الّـتي سمَّمت أفكارهُ في هذا المجالِ وعلى هذا الصَّعيد. وبذلكَ أكونُ قـد أكملتُ شرحَ وتحديدَ موقفنا من الدّاروينيَّةِ، راجياً من اللّهِ تعـالى أن أكونَ قد أنصفتُها وأنصفتُ مُعتنقيها.

وبعدَ أنْ أكملتُ القسمَ الأوّلَ من كتابي الّذي اشتملَ علـى ما ذكرناه، رجعتُ إلى ما كشفَ علمُ المُستحاثّات عنـه ففسَّـرتُ آيات هذا القُرآن العظيمَ من مِنظارها ووفقَ أُصولِ تفسيرها ونـزولاً عندَ أمرِ ربِّنا عزَّ وجلَّ القائلُ: (فاسأل بهِ خبيراً).

فالّذي ثبتَ علميّاً هو أنَّ البشرَ خلالَ عصوره الحجريَّةِ كـانَ قد مرَّ بأدوارٍ عديدةٍ قاربت الأربعةَ ملايينِ ونصف من الأعوامِ حتّـى اكتملَ تكوينُ دماغهِ وعقلهِ وكانَ خلالها أشبهَ بالأنعامِ من حولـهِ في تصرُّفاته. وقد أثبتُّ من خلالِ مُعطيات سورتي نوحٍ وهودٍ مِصداقيَّـةَ تلكَ الحقائقِ الّتي كشفَ عنها العلمُ المُشارُ إليه و لم أكتفِ بما وضَّحتُـهُ بل علَّلتُ احتياجَ البشرِ إلى تلكَ المُدَّة الطَّويلةِ التي ذكرناها, فأثبتُّ ما علَّلتُ بهِ بالأسلوبِ العلميِّ أيضاً. مِمّا مكَّنَ البشرَ مـن الانتصـابِ

على قدَميهِ في نهايةِ المَطاف. وقد أيَّدتْ هذا الفهمَ مُعطياتُ آياتِ سورةِ (ق).

فالإنسانُ قد تميَّزَ أصلاً بما وهبهُ الخالقُ من هذا العقل الّذي هو خارجُ دماغهِ الّذي ينقُلُ إليهِ المعلومات الّتي يحصلُ عليها ويوصلُها إلى عتبةِ جوهرِ هذا العقل المُدهِشِ والّذي يُكملُ ويُخزِّنُ المعلوماتَ الّتي أمدَّهُ بها دماغُ هذا الإنسان. وليستعينَ الإنسانُ بعدَ ذلكَ بلُغةٍ مُتميِّزة للقيامِ بعمليَّةِ التَّرميزِ التّي شرحتُ مفهومَها على حينهِ ولبناءِ تُراثٍ ثقافيٍّ يُساعدُهُ من بعدُ على إقامةِ مَدنيّاتٍ وحضارات.

و لم أنسَ أن أُوضِّحَ للقارئ خلالَ ذلكَ كيفَ تدخَّلتْ رُبوبيَّةُ الخالقِ في الوقتِ المُناسبِ فأمدَّتْ هذا الإنسانَ بتعاليمَ سماويَّةٍ ساعدت على تهذيبِهِ وتطويرِ عقلِهِ وعرَّفتهُ على خالقهِ وراحتْ تدفعهُ للفوزِ بمحبَّتِهِ وقُربهِ ورضوانه. وليكونَ هذا الإنسانُ قد تميَّزَ عمّا حوله من الكائنات الحيَّةِ بصورة نهائيَّة.

كذلكَ لم أنسَ أنْ أُطلِعَ القارئَ الكريمَ على المصطلحاتِ القُرآنيَّةِ بخصوصِ جميعِ ما ذكرناه. فمن تلكَ المُصطلحاتِ العجيبةِ إطلاقُ هذا القُرآنُ العظيمُ كلمة (الجنّ) المعروفةِ على البشرِ خلالَ عُصورهِ الحجريَّةِ يومَ كانَ البشرُ يعمدُ إلى سُكنى الكهوفِ الطّبيعيةِ. كما اصطلحَ هذا القرآنُ العظيمُ كلمتي (نارِ السُّموم) تعبيراً عن طبيعةِ ذاكَ البشر القديم. وقد تضمَّنت سورةُ الحجرِ المُصطلَحين المذكورَين. علماً بأنَّ رأفةَ اللّهِ الخالقِ ما فارقَت البشرَ القديمَ طوالَ عُصورهِ الحجريَّةِ أيضاً.

هذا وقد أثبتُّ ومن خلالِ مُعطَيات العلمِ الحديثِ أنّ عمليَّةَ نُطقِ الإنسان بلُغةٍ ذات أحرُف هجاء هو شيءٌ داخلٌ في طبيعةِ هــذا الإنسانِ بصورةٍ فطريَّةٍ، وبخلاف بقيَّةِ الكائنات الحيَّة. وانحصرَ دليــلُ ذلكَ في موضوعِ اختلاف تكوينِ حُنجُرةِ هذا المخلوقِ الإنسانِ عــن تكوينِ حناجرِ غيرِه من المخلوقات.

ولم أكتفِ بهذا الدَّليلِ العلميِّ بل ووضَّحتُ مــن خــلالِ مُعطيات الآيات القُرآنيَّةِ كيفَ أنّ اللّهَ تعالى بعثَ آدمَ كأوّلِ نــبيٍّ في منطِقتنا العربيَّةِ وأنطقهُ بأحرُف هجاء هذه اللُّغةِ الّتي نَمتْ وتطــوَّرتْ على أيدي أبناءِ شبهِ جزيرةِ العربِ إلى أن اكتملَ بناؤها وبلغتْ ذروةَ تطوُّرها زمنَ بعثةِ محمَّدٍ سيِّدِ المرسلين (ص). وأنَّ النبيَّ آدم هو الّــذي أخرجَ البشرَ من كُهوفهم وأسْكنهم في السُّهولِ وعلّمــهُمُ الزِّراعــةَ وغيرَها من الأمورِ الحياتيَّةِ وأسَّسَ أوّلَ تعاونيَّةٍ في تاريخِ البشرِ تلــكَ الّتي أقامها على ما تلقّاهُ من ربِّهِ من تعاليمَ أربعةٍ في هذا المجال أمســتْ الأساسَ فيما للإنسانِ من حقوقٍ أساسيَّةٍ مُكتسبةٍ بصورةٍ شرعيَّة.

فهذه المعلوماتُ الأخيرةُ دلّتنا عليها قصَّةُ آدمَ القُرآنيَّة. هــذه القصَّةُ المُصاغةُ بصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزة وبمزيجٍ من الحقيقــةِ والمجــازِ وبأسلوب الكاتبِ المسرحيِّ أيضاً. علماً بأنَّ قصَّــةَ آدمَ القُرآنيَّــةَ لم يورِدْها ربُّنا عزَّ وجلَّ في موضِعٍ واحدٍ من سورةٍ بعينِها، بل وزّعــها على سبعِ سورٍ من سورِ كتابهِ العزيزِ ووفقَ مُقتضَيــات التَّسلسُــلِ الموضوعيِّ لكلِّ سورةٍ من تلكَ السُّور. وقد كانَ القصدُ من القســمِ الوارد فبي سورةِ البقرةِ، بما يتعلّقُ بقصَّة آدم هو لِتصحيحِ التَّحريــفَ

الّذي أحدثهُ في القصَّةِ المذكورة الكاتبُ اليهوديُّ الّذي كتبَ سفرَ التَّكوينِ من التَّوراة المُعاصرةِ المُتَداولةِ بينَ أيدي النّاسِ اليوم. وقد وردَ القسمُ المذكورُ في غايةِ الإبداع. على حين أنَّ مُفسِّريَّ أُمَّتنا فسَّروهُ على غيرِ حقيقتهِ وبتأثيرٍ من أفكار قصَّةِ سفرِ التّكوين التّوراتيّ. علماً بأنَّ اللّهَ تعالى كانَ قد أوردَ قصَّةَ آدمَ في الأصلِ لتحقيقِ مقاصد وأهداف كُبرى أوردتُها على محلّها لِتوسيعِ إدراك القارئين.

وبهذه المُناسبةِ فقد أثبتُّ ببحثٍ موضوعيٍّ مُستمدٍّ ممّا توصَّلَ إليهِ المُستشرقونَ ومن مُعطيات علمِ المُناخ والجيولوجيا، أثبتُّ أنَّ أحرُفَ الهجاء والمصادرَ اللُّغويَّةَ الّتي أنطقَ اللّهُ تعالى بها نبيَّهُ آدمَ عليهِ السّلام قد شكّلتْ أقدَمَ لُغةٍ ساميَّةٍ عرفها البشرُ بعد مُغادرتِهم سُكنى الكُهوفِ وذلكَ قبلَ ما يقاربُ ثمانية إلى عشرةِ ألفِ عامٍ مَضتْ. فهذه حقيقةٌ وضَّحتها وألقتْ الضَّوءَ عليها بأسلوبٍ فلسفيٍّ الآياتُ الأوائلُ من سورةِ (الرّحمان).

كما أعطيتُ القارئَ فكرةً واضحةً عن شريعةِ آدمَ وتعاليمها الأربعة والّتي أكملها هذا القُرآنُ العظيم. فوضَّحتُ أنَّ شريعةَ آدمَ أتتْ بأربعةِ حقوق أساسيَّةٍ من حقوق الإنسان. ومن ثمَّ أضافَ القرآنُ الكريمُ إليها ثلاثةَ حقوق أساسيَّةٍ أخرى لضرورةِ المُتغيِّرات الطّارئةِ على حياتِ هذا الإنسانَ طوالَ المُدَّة الفاصلةِ ما بينَ بعثةِ آدمَ وما بينَ بعثةِ سيِّدِ المَرسلين محمّد (ص). وإلى جانبِ ما بيَّنهُ القرآنُ من حقوقٍ أخرى غير أساسيَّة للإنسانِ أيضاً.

وفي تلكَ المُناسبةِ فقد أتيتُ على شرحِ القسمِ الّذي اشتملَتْ عليهِ قصَّةُ آدم والواردُ في سورةِ (طه) وذلكَ لعلاقتهِ بهذه الأيّامِ التي نُعاصرُها. فقد حملَ القسمُ المذكورُ من قصَّة آدم إنذارات لهذه الأممِ الغربيَّةِ المُعاصرةِ من (زُرقِ العُيون)، توعَّدهم اللّهُ تعالى من خلالها بالقضاءِ عليهمْ إنْ هم حاربوا هذا الدّينَ الإسلاميَّ الحنيفَ وتآمروا للقضاءِ عليهِ وعلى أهلِه بعد نهضتهم الّتي أنبأت عنها الآياتُ من سورةِ (الكهف). ومن جرّاءِ غفلتهم عن المقصدِ الأساسيِّ من وجودهم فوقَ سطحِ كوكبنا الأرضي.

ولم أنسَ خلالَ هذه الأبحاث الأخيرةِ أن أوضِّحَ الفروقَ الجوهريَّةَ ما بينَ حقوقِ الإنسان الّتي جاءتْ بها الأديانُ السّماويَّةُ وما بين حقوقِ الإنسان الوضعيَّةُ الّتي وضعها فلاسفةُ الرّومانِ وتبنّتها أممُ الغربِ المُعاصرة. وانتهيتُ من ذلكَ كُلّه إلى نتيجةٍ وهي ضرورةَ القيام بربطِ موضوع حقوقِ الإنسان بتعاليمِ الدّين. ومن بابِ أنّ الخالقَ الّذي خلقَ هذا الإنسانَ وأشرفَ على تطويره طوالَ المُدّة الماضية هو صاحبُ الحقِّ في موضوعِ تبيينِ ما هو حقٌّ لهذا الإنسانِ المخلوقِ وما هو غيرُ حقٍّ من حقوقهِ الأساسيَّةِ والثّانويَّة.

وقد خصَّصتُ بعدَ ذلكَ كُلّهِ باباً لِلكلامِ عمّا حدثَ من بعدِ انقضاءِ زمنِ آدمَ عليهِ السّلام من عمليّاتٍ لتطويرِ عقلِ هذا الإنسانِ ولتهذيبه، وإلى أن بعثَ اللّهُ تعالى محمّداً خاتَمَ النبيّين (ص) بخاتمةِ شرائعِ السّماءِ وهو هذا القُرآنُ الكريمُ الذّي هو بينَ أيدينا والّذي

وصلنا سالماً باعتراف المستشرقينَ المُعتدلين. هذا الكتابُ المُقدَّسُ الّذي أنزلهُ ربُّنا عزَّ وجلَّ قبلَ أربعة عشرَ قرناً من الزّمان.

ومن ثمَّ تكلّمتُ عن المقصدِ الأسمى لِخلقِ اللّهِ تعـالى لهـذا الإنسان. وهو المقصدُ الّذي تؤدّي غفلةُ الإنسانِ عن السَّعيِ لِتحقيقـهِ إلى مُحاسبتهِ وإلى معقابتهِ من قبلِ خالقهِ عزَّ وجلّ. ولقد دعَّمتُ هذه الحقيقةَ من خلالِ ما سردتُهُ من قصَصِ الأقوامِ الخالية، والمصائر الّـتي آلتْ إليها تلكَ الأقوامُ في نهايةِ المطاف وهو الدّليلُ الّذي سمَّيتُهُ (مَنطق تاريخِ الأممِ الغابرة).

كذلكَ وَضَّحتُ كيفَ أنَّ اللّهَ الخالقَ قد خلقَ هذا الإنسـانَ حُرَّ الإرادةِ والتَّفكيرِ والاعتقاد وذلكَ وفقَ مُعطيات آيـات كتابـهِ العزيز. وأنَّهُ تعالى لم يأمر أحداً من رُسُلهِ الكرامِ أن يقوموا بـإكراه الإنسان في مَحالِ الدّين. ودعَّمتُ هذه الحقيقةَ بدليلٍ من قصَّـةِ آدم عليه السلام ومن موقفِ اللّهِ تعالى فيها من إبليسَ اللّعـين. كذلـكَ دعَّمتُ هذا الحقيقةَ من خلالِ تحديدِ اللّهِ تعالى لأُطُـرِ صلاحيّـات ومسؤوليّاتِ رسلِهِ وأنبيائهِ الكِرام. بالإضافـةِ إلى أنَّ دعَّمتُـها ممّـا تضمَّنتهُ تعاليمُ القرآن الكريم التّي أكّدتْ جميعُـها أن (لا إكـراهَ في الدّين).

وأخيراً ألقيتُ الضَّوءَ على ما يثبتُ منهُ وحدانيَّةُ اللّـهِ جـلَّ شأنهُ في كُلِّ ما جرى لِتطويرِ عقلِ هذا الإنسانِ ولتهذيبه من بعد بعثةِ آدمَ عليه السّلام. ومن ثمَّ عدّدتُ تلك الشرائعَ المُترلة من قِبـلِ اللّـهِ

الرحمان. فبيَّنتُ أنَّها كانت أربعُ شرائع كُبرى نبَّهتْ أذهاننا إليها سورةُ (التّين).

وتعرَّضتُ لموضوعِ تعدُّد الدَّيانات، فوضَّحتُ أسبابَ تعدُّدها وشبَّهتُ تلكَ الأديانُ بالجداولِ الَّتي صبَّتْ في نهرِ الإسلامِ العظيم.

ونبَّهتُ ذهنَ القارئِ آخرَ المطافِ إلى أنَّ المقصدَ الأسمى من إنزالِ اللّهِ تعالى لشرائعهِ، فقدَ كانَ لِتطويرِ عقلِ هذا الإنسان ولِتقويمِ مُحاكَمتهُ للأمور، ولِتهذيبِ طباعه. وليسَ لِيقيمَ حضاراتٍ وليشيدَ صروحاً.

فهل تراني يا عزيزي القارئ قد أفلحتُ فيما أفدتُكَ بهِ في هذا الكتابِ من معلومات حولَ خلقِ الإنسانِ وتطوُّرهِ، وفيما سعيتُ إليه ؟؟؟ وآخرُ دعوانا أن الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين.

تمّت

المراجع

- الطّبري .
- ابن كثير .
- التفسّير الكبير للإمام الرّازي .
- العهد القديم التّوراتي .
- الإنسان ذلك الكائن الفريد – جون لويس .
- الإنسان ذلك المجهول – ألكسيس كاريل .
- التطّور ونشأة الحياة على الأرض – د. بشير الزالق .
- تاريخ اللّغات السّامية أ.و. لفنسون .
- مقارنة الأديان – اليهوديّة – د.أحمد شلبي .
- بنو الإنسان – بيتر فارب .
- العلم في منظوره الجديد – روبرت م.أغروس وجورج ن.ستانسيو
- أوهام الماديّة الجدليّة – د.محمد سعيد رمضان البوطي.
- ديانات العصر الحجري الجديث – جاك كوفان .
- سقوط نظريات داروν – ماهر خليل .
- أصل الإنسان – د.موريس بوكاي .
- العلم تبرّأ من نظريّة داروν – زياد أبو غنيمة .
- حضارات العصر الحجريّ القديم – فرنسيس أور .
- كيف اصبح الإنسان عملاقاً – م.ايلين – إ.سيغال .
- الداروνيّة كما تُرى اليوم – مجموعة من المؤلّفين .
- خلق لا تطوّر – فريق من العلماء .
- فقه اللّغة وخصائص العربيّة – محمد المبارك .

الفهـــرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرّابع

الفصل السابع

الباب الثـــالث

الفصل الأول

الفصل الثاني

هـذا الكتـاب

- من مساوئ التوراة المحرفة المعاصرة أنّ كاتبها قد أوهم الناس بأن آدم كان أول مخلوق إنسان وأن زوجته حواء خلقت من ضلعه. لقد شوهت هذه الأسطورة التوراتية معالم ما أنبأنا الله تعالى به عن آدم عليه السلام في القرآن الكريم واختلط من جراء ذلك الحابل بالنابل. إلى أن قام علماء المستحاثات منذ منتصف القرن التاسع عشر ومتأثرين هم أيضاً بالنظرية الداروينية التي تصوّر أن المخلوقات قد نشأت بعضها من بعض بما فيها الإنسان. أي أن الأسطورة التوراتية المشار إليها، وأنّ النظرية الداروينية تلعبان دوراً رئيسياً فيما يعرفه الناس المعاصرون حول نشوء الإنسان وتطوره. ممّا ولّد في العالم المعاصر تيّاران فكريان في هذا الموضوع الشائك. وكل أصحاب رأي يستميت في الدفاع عن رأيه.
وان هذا المفكر القدير الذي حاول حتى الآن التّحرر من كلّ موروث من جهة كما حاول العودة إلى كتاب الله القرآن كمرجع أساسي لكل عقيدة إسلامية من جهة أخرى قد قام مشكوراً بدراسة المعطيات العلمية التي توصل إليها أصحاب علم المستحاثات وبشكل موضوعي حمل إشارات الرضى التام من قبل أصحاب ذلك العلم. وقد قام المفكر العربي سليم الجابي بإعادة النظر بمعطيات الآيات القرآنية التي تعرضت لقصة آدم وبشكل أصولي. وقد توصل إلى نتائج مدهشة وجديدة تقدم تصوراً محايداً قد يفضي إلى حسم الصراع الفكري الذي خلفته التوراة المعاصرة والنظرية الداروينية ويعزز المكانة العلمية والفكرية لمؤلفاته العديدة التي تفخر بها المكتبة العربية.

صدر للمؤلف

- الرد على القراءة المعاصرة (٣ أجزاء)
- نظرية جذور الأخلاق
- القضاء والقدر نظرية كونية ثابتة
- النظرية الكونية حول خلق العالم
- الرأي حول المرأة والحرية والتراث
- فن الاختزال القرآني (المقطعات)
- في ظلال سورة الكهف
- في ظلال سورة الاسراء
- هل مات المسيح على الصليب؟
- الصوم في الإسلام
- الله جل جلاله

عنوان مؤلفات المفكر سليم الجابي على شبكة الانترنت
http://www.syrianables.com/saleem.htm

Cover Design: Dr. Mhd. Naeim al Jabi